دراسات في تاريخ العرب الحديث



تأليف

د. عبد الكريم رافق

مدرس تاريخ العرب الحديث
في كلية الآداب بجامعة دمشق

الطبعة الأولى

دمشق ـ ١٩٦٧

الفصل الأول

نهايـة السلطنة المملوكيـة

القصد من هذا الفصل ليس دراسة السلطنة المملوكية ومؤسساتها بالتفصيل ، اذ ان هذا يخرج عن نطاق دراسة تاريخ العرب الحديث ، وانما هو اعطاء لمحة عامة عن أسباب انحطاط السلطنة المملوكية ، مما مكّن العثمانيين من احتلال سورية ومصر • ولفهم أسباب هـذا الانحطاط ومظاهره ، يجب بالضرورة دراسة تنظيم الجيش المملوكي ، اذ ان تاريخ هذا الجيش هو تاريخ السلطنة المملوكية • ورغم أن استخدام المماليك في الجيش العربي قد بدأ بشكل ملحوظ منذ خلافة المعتصم في منتصف القرن التاسع الميلادي ، ودام حتى حوالي منتصف الربع الأول من القرن التاسع عشر حين قضى محمد علي باشا على المماليك في مصر ، الا أن سلطة الجيش المملوكي بلغت ذروتها في عهد السلطنة المملوكية • ولمعرفة تنظيم جيش المماليك ، لابدّ لنا من التمهيد بلمحة عن كيفية الحصول على المماليك وادخالهم الجيش ، في السلطنة المملوكية •

الحصول على المماليك وتجنيدهم • ـ يدعى الشخص الذي يأتي بالمماليك بالتاجر ، وغالبية هؤلاء التجار كانوا من الاغراب ، كالفرس مثلا ، وبعضهم من المماليك ؟ ويحمل واحدهم لقب خواجه • ولايذكر عادة اسم التاجر الا اذا أتى بمماليك اشتهروا ، ومن هنا صعوبة معرفة أصل كل تاجر • الا أن التجار الذين أتوا بالمماليك للسلطان ، توجد عنهم في المصادر معلومات أكثر مما يوجد عن التجار الذين عملوا لحساب الأمراء أو لحسابهم الخاص •

وكان يؤتى بالمماليك ، في الفترة الاولى من السلطنة المملوكية ، من منطقة القبجاق (منطقة السهوب في جنوبي روسيا Golden Horde) بصورة رئيسية ، ثم أصبح يؤتى ببعضهم بالتدريج ، وبغالبيتهم بصورة رئيسية بعد ذلك ، وبخاصة منذ ١٣٨٢ ، حين تولى السلطنة برقوق الشركسي الاصل (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨) ، من منطقة القفقاس • وتعزى أسباب هذا التحول في جلب المماليك من منطقة القبجاق الى منطقة القفقاس ، الى حروب داخلية بين أمراء القبجاق والى غزوة تيمور لهم ، فتناقص عددهم وأفقرت بلادهم • كما أن كثرة استيراد المماليك اليافعين ، بشكل مستمر ، الى السلطنة المملوكية ، أنقص عدد هذا العنصر الفعال من السكان • يضاف الى ذلك أن النساء ، وقد زادت نسبتهن ، سرعان ما لحقن بالرجال الى السلطنة المملوكية ، وهكذا انتقلت بالتدريج أسر بكاملها • وزاد في الأمر رغبة السلاطين الحاكمين من الشراكسة في الاقتصار على المماليك من أبناء جنسهم لتدعيم سلطتهم •

يباع المماليك في أسواق خاصه ، تسمى اسواق العبيد • ويهمنا هنا ، بالدرجة الاولى ، المماليك الذين يشتريهم السلطان • فقد كان يستخدم أموال بيت المال لشرائهم ، ومن ثم يدخلهم مدارس خاصة لتعليمهم فنون القتال وتعاليم الدين ، ويعرفون آنذاك بالكتابيَّة (من كتَّاب) ، وبعدها يعتقهم ، فيعرف هو بالمعتق أو الاستاذ ، ويعرف المملوك بالعتيق أو المعتوق ، ويتم اعتاقه بموجب وثيقة تسمى اعتاقة ، ويعين في الوظائف المناسبة له ، ويلتحق غالبية المتخرجين بالجيش • أما المماليك الذين يشتريهم الامراء فيدخلون مدارس أقل تنظيماً من مدارس السلطان • واذا لم يخدم المملوك لسبب ما عند أستاذه ، بل خدم عند شخص آخر ، فهذا الشخص يسمى مخدوم ويسمى المملوك مستخدم • ويعطى المملوك العتيق اقطاعاً ليعيش منه ، وحصاناً وملابس عسكرية فيصبح جندياً ويترقى فيما بعد حتى يصبح أحياناً سلطاناً • ويعطى ، الى جانب ذلك ، مرتباً شهرياً يسمى

جاماكية ، ويمنح أيضاً مايسمى بالنفقة ، وهي مدفوعات غير منتظمة تدفع في مناسبات مختلفة ، قبيل الحملات مثلا ، أو ليكسب السلطان عطف مماليكه في ظروف الشدة ، أو حين يعتلي الحكم سلطان جديد ، وتسمى في هذه الحالة نفقة البيعة . كما توزع على المملوك الكسوة مرة كل سنة ، ويعطى اللحم والعليق وغير ذلك .

الجيش المملوكي[1] . ـ ويقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية :

أ ـ المماليك السلطانية . ـ ويتألف هؤلاء من : مماليك السلطان الحاكم ومماليك السلاطين السابقين (المتقدمة) ومماليك الامراء السابقين.

عرف مماليك السلطان الحاكم بأسماء مختلفة أشهرها : مشتروات ، جلبان أو اجلاب . والسلطان الحاكم هو الذي اشترى هؤلاء المماليك وأعتقهم . وعلى هذا وجدت رابطة قوية بين هؤلاء المماليك واستاذهم . وبالمقابل وجدت رابطة قوية ، عرفت بالخشداشية ، بين المماليك الذين اشتروا ودرسوا وأعتقوا سوية . وكان السلطان يختار عادة من بين مشترواته حرسه الخاص المعروف بالخاصاكية ، ويعين منهم حكام بلاد الشام ويمنحهم اقطاعات كبيرة . وطالما أن السلطنة قوية عسكرياً واقتصادياً وطالما أن السلطان الحاكم بدون منافسين أقوياء ، كانت رابطة الخشداشية عنصر قوة وأساس منافسة بناءة . ولكن حين ضعفت السلطنة بسلاطينها وبتدريبها العسكري وباقتصادها تحولت رابطة الخشداشية الى عنصر اضعاف للجيش ، وأصبحت كل كتلة تتراص على نفسها ضد كتلة أخرى . وأصبح المشتروات ، بعد أن كانوا في طليعة المدافعين عن النظام ، أول من هتك النظام مؤيدين باستاذهم ، السلطان ، المكره على دعمهم ، لينال تأييدهم له .

---

١ ـ انظر الدراسة الدقيقة التي قام بها :

D. Ayalon, « Studies on the structure of the Mamluk Army» - I,II,III, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, (BSOAS), Vols.XV.2 (1953), pp. 203 - 228; XV. 3 (1953), pp. 448 - 476 ; XVI. 1 (1954), pp. 57-90.

أما مماليك السلاطين السابقين فهم مماليك تابعون لسلطان حاكم ، وكانوا قبلا مشتروات السلاطين السابقين ، وسموا الآن قرانص أو قرانصة. ويتألف هؤلاء من طوائف مختلفة كانت كل منها تتبع سلطاناً • ونظراً لكثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدد حكمهم ، خاصة في عهد المماليك الشراكسة ، تزايد عدد هذه الطوائف ، وازدادت بالتالي المنافسة بينهم • وكان هذا عنصر اضعاف لهم أمام مشتروات السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة • واستغل السلطان الحاكم كثرة طوائفهم لضرب طائفة بأخرى • والرابطة الوحيدة التي كانت تجمع بين القرانصة هي كرههم للمشتروات الذين هم أصغر منهم سناً وأقل خبرة ، ومع ذلك يريدون أن يطغوا بنفوذهم عليهم •

شكل مماليك الأمراء السابقين الفئة الثالثة بين المماليك السلطانية ، وهم مماليك أمراء توفوا أو عزلوا ، فنقلت خدمتهم الى السلطان الحاكم وخلفائه ، وعرفوا آنئذ بالسيفية • وكانوا يتألفون من طوائف متعددة ، نظراً لتعدد الأمراء ، تشعر الواحدة منها بأنها غريبة عن الاخرى ، وهم بمجموعهم غرباء عن المشتروات والسلطان ، والى حد كبير ، عن القرانصة • وكانوا ضعفاء سياسياً بالنسبة للفريقين الآخرين ، وغالباً ما تعاونوا مع القرانصة ، ضد المشتروات لتحسين أوضاعهم • وقد حدث بنتيجة الطواعين المتكررة في القرن الخامس عشر ان كانت اصابات المشتروات ، الحديثي العهد في مصر وبالتالي القليلي المناعة ، كبيرة بالنسبة للقرانصة والسيفية ، بسبب تعرض هؤلاء ، وهم عادة أكبر سناً وتأقلموا في مناخ مصر ، لطواعين سابقة أكسبتهم مناعة ضدها • ولكي يعدل السلطان ومشترواته من رجحان كفة القرانصة والسيفية ، نتيجة لذلك ، عمد الى اضعاف هاتين الطائفتين[١] • وكان السلطان يحرص ألا يزج

---

١ ـ انظر، حول أثر الطاعون :

D. Ayalon, « The Plague and its effects upon the Mamluk army », Journal of the Royal Asiatic Society, (JRAS), April, 1946, pp. 67-73.

بمشترواته في الاخطار ، لتوفيرهم على حمايته من ناحية ، ولمعارضتهم أصلا ، لذلك ، من ناحية أخرى • ويذكر أحمد بن زنبل ، الذي عاصر نهاية السلطنة المملوكية ، عن عدد مشتروات السلطان المملوكي قانصوه الغوري وعن سياسته تجاه الطوائف العسكرية المختلفة في معركة مرج دابق ما يلي : " ••• كانت الجلبان ثلاثة عشر الف مملوك كلهم مشتروات الغوري ••• وكان قصده أن ينشيء له عسكراً من مماليكه مشتروات ويقطع القرانصة وهم مماليك الملوك الذين قبله وكان يحسب حسابهم خوفاً من أن يمكروا به كما فعلوا بمن قبله »[1] • ويذكر ابن زنبل في وصف معركة مرج دابق ان « جلبان السلطان الذين هم مشترواته لم يتحركوا من مواضعهم وسبب ذلك ••• أن الغوري أمر بأن أول من يخرج للحرب القرانص لكون أنهم أعرف بالحرب من الجلبان وكان قصده أن تنقطع القرانصة ليكتفي شرهم خوفاً من مكرهم ••• فقدمهم للحرب وأخر جلبانه فعلموا مكره فتغيرت نياتهم »[2] •

٢ ـ مماليك الامراء • ـ حُدد عدد المماليك الذين يحق للأمير أن يلحقهم بخدمته ، ويتوقف ذلك على رتبته • ولايحق للأمير أن يطرد المملوك من خدمته الا بعد أن ينال موافقة نائب السلطنة • وكان مماليك الأمراء يتسلمون مرتباتهم ووثائق اقطاعاتهم من الأمير نفسه • وحين يتوفى الأمير أو يعزل ينتقل مماليكه الى خدمة السلطان أو الى أمراء آخرين أو يوزعون بين الفريقين •

---

١ ـ انظر مخطوط تاريخ مصر لأحمد بن زنبل الرمال ،في المكتبةالوطنية في ميونيخ بالمانيا ، برقم Cod. Arab. 411 (تاريخ كتابة هذه النسخة ١٤ جمادى الاول ١٠٣٤) ، انظر الأوراق . ١٤ ب ـ ١٥ آ : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي ابن زنبل (Munich, 411) ، وذلك لتمييزه عن نسخ أخرى لهذا المخطوط موجودة في نفس المكتبة وأرقامها هي : Cod Arab. 413 (تاريخ كتابة هذه النسخة ٢٨ جمادى الثاني ١٠٨١) ثم Cod. Arab. 414 (تاريخ كتابة هذه النسخة ٢٣ جمادى الثاني ١٠٨١) ، والنسخة الأخيرة تشبه تماماً التي قبلها وتتميز بخطها الدقيق ولذلك سنعتمد النسخة رقم (Cod. Arab. 413) حيث يفيد استعمالها

٢ ـ ابن زنبل ، (Munich, 411) ، ١٧ آ ـ ١٧ ب ،

كان مماليك الامراء أدنى مكانة من مماليك السلطان وأقل تدريباً منهم ، ولم يمارسوا نفوذاً سياسياً كبيراً في المجتمع نظراً لذلك • وقد تناقصت أعدادهم بالتدريج في عهد السلطنة المملوكية ، ومرد ذلك ضعف الحالة الاقتصادية ، وازدياد ضعف الامراء تجاه المشتروات ، وأهم من ذلك خشية السلاطين ، في فترة ضعف سلطتهم ، من ازدياد عدد مماليك الامراء واستغلال هؤلاء ذلك للثورة عليهم •

٣ ـ أجناد الحلقة • ـ استخدم هذا التعبير في عهد صلاح الدين الايوبي ، واختلف حول معناه ، فمن قائل أن هؤلاء الاجناد سموا بذلك لاحاطتهم بالسلطان وتأليفهم حرسه ، ومن قائل بأن الاسم مشتق من تكتيك عسكري استعملته الاقوام التركية في الهجوم وذلك بالاحاطة بالعدو على شكل حلقة •

وبازدياد الاعتماد على المماليك في الجيش تضاءل نفوذ أجناد الحلقة نظراً لانهم كانوا من غير المماليك ، ويضمون عادة اما أبناء المماليك أو أفراداً من السكان المحليين • وبازدياد نفوذ المماليك استولوا على الاقطاعات التي شغرت لدى أجناد الحلقة ، مما زاد في ضعف هؤلاء • ومن أسباب انحطاط أجناد الحلقة عدم وجود فكرة الخشداشية بينهم •

ووجدت ضمن الحلقة وحدة متميزة من الجنود يدعى أفرادها أولاد الناس ، ويتألفون من أبناء المماليك ، الذين ولدوا مسلمين • وكان أولاد السلاطين من ضمن أولاد الناس ، ويسمون الاسياد أو أولاد الملوك • ولم تكن لهؤلاء أهمية كبيرة نظراً لكثرة تعاقب السلاطين على الحكم ، وعدم توارث السلطنة من حيث المبدأ • وبانحطاط الحلقة انحط معها أولاد الناس ، وانتسب اليها كثير من التجار والصناع للافادة من امتيازاتها ، ولم يقوموا عملياً بأي نشاط عسكري •

أسباب انحطاط السلطنة المملوكية • – يعود انحطاط السلطنة المملوكية الى عوامل مختلفة ، أهمها العامل العسكري والعامل الاقتصادي •

١ – العامل العسكري • – عرف عن النظام المملوكي في مختلف عهوده بأن قواعده الرئيسية هي فترة كافية من التدريب يقوم بها المملوك في المدرسة ، وطاعة لاستاذه ، وتمسك برابطة الخشداشية • ولكن المماليك الشراكسة ، أكثر من سابقيهم ، لم يتقيدوا بهذه القواعد ؛ فمدة الدراسة في المدرسة تناقصت بالتدريج ، كما أن كثيراً من أقرباء المماليك الشراكسة دخلوا الجيش المملوكي ووصلوا مراكز هامة فيه ، دون أن يتدربوا في المدارس الخاصة بذلك •

وبانحلال النظام المملوكي زادت الأخطار التي هددت السلطان • وظهرت في هذه الفترة مساوىء عدم وجود نظام وراثي في السلطنة ، فكان السلطان يحاول توطيد نفوذه بالاعتماد على مشترواته ، ومن هنا شدة معاداته لمماليك أسلافه • وزاد في الأمر ، في فترة الشراكسة ، أن قصر عهد السلاطين ، بسبب الثورات عليهم والطمع في حكمهم ، قد أدى الى ايجاد كتل متعددة من المماليك القرانصة ، وبالتالي كثر التعدد في الولاء • وقد شجع على هذا الانحلال العسكري أن دولة المماليك منذ حربها مع تيمور في مطلع القرن الخامس عشر وحتى معركة مرج دابق مع العثمانيين في ١٥١٦ لم تدخل في حرب كبرى • ويذكر أن السلطان سليماً الاول وجد ، حين احتل دمشق ، الدكاكين والبيوت تحيط بالقلعة وبالسور ، مما يدل أن دمشق ، لفترة طويلة قبل احتلاله لها ، لم تتعرض لخطر عظيم ، وبالتالي لم تكن هناك من حاجة لهدم هذه البيوت والدكاكين ، التي غالباً ما استخدمها المماليك لسكناهم وأسرهم ، ولتجارتهم[١] •

---

١ – انظر : محمد بن طولون في كتابه التالي ، الذي هو عبارة عن قطعة من مخطوط والمنشور بنصه العربي مع ترجمة المانية تحت عنوان :

Das Tübinger Fragment der Chronic des Ibn Tulun, ed. R. Hartmann, Berlin, 1926, p. 128 : Das Tübinger سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

ومن أسباب ضعف المماليك العسكري تناقص عددهم في أواخر عهد السلطنة المملوكية•ويعود ذلك الى التناقص المتزايد في سكان البلاد التي كان يؤتى منها بالمماليك ، اذ ان الاتيان بالعناصر الشابة من هذه المناطق قد أضيف اليه الآن ، في فترة تسلط الشراكسة ، مجيء عناصر أخرى من مختلف الأعمار[1] ، وهذا بدوره أضعف المماليك في البلد الاصلي مما أغرى جيرانهم على محاربتهم • ويرجع تناقص المماليك في مصر ، من جهة أخرى ، الى تكرار حدوث الطواعين فيها ، خاصة في القرن الخامس عشر • وقد أحصي عدد الطواعين التي حدثت في مصر في الفترة بين ٨١٩ و ٩١٩ هـ فبلغ أربعة عشر طاعوناً[2]• وعدا عن الاصابات الشديدة التي سببتها هذه الطواعين بين المشتروات بصورة خاصة لاسباب سبق ذكرها ، فقد نتج عن الطواعين اضطراب في الاقطاعات وبالتالي ارتباك في اقتصاد مصر ، لانه حين يتوفى المملوك ، وأغلب من طعنوا كانوا من المشتروات المتنفذين أصحاب الاقطاعات الكبرى ، تنتقل ملكية الاقطاع الى مملوك آخر •

ولعل أهم سبب أدى الى ضعف المماليك العسكري هو اهمالهم تمارينهم التقليدية في الفروسية ، وكرههم استخدام الاسلحة النارية • ويعود انحطاط تمارين الفروسية في الفترة الشركسية الى عوامل داخلية أدت الى انهيار الجيش المملوكي ، وبالتالي الى تقويض السلطنة المملوكيه • وينعكس هذا الانحطاط في التهديم الذي أصاب الميادين التي كانت تستخدم لتمارين الفروسية•وحين حاول السلطان قانصوه الغوري ،قبيل سقوط السلطنة المملوكية بسنوات ، انعاش تمارين الفروسية ، ازاء الاخطار المحدقة ، كان من ذلك أن حوَّل مجهودات الدولة عن تطوير استخدام الاسلحة النارية ،

---

١ ـ انظر مثلا : محمد بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، في جزئين ـ نشرهما محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ و ١٩٦٤ ، الجزء الاول ص ٣١٧ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : مفاكهة الخلان

٢ ـ انظر مثلا حول طاعون سنة ٩١٩ هـ ، محمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ثلاثة أجزاء ، بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ ؛ وهناك جزء رابع ، حققه محمد مصطفى ، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠ ، انظر الجزء الرابع ، ص ٣٠١ و ٣٠٦ ـ ٣٠٨ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ابن اياس •

وزاد من احترام المماليك لتمارين الفروسية • ولم تفد محاولته شيئاً بسبب أنها أتت متأخرة وبسبب كره المماليك المتأصل للاسلحة النارية •

ان ماضي المملوك كفارس في سهوب القبجاق أو القفقاس ، وعدم ملاءمة ركوب الخيل مع استعمال السلاح الناري ، بالاضافة الى كره المملوك لطبقة العبيد التي سلحها السلاطين بالاسلحة النارية في أواخر عهد السلطنة[1] ، كانت عقبات رئيسية في وجه استخدام المماليك للاسلحة النارية[2] • ويظهر كره المماليك للاسلحة النارية في محادثة جرت بين الأمير الشركسي كرتباي والسلطان سليم الاول العثماني بعد احتلاله مصر• قال كرتباي ، وكان أسيراً ، للسلطان سليم « ••• لو بلي واحد منا بعسكرك لافناه وحده واذا لم تصدق جرب أمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط ••• »[3] • وقال أيضاً : « ••• أنت أتيت لك عساكر من أطراف الدنيا من مصاري ومن روم وغيرهما وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امرأة لقتلت بها كذا كذا انساناً ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد (صلعم) وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف ••• »[4] • ويظهر من هذا اعتداد المملوك بالفروسية وكرهه للبندقية التي استخدمها الافرنج ضد عساكر المسلمين الذين بجهادهم بالسيف انما كانوا ينفذون سنة الرسول الكريم •

ان كره المماليك المتأصل للبندقية لم يمنع تسليح العبيد بها في الجيش المملوكي ولكن في وقت متأخر ، كما لم يمنع استخدام المدفعية في السلطنة المملوكية قبل ذلك بأكثر من قرن • وقد استخدمت بصورة رئيسية

١ ــ انظر : ابن اياس ، ج ٤ ، ص ٤٦

٢ ــ انظر حول ذلك :

D. Ayalon, Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London, 1956, pp. 3 - 24, 46 - 59.

٣ ــ انظر : ابن زنبل (Munich, 411) ، ٤٥ آ •

٤ ــ المصدر السابق ، ٤٦ آ •

لاغراض الدفاع أو الحصار ولكن ليس للهجوم ، لان في ذلك اعاقة لحركة المملوك الفارس • وكانت غالبية المدافع منصوبة على سواحل مصر البحرية ، وخاصة على البحر الاحمر ، لمقاومة غزوات البرتغاليين الناشطين آنذاك • ويعزى الاستخدام المبكر للمدافع في السلطنة المملوكية الى عدم مقاومة المماليك لذلك لاسباب متعددة منها أن معظم الاشخاص الذين استخدموا هذه المدافع كانوا من الخبراء الاجانب ، وهم ، بجانب ذلك ، قلة لاتثير منافسة المماليك ؛ بينما لكي تكون البندقية سلاحاً فعالا يجب استخدامها على نطاق واسع ، ولم يكن هذا ممكناً لان الفرسان المماليك شكلوا غالبية الجيش في السلطنة المملوكية •

وكان الامر على عكس ذلك في الدولة العثمانية التي استخدمت الاسلحة النارية وهي لا تزال فتية ، فبلغت بها ذروة قوتها • وكان اعتمادها ، بشكل متزايد ، على المشاة من الانكشارية في الجيش مساعداً لاستخدام الاسلحة النارية التي لا تتعارض وطبيعة هذا النوع من الجند • كما أنه وجدت لدى العثمانيين المعادن اللازمة لصناعة الاسلحة ، بينما كان على المماليك أن يستوردوها[١] • وهكذا يعتبر استخدام العثمانيين للاسلحة النارية ، بشكل مناسب ، مسؤولا ، لدرجة كبيرة ، عن نجاحهم في معركتي جالديران (١٥١٤) ضد الصفويين ، ومرج دابق (١٥١٦) ضد المماليك • ويقول ابن زنبل في معركة مرج دابق « ••• لولا البندق (الرصاص) ما قدروا (العثمانيون) عليهم (على المماليك) »[٢] • ويقول أيضاً : « ••• عدوا القتلى في مرج دابق بأمر سليمْ فوجدوا قتل من الجراكسة خمساية نفر وأكثرهم بالبندق •• »[٣] • ويقول أيضاً بصدد القتال بين السلطان المملوكي طومان باي والسلطان سليم في مصر « ••• وأما

---

١ ـ انظر : ابن اياس ، ج ٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٨٥ •

٢ ـ ابن زنبل (Munich, 411) ، ٢١ ب ؛ انظر أيضاً : ابن طولون ، Das Tübinger ، ١٣٤ •

٣ ـ ابن زنبل (Munich, 411) ، ٢٣ آ •

السلطان طومان باي فانه لما رجع الى الحرب فلم يجد أحداً من عسكره الا وقد ولى منهزماً من كثرة البندق والزربطانات فلم يستطع أحد منهم أن يقف أمام ذلك ... »[1] .

٢ ـ العامل الاقتصادي . ـ بدأ انهاك الاقتصاد المصري منذ هجوم تيمور على سورية في مطلع القرن الخامس عشر بسبب الدمار الذي أحدثه . وتلا ذلك نقص متكرر في مياه النيل أضر بالزراعة . كما أن كثرة انتشار الطاعون في القرن الخامس عشر والاصابات المميتة التي سببها[2] ، عطلت الفعاليات البشرية ، وشلت بالتالي النشاط الاقتصادي . وكان من اضطراب الحالة السياسية وضعف السلاطين أن عم نظام الحماية[3] ، وهو فرض مبالغ من المال من قبل جماعات متنفذة على الفلاحين بصورة خاصة بحجة حمايتهم . فخضع هؤلاء الآن للتهديد وابتزاز الاموال ، بالاضافة الى ما كان يقوم به البدو من هجمات متكررة عليهم ، وازداد بذلك ارتباك الاقتصاد المصري .

وزاد في انحطاط الاقتصاد المملوكي تحول طرق التجارة ، لفترة ، عن مصر بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وازدياد منافسة البرتغاليين التجارية للمماليك . كما أن ازدياد فرض الضرائب ، من قبل حكام مدن الموانيء الجشعين في مصر ، على القليل من البضائع الاجنبية التي كانت تعبر مصر أو تباع فيها ، جعل التجار الاجانب يمتنعون عن ادخال بضائعهم الى مصر . وفقدت البلاد تبعاً لذلك موارد هامة[4] .

---

١ ـ ابن زنبل (Munich, 411) ، ٤١ آ .

٢ ـ انظر حول ذلك : ابن اياس ، ج ٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

٣ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A. F. 283 انظر الاوراق ١٧ آ ، ١٧ ب . سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : التحفة البهية .

٤ ـ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ١٧ آ .

وقد أثر انحطاط الاقتصاد المملوكي على الوضع السياسي ، وقام الجند بثورات متعددة لعدم تمكن الدولة من دفع رواتبهم أو لمحاولتها انقاصها • كما أن كثرة ما تقاضاه الجند من الخزينة أفقرها بدوره ، وألجأ القائمين عليها الى اصدار نقود مشوهة ، أو الى ايقاف رواتب بعض الجند المضعفين مثل أولاد الناس • وازاء عجز الخزينة هـذا أصبح مألوفاً ، وخاصة وقت الحملات العسكرية ، اللجوء الى فرض الاموال على الاهلين ، وبخاصة على سكان المدن[1] •

١ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ١٦ ب ـ ١٧ ب •

الفصل الثاني

قيام الامبراطورية العثمانية

نشأة الامارة العثمانية • وجدت عدة روايات عن نشأة الدولة العثمانية أشهرها الرواية الرسمية العثمانية التي وضعت في القرن الخامس عشر والتي ظهرت بأشكال مختلفة في كثير من المؤلفات التركية والعربية والغربية[1] منذ بداية القرن السادس عشر • وتذكر الرواية الرسمية أن الدولة العثمانية أسستها قبيلة تركية هاجرت من أواسط آسية الى الاناضول بضغط المغول في مطلع القرن الثالث عشر ، وكان يقودها شخص يسمي سليمان ، وهو والد أرطغرل وجد عثمان الذي سميت الدولة بالنسبة اليه • وتذكر الرواية أن لعثمان هذا اثنان وخمسون جدا ينتهون بنوح ومنهم أوغوز خان ، الذي عرف قومه بالأغز او الغز ، وهي قبائل تركية اشتهرت ببأسها في آسية الغربية في القرن العاشر • وتضيف الرواية أن سليمان كان حاكم ماهان في بلاد المرو ، بين خراسان وتركستان • وقد هرب منها بضغط المغول ويمم شطر بلاد الروم ، أي بلاد البيزنطيين ، ولكنه تحول عنها ، فيما بعد ، باتجاه سورية وغرق في الفرات ، حين كان يجتازه ، قرب قلعة جعبر • ويحرس اليوم المكان الذي دفن فيه والذي يقع ضمن سورية من قبل جنود أتراك •

---

١ ــ انظر مثلا :

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Pelican edition, London, 1963, p. 797.

اذا نظرنا الى هذه الرواية الرسمية ، التي تبناها مؤرخو الدولة العثمانية ، لوجدنا أنها وضعت وشاعت بعد احتلال القسطنطينية ، حين أصبحت الدولة العثمانية قولا وفعلا امبراطورية كبرى . وليس بغريب في التاريخ أن يُنحت أو يُزوَّر ، في كثير من الاحيان ، أصل مجيد ليتفق والحاضر المجيد الذي وصلت اليه دولة أو أسرة ما . والأمثلة كثيرة على ذلك كما سيعرض في مناسبات متأخرة في هذا الكتاب . وأذكر ، على سبيل المثال ، شجرة النسب الواهية التي وضعت بأمر أمير الحاج في مصر رضوان بك الفقاري في حوالي ١٦٣٢ ، حين تعاظم نفوذه ونفوذ المماليك الذين مثّلهم ، فحاول مؤرخه ، بناء على أمره ، أن يربط نسب رضوان بك بقريش ليتلاءم ذلك مع منصبه ، وليتخلص من نسبته المربكة والمعروفة آنذاك في رواية ابن خلدون بأن أصل المماليك الشراكسة من قبيلة غميان المسيحية[1] .

وكمثال على الروايات العربية التي تردد الرواية الرسمية العثمانية وتضيف اليها ، بعامل مرور الزمن ، كثيراً من الاضافات التي تعكس ازدياد قوة العثمانيين ، نورد رواية علي بن حسن الشمالي[2] الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الثامن عشر[3] . يذكر علي هذا[4] أن « أوّل سلاطين آل عثمان السلطان عثمان الغازي بن طغريل بن سليمان شاه تولى في سنة ٦٩٩ في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون صاحب مصر فأقام ٢٦ سنة وتوفي في سنة ٧٢٥ وكان سليمان شاه جده سلطاناً بالمشرق في بلاد ماهان قرب بلخ وأصله من التركمان الرحالة النزالة من طايفة التتار ويتصل نسبه الى يافث بن نوح كذا قاله القطبي ونقل صاحب درر الاثمان أن أصل

---

١ ـ انظر ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

٢ ـ عنوان مؤلفه : نزهة الناظرين فيمن تولى مصر من البشوات والسلاطين ، وهو مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٨٣٧٦ ؛ سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : علي بن حسن الشمالي .

٣ ـ المصدر السابق ، ١١٨ آ .

٤ ـ المصدر السابق ، ١٠٩ ب .

منبع ملوك بني عثمان من صميم غرب الحجاز وزاد جماعة من أهل التاريخ أنهم من المدينة الشريفة والله تعالى أعلم بحقيقة الحال » •

في حين أن الرواية الرسمية العثمانية تكتفي بربط العثمانيين بنوح ، بطريق الأغز أو الغز ، وفي هذا اعتداد عثماني بمحاربين أتراك مشهورين، نجد أن الرواية العربية ، كما ذكرها علي بن حسن الشمالي ، تذكر نسبة العثمانيين الى نوح ولكنها تجعل جد سليمان حاكماً على ماهان • والملاحظ أيضاً أن هذه الرواية تهمل الاعتداد بانحدار العثمانيين من الغز الاشداء فتذكر أن أصل سليمان من التركمان الرحالة النزالة ، وفي هاتين الصفتين الاخيرتين بعض النقد لانهما تجردان التركمان من صفة الاستقرار ومايرتبط بذلك • وربما السبب في اهمال الرواية لذكر الغز هو ارتباط هؤلاء بالوثنية ، ولايعني ذلك النيل من العثمانيين لأن الرواية العربية تضيف ، من التراث العربي الاسلامي ، أمجاداً هامة الى أصل العثمانيين حين تنسبهم الى الاصل العربي والى المدينة الشريفة • ومما لاشك فيه أن علياً بن حسن الشمالي ، الذي كتب عن تاريخ العثمانيين وتاريخ مصر حتى الربع الاول من القرن الثامن عشر ، انما كان يسجل روايات شائعة بين العرب في زمنه ، حول أصل العثمانيين • وتعكس هذه الروايات الرابطة الدينية بين المسلمين العرب والسلطان العثماني ، وأيضاً السمعة العسكرية العريقة التي بناها العثمانيون قبل ذلك والتي بدأوا يخسرونها منذ أواخر القرن السابع عشر • والعبارة التي يذكرها علي بن حسن الشمالي في آخر كلامه ليست مجرد عبارة تقليدية بقدر ماهي تعبير عن حيرته ، كمؤرخ ، ازاء تناقض الروايات • واذا كان من شيء ثابت تاريخياً في هذه الرواية فهو لقب الغازي الذي يظهر بجانب اسم السلطان عثمان

لقد تصدى للرواية الرسمية في أصل العثمانيين المؤرخ المشهور (P. Wittek) ، صاحب الابحاث الفريدة في أصل العثمانيين ، فنقض هذه الرواية وذكر أن سليمان هذا شخصية خرافية وأن اسمه وذهابه الى بلاد الروم استعيرا من رواية حقيقية عرفت آنذاك عن احتلال التركمان الغزاة

لآسية الصغرى في القرن الحادي عشر وارتباط ذلك باسم الامير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي أرسلة السلاجقة الحاكمون في بغداد ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، لينظم فتوحات هؤلاء الغزاة فتمركز في نيقية • ثم عاد ، بعد احتلالها من قبل الصليبين في ١٠٩٧ ، باتجاه بغداد بقصد احتلالها من أقربائه السلاجقة ، فقتل في طريق عودته • وغرق ابنه ، قليج ارسلان ، في الخابور وهو يقوم بالمحاولة نفسها من بعده • أما ربط سليمان بمدينة ماهان فيبدو أن الهدف من وراء ذلك اسباغ شهرة ذلك المكان عليه لأن فيه ولد أبو مسلم الخراساني[١] •

ويتبين من المصادر التركية ذاتها ومن المصادر العربية التي عاصرت نشأة العثمانيين أن هؤلاء نشأوا كغزاة • فما هو أصل هؤلاء الغزاة وماهي مهماتهم ؟

منذ احتلال العرب لسورية نشأ في منطقة الحدود بينهم وبين البيزنطيين في آسية الصغرى ، ما عُرف بالثغور • وقد قامت في هذه المنطقة ، على الجانبين ، منظمات عسكرية لحماية الحدود عُرفت في الجانب العربي باسم الغزاة ، وفي الجانب البيزنطي باسم اكريتوي (Akritoi) . وتميز الغزاة بحماس ديني وبتنظيم خاص ، كحراس للحدود ، وبتعدد القوميات والبدع الدينية والطرق الصوفية بينهم • وكانت القبائل ، التي تنفر من السكن بجانب المدن وتكره الخضوع للسلطة المركزية ، تهرع الى مناطق الحدود ، شأنها في ذلك شأن أصحاب البدع والطرق الصوفية المضطهدين من السلطات الدينية في مراكز المدن الذين كانوا يلجأون الى مناطق الحدود هرباً من هذه السلطات وطمعاً بحرية ممارسة معتقداتهم[٢] •

---

١ ــ انظر :

Paul Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938, pp. 6 - 15 .

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : The Rise of the O.E.

٢ ــ انظر المصدر السابق ص ١٦ ــ ١٩ ، انظر أيضاً :

Paul Wittek, « Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum » Byzantion, t. XI (1936), pp. 290 - 292 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي « Deux Chapitres »

ولم يقتصر الغزاة على هذه المناطق في آسية الصغرى بل ان حدود المناطق الاسلامية في شرقي آسية كانت تحرس من قبل غزاة لصد أعداء الدين • وقد اتخذ أمراء سورية من العرب المسلمين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لقب الغزاة لمقاومتهم الصليبيين

قوي شأن الغزاة في آسية الصغرى في القرن الحادي عشر ، وساد بينهم العنصر التركي بسبب وصول قبائل تركية اليها اثر قيام السلطنة السلجوقية في العراق • وكلما ازداد عدد الغزاة ، كلما ازداد ضغطهم على المناطق البيزنطية • وكانت هذه المناطق تعاني آنذاك من سياسة الاباطرة البيزنطيين المركزية ومن شدة الضرائب التي فرضوها ، خاصة وأن قسماً كبيراً من سكان الحدود في الطرف البيزنطي كانوا من الاقليات القومية ، وأغلبهم من الأرمن[1] • وكان نظام الاقطاع الجائر يباعد بين فلاحي الاناضول البيزنطيين وبين سادتهم القلائل من الاقطاعيين •

أدت هجمات الغزاة المتزايدة على المناطق البيزنطية ، وحماية سلطات بغداد السلجوقية لهؤلاء الغزاة ، الى معركة حاسمة بين السلطان السلجوقي ألب ارسلان والامبراطور البيزنطي رومان الرابع ديوجين (Romain IV Diogène) في منزيكرت (تذكر أيضاً ملاذكرد) في صيف عام ١٠٧١ ، وقد هزم بنتيجتها البيزنطيون وأسر الامبراطور • ولم يتابع ألب أرسلان توغله واحتلاله للاناضول اثر ذلك لأن هدفه الاول آنذاك كان انتزاع سورية ومصر من الخلفاء الفاطميين ، ولهذا أطلق سراح الامبراطور الاسير بعد أن وقع معه معاهدة ، وعاد الى بلاده لاستكمال استعداداته ضد الفاطميين[2] •

---

١ ـ انظر :

Wittek, The Rise of the O.E., p. 19, « Deux Chapitres ». pp. 293-294.

٢ ـ انظر

Claude Cahen, « La Campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes » Byzantion, t. IX (1934), pp. 624 - 638.

كان لمعركة منزيكرت نتائج بعيدة الاهمية ، فانتصار ألب ارسلان فتح ثغرة في مناطق الحدود ، كما أنه زاد في حماس الغزاة الذين اندفعوا الآن الى داخل الاراضي البيزنطية دون أن يلاقوا مقاومة كبيرة اذ ان سكان الحدود البيزنطيين ، وقد أرهقوا بسياسة الاباطرة المركزية وفرضهم الضرائب المتزايدة ، لم يتحمسوا للدفاع ضد الغزاة • وقد قامت اثر ذلك عدة ثورات في مناطق الحدود البيزنطية ضد الادارة المركزية • وتشكلت امارة أرمنية مستقلة في منطقة طوروس ـ كيليكية عرفت فيما بعد بأرمينية الصغرى •

تجمع الغزاة ، اثر معركة منزيكرت ، حول اسرة متنفذة من بينهم عرفت بالدانشماند ، برزت في ملاطية ، واستطاعت أن تؤسس أول امارة غزاة في منطقة سيواس[1] • وقد رأينا كيف أن السلطنة السلجوقية في بغداد لم تعط الاولوية في سياستها لفتح الاناضول ، ولكنها ازاء تغلغل الغزاة هذا في آسية الصغرى وانشائهم أول امارة لهم فيها ، أخذت بالتدخل لفرض نفوذها ، فأرسلت أميراً من الاسرة الحاكمة الى آسية الصغرى يدعى سليمان بن قتلمش • وكان والد سليمان قد ثار على السلطنة السلجوقية وقتل مما يدعو الى الاستنتاج أن السلطنة الآن كانت تهدف أيضاً من ارساله ابعاده والتخلص منه • ومما يؤكد هذا أن سليمان حاول بعد قليل العودة على رأس جيش لطرد سلاجقة بغداد فقتل في طريق عودته ، وغرق ابنه قليج ارسلان وهو يقوم بالمحاولة نفسها • وأدرك خلفاؤهما عقم مثل هذه المحاولات فاكتفوا بالحكم في آسية الصغرى ، وجعلوا عاصمتهم قونية وعرفوا بسلاجقة الروم •

---

١ ـ انظر :

Wittek, The Rise of the O.E., pp. 19-20, « Deux Chapitres », 295, « Le Sultan de Rum », Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Mélanges Emile Boisacq, t. VI (1938), pp. 363 - 364 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : « Le Sultan de Rum »

وبدأ الصراع بعد ذلك في آسية الصغرى بين سلاجقة قونية الذين مثلوا القوى التقليدية المنظمة الاسلامية والذين هرع اليهم العلماء المنظمون من داخل العالم الاسلامي ، وبين امارة الدانشمند التي مثلت الغزاة وبالتالي عدم الاستقرار • واعتماد هذه الامارة على الغزو ـ أساس وجودها ـ صرفها عن ايجاد تنظيم سياسي كدولة ، وكان هذا من أسباب انهيارها السريع • وبعد أن تقوى الاباطرة البيزنطيون بوصول الصليبيين حُدَّ مجال الغزو أمام الدانشمند والغزاة الآخرين فانكفأ أفراد أسرة الدانشمند يتنازعون على السلطة فيما بينهم ، واستغل ذلك سلاجقة قونية للقضاء على امارتهم ، وتم لهم ذلك في سنة ١١٨٠[١] •

وتتميز الفترة بين سقوط امارة الدانشمند واحتلال الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية في سنة ١٢٠٤ بقيام توازن في القوى بين سلاجقة الروم والبيزنطيين ، وبزوال الاصطدامات المسلحة بين الطرفين • ويعزى هذا التطور في العلاقات الى أسباب متعددة منها زوال امارة الدانشمند التي كانت عنصر عدم استقرار لقدرتها على اثارة الاضطرابات ولاستغلال كل من الطرفين لها • كما أنه قامت الآن بين الدولتين منطقة حدود جديدة تقع في المنطقة المرتفعة التي تفصل المناطق الساحلية الممتدة بين البونت وكيليكية عن الداخل ، وأصبحت هذه المنطقة ملجأ جديداً للغزاة في الطرفين ، أشبه بما كان عليه الوضع في منطقة الحدود عند طوروس والفرات • وساعد في هدوء الحالة ما عانته الامبراطورية البيزنطية من اضطرابات أحدثتها منافسات أفراد الاسرة الحاكمة ومحاولات الاقطاعيين البيزنطيين تقوية أنفسهم • ولم يكن سلاجقة الروم بأحسن حالا بسبب ما عانوه آنذاك من انقسامات داخلية في صفوفهم زاد من شدتها التهاء البيزنطيين بخلافاتهم وتحولهم عنهم • وتعود أصول هذه الانقسامات بين سلاجقة الروم الى ازدياد

---

١ ـ انظر حول هذا :

Wittek, The Rise of the O.E., 21 - 23, « Deux Chapitres », 296 - 297, « Le Sultan de Rum », 366 - 368.

رقعة دولتهم مما أغرى حكام المناطق من أمراء سلاجقة الروم على الاستقلال بمناطقهم عن مركز قونية • وقد اضطر سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الاول أن يلتجيء الى القسطنطينية • ونجح أحد اخوته المسمى ركن الدين في اعادة وحدة السلطنة في ١٢٠٤م •

ازداد تحسن العلاقات بين سلاجقة الروم وأباطرة بيزنطة في الفترة بين ١٢٠٤ و ١٢٤٣ وهي السنة التي أخضع فيها المغول سلطنة قونية السلجوقية • ففي سنة ١٢٠٤ توفي ركن الدين حاكم قونية ، واستطاع كيخسرو اللاجيء أن يستعيد حكمه في العام التالي بمساعدة البيزنطيين • وكان من احتلال الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية أن نقل أباطرة بيزنطة عاصمتهم الى نيقية ، ونتج عن تقلص منطقتهم في غربي آسية الصغرى أن حدّ من مجال العمل أمام الغزاة • ورأى سلاجقة الروم أن خطر الصليبيين يتهددهم ، كما يتهدد البيزنطيين ، فعمدوا الى دعم هؤلاء والى اقناع الغزاة بتحويل هجماتهم عن البيزنطيين الى مناطق أخرى مثل أرمينية الصغرى وولاية طرابزون المسيحية وما جاورها

وكان من جراء توجه المغول نحو غربي آسية في النصف الاول من القرن الثالث عشر أن اندفعت أعداد كبيرة من القبائل التركمانية الى مناطق الحدود في آسية الصغرى طمعاً في الغزو وهرباً من السلطات المركزية • وقد أثار هذا التدفق أزمات إجتماعية ودينية أدت في ١٢٣٩ الى قيام حركة ثورية بين التركمان بقيادة بابا اسحق ،وكانت ذات أهداف دينية-اجتماعية• وقد تمكن حاكم قونية السلجوقي من قمعها ، الا أن ذلك أدى ، بسبب عطف الغزاة على أصحابها ، الى توسيع شقة الخلاف بين الغزاة وبين سلطنة قونية ، فحرمت هذه من مساندة الغزاة حين هاجمتها في ١٢٤٣ فرقة من المغول وهزمتها رغم دعم البيزنطيين لها • وخضع سلاطين قونية السلاجقة بعد ذلك للمغول •

ولم يتأثر الغزاة بضعف في السلطة نتيجة لهجوم المغول على آسية الصغرى ، بل نرى أن أعداد الغزاة قد ازدادت بازدياد الهاربين من زحف

المغول ، وكان بينهم عدد من المتصوفين الذين أخذوا يبثون دعاياتهم المتطرفة بين الغزاة فنشط الغزو ضد البيزنطيين نتيجة لذلك ، لاسيما وأن زوال سلطة سلاجقة قونية قد أطلق للغزاة حرية القيام بالغزو • ومما ساعد على اشتداد نشاط الغزاة أن عاصمة الامبراطورية البيزنطية قد عادت في ١٢٦١ الى القسطنطينية بعد انسحاب الصليبين منها فخفف بذلك ضغط البيزنطيين الدفاعي أمام الغزاة ، كما أن البيزنطيين بدأوا يوجهون اهتماماً أكبر الى الجبهة الاوربية ومخاطرها • ويضاف الى ذلك استفحال الانشقاق الداخلي الذي حدث في الطبقة الحاكمة البيزنطية ونقمة صغار الملاكين عليها بسبب تأييدها لكبار الملاكين •

وهكذا انطلق الغزاة بقوة في آسية الصغرى وشكلوا فيها ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، عدة امارات غزاة كان من بينها امارة عثمان[١] •

تحول امارة عثمان الى أمبراطورية • ـ قامت في النصف الغربي من اسية الصغرى عدة امارات غزاة[٢] من بينها امارتا منتشه وآيدين ، على الساحل الجنوبي الغربي ، وامارتا صاروخان وقرەصي شمالي آيدين ، وامارة تكه حول مدينة اضاليا على ساحل الاناضول الجنوبي ، وامارة سينوب على البحر الاسود ، وامارة كرمان مقابل أرمينية الصغرى في منطقة طوروس وشغلت معظم أراضي سلطنة سلاجقة الروم ، ثم امارات داخلية هي جندر وحميد ، وهما صغيرتان ، وجرميان ومركزها كوتاهية ، وامارة عثمان وهي صغيرة ولكنها تواجه الاراضي البيزنطية وتقع على الطريق الرئيسية التي تصل بين القسطنطينية والمدن الاسلامية الرئيسية في سورية والعراق[٣] •

---

١ ـ انظر :
Wittek, The Rise of the O.E. , pp. 23-32, « Deux Chapitres », 296-301

٢ ـ انظر بشأن موقعها الجغرافي المصور الملحق في آخر الكتاب •

٣ ـ انظر : Wittek, The Rise of the O.E. , pp. 33-37.

ازدهرت هذه الامارات بواسطة الغزو براً وبحراً حسب موقعها ونتج عن قلة الغزو أو توقفه ان ضعفت هذه الامارات أو انهارت تبعاً لذلك، لأن الغزو كان سبب وجودها ومبرر قيامها ودوام استمرارها ، ولأنهـا لم تعرف، التنظيم الداخلي الذي يساعد على استغلال أرضها وبالتالي دوام حياتها • فكلما توقف الغزو في منطقة تحول غزاتها الى منطقة أو امـارة أخرى • ومن بين جميع هذه الامارات دامت امارة كرمان بعض الوقت ، ولكن امارة عثمان فاقتها في قوتها وطول بقائها رغم صغرها • ان دوام امارة كرمان يعود الى استمرار الغزو فيها ، وان على نطاق محدود ، ضد امارة أرمينية الصغرى الواقعة بقربها ، والى تمتعها بتنظيم داخلي ورثته عن سلطنة سلاجقة الروم التي شغلت أكثر أراضيها ، مما أمن لها المورد الداخلي ، بجانب ما توفر لها من غنائم • ولهذا كثيراً ما نجد امارة كرمان تتزعم الامارات الاخرى ضد امارة عثمان التي ازدادت قوة وتوسعاً وحاولت ابتلاع امارات الغزاة الاخرى •

دامت امارة عثمان وتقوت كثيراً لاسـباب متعددة • فوقوعها قرب البيزنطيين جعل الغزاة ، الـذين لم يجدوا عمـلا في الامارات الضعيفة الاخرى ، يهرعون اليها ويزيدون من قوتها • كما أن وقوعها على الطريق الرئيسية التجارية بين استانبول وقونية وداخل العالـم العربي الاسلامي سهل مجيء العلماء والعناصر المنظمة كالتجار والصناع ، من الداخل اليها وحلت تبعاً لذلك مشكلة وجود موارد للدولة ، وقد نشط العلماء المدارس الاسلامية وطبقوا تعاليم الدين في نظم الامارة فأخذوا الجزيـة ، وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه النقابات ، تسمى الأخية (من أخ)[1] ، يتعاون فيها أصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم اتخذت مظهراً عسكرياً ، ولهذا كان دعمهم ضرورياً للدولة • وكان يجمع

---

١ ـ انظر وصف ابن بطوطة للاخية حين زيارتـه لهم في الاناضـول في الكتاب التالي الذي يحتوي على النص العربي مع ترجمة فرنسية :

Voyages d'Ibn Batoutah, ed. et trad. par C. Defrémery et B.R. Sanguinetti. 5 tomes, Paris 1893 - 1926, t. 2, pp, 260-265.

بين الغزاة وبين الحاكمين منهم ومنظمات الأخية مجموعة تقاليد في الاخلاق والسلوك ، مبنية في الغالب على التقى مـــع مزيج من الصوفية ، عرفت بالفتوة وأصحابها بالفتيان • وكـان الخليفة العباسي الناصر (١١٨٠ – ١٢٢٥) قد بعث قواعد الفتوة بين الغزاة وبين الأخية ، في محاولة منـه لتكتيل عناصر السكان وربط الامراء المسلمين المتفرقين ، وخاصة في سورية آنذاك ، وذلك لتعزيز سلطة الخليفة الدينية والمدنية في مقاومة الصليبين الذين توضعوا على الساحل السوري • وعرف الامراء المسلمون الـذين كانوا يقاومونهم باسم الغزاة • والى قوة رابطة الفتوة بين الغزاة أضيفت قوة رابطة الصوفية الذين كثروا بين الغزاة[١]

استفادت امارة عثمـان من هـذه المميزات ومن كثرة العنصر المحارب فيها ، على صغرها ، فأخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين ، واحتلت بروسه في سنة ١٣٢٦ وسقطت نيقية في يدها سنة ١٣٣١ • وكان كل انتصار يجلب اليها غزاة اكثر ، وهكذا ازدادت امكانياتها العسكرية باكثر مما تتحمله مواردها أو مساحتها • وتحتّم عليها متابعة الغزو لاشغال الغزاة وكان مجال الغزو صعباً في الاناضول لوقوع غالبيتها بايدي المسلمين ولاحكام الدفاع عن القسطنطينية ، فتطلعت امارة عثمان الى التوسع في البلقان ، وأتتها فرصـة ذهبيـة حـين طلب الامبراطور البيزنطي يوحنـا السـادس كانتازينوس مساعدتها ضـد منافسه يوحنـا الخامس باليولوغوس ، فنقـل محاربوها الى البلقان في سنة ١٣٤٥ لدعمه ، وسرعان ما تفتحت اعينهم الى اهمية البلقان وسهولة التوغل فيه ، فأخذوا يتوسعون فيه لحسابهم •

---

١ – انظر بشأن الأخية وعلاقتهم بالجيش العثماني وبحركات التصوف :

Wittek, The Rise of the O.E., 37-39, « Deux Chapitres », 305-310 ; H. Gibb and H. Bowen, Islamic Society and the West, 1 Vol. in two parts, London, 1951, 1957, see Vol. I.i. pp. 58-59, 64-65, 290, Vol. I.ii. pp. 181-184 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي Gibb and Bowen.

وانظر حول الفتوة المقال المنشور تحت عنوان FUTWWA في دائرة المعارف الاسلامية (Encyclopaedia of Islam) الطبعة الثانية تصـدر دائرة المعارف هذه في اللغة الفرنسية أيضاً بآن واحد •

ونشطت غزوات العثمانيين في البلقان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، فتغلبوا في معركة قوصوه (Kossowa) في ١٣٨٩ على تحالف من دول البلقان وتوفي أثناءهـــا مراد الاول (ابن أورخان وحفيــد عثمان الاول) ، وخلفه ابنه بيازيد الاول الذي استولى قبل نهاية القرن على أكثر الممتلكات البيزنطية في أوروبا باستثناء استانبول ، كما افتتح بلغاريا وقسماً من صربيا والبوسـنة ، وتوغلت جيوشه في هنغـاريا ؛ وتحدى الاسـطول العثماني اسطول البنادقة • وفي موقعة نيقوبوليس (Nikopolis) في بلغاريا، هزم العثمانيون جيشاً اوروبياً ضمّ ملك هنغاريا وحفيد ملك فرانسا • وقد اطلق على بيازيد الاول ، تبعاً لذلك ، لقب الصاعقة (Yildirim) ؛ واطلق العثمانيون على مناطق البلقان اسم روميلية (Rum - eli) اي بلاد الروم ، وغالباً تشير الى الروم الارثوذكس حسب المذهب السائد هناك •

وكلما احتل العثمانيون منطقة في البلقان عمدوا ، بما أصبح لديهم من جهاز اداري ، الى تنظيم الادارة فيها ؛ وكان قد اصبح لديهم جيش نظامي مؤلف من جنود منحوا اقطاعات لقـاء خدمتهم ، ومن جنـود انكشـارية (Janissaries) [1] اخذوا من خمس الاسرى ، المخصصين للدولة ، في بادىء الامر • ولم يتعارض وجود هذا الجيش مع وجود الغزاة الذين كانوا دائماً يستقرون على الحدود• ولما كان احتلال منطقة ما يقتضي وقتاً في التنظيم والاستعداد قبل القيام باحتلال منطقـة اخرى فان الغـزاة كانوا يرسّخون انفسهم في مناطق الحدود ويفرضون تأثيراتهم عليها واستقر بعضهم فيها ، وهذا ما يفسر وجود جاليات اسلامية حتى اليوم تعيش في مناطق مختلفة في البلقان اهمها في تراقية والبانيا والبوسنة • اما الجاليات الاسلامية في منطقة الدوبردجا ، بين الدانوب والبحر الاسود ، في شمال شرقي بلغاريا فيعتقد انهم بالاصل من الاتراك اتباع السلطان السلجوقي الرومي عز الدين كيكاووس

---

١ ـ اللفظة تحوير لكلمة Yeni çeri التركيـة وتعني الفرق الجديدة لتمييزها عن الفرق القديمة المؤلفة من الجنود الاقطاعيين •

الثاني الذي لجأ الى البيزنطيين في ١٢٦١ واقام هناك[١] • ويبدو ان هذه العناصر المسلمة في مناطق الحدود قد دعمت فيما بعد حين طبق العثمانيون سياسة النفي والترحيل Sürgün (ومنها الكلمة العربية سركن) فنقلوا جماعات من الاناضول الى البلقان او بالعكس لاسباب تأديبية او لايجاد دعائم للحكم او لنقل الخبرات[٢] •

حرص العثمانيون على ان يوازنوا كل توسع لهم في البلقان بتوسع في الاناضول ، ففي السنة التي تمركزوا فيها في غاليبولي في البلقان مدّوا نفوذهم شرقاً واحتلوا انقرة ذات الحضارة السلجوقية واستفاد العثمانيون بذلك من الصناع والتجار في تنظيم شؤونهم ، الاّ ان احتلال انقرة ، ومن قبلها امارة قرەصي ، التي كانت تفصل العثمانيين عن الدردنيل ، أخاف امارات الغزاة في الاناضول من توسع العثمانيين فتجمعوا حول أمير كرمان القوي للمقاومة ولكن الامير مراد الاول العثماني هزمهم ومد نفوذه شرقاً • واتبع في ذلك ، الى جانب الحرب ، اساليب سلمية كالزواج من اسر امراء الغزاة او شراء اراضيهم • وقد اهتم الامير بايزيد الاول اثناء توسعه في البلقان بفرض نفوذه على جميع امراء الغزاة في الاناضول فجرد عليهم جيشه المنظم ، وبمساعدة فرق بلقانية قضى عليهم ثم عمد الى تطبيق القواعد العثمانية في الفتح ، التي شاعت آنذاك ، وهي احصاء السكان ومسح الاراضي وتوزيعها على شكل اقطاعات على اتباعه وجنوده ، وكان يسجّل ذلك في سجلات تسمى دفاتر[٣] •

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة :

Wittek, The Rise of the O.E., pp. 39-49; Paul Wittek, « De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople », Revue des Etudes Islamiques, (REI), 1938, pp. 1-8 : « De la défaite d'Ankara ». : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي

Paul Wittek, « Les Gagaouzes - Les Gens de Kaykaus », Roeznik Orientalistyczny, t.XVII (1951-2), Krakow, p. 13.

٢ ـ انظر حول ذلك :

Halil Inalcik, « Ottoman methods of conquest » , Stvdia Islamica, II (1954), pp. 122-129 : Inalcik : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي

٣ ـ انظر المصدر السابق ، ١٠٣ ـ ١٠٥ ، ١٠٧ ـ ١١٢ ٠

ادى احتلال بيازيد للامارات المسلمة في الاناضول الى ازمات في الدولة كادت ان تقضي عليها ، فسرعة الاطاحة بامرائها ، الذين كانوا قبل كل شيء مسلمين وغزاة ، واستخدام قوى غالبيتها غير مسلمة ، مثل الفرق البلقانية والانكشارية الذين كانوا يعتبرون رغم اسلامهم من اصل مسيحي ، اثار عليه نقمة الغزاة والعلماء • وربما ليسبغ على عمله صفة الشرعية ارسل في ١٣٩٤ يطلب من السلطان العباسي في مصر اعطاءه لقب سلطان الروم ،رغم انه كان يتمتع بالواقع بسمعة اعظم من هذا اللقب • وقد منحه الخليفة ذلك لان تحديد اللقب بالروم ، كما في عهد سلاجقة الروم ، لم ينتقص من صلاحيات السلطان المملوكي • وربما ليؤكد للعالم الاسلامي انه لايزال زعيم الغزاة أرسل السلطان بيازيد الاول جيشاً لحصار القسطنطينية ولم يرفع الحصار عنها الاّ بظهور تيمور •

لجأ كثير من الامراء الذين هربوا من وجه العثمانيين في الاناضول الى تيمور وشجعوه على مهاجمة العثمانيين • وكان تيمور اثناء توسعه باتجاه سورية قد خشي توسع بيازيد في الاناضول واحتمال تحالفه مع المماليك لمقاومته ، ولهذا هاجم بيازيد في ٢٨ تموز ١٤٠٢ قرب انقرة فهزم جيشه ووقع بيازيد في أسر تيمور وانتحر في العام التالي • وأعاد تيمور امارات الغزاة الى سابق عهدها ولم يبد رغبة لدمج الاناضول بدولته لأنه كان يهتم بمقاومة المماليك • وادرك العثمانيون بعد ذلك ان محال توسعهم هو في البلقان ، واظهر لهم فشلهم العسكري تسرعهم في احتلال امارات الغزاة وعدم رسوخ قواعد دولتهم في البلاد التي احتلوها • وقد اتيح للعثمانيين بعد موت تيمور في شباط ١٤٠٥ أن يبنوا قوتهم من جديد ولكن بعد أن دفعوا ثمن ذلك بحرب اهلية نشبت بين ابناء بيازيد[١] •

١ ــ انظر :

Wittek, The Rise of the O.E. , pp. 8-9, « De la Défaite d'Ankara », 8-11, 13-17, 19-23, 25-26.

انظر أيضاً : احمد ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ١٢٧ ــ ١٣٤ ، ١٦٥ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ابن عربشاه •

دامت فترة الصراع على السلطة بين ابناء بيازيد مدة عشر سنوات بين ١٤٠٣ ـ ١٤١٣ ، وكان تيمور قد اعترف بسليمان ابن بيازيد حاكماً على البلقان ولكن أخاً آخر اصغر سناً ويدعى محمد اعلن نفسه حاكماً على منطقة سيواس ، كما ظهر بعد قليل أخ آخر يدعى عيسى حاكماً في منطقة بروسه. وكان سليمان أكبر اخوته ويتمتع أيضاً بدعم الجيش الانكشاري وبتأييد وزير ابيه ، علي جندرلي . ورغم ان القوى الاجنبية المعادية للعثمانيين في البلقان مثل البيزنطيين والبنادقة والامراء المحليين لم يستغلوا هزيمة انقرة للانقضاض على العثمانيين بسبب ضعفهم او تنازل العثمانيين لهم عن بعض المناطق او بقاء بعض الامراء موالين للعثمانيين مثل حاكم الصرب ، فان وجود سليمان في البلقان كان مضعفاً له من عدة نواح . فحسن علاقته مع كثير من الامراء المحليين وزواجه منهم اثار عليه نقمة الغزاة والمسلمين ، كما ان كره السكان المحليين لامرائهم ـ حلفاء سليمان ـ بسبب كونهم اقطاعيين وبسبب تأثرهم بمؤثرات غربي اوروبا عن طريق التجار الفرنجة الكاثوليك الذين يختلفون بالمذهب والتقاليد عنهم ، جعل هذا الكره يوجه نحو سليمان ايضاً، واذا اضفنا الى ذلك انزعاج السكان المحليين مما قام به علي جندرلي وزير سليمان من تنظيم مالي مرهق ، علمنا ضعف موقف سليمان .

تمتع الامير محمد بالمقابل بجرأة كبيرة حين اعلن نفسه سلطاناً في ١٤٠٧ في الوقت الذي لم يجرأ فيه سليمان على اعلان مثل ذلك خوفاً من اثارة اخوته عليه . كما ان مقامه في منطقة سيواس حيث التقاليد التركية متأصلة منذ قيام امارة الدانشماند فيها وتشربه تلك التقاليد (يتجلى ذلك بزواجه من أميرة تركية من امارة ذي القدر الحاكمة في ألبستان) اكسبه دعم الاتراك . ويضاف الى ذلك انه اعتمد على نوع جديد من الوزراء يمثلهم بيازيد باشا الالباني الاصل الذي خدمه باخلاص . وسيزداد الاعتماد على هذا النوع من الوزراء الذين هم بغالبيتهم من اصل غير مسلم ثم اعتنقوا الدين الاسلامي وتدربوا في السراي السلطانية مثل الانكشارية واصبحوا يدينون بالولاء للسلطان الحاكم (اشبه بالمماليك) ، في حين ان الوزراء المسلمين

التقليديين مثل علي جندرلي كانوا طبقة وزراء وراثيين شكلوا غالباً خطراً على السلطان •

واستطاع محمد أن يبسط سيطرته على الاناضول ثم أرسل في ١٤٠٩ أخاً له يسمى موسى الى البلقان ليثير الاضطرابات على سليمان ، وتمكن موسى ، بمساعدة قاضي العسكر الشيخ بدر الدين الذي ترأس حركة اجتماعية دينية تدعو الى التآخي بين الاتراك والمسيحيين ، أن يستميل اليه عامة الشعب من مسلمين ومسيحيين وأن يقضي ، بمساعدتهم ، على قوة سليمان • ولكن موسى ازاء ازدياد قوته بدأ يعمل لحسابه فشن عليه محمد حملة قضت عليه في ١٤١٣ ، وأعاد محمد بذلك وحدة السلطنة العثمانية[١] •

حاول السلطان محمد الاول بعد ذلك ايجاد حلول لمختلف المشاكل التي أنتجتها الحرب الاهلية ومن قبلها هزيمة أنقرة أمام تيمور ، فأخذ يهتم بالغزو وشجع الغزاة ، كما أنه قام بنفسه باحتلال البلاد في البلقان • واستمر هذا الاتجاه في عهد خلفائه مراد الثاني ومحمد الثاني • وليدلل على اهتمامه بمتابعة الغزو نقل عاصمته من بروسه في الاناضول الى أدرنة في البلقان التي عرفت بدار الغزاة •

أما سياسته تجاه الامراء المسلمين في الاناضول فانه حاول ، على عكس بايزيد الاول ، أن يربط نفسه بهم بروابط الصداقة ، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج • كما أنه أبدى اهتماماً بعامة الاتراك ، فكسب بذلك عطفهم وعطف العلماء المسلمين واستبعد أيضاً قيام التذمر بينهم واستغلال ذلك من قبل مغامرين مثل الشيخ بدر الدين الذي هرب ، بعد انتصار محمد على أخيه موسى ، الى آسية الصغرى وشجع ثورة على محمد في ولاية أيدين في صيف ١٤١٥ مستميلا اليها طبقات الشعب الفقيرة تحت ستار

---

١ ـ انظر حول ذلك :

Wittek, « De la Défaite d'Ankara » , pp. 9-11, 19-23, 25-26, 28 - 32 .

انظر أيضاً : ابن عربشاه ، ١٣١ ـ ١٣٣

التصوف • وعمد محمد ، بعد القضاء على هذه الثورة ، الى التقرب من هذه الطبقات الفقيرة بأن رعى حركة خيرية ذات طابع صوفي أسسها ولي في أنقرة هو الحاج بيرم •

ولم تكن رعاية الدولة العثمانية لمثل هذه الحركة الصوفية الاولى أو الاخيرة من نوعها • ان ذلك ، في الحقيقة ، تعبير عن الرابطة القوية التي شدت الدولة العثمانية الى الطرق الصوفية في مختلف فترات تاريخها • فقد سبق ورأينا كيف أن المذاهب المضطهدة ، وبينها بعض حركات الصوفية ، لجأت الى مناطق الغزاة فطبعتهم بطابعها • وسنرى أمثلة أخرى عن عمق هذه الرابطة فيما بعد حين شكل دراويش الحركة الصوفية البكطاشية فرقة خاصة بهم في الجيش الانكشاري • وحين فتح السلطان سليم الاول بلاد الشام اهتم بشكل ملحوظ بقبر محي الدين ابن العربي في دمشق ، كما أن الغزالي حين قام بثورته واحتل قلعة دمشق وجد فيها متصوفة بصحبة الجنود • وكان أيضاً من جملة ما احتجت به الحركة الوهابية ، حين قيامها في القرن الثامن عشر ، ضد العثمانيين تبنيهم للعادات المتطرفة الصوفية التي أبعدتهم عن الاسلام الصحيح •

بقي على السلطان محمد الاول وخلفائه تبني سياسة واضحة تجاه الشعوب الخاضعة لهم في البلقان بعد أن أصبح أمر ذلك ضرورياً الآن • فالفتوح لم تعد ميسورة كالسابق لامتداد السلطنة العثمانية على مناطق واسعة ولمعارضة القوى الاوروبية لتوسعها • وأن توقف الفتح ،أو بالاحرى الحد منه ، كان يعني توقف أو اضعاف وارد الخمس من الغنائم بما في ذلك خمس الاسرى الذين جندوا في فرقة الانكشارية • وان امتداد السلطنة العثمانية على مناطق واسعة أوجد لها التزامات جديدة ، وترتب على ذلك ضرورة ايجاد قوات اضافية لاقرار الامن وتثبيت الادارة في هذه المناطق • فاذا جند العثمانيون أبناء الشعوب الخاضعة في البلقان أمكنهم ، من ناحية ، تلافي العجز في عدد القوات ، وأتيح لهم ، من ناحية أخرى ، افقار هذه الشعوب الخاضعة من عنصرها الشاب وجعلها بالتالي أقل قدرة على التمرد •

فلهذه الاسباب مجتمعة طبق العثمانيون في الفترة بين ١٤٣٠ - ١٤٣٨ ، في عهد السلطان مراد الثاني ، ماعرف بالدفشرمة Devshirme أي جمع الشبان ، فكانت ترسل كل خمس سنوات لجان تطوف روميلية لانتقاء الشبان الاشداء لتدريبهم في مدارس خاصة[1] ، فيصبح بعضهم موظفين اداريين ، وحتى صدوراً عظاماً ، ويدخل غالبيتهم الجيش الانكشاري . وكانت المدن غالباً مستثناة من الدفشرمة التي اقتصرت على أهالي الريف ، حيث يوجد عادة السكان الاشداء ، وغالبيتهم من الصقالبة والالبانيين . وهذا مايفسر بروز هؤلاء بين الانكشارية وكون اللغة السلافية هي السائدة بين الانكشارية . وبانحطاط الدفشرمة التدريجي انتقلت الى آسية الصغرى وأصبح المسلمون يجندون في فرق الانكشارية كما سنرى ، وانهار نظام المدارس واشتدت الفوضى وكثر التمرد في صفوف الانكشارية منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر . وبعد أن كان الانكشارية يرهبون جيوش أوروبا خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني ، أصبحوا في القرنين السابع والثامن عشر يرهبون ، بصورة متزايدة ، سلاطينهم العثمانيين الى أن قضى عليهم السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ .

لم يبق أمام العثمانيين وقد بلغوا هذا المبلغ من السلطة الا أن يركزوا قوتهم على احتلال القسطنطينية التي أصبحت أشبه بقلعة ضعيفة وسط بحر عثماني ، فاحتلها السلطان محمد الثاني في ١٤٥٣ وأصبحت عاصمة العثمانيين ، وبدأت بذلك فترة الامبراطورية العثمانية[2] .

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, Vol.I.i. , 43, 56 ff. ; Paul Wittek, 'Devshirme and Shari'a » , BSAOS, XVII. 2 (1955), pp. 271-278.

٢ ـ انظر حول أهمية سقوط القسطنطينية بالنسبة لسكان أوروبا الشرقية وللمسيحية الأرثوذكسية وللنفوذ البابوي وللحركة السلافية ، التي انتقلت رعايتها فيما بعد الى روسيا القيصرية ، المقالات المنشورة في كتيب :

The Fall of Constantinople, a symposium held at the School of Oriental and African Studies (University of London), May, 1953.

انظر خاصة مقالات :

Paul Wittek, « Fath Mubin» ; Bernard Lewis, « Constantinople and the Arabs »; and Stephen Runciman, « The Fall of Byzantium ».

الفصل الثالث

العلاقات العثمانية ـ المملوكية

من الطبيعي أن تتأزم العلاقات بين السلطنة المملوكية والامبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيهما وبسبب صراعهما على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت في مرحلة الانحطاط بينما الامبراطورية العثمانية كانت في طريقها الى الأوج وتطمع بزعامة العالم الاسلامي ، شأن الدول الاسلامية الكبرى • وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ثم الاصطدام بين العثمانيين والمماليك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر •

١ ـ **الصراع على النفوذ في منطقة ألبستان** •ـ تركز الصراع على لنفوذ بين المماليك والعثمانيين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بمنطقة ألبستان Albistan على الفرات الاعلى بين مرعش وملاطية ، سميت المنطقة بذلك نسبة لمدينة فيها تحمل نفس الاسم • وقد احتلها صليبيون ثم الدانشماند ، المتمركزون في سيواس ، ثم سلاجقة الروم ، متمركزون في قونية[1] • وفي الفترة بين٧٣٨ ـ ٧٤٠ هـ / ١٣٣٧ـ١٣٣٩م صبحت ألبستان عاصمة امارة ذي القدر ، وهي سلالة تركمانية حكمت

ـ انظر ماكتبه F. Taeschner عن البستان في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانيـة •

حتى ١٥٢٢/٩٢٨[١] . وقد احتل تيمور هذه الامارة في سنة ١٤٠٠ ، كما أن السلطان العثماني محمد الاول تزوج من ابنة أميرها[٢] .

وفي عهد حاكم ألبستان ، ملك ارسلان (٨٧٠-٨٩٨/١٤٥٤-١٤٦٥) تهددت هذه الامارة من قبل أوزون حسن (حسن الطويل) ، حاكم امارة الحمل الأبيض (Aq Qoyunlu) . وفي سنة ١٤٦٥/٨٧٠ إغتيل ملك ارسلان بتآمر أخيه شاه بداق ، الذي كان يؤيـده السلطان المملوكي خوش قدم ، والذي احتل مكانه . ولكن أخاً لشاه بداق يسمى شاه سوار ، استطاع طرده واستلام الحكم بمساعدة السلطان العثماني محمد الثاني . وحين قوي شاه سوار رفض حماية العثمانيين له ، مما مكن المماليك من مهاجمته وأسره وقتله في سنة ١٤٧٢/٨٧٧ ، وأعيد شاه بداق الى الحكم . ولكن العثمانيين أيـدوا أخاً آخر لشاه بداق يدعى عـلاء الدولة ، الذي تزوجت ابنته من السلطان العثماني ، بيازيد الثاني ، وولدت له سليماً الذي أصبح فيما بعد السلطان سليم الاول . وفي عام ١٤٧٩/٨٨٤ استطاع علاء الدولة أن يطرد شاه بداق من الحكم .

ويتبين لنا من عمل هؤلاء الاخوة الحاكمين ، الواحد ضد الآخر ، النزعة القبلية التركمانية التي سادت في هذه الامارة ، والتي وجدت مشجعاً لها في موقع الامارة الستراتيجي ، بين المماليك والعثمانيين ، الذين تمثـل صراعهم على النفوذ في المنطقة في دعم أمـير دون آخر ، ونتج عن ذلك ليس تأزم العلاقات بين أفراد الاسرة الحاكمة في امارة ألبستان فحسب ، بل اضطراب العلاقات بين العثمانيين والمماليك ، كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين ، لاسباب أخرى ، كثيراً ما انعكس على العلاقات بين الاخوة في الاسرة الحاكمة في هذه الامارة[٣] .

---

١ ـ انظر ما كتبه المؤرخان (V.L.Ménage) - J.H. Mordmann تحت عنوان Dhu'l - Kadr في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية .

٢ ـ انظر ص ٣٩

٣ ـ انظر حول استغلال المماليك والعثمانيين لامراء البستان ودعمهم الواحد ضد الآخر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٧ ، ٣٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٩ ٨٦ ، ١٠٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٨٤ ؛ أيضاً ابن طولون ، Das Tübinger ، ص ، ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٦٥ . (تتفق هذه الارقام مع ترتيبها في المصدر المذكور) .

وفي الفترة بين ٨٩٠-٨٩٦/١٤٨٥ - ١٤٩٢ ،حين حدثت اصطدامات مسلحة بين العثمانيين والمماليك[1] ، مال علاء الدولة الى المماليك فحاول العثمانيون طرده ، ولكنه ، بازدياد ضعف المماليك ، استطاع التفاهم مع العثمانيين ، وبقي يحكم الى أن دخل في نزاع مع الشاه اسماعيل الصفوي ، الذي هاجم ألبستان في ٩١٣/١٥٠٧ وأخضعها لنفوذه • وعندما توجه السلطان العثماني سليم الاول لقتال الشاه اسماعيل الصفوي في ١٥١٤ لم يساعده علاء الدولة ، حاكم ألبستان ، فطرده بعد عودته ، ووضع مكانه علياً ابن شاه سوار • وشاع في دمشق في جمادى الاول ٩٢١/حزيران - تموز ١٥١٥ ، أن السلطان سليماً قتل علاء الدولة[2] • وقد اشترك علي مع العثمانيين في معركة مرج دابق في ١٥١٦ ، ولكنه أثار فيما بعد حسد فرهاد باشا ، القائد العثماني ، أثناء قمع ثورة جان بردي الغزالي في دمشق، وقتل هو وأسرته في ٩٢٨/١٥٢٢ ، وأصبحت امارته ولاية عثمانية مركزها مرعش •

٢ - ثورة الامير جم ولجؤوه الى المماليك - جم هو ابن السلطان العثماني محمد الثاني ، وقد عين حاكماً على صنجق قسطموني (شمال- شرقي الاناضول) ، ثم ذهب الى أدرنة لحمايتها ، حين كان السلطان محمد الثاني منشغلا في القتال مع أوزون حسن • وحين انقطعت لفترة أخبار محمد الثاني عن جم أقنعه مستشاروه في ٨٧٨/١٤٧٣ بالبيعة له مكان أبيه ، ولكن حين عاد محمد الثاني قتل مستشاري جم • ويدل هذا الحادث على أن جم كانت تحدثه نفسه بالسلطنة متجاوزاً بذلك أسبقية أخيه الاكبر ، بايزيد ، وبالفعل بقي يعمل في هذا الاتجاه • وقد عين جم في ١٤٧٤ حاكماً على ولاية كرمان ، وكان قرماني محمد باشا ، الصدر الاعظم في الفترة بين ١٤٧٦ - ١٤٨١ ، مقرباً الى جم ، في حين أن بايزيد كان يعارض سياسة القرماني ، وخاصة اجراءاته المالية •

---

١ - انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٣٨ - ١٣٩ ؛ أيضاً Das Tübinger ، ص ١٦٥ ١٦٤ ، ١٦١ •

٢ - ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ٣٨٤ •

وعندما توفي السلطان محمد الثاني في ١٣ أيار ١٤٨١ تجمع أعداء الصدر الاعظم ، القرماني ، فعزلوه وجعلوا بايزيد سلطاناً في استانبول ، ولكن جم توجه الى بروسه وأعلنت الخطبة له فيها وضربت النقود باسمه كسلطان • وقد رفض بايزيد اقتراح جم باقتسام السلطنة ، وهزم جم في موقعة ينيشهر (Yenishehir) في ٢٠ حزيران ١٤٨١ ، وهرب الى قونية ومنها الى طرسوس ، التي كانت تحت نفوذ المماليك[١] • وانتقل الامير جم في السنة ذاتها الى حلب فدمشق ، التي دخلها في ٢٢ جمادى الاول ٨٨٦/١٩ تموز ١٤٨١ ، ثم سافر منها ، في ٣ رجب /٢٨ آب[٢] ، متوجهاً الى مصر ، حيث رحب به السلطان المملوكي قايتباي • وقد حج الامير جم في تلك السنة ليعرف المسلمين ، كما يبدو ، بقضيته • وبعد أن ترك الامير جم في مصر أمه وولده ، جهزه السلطان قايتباي بالعتاد ضد بايزيد • وفي ٧ ربيع الاول ٨٨٧/٢٦ نيسان ١٤٨٢ خرج الامير جم من دمشق باتجاه حلب فالاناضول حيث فشل في القتال ضد بايزيد مرة أخرى • وكان دعم السلطان قايتباي للأمير سبباً هاماً في تأزم العلاقات العثمانية ـ المملوكية[٣] ، التي انتهت ، بعد توتر دام ثلاث سنوات زال في نهايتها خطر الأمير جم ، باصطدامات مسلحة بين الطرفين •

طلب بايزيد من أخيه جم العيش في القدس لقاء تقديم مايحتاجه من مال ، الا أن جم عقد اتفاقاً مع رئيس فرسان القديس يوحنا في رودس ليساعده في العبور الى روميلية لمتابعة الثورة ضد بايزيد • وقد اتصل رئيس الفرسان بالبابا طالباً مساعدته لتأييد جم ، وذلك لتحطيم الدولة العثمانية ، ولكن السلطان بايزيد عقد اتفاقاً مع رئيس الفرسان تنازل بايزيد بموجبه عن بعض الامتيازات لقاء احتجاز جم في رودس • وبالفعل خدع رئيس الفرسان جم بأن أعلمه بأنه سينقله ، بطريق فرانسا ، الى

١ ـ انظر حول ذلك ما كتبه Halil Inalcik عن Djem في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية •

٢ ـ ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ، ج ١ ، ٤٣ و ٤٧ ، ٥٣ ؛ Das Tübinger, ص ١٦٧

٣ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ٤٧

هنغاريا لمتابعة الثـورة منها ، ولكنـه احتجزه مدة سبع سنوات بدأت في ٨٧٧/١٤٨٢ • وقد توسط السلطان قايتباي وملك هنغاريا لانقاذ جم دون جدوى • وفي سنة ٨٩٤/١٤٨٩ نقل جم الى رومة ، وأرسل بيازيد وفداً الى البابا لاحترام الاتفاق الذي عقده مع رئيس الفرسان • وقد حاول أيضاً ملك فرانسا نقل جم اليه ليساوم عليه ولكن جم توفي في نابولي في سنة ٩٠٠/١٤٩٥ •

وهكذا نرى كيف أن المساعدة التي قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين • ولكن سنوات [illegible] هذه ، بجانب الصراع على النفوذ في امارة ألبستان ، قد أضيف [illegible] عنصر ثالث أدى ، بصورة غير مباشرة ، الى ازدياد تأزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين •

٣ ـ قيام الامارات التركمانية وأثر ذلك في [illegible] والمماليك •

ـ شهدت منطقة جنوب ـ شرقي الاناضول ، منذ معركة منزيكرت في ١٠٧١[1] ، تجمع قبائل تركمانية ، تمكن بعضها أحياناً من تشكيل امارات فيها مثل امارة ألبستان ، أو دعم امارات أخرى مثل امارة الدانشماند • وكان هـذا ، بالاضافة الى طبيعة [illegible] الموقـع بين سهوب آسـية وغربي الاناضول وروسية [illegible] بعيداً عن سيطرة مراكز المدن الكبرى ، مشجعاً للتركمان على [illegible] •

وفي منتصف القرن الرابع عشر شكلت القبائل التركمانية [illegible] في ديار بكر امارتين عرفتا بالحمل الابيض ([illegible]nlu) [illegible] ، وكانت منطقة نفوذهـا في ديـار بكر ، وبالحمل الاسـود [illegible] وكانت منطقة نفوذها شمالي بحيرة وان (Van) [illegible] التسمية نسبة لتربية الحملان أو نسبة لتوتم خاص بهذه [illegible] • [illegible] الامارتان على نزاع مع بعضهما ، وزاد في حدة ذلك أن امارة الحمل الابيض كانت سنية بينما كانت امارة الحمل الاسود شيعية •

---

١ ـ انظر ص ٢٩ •

كان مؤسس امارة الحمل الابيض يدعى قره يولاق عثمان ، وقد تغلب على زعيم امارة الحمل الاسود قره محمد حوالي سنة ١٣٨٩ ، كما تغلب على برهان الدين ، حاكم سيواس العثماني ، حوالي سنة ١٣٩٧ . وبمجيء تيمور في أوائل القرن الخامس عشر وقف الى جانبه قره يولاق عثمان ، واشترك معه في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢[١] ، فكافأه تيمور باعطائه حكم منطقة ديار بكر . ولكن قره يولاق عثمان لم يستطع ، بعد موت تيمور ، اثبات نفوذه في وجه منافسيه أمراء الحمل الاسود ، وبقي الامر كذلك حتى موته في ١٤٣٥ . ثم تلت ذلك فترة من الصراع بين أبناء قره يولاق عثمان الى أن ظهر أوزون حسن (حسن الطويل) ، وسمي كذلك بسبب طول قامته . وقد حكم في الفترة بين ٨٧١-٨٨٢/١٤٦٦-١٤٧٨ ، ورفع من شأن امارة الحمل الابيض .

انتصر أوزون حسن في سنة ١٤٦٧ على شاه جيهان ، آخر حاكم من امارة الحمل الاسود ، وبذلك ازدادت سلطته كثيراً وامتدت على أرمينية الكبرى وشمالي العراق وجزء من فارس ، مما أوقعه في نزاع مع العثمانيين . وكان هؤلاء آنذاك يحاولون ، بعد أن توطدت فتوحاتهم في البلقان ، الاستيلاء على مابقي من الامارات المسلمة في الاناضول ، مما اضطر أمراء كرمان المهددين أن يتفقوا مع جارهم في الشرق أوزون حسن . وقد أخذ العثمانيون يخشون أوزون حسن ، لانه كأمير تركماني سني باستطاعته تهديد سلطتهم المدنية والدينية في منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية حيث يسكن كثير من التركمان ، كما خشوا احتمال اتفاقه مع المماليك ضدهم .

حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثماني محمد الثاني وجيش أوزون حسن في عامي ١٤٧٢ و ١٤٧٣ ، وقد هزم العثمانيون ، في موقعة قرب الفرات ، جيش أوزون حسن في آب ١٤٧٣ . وكانت البنادق التي استخدمها الجيش العثماني حاسمة في القتال ضد فرسان

---

١ ـ انظر ص ٣٨ .

أوزون حسن ، وفي هـذا درس بليغ للمماليك • ولـم يتابع السلطان العثماني هجومه على أراضي امارة أوزون حسن فسلمت ، ولكن هزيمة أوزون حسن كانت ضربة معنوية لـه جعلته يطلب النجدة من الدول الاوربيـة • ونتساءل لماذا يطلب النجدة من هـذه الدول وليس من المماليك ؟ كان أوزون حسن ، بالنظر الى موقع امارته والى توسع سلطته ، يعتبر خطراً بالنسبة للمماليك والعثمانيين على حد سواء • وقد حاول أوزون حسن ، في البـدء ، كسب مودة المماليك ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول الى ساحل البحر الابيض المتوسط والحصول على المعونة من الاوربيين • ولم يكن المماليك آنذاك بحاجة الى التحالف مع هـذا الامير الطموح ، لانهم لم يكونوا واثقين من قدرته على البقاء في الحكم ، ولان ذلك سيدخلهم في نزاع مع العثمانيين ، الذين كانت علاقتهم بأوزون حسن طيبة آنذاك ، قبـل أن تسوء بثورة جم • وفي محاولته الوصول الى ساحل البحر الابيض المتوسط ، احتل أوزون حسن في ١٤٧١ حصن جرجر على الفرات ، جنوب شرقي ملاطية ، من أيدي أمرائه الاكراد ، الخاضعين للمماليك ، فرد هؤلاء باحتلال مدينة البيرة منه • وقد حاول المندوب العثماني لدى المماليك اثارتهم ضد أوزون حسن ، ولكن المماليك لم يشنوا عليه حرباً كبيرة ، ربما ليبقوه شوكة في جنب العثمانيين •

شب صراع داخلي في أسـرة أوزون حسن اثر هزيمتـه في آب ١٤٧٣ • ولم تشجع هذه الهزيمة الدول الاوربية ، وخاصـة البندقية ، على مساعدته ، فعقدت هذه الاخيرة الصلح مع الدولة العثمانية في سنة ١٤٧٨ • وقد توفي أوزون حسن في تبريز في رمضان ٨٨٢ كانون الثاني ١٤٧٨ ، فخلفه ابنه يعقوب الذي حكم حتى عام ٨٩٦/١٤٩٠ دون حدوث أزمات كبرى في عهده ، وقـد حاول التقرب من المماليك[1] ولـم يهدد ممتلكات العثمانيين الذين شغلوا في عهده بثورة جم وبالصراع على النفوذ مع المماليك في امارة ألبستان •

---

١ ـ انظر : ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ١٣٥

ودب النزاع بين أبناء يعقوب بعد وفاته ، واستغل ذلك الصفويون الذين بدأوا بتقويض حكم امارة الحمل الابيض السنية بواسطة دعاياتهم الشيعية بين قبائل التركمان • وفي عام ١٥٠٢ تغلب الشاه اسماعيل الصفوي على امارة الحمل الابيض في معركة شرور ، فانتقل مركز حكم هذه الامارة الى ماردين ، وساعدت فيما بعد العثمانيين ضد الصفويين ، وقتل آخر أمرائها في حوالي ١٥٠٣/٩٢١[1] •

ان قيام امارتي الحمل الابيض والحمل الاسود في جنوب شرقي الاناضول جذب الى هذه المنطقة كثيراً من القبائل التركمانية التي كانت قد انتقلت ، في العهد السلجوقي ، الى غربي الاناضول • وزاد في اتجاه هـذه القبائل من غربي الاناضول نحو الشرق استتباب الحكم العثماني بالتدريج وكره القبائل ، تبعاً لذلك ، ازدياد وطأة السلطة المركزية • وهكذا فان الفترة التي شهدت انهيار سلطة امارة الحمل الابيض ، شهدت أيضاً تكاثر التركمان في شرقي الاناضول • وقد التفّت غالبية هذه القبائل، بالاضافة الى القبائل المنشقة عن امارة الحمل الابيض ، حول قوة جديدة بدأت تظهر في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في المنطقة الممتدة بين شرقي الاناضول وشمالي فارس ، وهي قـوة الصفويين التي ملأت بالتدريج الفراغ السياسي الذي بدأ يشمل هذه المنطقة

ينتسب الصفويون الى الشيخ صفي الدين اسحق (المتوفى سـنة ١٣٢٤) ، الذي أسس طريقة صوفية في أردبيل ، في أذربيجان ، في أواخر القرن الثالث عشر • وحين مر تيمور بأردبيل ، اثر عودته من الاناضول ، طلب منه الشيخ علي ، حفيد صفي الدين ، أن يطلق أسرى الروم ، ففعل وألحقهم بخدمته ، كما أغدق تيمور على الصفويين الامتيازات والنعم •

---

١ ــ انظر ماكتبه V. Minorsky تحت عنوان Ak Koyunlu ، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ؛ وكذلك ما كتبه تحت عنوان Uzun Hasan في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ؛ انظر أيضاً : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ١٨ جزء ، بغداد ، ١٩٣٥ ــ ١٩٥٦ ، انظر ، ج ٣ ، ٢١ ــ ٢٨ : ١٩٠ــ١٩٥، ٢٠٤ ــ ٢٣٩ ، ٢٥١ ــ ٢٥٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ : سيذكر هذا المصدر كما يلي : العزاوي•

وفي الفترة بين ١٤٤٨ و ١٤٥٦ طرد الشيخ جنيد ، حفيد الشيخ علي ، من أردبيل ، فاتصل بأوزون حسن وأقام عنده ثلاث سنوات (١٤٥٦ ـ ١٤٥٩) ، وتزوج من أخت أوزون حسن • كما أن الشيخ جنيداً أقام علاقات مع السلطان العثماني • وفي عهد الشيخ حيدر ، ابن الشيخ جنيد ، ازدادت أهمية هذه الاسرة بسبب رسوخ المذهب الشيعي فيها وبين أتباعها ، وبسبب ازدياد قوتها عسكرياً نظراً لما التف حولها من التركمان • وقد اتصل الشيخ حيدر ، كما فعل والده من قبله ، بأوزون حسن وتزوج ابنته ، ولكنه قتل ، كما قتل والده من قبله ، في حربه مع حاكم شروان ، شما لي أذربيجان ، في سنة ١٤٨٨ • وبعد أن تنبه الصفويون الى امكانية التوسع في غربي أردبيل ، أي في شرقي الاناضول وشمالي فارس ، أتاح لهم ضعف امارة الحمل الابيض ، اثر وفاة أوزون حسن ، الفرصة المناسبة لتأسيس دولتهم في هذه المنطقة •

يعتبر الشاه اسماعيل ابن حيدر ، وهو سادس شخص ينحدر من صفي الدين ، المؤسس الفعلي للدولة الصفوية • وقد توصل الى زعامة الصفويين في سنة ٩٠٧/١٥٠١ ، اثر صراع على السلطة مع اخوته • وسجل في العام التالي نصراً عسكرياً على قبيلة الحمل الابيض[١] ، مما أخاف المماليك فأخذوا يستعدون لقتاله[٢] • ويذكر أن اسماعيل قد اعتمد على سبع قبائل تركمانية أسس منها جيشاً بلغ عدده سبعة آلاف رجل دعوا بالقزل بلش ، (Qizilbash) ، ومعناها الرؤوس الحمر ، نسبة للقبع

١ ـ انظر حول ذلك :

Tadhkirat al-Muluk - a manual of Safawid administration (circa 1137/1725), translated and explained by V. Minorsky, London, 1943, pp. 188-194 : Tadhkirat al-Muluk :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

R. M. Savory, « The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il I (907-930/1501-24), » BSOAS, XXIII. 1 (1960), p. 94 :

Savory :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

انظر أيضا العزاوي ، جـ ٣ ، ٢٧٠ ـ ٣٠٨ ، ٣٢٥ ـ ٣٣٥

٢ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ١ ، ٢٦١

الحمراء التي كانوا يلبسونها • وفي عام ١٥٠٢ احتل اسماعيل شروان وأذربيجان وقسماً كبيراً من العراق ، واتخذ لقب شاه ، أي ملك • وبذلك أصبح الحاكم الصفوي يتمتع بسلطة سياسية بالاضافة الى السلطة الدينية ، فهو كحاكم سياسي كان يلقب شاهاً ، وكزعيم روحي في النظام الصوفي الشيعي كان يلقب المرشد الاكبر •

قاد الشاه اسماعيل الاول في عام ١٥٠٧ حملة كبيرة ضد علاء الدولة، حاكم ألبستان ، وتغلب عليه • وبذلك دخل الصفويون ميدان الصراع على النفوذ في منطقة ألبستان ، الى جانب المماليك والعثمانيين ، وحلوا في هذا مكان امارة الحمل الابيض • وعلى غرار أوزون حسن ، حاكم هذه الامارة السابق ، حاول الشاه اسماعيل الاتصال بالفرنجة في محاولة منه لايجاد حلفاء[1] • وقد توسعت ممتلكات الشاه اسماعيل في ١٥٠٨ فأصبحت تمتد من هراة في الشرق الى حدود بغداد وديار بكر في الغرب ، وجعل مركز حكمه في مدينة تبريز ، كما جعل المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي ، وأخذ ينشره خارج حدوده مما أثار قلق جيرانه السنيين : خانات (جمع خان وتعني في التركية حاكم) بخارى والسلاطين العثمانيين • أما المماليك ، وهم أيضاً سنيون ، فكانوا ، بسبب ضعفهم ومنافسة العثمانيين لهم ، يحاولون التفاهم مع الصفويين[2] •

تغلب الشاه اسماعيل على شيباني ، خان تركستان ، في معركة قرب مرو عام ١٥١٠ ، وأمن بذلك ، لفترة ، حدوده في الشرق • ولكن نزاعه مع العثمانيين لم يكن بمثل تلك السهولة • فالصفويون كقوة ناشئة كانوا يعتبرون ، بالنسبة للعثمانيين ، خطراً جديداً يتهددهم • وزاد في الامر

---

١ ـ انظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ٣٤٣ ؛ انظر أيضا ما كتبه C. Huart تحت عنوان Ismà'il في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى •

٢ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ؛ العزاوي ج ٣ ، ٣٣٥ ـ ٣٥٢

أن الصفويين ، كشيعة متحمسين ، أثاروا نقمة العثمانيين[1] • وكانت مقاطعات الاناضول الشرقية ، الواقعة ضمن الدولة العثمانية ، يسكنها كثير من القبائل التركمانية ، من شيعة وغيرها ، ولذلك أخذت هذه القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه اسماعيل الشيعية ، لانها اعتبرته تركمانياً مثلها • وقامت في سنة ٩١٦/١٥١٠-١٥١١ حركة بين تركمان الاناضول بقيادة رجل يدعى شيطان قولي (وتعني عبد الشيطان وربما سمي بذلك من قبل أعدائه بسبب شره) الذي أعلن ولاءه للشاه اسماعيل ، واجتمعت عليه جموع من التركمان مما اضطر العثمانيين الى ارسال قوة قضت على حركته[2] • وكانت هذه الحركة انذاراً للعثمانيين بالخطر الذي يمثله الشاه اسماعيل بالنسبة لسكان الامبراطورية العثمانية بالذات •

أدت العوامل السابقة الى تأزم العلاقات بين الصفويين والعثمانيين • وزاد في ذلك وصول السلطان سليم الاول العثماني الى الحكم في سنة ١٥١٢ • فقد تعرض السلطان سليم في أول عهده الى ثورة عليه من قبل اخوته الطامعين بالحكم ، والتجأ ابن أخيه الثائر أحمد الى الشاه اسماعيل الذي استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم • وبعد أن وطد السلطان سليم سلطته في الحكم في ١٥١٣ التفت الى مقارعة الشاه اسماعيل الذي بدأ بدوره يستعد للدفاع • وكان السلطان سليم قد عقد ، أو ربما جدد عقد اتفاق مع الدول الاوربية لاقامة السلم على حدوده في الغرب ليتفرغ لقتال الصوفيين[3] • ونتج عن استعدادات العثمانيين والصفويين

---

١ ـ انظر : مرعي ابن يوسف الحنبلي ، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ بألمانيا ، برقم Cod. Arab. 889
انظر الاوراق ٢٠٦ آ ـ ٢٠٦ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : مرعي الحنبلي (هناك نسخة أخرى لهذا المخطوط في نفس المكتبة ، برقم Cod. Arab. 395 ، وهي أكثر اختصاراً من السابقة) •

٢ ـ انظر مخطوط مجهول المؤلف والعنوان في المكتبة الوطنية بباريس ، برقم Arabe 1855 (يقع في ٧٨ ورقة ويعالج تاريخ مصر من ١٤٥٣/٨٥٧ ـ ١٧١٧/١١٣٠ ـ ١٧١٨) ؛ انظر الاوراق : ٤ ب ، ٥ آ ، سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855

٣ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٢١ ؛ انظر أيضا :
E. Creasy, History of the Ottoman Turks, reprinted by Khayats, Beirut, 1963, pp. 127-140 : Creasy. سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

أن اشتبكت جيوشهما مع بعضها في موقعة جالديران ، قرب تبريز ، في ٢٣ آب ١٥١٤ ، وانتصرت قوات السلطان سليم على قوات الشاه اسماعيل. وقد أظهرت هذه الموقعة فعالية بنادق الرصاص التي استخدمها العثمانيون على نطاق واسع ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان. وتمكن العثمانيون من احتلال تبريز ، عاصمة الصفويين ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائياً على الصفويين أو على الشاه اسماعيل لاسباب كثيرة أهمها طبيعة بلاد فارس الجبلية وصعوبة المواصلات فيها ،وتمرد الانكشارية في جيش السلطان سليم ، وكثرة الغلاء والقحط في المنطقة بسبب « سياسة الارض المحروقة » التي اتبعها الشاه اسماعيل بعد انسحابه اذ أتلف كل ما يمكن أن يفيد منه العدو[1] ؛ وأيضا بسبب ما ذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن العثمانية[2] . وقد حاول الشاه اسماعيل ، اثر الهزيمة ، التحالف مع الدول الاوربية ضد العثمانيين ، ولكن بعد المسافة وعدم وجود حدود مشتركة لم تجعل ذلك ممكناً .

أظهر انكسار جالديران ، بالنسبة للصفويين ، ضعف الأسس التي كان يقوم عليها جيشهم . فالشاه الصفوي كان يعتبر في النظام الصوفي المرشد الكامل والمظهر الحي المتوارث للاله ودعي أتباعه من القزل باش المريدين . ولكن انكسار الشاه اسماعيل في جالديران ، وهو أول انكسار له ، حطم أسطورة عدم غلبته . ورغم أن القزل باش بقوا يعترفون ظاهرياً بهذهالاسطورة الا أنهم لم يعودوا يقدمون ، عملياً ، طاعة عمياء للحاكم . وبتحطم الرابطة الدينية بين اسماعيل وأتباعه ، تشجع هؤلاء على التمرد

---

١ ـ انظر : نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ، نشره جبرائيل جبور ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ ، انظر : ج ١ ، ٢٠٩ : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : الكواكب السائرة ؛ انظر أيضاً : محمد بن عبد المعطي الاسحاقي ، أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥ ، ص ١٢٨ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الاسحاقي ؛ انظر أيضاً : العزاوي ، ج ٣ ، ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

٢ ـ مرعي الحنبلي ، ٢٠٦ ب ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٢ آ ؛ انظر أيضا بحث الاسباب المباشرة للفتح العثماني لبلاد الشام في الفصل الخامس .

عليه • واحتاج الشاه الى مقدرة كبيرة بعد ذلك لاخضاع جنوده لأوامره ، وعوضاً عن أن يأمر فيطاع ، أصبح يبتهل الآن الى مشاعر أتباعه وولائهم بمخاطبتهم بتعبير شاهي سيفان (Shahi - Sevan) ، أي الذين يحبون الشاه • وأخذ ولاء القزل باش يتحول عن الشاه نحو القبيلة وزعيمها • وينعكس اثر هذا التبدل في الولاء وفي العلاقة بين الصوفيين ومرشدهم في انحطاط تعبير (صوفي) اذا ما قورن بتعبير (قزل باش) • فتعبير (صوفي) فقد كثيراً من قيمته على مر الزمن حتى أنه في عام ١٦٦٠ أطلق هذاالتعبير على الكناسين خارج القصر الملكي[١] •

* وبعد أن ضعف ولاء القبائل التركمانية نحو الشاه أخذ هذا يحاول توطيد سلطته في وجه معارضتهم • وبدأت عملية التوطيد هذه بعد وفاة الشاهاسماعيل في ١٥٢٤ ، في عهد ابنه الشاه طهماسبالذي طرد من الجيش أفراد القبائل المتمردة • وبلغت هذه العملية أوجها في عهد الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) ، الذي أنقص عدد جنود القبائل وأوجد الى جانبهم جنوداً من نوع آخر مزودين بالاسلحة النارية ويدينون بالولاء للحكومة المركزية ، مثل الجنود الانكشاريين في الدولة العثمانية • وكان يؤتى بغالبية هؤلاء الجنود الجدد من مناطق جيورجيا والقفقاس ويدربون في مدارس خاصة[٢] • واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثيراً من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطداماتها مع الدولة العثمانية ، كما سنرى في حينه•

---

١ ـ انظر : Savory, 91-99 ؛ مرعي الحنبلي ، ٢٠٦ آ •

٢ ـ انظر : Tadhkirat al-Muluk, pp. 131-132

الفصل الرابع

مظاهر الادارة العثمانية

لابدّ لنا قبل البحث في احتلال العثمانيين للبلاد العربية من أن نتعرف الى بعض مظاهر الادارة في الدولة العثمانية . وليس القصد من هذا الفصل اعطاء دراسة شاملة للادارة العثمانية كوحدة قائمة بذاتها ، وانما البحث في بعض المؤسسات الادارية والدينية والتعريف باصولها لتسهيل فهم كثير من التعابير وادراك اهمية كثير من الوظائف والموظفين الذين يعرضون لنا اثناء بحثنا في تاريخ البلاد العربية . وتجدر الاشارة هنا الى ان القوانين العثمانية كانت تفرق بين طبقتين في الدولة : طبقة العسكريين وطبقة الرعايا[1] . وتشمل طبقة العسكريين جميع موظفي الدولة على اختلاف انواعهم ، وما عدا ذلك فهم من الرعايا . ويرأس هاتين الطبقتين السلطان العثماني . وان قصة العلاقة بينهما هي في الحقيقة قصة التاريخ السياسي الداخلي للدولة العثمانية.

أسلوب العثمانيين في الفتح . ـ لجأ العثمانيون في اغلب الاحيان الى فرض سيطرة مباشرة على الدول التي افتتحوها ، واكتفوا احياناً بفرض نوع من السيادة على الدول المفتتحة كأن يذكر اسم السلطان في الخطبة وعلى النقود ، مع الابقاء على الأمراء المحليين ، بصفة تابعين ، وعلى التنظيمات المحلية . وكان فرض السيطرة المباشرة يعني بالضرورة تسجيل السكان والموارد في الدولة[2] في سجلات خاصة رسمية تسمى دفاتر . ويستفاد من ذلك في تقدير الضرائب ومنح الاقطاعات وتثبيت الملكية . ثم تمنح الاقطاعات

١ ـ Inalcik, 112-113 ; Gibb and Bowen, I. i. 158.

٢ ـ انظر مثلا اجراءات العثمانيين في دمشق اثر فتحهم لها ، ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٣١ .

اذا وجدت ، ويعين الحاكم والدفتردار والقاضي الحنفي ، وتقام حاميات من الجيش الانكشاري في قلاع في مراكز المدن أو على طرق المواصلات الهامة أو في مناطق الحدود . وتهدم القلاع الاخرى بأمر السلطان . والقصد من ذلك توفير القوى لاستخدامها في مهام أخرى ومنع ظهور مراكز مقاومة في تلك القلاع . وبجانب هذه الحاميات كان يعطى السباهية[1] (Sipahis) وهم من الفرسان العثمانيين الذين شكلوا غالبية الجيش العثماني في مطلع عهد الدولة ، اقطاعات ، غالباً من نوع التيمار (Timar)[2] ، في البلاد المفتتحة . ويعين السباهية أحياناً من بين السكان المحليين ولكنهم كانوا عادة من الأغراب ، وذلك للحيطة ومنع توطيد العلاقات بينهم وبين الاهلين . وبالاضافة الى ذلك ، وجد العثمانيون انه من الضروري استخدام قوات اضافية ، من نوع المرتزقة ، تؤخذ من السكان المحليين او من غيرهم ، كالمغاربة مثلا . وعلى الرغم من وجود هذه القوات المختلفة كان العثمانيون يشجعون السكان المحليين على الاخلاص للدولة باعفائهم من بعض الضرائب . وفي بعض الاحيان كان سكان بلدة بكاملها يعفون من الضرائب لضمان ولائهم ، مثال ذلك ما تذكره سجلات قونية وقيصرية من ان سكان هاتين المدينتين قد اعفوا من كافة الضرائب بسبب ولائهم الذي اظهروه للدولة اثناء قتال العثمانيين مع اوزون حسن .

ولجأ العثمانيون ايضاً ، لضمان سلامة فتحهم ، الى نقل جماعات من السكان من مكان الى آخر ، وتسمى هذه العملية Sürgün (حورت بالعربية الى كلمة سركن) ، فكان ينقل مثلا البدو المتمردون أو سكان قرية ثائرة من جزء من الامبراطورية الى جزء آخر . وعمد العثمانيون ايضاً الى اسكان جاليات تركية في البلدان المفتتحة لاسباغ الصفة التركية عليها ولنشر الخبرات ، وايضاً لايجاد عناصر استقرار موالية ، مثال ذلك انفرماناً سلطانياً صادراً في ١٣ جمادى الاولى ٩٨٠/ (٢٤ ايلول ١٥٧٢) نص على نقل عائلة من كل عشر عائلات في ولايات سيواس وكرمان وذي القدر الى قبرص ، التي

---

١ ـ انظر ص ٦٨ .

٢ ـ انظر ص ٦٩ .

افتتحت آنذاك . وكان يجب اختيار هؤلاء المنقولين من مختلف الطبقات الاجتماعية ، ويعفون من الضرائب خلال السنتين الاولين ، الا أن الذين نقلوا في الواقع كانوا مؤلفين من الفلاحين والفقراء والبطالين والبدو[1] . وان اختيار الفرمان لهذه العائلات من ولايات سيواس وكرمان وذي القدر بالذات ربما قصد منه اضعاف السكان المحليين خوفاً من تمردهم ، وربما أن سكان هذه الولايات كانت متأصلة فيهم التقاليد التركية أكثر من غيرهم لأن سيواس كانت مركز الغزاة الدانشمانديين ، وكانت كرمان سابقاً مركز سلطنة سلاجقة الروم ، أما ولاية ذي القدر فقد كانت بالاصل امارة ألبستان التي حكمتها أسرة تركمانية ذات تقاليد عريقة . وكان يضطر العثمانيون في كثير من الاحيان الى تنفيذ نقل السكان بالقوة . وكان يجلى أحياناً سكان محليون مقابل هذه الجاليات . وعمد العثمانيون ايضاً اثر فتوحاتهم الى نقل اصحاب الخبرات المحليين وخاصة من العالم الاسلامي الى استانبول لتدعيم المميزات الاسلامية فيها[2] .

السلطان العثماني . — سبق ان رأينا كيف ان الامير العثماني قد نال في سنة ١٣٩٤ لقب سلطان الروم من الخليفة العباسي في مصر[3] . وكان يشار احياناً الى السلطان العثماني بلقب باديشاه وهو تعبير فارسي يعني الحاكم الاعلى ، كما أشير اليه بصورة أكثر بلقب خنكار (Hünkar) ، وخاصة في كتابات المؤرخ الدمشقي محمد ابن طولون (المتوفى سنة ١٥٤٦) . اما لقب الخليفة فلم يتخذه السلاطين العثمانيون الا في وقت متأخر من القرن التاسع عشر . ولا صحة لما يذكر احياناً من ان الخليفة العباسي ، الذي انضم الى العثمانيين بعد هزيمة المماليك في معركة مرج دابق في آب ١٥١٦ ، قد تخلى عن لقبه للسلطان العثماني او ان هذا قد استخدم اللقب بصورة رسمية فيما بعد . ويذكر هذا اللقب فقط في معاهدة كجك قاينارجة مع روسيا في سنة ١٧٧٤ بهدف اظهار نفوذ السلطان العثماني على كافة المسلمين خارج حدود

---

١ — انظر Inalcik, 123

٢ — انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٣٧ آ .

٣ — انظر ص ٣٨ .

دولته • وكان ذلك ايضاً للتعويض عن النفوذ السياسي والعسكري الذي فقدته الدولة العثمانية آنذاك • واستخدم السلطان العثماني لقب خليفة بصورة رسمية في دستور ١٨٧٦ واستمر يستخدمه بعد ذلك • وكان هذا متفقاً مع التأكيد على السياسة الاسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني بشكل قوي لاخافة الدول الاوربية التي كان بين رعاياها كثير من المسلمين ، كما هو الامر في الهند بالنسبة لبريطانيا • وأخذت الدولة العثمانية، بعد اقتطاع كثير من أطرافها في البلقان واحتلال الاوربيين لاكثر مناطقها في شمالي أفريقية تنتبه لاهمية العرب المتزايدة وضرورة الابتهال اليهم كمسلمين • كما أن التأكيد على الناحية الدينية والتمسك بلقب خليفة يعتبران رداً مناسباً على دعاة الاصلاح الذين نادوا بتبني الاصلاحات الاوربية في الدولة العثمانية •

وتميز حكم سلاطين آل عثمان بصفات القوة او الضعف ، حسب الظروف • ونلاحظ ان السلاطين من بداية امارة الغزاة الى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني كانوا اقوياء بصورة عامة ويقودون جيوشهم في الحروب • ولكن الاتجاه نحو الضعف بدأ يزداد منذ نهاية حكم السلطان سليمان القانوني ، وانعكس ذلك على السلاطين وعلى الدولة ككل ، باستثناء طفرات من القوة بين فترة واخرى ، كما حدث مثلا في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) • ويبدو هذا التطور طبيعياً لأن فترة الفتوحات الاولى ، حين كانت موارد الدولة غنية وقوتها موطدة تجاه الدول الاوربية ، كانت مهيأة لظهور سلاطين أقوياء عرفوا كيف يسيرون الاحداث • أما فترة الضعف التالية فقد شهدت انحطاط مؤسسات الدولة وعلى رأسها الانكشارية الذين عوضاً عن ان يرهبوا الاعداء الخارجيين ، كما في الفترة السابقة ، أصبحوا يرهبون السلاطين العثمانيين • وشهدت هذه الفترة أيضاً ازدياد قوة الدول الاوربية وانتقال زمام المبادرة العسكرية اليها بالتدريج • وقد انعكس هذا الوضع السياسي على السلاطين اذ انقطعوا بغالبيتهم تقريباً الى حياة القصر الخاصة (بين الحريم) وتركوا شؤون الدولة يصرفها كبار الموظفين وعلى رأسهم الصدر الاعظم والكزلار آغا (آغا الحريم) • وقاست

الدولة من نتائج مؤامرات هؤلاء الموظفين بعضهم ضد بعض وأثر ذلك على الادارة •

وانعكست فترات القوة والضعف على كيفية اختيار السلاطين • فقبل عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح) كان السلطان العثماني يعين بعض ابنائه واخوته وغيرهم من الاسرة الحاكمة امراء على الولايات العثمانية ، ولكن هؤلاء الامراء الحاكمين كثيراً ما كانت تحدثهم نفسهم بالثورة لانتزاع حكم الولايات الاخرى او السلطنة ذاتها ، كما حدث مثلا اثر معركة انقرة في ١٤٠٢ • وقد أصدر محمد الفاتح قانوناً خول خلفاؤه بموجبه قتل اخوتهم اثر اعتلائهم العرش وذلك للتخلص من منافستهم • ولعل ثورة جم على أخيه السلطان بايزيد الثاني اثر وفاة أبيهما محمد الفاتح في ١٤٨١ ، وثورة إخوة السلطان سليم الاول عليه اثر اعتلائه الحكم في ١٥١٢ ، هما خير دليل على تهديد الاخوة للسلطان الحاكم ، وبالعكس • وقد استمر قانون محمد الفاتح سارياً حتى نهاية القرن السادس عشر حين استبدل بقانون جعل جميع الامراء العثمانيين ، باستثناء ابناء السلطان الحاكم ، رهن الاقامة الجبرية في قصورهم ومنعهم من الاتصال بالعالم الخارجي[1] ، ومن هنا ظهر ضعف شخصياتهم وولعهم بحياة القصر ، علماً أن بعض هؤلاء أصبحوا سلاطين أحياناً •

ومن مطلع القرن الرابع عشر وحتى اوائل القرن السابع عشر توارث السلطنة العثمانية الابن عن الاب على التوالي • ولكن حين توفي السلطان احمد الاول في ١٦١٧ خلفه اخوه مصطفى الاول لان ابناءه كانوا صغاراً • وصدر قرار آنذاك بأن تعطى السلطنة لاكبر الاعضاء الذكور سناً في اسرة عثمان • وقلل هذا كثيراً من نصيب الابن في ان يتولى السلطنة بعد ابيه ، واصبح غالبية السلاطين يختارون من بين اخوة او اعمام او ابناء عم السلطان الحاكم •

---

١ ـ انظر Gibb and Bowen, I.i.37

ويمكن القول بوجه عام ان السلاطين العثمانيين ، في فترات القوة والضعف ، بقوا المحور المركزي الذي استقطب ادارة الدولة من حوله سلباً أو ايجاباً ، وأصبحوا بالتدريج عنصراً هاماً في دوام هذه الامبراطورية المتعددة الاجناس . فقد يكونون سيئين ولكنهم ضروريون للابقاء على كيان الامبراطورية التي ألفت وجودهم .

الوزير الاعظم . ـ كان غالبية من شغل منصب الوزير او الصدر الاعظم حتى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ من المسلمين الاحرار الذين برز بينهم افراد اسرة جندرلي . ولكن بازدياد الاعتماد على المجندين من اصل مسيحي (افراد الدفشرمة)[١] في الوظائف اصبح اشغال المسلمين الاحرار لهذا المنصب لايتفق والاتجاه الجديد في الدولة ، لاسيما وان افراد الدفشرمة ، في المرحلة الاولى على الاقل من هذا التنظيم ، كانوا أكثر ولاء وطاعة للسلطان الحاكم من المسلمين الاحرار الذين ، مثل اسرة جندرلي ، كانت لهم مصالح عميقة تهدد سلطة السلاطين . وقد بدأ الاعتماد بشكل متقطع على أفراد الدفشرمة في الوزارة العظمى منذ عهد السلطان محمد الاول ، ثم بشكل متزايد منذ عهد السلطان محمد الثاني .

ولم يكن للوزير الاعظم اية سلطة مباشرة على القصر السلطاني او على العلماء . وفيما عدا ذلك تمتع بسلطة قوية في الادارة المركزية وفي الولايات . وكان عليه تنظيم امور الجيش ، وقيادته الى الحرب في بعض الحالات ، بالاضافة الى الاشراف على الامن والنظام في العاصمة . وللدلالة على ان السلطان قد فوض بعض سلطاته الى الوزير الاعظم سلمه خاتمه لاستخدامه في التوقيع . وكان عليه اعادته الى السلطان حين عزله من منصبه . ولعل اعظم دليل على تفويض السلطان سلطات واسعة للوزير الاعظم هو ايجاد الباب العالي babi Ali (Sublime Porte) في سنة ١٦٥٤ من قبل السلطان محمد الرابع الذي جعله مقراً رسمياً لوزيره الأعظم درويش محمد باشا .

---

١ ـ انظر ص ٤٢

واصبح الوزراء العظام يسكنون ، منذ ذلك الحين ، في الباب العالي ومنه يصرفون شؤون الدولة العليا التي كانت قبلا تصرف من قصر السلطان • وبالتدريج اطلق اسم المكان على ساكنه ، ومن هنا القول مثلا ان الباب العالي، اي الوزير الاعظم ، اصدر امراً •

منح لقب وزير في القرن الخامس عشر الى عدد من حكام الولايات الكبرى والى بعض موظفي الدولة الكبار في استانبول الذين نابوا احياناً عن الوزير الاعظم اثناء غيابه وغياب السلطان • ولما كانت المجالس التي كان يحضرها هؤلاء الوزراء تعقد في غرفة مقبية في القصر اطلق عليهم لقب وزراء القبة • وكان يطلق على الوزير الذي ينوب عن الوزير الاعظم لقب القائممقام • ويطلق نفس اللقب على الشخص الذي يصرف شؤون الوزارة العظمى في الفترة بين انتقال السلطة من وزير اعظم الى آخر • وبالاضافة الى وزراء القبة اطلق لفظ وزير على اناس عديدين منذ نهاية القرن الخامس عشر بشكل أدى الى انقاص قيمة هذه الرتبة • وبتناقص عدد وزراء القبة منذ منتصف القرن السابع عشر وبالغاء مناصبهم في مطلع القرن الثامن عشر ، لم يعد يوجد موظفون كثيرون يحملون لقب وزير في استانبول بينما كثر عدد حامليه في الولايات[١] • ونتيجة لذلك أصبح غالبية المرشحين لتولي الولايات هم من حاملي لقب وزير ، وعينوا لولايات كان يعين عليها قبلا موظفون أقل رتبة ، من نوع البيلربيي (Beyler Beyi)[٢] •

وبازدياد ضعف السلاطين برز الوزراء العظام في تصريف امور الدولة، وبلغ بعضهم شهرة كبيرة في ذلك مثل افراد اسرة الكوبرلي (Koprülü) الذين تولوا الوزارة العظمى بصورة وراثية تقريباً خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر • وكان عهدهم فترة قوة نشطت فيها ادارة الدولة العثمانية • ونتج أيضاً عن ضعف السلاطين وانقطاعهم الى الحريم ان ازداد نفوذ الموظف المشرف على الحريم ويسمى الكزلار آغا فأخذ ينافس الوزير

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I.i. 113 ff.

٢ ـ انظر ص ٧٩ •

الاعظم على السلطة • وكان تأثير هذه المنافسة بالغ الاهمية بالنسبة لادارة الدولة وخاصة في القرن الثامن عشر ، حين بلغ ضعف السلاطين العثمانيين غايته • واخذ الولاة ينتسبون الى فريق او آخر وتقرر مصيرهم تبعاً لنتيجة الصراع بين الفريقين ، وانعكس اثر هذا الصراع على التطورات المحلية في الولايات ، مثال ذلك الدور الذي لعبه الكزلار آغا في عزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام في ١٧٥٧ ، وكان هذا يعتمد على الوزير الاعظم[١] •

ومن الموظفين الهامين التابعين للوزير الاعظم يمكننا ان نذكر الكاخيا بك ★ (Kahya Bey) • وكان هذا الموظف بالاصل من خدام الوزير الاعظم ، ولم تكن له علاقة بالادارة • الا انه بازدياد مسؤولية واهمية الوزير الاعظم ازداد نفوذ الكاخيا بك حتى اصبح يشغل هذا المنصب موظفون كبار في الدولة • واعتبر الكاخيا بك نائب الوزير الاعظم ، وخاصة فيما يتعلق بالشؤون الداخلية ، حتى شبهه بعضهم بوزير الداخلية اليوم • وكان حكام الولايات يعتمدون على نفوذه في البقاء في مناصبهم •

الكزلار آغا (Kizlar Agha) • — كانت وظيفة الكزلار آغا ، ويدعى احيانا اغا دار السعادة ، تتعلق بالاشراف على الحريم في القصر السلطاني ، ويساعده عدد من الخصيان الطواشية • وفي القرنين الخامس والسادس عشر كان يؤتى بغالبية هؤلاء الموظفين من القفقاس • ولكن في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) اصبح للخصيان السود اليد العليا في شؤون الحريم[٢] ، وكانوا يجلبون بطريق مصر ، وربما من السودان • وقد قوي نفوذ الكزلار آغا خاصة في القرن الثامن عشر حين أوكلت اليه أوقاف الحرمين الشريفين ، وايضاً بسبب ازدياد تسلطه على الحريم وعلى السلطان القابع في القصر • ودخل الكزلار آغا في هذا القرن في صراع على النفوذ مع

---

١ — انظر كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966, pp. 204, 319.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي The Province of Damascus .

٢ — انظر Gibb and Bowen, I.i. 76 f.

الوزير الاعظم • وكانت رتبة الكزلار آغا تأتي من ناحية نظرية بعد رتبة الوزير الاعظم ورتبة شيخ الاسلام في استانبول •

الديـوان • ـاستخدمت لفظة ديوان ، قبل عهد العثمانيين ، للدلالة على دائرة معينة أو على الادارة بكاملها[1] • الا أنها أصبحت تستعمل في العهد العثماني ، وخاصة في استانبول ، للدلالة على اجتماع رسمي يرأسه عادة الوزير الاعظم • وكان السلطان في الاصل يترأس مثل هذه الاجتماعات حتى عهد السلطان محمد الفاتح الذي أوكل أمر ذلك الى الوزير الاعظم• وبالاضافة الى هذه الاجتماعات الدورية التي كان يحضرها أشخاص معينون مثل الوزير والدفتردار وآغا الانكشارية وشيخ الاسلام ، فان اجتماعات الاشخاص الرسميين كان أيضا يطلق عليها اسم الديوان •

وقد عرف الديوان كاجتماع رسمي في الولايات العثمانية ، ولكنه اختلف من ولاية الى أخرى من ناحية نوعية الاشخاص المدعوين للاجتماع ومواعيد انعقاده • ففي مصر مثلا نص القانون نامه الذي صدر في سنة ٩٣١/١٥٢٤ـ١٥٢٥ على عقد الديوان أربع مرات في الاسبوع ، وهذا عكس ما كان عليه الامر في ولاية الشام مثلا حيث لم يكن هناك من مواعيد معينة لعقد الديوان ، فكان يدعى للانعقاد حين تستدعي الحاجة ذلك • كما أن نوعية الاشخاص الذين دعوا للاجتماع اختلفت حسب الظروف والمواضيع المطروحة للمباحثة • فحين يكون مدار البحث في الديوان تخفيض سعر الخبز يدعى عندئذ ممثلون عن أصحاب المطاحن والافران لاعطاء الخبرة ، وأهم من ذلك لاشراكهم في مسؤولية القرارات التي تتخذ والتي غالباً ما هددت مصالح من يمثلونهم •

ادارة شؤون الاقطاعات والشؤون المالية • ـ سميت الدائرة التي كانت تعنى بشـؤون الاقطاعـات في استانبول بالدفترخانـه (Defter - hane) ودعي رئيسها بالدفتر أميني (Defter emin-i) أو أمين الدفتر • وكانت

---

١ ـ انظر Gibb and Bowen, I.i. 115 ff.

هذه الدائرة تقسم الى ثلاثة أقسام : دائرة الاجمال (icmal) وتعنى بالوثائق التي تحدد فيها حدود الولايات وتقسيماتها وجميع الاقطاعات ؛ ودائرة المفصل (Mufassal) وتعنى بوثائق الملكية الخاصة ؛ ودائرة الرزنامه (Ruzname) وتعنى بالتبدلات التي تطرأ على الاقطاعات وأصحابها[١] •

ولما كان عمل الدفتر خانه يتعلق الى درجة كبيرة بشؤون الاقطاعات وأصحابها فان أهميتها ازدادت حين بلغ النظام الاقطاعي ذروته • وكان يساعد الدفتر أميني موظفان رئيسيان : كاخيا الدفتر (Defter Kahyasi) ويتعلق عمله بالاقطاع من نوع الزعامت ؛ ودفتردار التيمار (Timar defterdar) الذي يتعلق عمله بالاقطاع من نوع التيمار • ولم تكن هذه الوظائف مقتصرة على استانبول اذ وجد مثلها في الولايات التي احتوت على اقطاعات كولاية الشام مثلا التي وجد فيها دفتر أميني[٢] وكاخيا الدفتر ودفتردار التيمار[٣] • ويبدو أنه بانحطاط نظام الاقطاعات وأصحابها انحطت بالمقابل الدوائر المتعلقة بهم حتى أنه ذكر في ١٠٢١/١٧٠٩-١٧١٠ أن شخصاً يدعي ابراهيم باشا قد عين في ولاية الشام برتبة كاخيا الدفتر ليشرف على شؤون الزعامت والتيمار معاً[٤] • وبلغ هذا الانحطاط ، الذي بدأ في القرن الخامس عشر ، ذروته في القرن الثامن عشر ، ونتج عن ذلك دمج كثير من وظائف الدفتر خانه أو الغاء بعضها •

---

١ - المصدر السابق ، ص ١٢٧

٢ - انظر :

B, Lewis, « Studies in the Ottoman Archives - I », BSOAS, XVI. 3 (1954), p. 482 : « Studies - I, » : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي

٣ - انظر :

Ayn-i Ali, Kayanini-i al-i Osman, translted from Turkish into French by M. Belin in « Du Régimes des fiefs militaires », Journal Asiatique, XV (1870), p 273 : Belin : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي

٤ - انظر : محمد الامين المحبي : خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، أربعة أجزاء القاهرة ١٢٨٤/١٨٦٩ (أعادت بمكتبة خياط طبعه عام ١٩٦٦ في بيروت) ، انظر الجزء الاول ، ص ٣٠ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : المحبي •

وتناقصت تبعاً لذلك أهمية الدفتر أميني في حين أن أهمية دفتردار الشؤون المالية كانت تتزايد بسبب ازدياد اعتماد الدولة على الموظفين والجند ، الذين نعطيهم المرتبات وليس الاقطاعات •

وتسمى دائرة الشؤون المالية بالدفتردارية (Defterdarlik) ويرأسها موظف يسمى دفتردارا ، وكان يعني بحساب واردات ومصروفات الدولة • وعندما كانت الدولة العثمانية تتألف من روميلية والاناضول كان اهتمام الدفتردار الاعلى (Bash Defterdar) يتركز في روميلية ولهذا لقب أيضاً بدفتردار روميلية•وفي عهد السلطان بيازيد الثاني وجد دفتردار آخر ، أقل رتبة ، يعنى بشؤون الاناضول المالية • وباتساع رقعة الدولة فيما بعد ، وخاصة في القرن السادس عشر ، عين دفتردارون للولايات ليعنوا بشؤونها المالية • وعندما فقدت الدولة العثمانية هنغاريا في آخر القرن السابع عشر أصبح دفتردار روميلية ، أو الباش دفتردار ، مسؤولا عن الادارة المالية في الامبراطورية كلها ومركزه استانبول[١] •

وأشير الى الدائرة التي يرأسها الدفتردار باسم الخزينة ، وأحياناً الخزينة العامرة أو الميرية نسبة الى الاراضي الاميرية اي اراضي الامير الحاكم أو اراضي الدولة ؛ ومن هنا تحريفها الى أراضي ميرية • وسميت الضرائب المأخوذة منها بالضرائب الميرية أو أموال الميري أو ، باختصار ، الميري • وكان يلقب الدفتردار وكثير من موظفي دائرته بلقب أفندي ، الذي لقب به عادة العلماء • وكان يجمع بين الفريقين كونهم من أهل القلم •

ولتحصيل الضرائب على أراضي الدولة كانت هذه الاراضي تقسم الى مقاطعات ويعطى حق جمع ضرائبها الى أشخاص يسمون مقاطعجية أو ملتزمين • وكانت مدة لالتزام في الاصل سنة واحدة ، واشترط على الملتزم عدم تحصيل أكثر من النسبة المعينة ولكن بانحطاط الدولة أصبح الملتزمون

---

١ ـ انظر Gibb and Bowen, I.i. 129 ff.

يستغلون مركزهم فيجمعون أكثر من المبالغ القانونية ويسيئون بذلك الى الفلاحين والى اقتصاد الريف بصورة عامة • وبلغ من ازدياد سلطة بعض الملتزمين ، ازاء تساهل الدولة ، ان احتكروا الالتزام عدة سنوات وأورثه بعضهم الى أبنائهم من بعدهم • وأصبحت غالبية الملتزمين تتمتع بسلطة سياسية ، ولا أدل على ذلك من مثال ظاهر العمر الذي ورث الالتزام في منطقة صفد ـ طبرية عن أبيه ، ثم احتكره لنفسه وبلغ بذلك شأواً كبيراً من السلطة ، كما سنرى في حينه •

ويفوق المحصل الملتزم في وظيفة جمع الضرائب وكان مسؤولا عن جمع الضرائب من الملتزمين • وفي بعض الاحيان كان منصب المحصل مندمجاً مع منصب الوالي في الولاية ، كما كان الامر في ولاية الشام مثلا ، أو منفصلا عنه ، كما في ولاية حلب حيث شغل منصب المحصل شخص غير الوالي • وحين كان الوالي هو المحصل كان يستخدم قواته ليجمع مال الالتزام من الملتزمين • ويضطر تبعاً لذلك ، الى الاصطدام أحياناً مع الملتزمين المتمردين ، كما حدث في حملات ولاة دمشق على ظاهر العمر وعلى أمراء جبل لبنان الملتزمين • وعملت الدولة من ناحيتها على تخليص الفلاحين من ظلم الملتزمين الذين يريدون ابتزاز أكبر مقدار من المال قبل عزلهم عن الالتزام ، فأصدرت في أواخر القرن السابع عشر نظام المالكانه (malikane) الذي منح الالتزام لمدى الحياة • وهذا يعني أن صاحب المالكانه لم يعد مهدداً دائماً بالعزل ، وبالتالي لم يعد مضطراً للاسراع في ابتزاز مال الفلاحين ، فأرتاح هؤلاء بموجب هذا النظام الذي حد نوعاً ما من الاستغلال وان لم يكن قد استأصله •

الجيش العثماني • ـ يمكننا أن نلاحظ ثلاثة أقسام رئيسية في الجيش العثماني : الجنود الاقطاعيون ، الانكشارية ، والجند الخاص و المرتزقة •

١ ـ الجنود الاقطاعيون • ـ سبقت الاشارة في أكثر من مناسبة الى الجنود الاقطاعيين المعروفين بالسباهية (Sipahis) ، أي الفرسان • وكان

هؤلاء الجنود يمنحون اقطاعات من أراضي الدولة مقابل خدمتهم في الجيش وتجهيز جنود تابعين لهم يتوقف عددهم على سعة اقطاعاتهم ومقدار وارداتها • وكانت غالبية الاقطاعات تمنح على أساس أنها معاش (dirlik) يرتزق منها السباهي • واختلفت أنواع الاقطاعات ، فهناك التيمار Timar وهو اقطاع لايزيد دخله السنوي على ١٩،٩٩٩ أقجه Akçe (أي اسبر aspre) ، وهي وحدة نقدية في الدولة العثمانية ؛ وهناك اقطاع الزعامت (Zi'amet) ، ويتراوح دخله من ٢٠،٠٠٠ الى ٩٩،٩٩٩ أقجة ؛ ثم الخاص (Khass) ودخله يزيد على مئة الف أقجه • ومنحت الاقطاعات من نوع الخاص الى بعض أفراد الأسرة الحاكمة ، كما ألحق بعضها بالمناصب العليا ، مثل منصب الوالي ، وانفق ايرادها ، في هذه الحالة ، على متطلبات هذا المنصب •

ويتألف التيمار والزعامت من نواة أساسية تسمى Kiliç أي سيف ، ووجه التسمية أن واردات هذه النواة كافية لمعيشة السباهي نفسه ، وهكذا يكسب السلطان محارباً أو سيفاً • وتلحق بالنواة أجزاء أخرى تسمى حصص تضاف اليها بعملية تدعى الترقي ، والغاية من هذه الحصص تشجيع السباهي على القيام بواجبه بشكل مرضي أو مكافأته على عمل قام به • وعلى عكس القليج ، الذي كان يورث في بعض الاحيان وضمن شروط خاصة ، أمكن انتزاع الحصص بمجرد انحلال الاقطاع واعطاؤها لاناس آخرين[١] •

كان قادة السباهية بالاصل هم غالباً حكام الولايات ، وحين كان البيلربيي (Beyler Beyi) ، أو بك البكوات ، أعلى هؤلاء الحكام رتبة في بداية الدولة كان هو الذي يمنح الاقطاعات • ولكن الحكومة المركزية في سنة ١٥٣٠ ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، سحبت هذه الصلاحية من حكام الولايات الا فيما يتعلق بمنح تيمارات صغيرة يختلف دخلها حسب الولايات ، واحتفظت لنفسها بحق منح الاقطاع بموجب صك يسمى

١ ـ انظر Gibb and Bowen, I.i. 48 ff.

براءة • وبقي للوالي أيضاً حق تزويد المرشح لاخذ الاقطاع بتوصية تسمى تذكرة يأخذها الى استانبول ، ولكن هذه التذكرة لم تكن ملزمة للدولة لمنحه الاقطاع • وذكر أن التيمار بتذكرة ، أي التيمار الـذي منحه السلطان بموجب براءة وبناء على تذكرة يحملها المرشح من الوالي ، كان يزيد دخله على ستة آلاف أقجة • أما التيمار بلا تذكرة ، أي الذي منحه حاكم الولاية نفسه ، فكان دخله دون ستة آلاف أقجة • والاقطاعات التي لاتحتاج الى تذكرة كانت تمنح عادة الى أناس نالوا اقطاعات فيما سبق أو رشحوا للاقطاعات بحكم الوراثة • أمـا اذا منح شخص اقطاعاً لاول مرة وجب عليه أخذ براءة من الحكومة المركزية بقطع النظر عن دخل التيمار[1] •

وكان يطلب من السباهية لقاء منحهم الاقطاع الاشتراك في الحرب ، كما طلب منهم أيضا ، اذاتجاوز دخل اقطاعهم حداً معيناً ، تجهيز عدد من الجنـود يدعي واحدهـم جبلي (cebeli) ، نسبة الى جبـة العربية ، ويختلف عددهم باختلاف نوع الاقطاع ، وبالتالي مقدار الدخل الذي يعطيه[2] • ولكن بانحطاط الجنود الاقطاعيين بالتدريج أصبح بامكانهم دفع ماعرف بمال البدل مقابل اعفائهم من الخدمة •

وكان السباهية يوضعون أثناء الحملات العسكرية تحت قيادة حكام الولايات ، ومع ذلك فقد وجد لديهم قادة من بينهم دعي أعلاهم رتبـة الاي بك (alay beyi) • ويختار هذا القائد في كل صنجق[3] أو لواء من قبل أصحاب الاقطاعات ، ويعطى اقطاعاً من درجة زعامت مدى الحياة • ويلي هـــذا القائد في الرتبة التشري باشي (çeribashi) أو الصوباشي (Subashi) ، ويختار من بين أصحاب اقطاع زعامت في المناطق الادارية الصغيرة ضمن الصنجق • وفي حالات السلم كان هذا الموظف يقوم باعمال الشرطة •

---

١ ـ انظر : Ibid.; Lewis, « Studies - I » , 480,481

٢ ـ انظر : Inalcik, 120,121

٣ ـ أصل الكلمة بالتركية سنجق ولكن شاع استعمالها في غالبية المصادر العربية المعاصرة بشكل صنجق •

واذا توفي السباهي فان نواة اقطاعه ، القليج تنتقل الى ابنه • واذا لم يكن له ولد ، أو اذا كان له ولد غير قادر على تصريف شؤون الاقطاع بقي الاقطاع شاغراً ، وتجمع الدولة وارداته حتى يتم تعيين شخص آخر له •

كان المورد الرئيسي للسباهية ، بجانب مايغنمونه في الحرب ، هو العائدات التي يجمعونها من الفلاحين المقيمين في اقطاعاتهم ، ولذلك فان دعوة السباهية بشكل جماعي للاشتراك في الحرب من شأنه أن يعطل سير الامور في الريف • ولتجنب هذا الامر كان يسمح لواحد من عشرة أن يتخلف ، كما كان يسمح للبعض ، أثناء توقف القتال ، بالرجوع الى اقطاعاتهم للاهتمام بالارض وجمع حاصلاتها للانفاق على أنفسهم • وارتباط السباهي بالاقطاع كانت له محاسنه ، وخاصة في أول عهد الدولة ، ثم استشرت سيئاته في عهد انحطاط السلطة المركزية • وكمثال على محاسن هذا النظام نذكر ماحدث اثر هزيمة السلطان بايزيد الاول من قبل تيمور في سنة ١٤٠٢ • فحين حاول خلفاء بايزيد اعادة الاجزاء والامارات التي سلخت من دولتهم ، لعب الجند الاقطاعيون دوراً كبيراً في ذلك ، اذ ان دفاتر التيمارات في العاصمة العثمانية احتوت على مستندات الاقطاعات وأسماء أصحابها من السباهية في الاراضي التي فصلت عن الدولة • وقام أصحاب الاقطاعات يحاولون استعادة اقطاعاتهم ، وساعد ذلك على اعادة دمج الاراضي المنفصلة بالدولة العثمانية ، وبالتالي على توحيد الدولة من جديد[1]• وتجدر الاشارة هنا الى أن الذين منحوا الاقطاعات لم يكونوا جميعاً من الاتراك بل كان بينهم أناس من السكان المحليين الذين أيدوا العثمانيين طمعاً بمثل هذه الامتيازات[2] •

ومن المساوىء الرئيسية لنظام الجنود الاقطاعيين ارتباط السباهي بالاقطاع الى درجة جعلته ، في عهد انحطاط الادارة المركزية ، يتهرب من

---

١ ـ انظر Inalcik, 120.

٢ ـ انظر Ibid., 113 ff.

الخدمة مما اضطر السلاطين الى زيادة عدد الجنود ذوي المرتبات كالانكشارية ، والاعتماد عليهم أكثر من السباهية •

٢ ـ الانكشارية • ـ رأينا فيما سبق[1] كيفية تجنيد أفراد الانكشارية عن طريق خمس الغنائم أولا ثم بواسطة الدفشرمة ، أي عملية جمع الشبان • وكان أحسن هؤلاء الشبان يختارون ويدربون تدريباً خاصاً في أحد القصور الامبراطورية القديمة في بروسه وأدرنة أو في مدارس خاصة في استانبول ذاتها ، ويستخدم هؤلاء فيما بعد في قصر السلطان حيث يرتقون ، حسب كفاءاتهم ، في مختلف المراتب ، ويصبح بعضهم من مرافقي السلطان ، كما يختار البعض للمناصب العليا في الدولة كالوزارة العظمي أو حكومة الولايات • أما من بقي من هؤلاء الشبان ، وهم الكثرة الغالبة ، فيدربون في مدارس أقل شأناً ثم يدخلون الجيش الانكشاري بمختلف رتبه ويصبحون بغالبيتهم من المشاة •

وكان يطلق على جميع هؤلاء الشبان ، حصيلة الدفشرمة ، لقب قابي قولاري (Kapi Kullari) ويعني عبيد الباب[2] ، أي عبيد السلطان على أساس أن هؤلاء الشبان ، مثل الشبان الذين أصبحوا مماليك في السلطنة المملوكية ، قد جندهم السلطان لخدمته ، وأصبحوا بمثابة عبيده وذلك للتفريق بينهم وبين المسلمين الاحرار الذين منعوا في الاصل من دخول الانكشارية • وأصبح تعبير قابي قول (Kapi Kul) المختصر يطلق خاصة على الانكشارية حتى بعد أن أخذ المسلمون الاحرار يصبحون انكشارية بانحطاط أسس هذا الجيش •

وتمتع قائد الانكشارية ، ويسمى الآغا ، في استانبول بمكانة هامة لأن الجيش الانكشاري كان أقوى أداة عسكرية تحت تصرف السلطان ولأن الآغا كان يقوم بأعمال رئيس الشرطة في استانبول • وكان يعين الآغا

١ ـ انظر ص ٤١ ـ ٤٢ •

٢ ـ قابي (Kapi) تعني باب ، وفي هذا المقام تعني باب الحاكم ، وهذا المعنى مأخوذ من الفارسية حيث كان الحاكم يجلس عند الباب الكبير في مدخل قصره يستقبل أصحاب المصالح • قول (Kul) تعني عبد ، وهكذا فان تعبير Kapi Kulu يعني عبد الباب ، والجمع يكون Kapi Kullari ، أي عبيد الباب •

حتى مطلع القرن السادس عشر من بين ضباط الانكشارية • الا أن السلطان سليم الاول ، الذي قاسى من تمرد الانكشارية أثناء الحملات كما رأينا في معركة جالديران ، حاول الحد من هذا التمرد بأن عين الآغا من أفراد حاشيته ، وبقي الامر كذلك نحو قرن من الزمن •

وقسمت الانكشارية الى ١٩٦ فرقة تسمى احداها أورطة (orta) ولما كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة ، تسمى بالتركية أوضة ، استخدمت هذه اللفظة كبديل عن أورطة • وكان عدد أفراد الاورطة يختلف حسب المكان والزمان والحالة السياسية • فعدد الاورطة في استانبول يختلف عن عددها في الولايات ، وعددها زمن السلم يختلف عن زمن الحرب • وفي مختلف هذه الحالات كان عددها يتراوح عادة بين خمسين وخمسمائة رجل • ولم يكن جميع هؤلاء الافراد ، في فترة انحطاط الدولة وظهور المساوىء بين الانكشارية ، قادرين على الحرب ، كما لم يكن عددهم في الواقع ينطبق على عددهم الرسمي نظرياً اذ ان كثيراً من الاسماء كانت مختلقة وقد وضعت في قوائم المرتبات ، وتدعى (esami) ، المشتقة من اسم ، لتقاضي المال عنها من قبل بعض المتنفذين بين الانكشارية •

واختلفت مرتبات الانكشارية باختلاف الرتبة والخدمة ، ورغم أن الانكشارية كان بامكانهم الضغط على السلطان للحصول على مايريدون منذ مطلع القرن الخامس عشر ، الا أنه بقي يوجد لديهم انضباط ماداموا يجندون عن طريق الدفشرمة • فكانوا يعيشون في الثكنات ويمنعون من الاتصال بأقربائهم ويحظر عليهم الزواج حتى يحالوا على التقاعد • وكان لايسمح لابنائهم بالانتساب الى الانكشارية الا في حالات معينة ومحدودة جداً • ولكن حين فسد نظام الانكشارية وسمح للمسلمين الاحرار بالانتساب اليهم والغيت الدفشرمة في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) ، سادت الفوضى بين أفراد هذا الجيش ، وتعرض السلاطين لثوراتهم ، وخلع بعضهم ، كما قتل آخرون على يدهم •

وبازدياد عدد الانكشارية وباتساع رقعة الدولة ، أرسل الانكشارية

ليقيموا كحاميات في الولايات • وكان للانكشارية في الولاية آغا يقيم في مركز الولاية ويعين من قبل آغا الانكشارية في استانبول • ورغم أن هذا الاستقلال في التعيين عن الوالي كان يقصد به موازنة سلطة هذا الاخير الا أن الانكشارية ، في الحملات العسكرية ، كانوا يوضعون تحت امرة الولاة •

وحين فسد نظام الانكشارية ، وأهملت الدفشرمة ثم الغيت ، وأصبح بامكان السكان المحليين دخول هذا الجيش ، حدث شبه اندماج بين الانكشارية والسكان المحليين عن طريق التزاوج أو بسبب انتساب الانكشارية الى أصحاب الحرف ، وبالعكس ،ليستفيد كل فريق من الآخر• وبازدياد انتساب السكان المحليين الى الفرق الانكشارية في الولاية للتمتع بامتيازاتهم ، غلب الطابع المحلي على الانكشارية حتى أصبحوا يعرفون في بعض الولايات ، كما هو الحال في ولاية الشام ، باسم يرلية(Yerliyya من Yer التركية وتعني محل)•واضطر السلطان في كثير من الاحيان، ازاء اندماج الانكشارية بالسكان المحليين وعملهم لمصلحتهم قبل مصلحة الدولة ، أن يرسل فرقاً جديدة لتتسلم المسؤوليات الرسمية من اليرلية وتكون أكثر خضوعاً للسلطان[1] •

وكانت هناك علاقة وثيقة بين الانكشارية والدراويش ، لاسيما دراويش الطريقة البكطاشية التي تنظمت في القرن الخامس عشر • وقد سبق أن رأينا اثر الحركات الصوفية بين الغزاة مؤسسي الامارة العثمانية وعطف الدول العثمانية ، اثر قيامها ، على الدراويش والحركات الصوفية • كما أن منظمات الأخية التي كانت لها أسس صوفية والتي أسهمت بتنظيماتها في توطيد الامارة العثمانية وفي تنظيم الجيش الانكشاري ، قد زادت من ارتباط هذا الجيش بالدراويش • وحين تنظمت الطريقة البكطاشية في القرن الخامس عشر ، اعترفت الدول رسمياً برعاية هذه الطريقة للجيش الانكشاري • وفي عام ١٥٩١ الحقت الطريقة البكطاشية

---

١ ـ انظر الفصل الثامن بشأن تحول انكشارية دمشق الى يرلية •

بالاورطة التاسعة والتسعين ، وأقام الدراويش البكطاشيون في أوضة هذه الفرقة[1] • ومن أمثلة هذه العلاقة بين الانكشارية والمتصوفة انه عندما ثار جان بردي الغزالي ، والي دمشق العثماني ، على العثمانيين ، اثر وفاة السلطان سليم الاول[2] ، واحتل قلعة دمشق التي رابط فيها الانكشارية ، وجد فيها نحو مائة وخمسين شخصاً من انكشارية وفقهاء ومتصوفة • ولم تقتصر علاقة الدولة بالمتصوفة على الفترة الاولى من حياة الامبراطورية العثمانية ولا على الجيش الانكشاري فقط • وسنرى كيف أن السلطان سليم الاول كرّم اثر فتحه دمشق ، مثوى محي الدين ابن عربي المتصوف المشهور المدفون في صالحيتها (توفي سنة ١٢٤٠ م) ، بأن خصه بزيارة وأمر ببناء تكية عند قبره • وكانت رعاية الدولة العثمانية للحركات الصوفية من الأسباب التي أدت الى ثورة محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس الحركة الوهابية في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، على السلطان العثماني والى دعوته للتمسك بمبادىء الاسلام كما في عهد السلف الصالح •

٣ ـ الجند الخاص أو المرتزقة • ـ كان للولاة ، حكام الولايات ، حرس خاص وحاشية اختلف عددهم باختلاف رتبة الوالي الذي كان أما بيلربياً أو وزيراً • وكانت نفقاتهم تدفع عادة من واردات الولايـة • وقد ازداد عدد هذه العناصر لدى الولاة الاغنياء ، بقطع النظر عن رتبهم ، بسبب تمكنهم من دفع النفقات الاضافية من واردات ممتلكاتهم الخاصة • وكان بعض الولاة الاغنياء ، مثل الحكام من آل العظم في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، يحتفظون في خدمتهم بمماليك ، يشتركون مع المماليك المعروفين في التاريـخ كجنـود بالاسـم وطريقة الشراء والعلاقـة بـين الاستاذ والمعتوق ، ولكن ، بالنسبة لآل العظم ، لم يشكلوا قوة عسكريـة كمماليك مصر آنذاك أو كمماليك بغداد في القرن الثامن عشر الذين استخدمهم ولاة بغداد حسن باشا (١٧٠٤ ـ ١٧٢٤) وابنه أحمد باشا (١٧٢٤ ـ

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen. I.i. 64 f.

٢ ـ انظر : ابن طولون ، Das Tübinger, ، ١١٦ ؛ مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ١٢٤ .

١٧٤٧) لغايات عسكرية ثم تمكنوا من تسلم حكم ولايتي بغداد والبصرة ، بعد وفاة أحمد باشا ، واستمروا يحكمون حتى ١٨٣١ • وليس المقصود هنا بالجند الخاص أو المرتزقة قوى الحرس الخاص أو الحاشية اذ ان الجند المرتزقة شكلوا طائفة هامة من القوات العثمانية ، بجانب السباهية والانكشارية ، واستفاد منهم الوالي في توطيد سلطته •

وازداد اعتماد الولاة على الجند المرتزقة بازدياد الفوضى وانعدام النظام في صفوف الفرق السباهية والانكشارية ، وخاصة في القرن الثامن عشر • وكانت نفقات الجند المرتزقة تؤمن عادة اما من واردات الخزينة السلطانية أو بفرض الضرائب أو بمصادرة بعض فئات السكان • ولم يكن الولاة وحدهم الذين استخدموا هؤلاء الجند المرتزقة ، بل نجد بعض الامراء المحليين ، مثل فخر الدين المعني الثاني ، وحتى بعض الملتزمين الذين أصبحوا أمراء محليين ، مثل ظاهر العمر ، يحتفظون بمثل هذه القوات لتدعيم سلطتهم ضد الاعداء ، وخاصة ضد حكام الولايات التابعين لها •

واختلفت أنواع الجند المرتزقه باختلاف الزمان والمكان • ففي نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر نجد أن الجند المرتزقة الذين استخدمهم فخر الدين المعني الثاني وحليفه علي باشا جانبلاط ، الذي ثار في ولايه حلب ، كانوا يسمون السكبان • وهذه الكلمة فارسية الاصل تتألف من مقطعين : (سك) وتعني كلب و (بان) وتعني صاحب أو حامي ، وتعنيان معاً الكلابي ، أي الذي يقود الكلاب ويسير مع الأمير الى الصيد • وبالتدريج أطلقت هذه الكلمة على من كان موصوفاً بالبطالة[1] • والكلمة

---

١ ـ المحبي ، ج ٢ ، ٣٢٤ ؛ انظر أيضا : الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، برقم Cod. Arab. 1190 Mixt. 346 الاوراق ١٠١ آ ـ ١٠١ ب • لم يطلع الدكتور صلاح الدين المنجد على هذا المخطوط حين بدأ بنشر هذا المؤلف ، وقد أصدر منه جزئين حتى الآن في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حاليا) ، في سنتي ١٩٥٩ و ١٩٦٦ • وقد استخدمنا هنا المصدر المطبوع ليسهل على القارىء الرجوع اليه ، وسنذكره باختصار كما يلي: البوريني • ونظرا لوجود معلومات اضافية احيانا في مخطوط فيينا ، ونظرا أيضا لعدم انتهاء الدكتور المنجد من نشر الكتاب فسنشير الى مخطوط فيينا اذا لزم الامر •

التركية (سقمان) ،التي كانت تطلق على فرقة مشاة في الجيش العثماني قبل الانكشارية ، كانت تحريفاً لكلمة سكبان هذه .

ولم يعتمد الولاة في بلاد الشام أو مصر في القرنين السادس والسابع عشر على الجند المرتزقة بشكل ملحوظ بسبب قوة سلطتهم نسبياً وبسبب عدم وجود متطلبات محلية تستدعي ذلك . وقد ازداد الاعتماد على هذه القوات في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، بسبب ما حدث من اضطرابات بين فرقتي اليرلية والقابي قول ، وبسبب تكليف ولاة دمشق بامارة الحاج باستمرار ، منذ حوالي منتصف الربع الاول من القرن الثامن عشر ، مما اقتضى استخدام قوات اضافية لحماية الحجاج .

وعلى عكس بلاد الشام حيث الظروف مناسبة والحاجة ملحة للجند المرتزقة ، نجد أن ولاية مصر العثمانية حتى مجيء محمد علي باشا لم تشهد استخداماً واسعاً للجند المرتزقة ولا أنواعاً مختلفة لهم ، وفي الحقيقة لم يلعب الجند المرتزقة في مصر دوراً هاماً كالدور الذي لعبوه في بلاد الشام . ويمكن ارجاع أسباب ذلك الى طبيعة تكوين مختلف القوات العسكرية في مصر . فالطوائف العسكرية السبع في مصر[1] كانت كافية نسبياً للمحافظة على الامن . وكان الوالي اذا ثارت أو تمردت طائفة ما يلجأ الى الطوائف الاخرى لكبحها . وحين ضعفت الادارة العثمانية ، وبالتالي سلطة الولاة في القرن الثامن عشر ، لم يعتمد ولاة مصر على الجند المرتزقة لموازنة القوى العسكرية كما حدث في بلاد الشام آنذاك ، بل ظهرت قوة جديدة قامت بهذا العمل عوضاً عن الولاة وهي طائفة المماليك التي كانت توطد نفسها منذ القرن السادس عشر والتي بلغت أوجها في مصر في القرن الثامن عشر ، فطغت على سلطة الولاة وعلى سلطة الطوائف العسكرية العثمانية الأخرى[2] .

وبالاضافة الى ازدياد اعداد الجند المرتزقة في بلاد الشام في القرن

---

١ ـ انظر بشأن هذه الطوائف آخر الفصل السادس .

٢ ـ هذه الاستنتاجات مبنية على الدراسة التفصيلية لتاريخ مصر في الفصول اللاحقة .

الثامن عشر ، ازدادت أنواعهم أيضاً • واشتهر من بينهم اللاوند والدالاتية والمغاربة والتفنكجية • وقد اشتهر اللاوند في الاناضول منذ عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١–١٥١١) • والتسمية مشتقة من كلمة (Levantino) التي أطلقها سكان البندقية (Venice) على البحارة الذين خدموا في أسطولهم وكانوا من أصل شرقي ، أي من سواحل آسية الصغرى • وقد استعيرت هذه التسمية لبحارة الاسطول العثماني وحورت الى لاوند (Levend) • وبتمرد هؤلاء البحارة نظراً لاعتمادهم على واردات الغزو، استبدلهم السلطان بايزيد الثاني ببحارة جدد سموا عزب (Azeb) وتمرد هؤلاء بدورهم لعدم وجود مورد ثابت لهم ، فسرحوا من البحرية في أواخر القرن السادس عشر ، واستخدم بحارة من نوع آخر منحوا اقطاعات • ولكن مشكلة صلاحيتهم للخدمة لم تحل اذ انهم تعلقوا باقطاعاتهم أكثر من واجبهم في البحر مما اضطر السلطان أن يأخذ منهم مالا بدل الخدمة ، واستأجر بهذا المال بحارة آخرين [١] • وبعد تسريح اللاوند من الخدمة انساح أفرادهم في الاناضول وغربي آسية يبيعون خدماتهم لمن يطلبها • وبقيت التسمية قائمة رغم اختلاف أجناس العناصر التي اتخذت اسم لاوند كالاكراد والتركمان •

أما الدالاتية فتسميتهم مشتقة من كلمة (Deli) التركية وتعني أحمق أو مجنون ، ودعوا بذلك نظراً لطيشهم ، وجندوا من أجناس مختلفة من الاناضول • وقد اعتمد عليهم مثلا والي دمشق أسعد باشا العظم في القضاء على تمرد اليرلية • وكان المغاربة من أصل مغربي ، من شمال أفريقية ، وتوصلوا الى بلاد الشام ومصر بطريق القرصنة أو الحج أو المجاورة (قرب الاماكن المقدسة) واستخدموا كمرتزقة في البلدين • أما التفنكجية فتسميتهم مشتقة من (تفنكة) أي بندقية ، نظراً لكونهم من المشاة حاملي البنادق • وكانت عناصرهم عادة من أصل محلي • فالتفنكجية مثلا الذين

---

١ – انظر : Gibb and Bowen, I.i. 99.

استخدموا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر كانوا بغالبيتهم من أصل موصلي أو بغدادي ، وعملوا عادة كشرطة[1] .

تقسيم الدولة الى ولايات .- تميز حكام المناطق العثمانية عن غيرهم من الموظفين باستخدام اللواء (الراية) ، الذي كان يطلق عليه في التركية اسم سنجق Sancak ، وفي العربية عادة صنجق ، ولهذا عرف هؤلاء الحكام باسم أمير لواء ، التي اختصرت فأصبحت مير لواء (Mir Liwa') ، أو باسم سنجق بك (صنجق بك) (Sancak beyi) ولما كان هؤلاء مسؤولين عن قيادة جنود مناطقهم في الحرب وعن تصريف الشؤون الادارية فيها ، أطلق لفظ صنجق أو لواء على المنطقة التي كانوا يحكمونها . وكان الصنجق ، حتى افتتاح القسطنطينية ، الوحدة الادارية الرئيسية في تقسيم مقاطعات الدولة . ووجدت في البداية مجموعتان من الصناجق : مجموعة صناجق روميلية ومجموعة صناجق الاناضول ؛ وكان يترأس كل مجموعة شخص يسمى بيلربيي (Beyler Beyi) أو مير ميران أي أمير أميران (علامة الجمع هنا فارسية) ، وتعني اللفظتان بك البكوات أو أمير الامراء . وأطلق على كل مجموعة اسم الولاية أو الايالة (من فعل آل العربي ، وتكتب الكلمة بالتركية Eyalet) ، وتألفت من عدد من الصناجق .

كانت الاشارة التي تميز بك البكوات (البيلربيي) عن الصنجق بك هي عدد الاطواخ . وكان يعلق على الراية أمام الاول ذنبا حصان ، أي طوخان ، وربما اشتق هذا من عادة قبلية قديمة . أما الصنجق بك فيعلق طوخ واحد على رايته . وحين منح لقب وزير (Vezir) الى عدد كبير من الناس المقربين ، وانحطت قيمته تبعاً لذلك ، طالب حملة هذا اللقب بتعيينهم حكاماً على الولايات . وكان يعلق على راية الوزير حاكم الولاية

---

١ ـ للحصول على دراسة تفصيلية عن طرق تجنيد واستخدام ومهام هذه الفرق المرتزقة في بلاد انظر كتابنا : The Province of Damascus, PP. 35 - 42.

ثلاثــة أطواخ[١] • وبازدياد عـــدد المرشــحين من حملــة لقب وزير لمنصب والي ، أصبح غالبية حكام الولايات يختارون من حملة هذا اللقب ، وتناقص بالتالي عدد وأهمية البيلربية وعينوا للولايات الصغيرة ، مثال ذلك أن ولاة الشام طيلة القرن الثامن عشر كانوا من رتبة وزير بينما كــان غالبية ولاة صيدا ، الاقل شأناً ، في نفس الفترة من البيلربية • وكان يطلق على الوالي من رتبة بيلربيي أو وزير لقب باشا المختصرة من كلمة باديشاه (Padishah) الفارسية ، وتعني حاكم أعلى • وأطلق المؤرخون العرب المحليون على الوالي لقب كافل ، وعلى الولاية لقب كفالة • واستخدمت أحياناً ألقاب نائب ونيابة ، وكثرت هذه الالفاظ اثر الفتح العثماني ، وكانت استمراراً لتعابير مملوكية •

وبازدياد رقعة الامبراطورية ازداد عدد الولايات حتى أنها بلغت في النصف الثاني من القرن السابع عشر تسعاً وثلاثين ولاية • وكان الصنجق يقسم الى وحدات ادارية أصغر هي الاقضية ، وتقسم هــذه بدورها الى النواحي • وكان يجوز اقتطاع بعض الصناجق من ولاية ما وجعلها ولاية قائمة بذاتها ، كما حصل مثلا حين أسست ولاية صيدا في ١٦٦٠ وقـــد اقتطعت من ولاية دمشق لاسباب متعددة[٢] •

كــان حكام الولايات والصناجق يعينــون في البدء من بين أصحاب الاقطاعات أو كانوا يعطون اقطاعات حين تعيينهم لهذه المناصب • وحــين أصبح غالبية هؤلاء الحكام يعينون ، فيما بعد ، من أفراد الدفشرمة بدأوا يأخذون نفقاتهم غالباً من واردات الاقطاعات المخصصة لمناصبهم • أما في الولايات حيث لاتوجد اقطاعات ، مثل ولاية مصر ، فكان الولاة يتقاضون مرتباتهم نقداً من واردات الخزينة التي يجمعها الملتزمون ؛ وما زاد من أموال الواردات ، بعد سد جميع النفقات ، أرسل الى استانبول ، وعرف

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I.i. 139 ft. ؛ وأيضا مقال Tugh في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى .

٢ ـ انظر حول ذلك الفصل الثامن .

ذلك المال باسم ارسالية خزينة (أو باختصار خزنة) . ومثل هذه الولايات كانت تسمى سالياني (Saliyaneli) ، أي سنوية (من Sal الفارسية وتعني سنة) ، نسبة الى منح موظفيها مرتبات [1].

وتجدر الاشارة الى أن بعض الولايات لم تقسم الى صناجق مثل ولايتي البصرة واليمن . وعلى عكس جميع ولايات الدولة العثمانية ، فان الوحدة الادارية في ولاية مصر فقط عرفت باسم كشوفية ، وعرف حاكمها باسم كاشف ، وليس بأسماء صنجق وصنجق بك كما هو الامر في غيرها . أما تعبير صنجق في مصر فكان مجرد رتبة [2].

الموظفون الدينيون . لعب كبار الموظفين الدينيين كالمفتي والقاضي ونقيب الاشراف دوراً هاماً في الدولة العثمانية . وكان تطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية يقتضي بالضرورة معالجة مختلف القضايا ، وسنرى في سياق دراستنا علاقة هؤلاء الموظفين مع القوى المختلفة في الدولة وأثرهم على مجرى الاحداث فيها . ولفهم مدى هذه العلاقة وهذا الاثر يجب علينا أن نتفهم أسس سلطة هؤلاء الموظفين . وليس المقصود من ذلك اعطاء دراسة شاملة عنهم اذ ان ذلك يخرج عن نطاق هذا الكتاب .

١ ـ المفتي أو شيخ الاسلام . ـ أقام السلاطين العثمانيون القضاة في البلاد التي افتتحوها لتنظيمها وفق مبادىء الشريعة الاسلامية وللمساعدة على استقرار وتوطيد حكمهم فيها . وقد أنشيء في عهد مراد الاول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩) منصب قاضي العسكر ، والتسمية بالنسبة الى مرافقة هذا القاضي للجيش العثماني . وفي عهد السلطان محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١) أنشيء منصب قاضي عسكر آخر ، ولقب صاحبه بقاضي عسكر الاناضول

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I.i. 148, n.1.

وانظر أيضا :

Stanford J. Shaw, The Financial and administrative organization and development of Egypt, 1517-1798, Princeton, 1962, pp. 184-188 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Ottoman Egypt, 1517-1798.

٢ ـ انظر بشأن نفوذ الصناجق في مصر الفصل التاسع .

بينما اختص الاول بشؤون روميلية • ولكن في عهد السلطان سليمان القانوني اعتبر مفتي استانبول أعلى الموظفين الدينيين ورئيس العلماء ، ولقب بشيخ الاسلام ، وترجع أهمية المفتي في هذه الفترة الى كثرة اصدار الفتاوى التي اعتمدت عليها قوانين الدولة العثمانية آنذاك ، وان لقب القانوني الذي عرف به السلطان سليمان يعكس كثرة القوانين التنظيمية التي صدرت في عهده • وكان يحق لمفتي استانبول اصدار فتوى بعزل السلطان نفسه • كما أنه هو الذي عين المفتين في مراكز الولايات الكبيرة ، وعين أيضاً القضاة الحنفيين الكبار في كثير من مراكز الولايات •

ومثل مفتي استانبول لعب المفتون في مراكز الولايات دوراً هاماً في مختلف المجالات ، وأثروا على سير الاحداث • وعلى خلاف عهد السلطنة المملوكية ، حين عين مفتي من كل مذهب ليقيم في دار العدل ومع ذلك صدرت فتاوى عن غيرهم من المفتين ، نجد في العهد العثماني أن اتباع كل مذهب اختاروا مفتياً من قبلهم اعترفت به الدولة ، ولكن المفتي الرسمي كان حنفياً وفق المذهب الرسمي في الدولة[1] • وكان المفتون في بلاد الشام ومصر غالباً من السكان المحليين ، وخاصة منذ القرن السابع عشر (في القرن السادس عشر كان كثير من المفتين في بلاد الشام من أصل رومي[2] أي غير محلي) ، وبقوا عادة في وظائفهم حتى وفاتهم •

٢ ـ القاضي • ـ يلي شيخ الاسلام في الرتبة في استانبول كل من قاضي عسكر روميلية وقاضي عسكر الاناضول • ثم يأتي في الرتبة بعد

---

١ ـ انظر ما كتبه D.B. Macdonald تحت عنوان Mufti في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى •

٢ ـ استخدم تعبير روم بالاصل للدلالة على مذهب روم أرثوذكس أي مذهب البيزنطيين ، وأصبح المؤرخون المسلمون يشيرون الى البيزنطيين بأنهم الروم والى بلادهم ، ما وراء طوروس والفرات ، بأنها بلاد الروم • وحين احتل السلاجقة الاناضول وأقاموا في قونية عرفوا بسلاجقة الروم نسبة لاحتلالهم ما عرف سابقا ببلاد الروم ،وحين خلفهم العثمانيون، بقي المؤرخون العرب المسلمون يشيرون الى بلاد العثمانيين على أنها بلاد الروم ، والى العثمانيين الآتين من وراء طوروس والفرات على أنهم روم •

هذين عدد من القضاة الكبار في بعض مراكز الولايات ، ويلقب كل من هؤلاء القضاة ، بما في ذلك قاضيا العسكر ، بلقب مللا ، وتذكر أحياناً منلا، وهما مشتقان من كلمة مولى العربية وتعني سيد • وحسب تنظيمات القضاء التي أجريت في القرن الثامن عشر اعتبر قاضيا العسكر وقاضي استانبول في مرتبة وحدة ، يليهم قاضيا مكة والمدينة في مرتبة واحدة ، ثم قاضيا عاصمتي السلطنة السابقتين : بروسه وأدرنه ، ثم قاضيا مركزي الخلافة الاسلامية: دمشق والقاهرة[1] •

ورغم وجود قضاة معترف بهم لمختلف المذاهب ، كان القاضي الرسمي في الدولة هو القاضي الحنفي • وكان يعين في مراكز الولايات الهامة من قبل شيخ الاسلام في استانبول • ويعين غير هؤلاء القضاة في الولايات من قبل قاضي العسكر المسؤول ، وكان قاضي عسكر الاناضول هو المسؤول عن الولايات الآسيوية • وعلى عكس المفتين ، كانت الغالبية العظمى من القضاة الحنفيين في الولايات من أصل رومي • أما قضاة بقية المذاهب فغالبيتهم من أصل محلي • وكان القضاة الحنفيون في مراكز الولايات يعينون عادة لمدة سنة تمدد أحياناً • وكان لهم نواب ينوبون عنهم ، أثناء تغيبهم ، في المحكمة الرئيسية التي تسمى عادة محكمة الباب• وهناك نواب من نوع آخر يصرفون شؤون القضاء في المحاكم الفرعية في الاحياء[2] • ويكلف القاضي ، الى جانب الفصل في الدعاوى ، بتطبيق قواعد الشريعة في علاقات الناس • وكان السكان يلجأون اليه لانقاذهم من الظلم • وسنرى في دراستنا المقبلة أمثلة كثيرة عن مدى نفوذ أو ضعف القضاة وأثر ذلك في التطورات السياسية •

٣ ـ نقيب الاشراف • ـ أسس منصب نقيب الاشراف في عهد السلطان بيازيد الثاني • وكان السلطان يعين النقيب من بين كبار القضاة • وقد تميز الاشراف باتخاذ العمامة الخضراء وبلقب سيد •

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I.i. p. 89

٢ ـ انظر بشأن دراسة موسعة عن المفتين والقضاة ونوابهم والمحاكم الفرعية في دمشق ،كتابنا : The Province of Damascus, PP. 42 - 52.

وكان لنقيب الاشراف في استانبول سلطة علـــى نقباء الاشراف في الولايات • وهو الذي يعينهم ويرعى شؤونهم • وكان نقباء الاشراف في مراكز الولايات عادة من أصل محلي وبقوا في مناصبهم ، مثـــل المفتين ، لفترات طويلة •

وتمتع الاشراف بامتيازات كبـــيرة ليس أقلها نظرة الاحترام التي حباهم بها بقية السكان • وكانوا لايقتصرون على مذهب معين ولا على طبقة اجتماعية معينة • وقد وجد بينهم أناس من مختلف المهن والمراتب • وان العلاقة القوية التي وجدت بين أصحاب الحرف والاشراف ، نظراً لوجود كثـــير من الاشراف بين الحرفيين ، أفادت الاشـــراف من ناحيتي التنظيم والقوة ، ودعمهم أصحاب الحرف ، وهم عادة ذوي سلطة سياسية •

وقد لعب الاشراف في بلاد الشام دوراً هاماً فاق كما يبدو ، دورهم فيولاية مصر حيث لاتذكر المصادر شيئاً كثيراً عنهم في العهد العثماني الذي نحن بصدد دراسته • وقد برز الاشراف عـــلى الصعيد السياسي في بلاد الشام اثر ضعف اليرلية ، وهم غالباً انكشاريون دمشقيون ، أمام منافســة القابي قول والولاة في القرن الثامن عشر • ومع ذلك فلم تكن للاشراف اليد العليا ، في ولايةالشام ،علىعكس سلطتهم في ولاية حلب في ذلكالقرن• وقد مارس الاشراف في ولاية حلب سلطة سياسية لـــم يعرفها أمثالهم في أي مكان في الدولة العثمانية آنذاك[1] • ويبدو أن تفسير ذلك يكمن في أن

---

١ ـ انظر حول ذلك :

H. Bodman, Political Factions in Aleppo, 1760-1876, North Carolina, 1963, pp. 79-102 ; سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Bodman

P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922, London, 1966, pp. 132-133 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Egypt and the Fertile Crescent.

J. Sauvaget, Alèp, 1941, pp. 196-200 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Alèp.

انظر أيضا : محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، سبعة أجزاء ، حلب ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ، انظر : ج ٣ ، ٣٥٢ ، ٢٧٠ ـ ٣٧٢ ، ٣٧٤ •

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الطباخ •

الاشراف في ولاية حلب كانوا الطائفة الوحيدة التي أمكن للسكان المحليين أن يعبروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وان يقاوموا ظلم الانكشارية ، لأن قرب حلب من مركز العثمانيين ووقوعها بمتناول قواتهم التي كانت تغدو وتجيء باستمرار من الجبهة الفارسية أبقى جنودها الانكشاريين أكثر مناعة تجاه محاولات السكان المحليين في الانضمام اليهم ، على عكس ما حدث في ولاية الشام حيث أوجدت اليرلية متنفساً للسكان المحليين بتمكينهم من الانتساب اليها . ومثلما وقف يرلية دمشق يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم القابي قول ، وقف أشراف حلب يدافعون عن أهلها ضد ظلم الانكشارية . ونتج عن ازدياد نفوذ الاشراف في حلب وحاجة رؤسائهم للدعم المحلي ان حدث كثير من اساءة استعمال امتيازات الاشراف مما جعل نقيب الاشراف يوجه عدة مذكرات الى القضاة المحليين لوضع حد لذلك[1] .

ويمكننا اعتبار ظهور الاشراف بهذه القوة في ولاية حلب ، وبدرجة أقل في ولاية الشام ، في القرن الثامن عشر جزءاً من ظاهرة عامة تتلخص في فرض النفوذ المحلي ، بأشكال مختلفة ، في الولايات العربية وغيرها في هذا القرن . وما ظهور الحكام المحليين من آل العظم في بلاد الشام ، والحكام من آل الجليلي في الموصل ، والحكام المماليك في بغداد والبصرة ، وازدياد نفوذ المماليك في مصر الا مظاهر مختلفة لفرض النفوذ المحلي ولتضاؤل السيطرة العثمانية . وسندرس في حينه الاسباب التي أدت الى ذلك[2] .

---

١ ـ تذكر الوثيقة رقم ٢٦ من السجل رقم (١) ،سجل قيد الاوامر العلية السلطانية من ربيع الآخر ١١٤٦ الى ذي القعدة ١١٥١ وهو من سجلات المحكمة الشرعية بحلب المحفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ،كتاب النقيب السيد محمود « الى السيد يوسف أفندي القائم حالياً بمقام قضاة أقضية مدينة حلب وادلب وأريحا وسرمين ومعرة المصرين ودركوش واعزاز ومعرة النعمان وشغور بشأن العلامة الخضراء التي تستعمل من قبل أصحاب النسب وحسب قيود حججهم والانساب ومنع من يضع هذه الاشارة ويستعملها بدون حق » ، تاريخ الكتاب في ٢١ جمادى الآخر ١١٤٦/ (٢٩ تشرين الثاني ١٧٣٣) . انظر الوثيقة رقم ١٩٦ بتاريخ ٧ شوال ١١٤٧/ (٢ آذار ١٧٣٥) ، والوثيقة رقم ٢٢٩ بتاريخ ٢٣ ذي الحجة ٤٤٧/ (١٦ أيار ١٧٣٥) حول كتابين آخرين مرسلين بهذا الموضوع .

٢ ـ انظر مقدمة القسم الرابع .

القسم الثاني

بلاد الشام ومصر في عهد قوة الدولة العثمانية

من الفتح العثماني الى الربع الاخير من القرن السادس

تمهيـد

الفصل الخامس :

الفتـح العثماني لبـلاد الشـام ومصر

الفصل السادس :

الاضطرابات في بلاد الشـام ومصر اثر الفتـح العثماني

الفصل السابع :

الهُـدوءُ في بِـلادِ الشَّـامْ وَمِصْر

تمهيد

يعالج هذا القسم تاريخ بلاد الشام ومصر في الفترة التي وصلت اليها الدولة العثمانية ذروة قوتها في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) والسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) • ففي عهد الاول وضع حد للتوسع الصفوي في الاناضول اثر الانتصار على الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران ١٥١٤ ، كما أنه قضي على السلطنة المملوكية واحتلت سورية ومصر في ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، وبذلك ضمت الدولة العثمانية مراكز الخلافة السابقة في دمشق والقاهرة ، وأصبح السلطان العثماني حامي الحرمين الشريفين • وفي عهد السلطان سليمان توسع العثمانيون في أوروبا ووازنوا ذلك بتوسع آخر في آسية وأفريقية، فاحتلوا العراق ، وتوسعوا في اليمن ، وفي ساحل البحر الاحمر الافريقي ، وفي المناطق التي عرفت فيما بعد بشمالي السودان ، وفي شمال أفريقية ، كما توطد الحكم العثماني في بلاد الشام ومصر وغيرها • ونظراً لكثرة القوانين المنظمة لشؤون الولايات المفتتحة والتي صدرت في عهد السلطان سليمان فقد لقب بالقانوني ، ولقب أيضاً ، وخاصة في كتابات الاوروبيين ، بالفاخر (Magnificient) نسبة للمجد الذي حصل عليه •

بدأ السلطان سليمان توسعه بمهاجمة المناطق التي فشل أجداده ، وعلى رأسهم محمد الفاتح ، في احتلالها وهي بلغراد التي احتلها في ٢٩ آب ١٥٢١ ، وجزيرة رودس التي احتلها في ٢٥ كانون الاول ١٥٢٢ • وبعد معركة موهاج في ٢٨ آب ١٥٢٦ التي انتصر فيها السلطان سليمان على ملك هنغاريا ، سيطر العثمانيون على هذا

البلد ، ثم تابعوا تقدمهم الى فيينا فوصلوها في ٢٧ ايلول ١٥٢٩ ، ولكنهم سرعان ما انسحبوا منها في ١٥ تشرين الاول تحت ضغط الاعداء ، ولم يعودوا الى حصارها مرة أخرى حتى سنة ١٦٨٣ • وتجمدت حدود العثمانيين في هنغاريا التي اضطرتهم أن يخوضوا عدة معارك فيما بعد لكي لايتخلوا عن فتوحاتهم فيها • وفي الجبهة الشرقية بدأت قوات السلطان سليمان باحتلال العراق في ١٥٣٤ ، اثر ازدياد خطر الشاه طهماسب الصفوي الذي رقي الى الحكم في ١٥٢٤ بعد وفاة أبيه الشاه اسماعيل • وكان الحاكمان ، العثماني والصفوي ، منشغلين في الفترة بين ١٥٢٤ و ١٥٣٤ : الاول في فتوحاته في أوروبا ، والثاني في توطيد سلطته ضد القزل باش (رجال القبائل الصفويين) الذين استغلوا تغيير الحاكم وصغر سن طهماسب لاعادة نفوذهم • وفي عام ١٥٣٤ تقدم العثمانيون عبر الفرات واحتلوا تبريز في ١٩ ربيع الاول ٢٨/٩٤١ ايلول لوضع حد للاعتداءات الصفوية الناشطة ، كما حدث زمن السلطان سليم الاول في ١٥١٤ ، ثم احتلوا بغداد من الصفويين في ٨ جمادى الاول ١٥/٩٤١ تشرين الثاني ١٥٣٤ • وبقيت البصرة ، التي حكمها أمير البدو رشيد ابن مغامس ، خارج نطاق السلطة العثمانية حتى ١٥٣٨/٩٤٥ ـ ١٥٣٩ ، حين قدم هذا الامير خضوعه للعثمانيين ، وما لبث هؤلاء أن طردوه من الحكم في ١٥٤٦/٩٥٣ـ١٥٤٧ ، وجعلوا البصرة ولاية عثمانية[1] • وتوسع حكمهم في العراق ، خارج ولايتي بغداد والموصل ، فشمل الاحسا جنوباً وشهرزور شمالا وتشكلت ولايتان أخريان من هذين المركزين • أما اليمن فقد اهتم العثمانيون بنشر سلطتهم عليها بواسطة ولاة مصر • وقام

---

١ ـ انظر حول ذلك : مخطوط باريس ، رقم Arabe. 1855 ، ٨آ ـ ٩ب ؛ انظر أيضا: كتاب تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مجهول المؤلف ، مخطوط في جامعة Yale في الولايات المتحدة برقم Landberg 229 انظر ورقة ٧٧ آ : سيذكر هذا الكتاب باختصار كما يلي : تحفة الاحباب ؛ انظر أيضا : العزاوي ، ج ٤ ، ١٩ ـ ٢٩ ، ٤٩ ـ ٥٠ •

حاكم اليمن من قبل العثمانيين في حوالي منتصف القرن السادس عشر باحتلال منطقة بربرستان في السودان بين الشلالين الاول والثالث، واحتل بعد ذلك مركزي مصوع وسواكن على ساحل البحر الاحمر الافريقي • وكان ولاة مصر العثمانيون يكلفون عادة بتوطيد السلطة العثمانية في مناطق اليمن وأفريقية[1] • وقد استخدم العثمانيون القوة البحرية لوقف هجمات البرتغاليين في البحر الاحمر • واشتهر بين قادة الاسطول العثماني في القرن السادس عشر خير الدين باشا الذي عرف باسم بربروسا ، واحتل الجزائر من الاسبانيين عام ١٥٢٩ على رأس قوة قراصنة ، ثم خضع للعثمانيين فعينوه برتبة قبطان باشا (قائد الاسطول) ، وفتح باسمهم تونس ، كما فتح أحد خلفائه بعد ذلك طرابلس الغرب وبقيت السيادة العثمانية مضطربة في هذه الدول الثلاث في شمال أفريقية • وقد لعب بربروسا دوراً هاماً في نشاطات البحرية العثمانية في بحر ايجة وفي المتوسط ، وكان آخر انتصار بحري حاسم للعثمانيين احتلالهم لقبرص في ١٥٧٠ - ١٥٧١ من أيدي البنادقة • وحدثت بعد قليل معركة ليبانتو البحرية في ٧ تشرين الاول ١٥٧١ التي هزم فيها العثمانيون أمام تحالف من البابا والاسبانيين والبنادقة والنمساويين وفرسان مالطة • وفقد الاسطول العثماني بعد ذلك السيطرة على البحار •

حدثت معركة ليبانتو في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) ، الذي شهد حكمه بدايات الضعف العثماني • ورغم أن بذور الضعف ، وخاصة في الجيش العثماني ، وجدت في عهد السلطان سليمان الا أن انتصاراته طغت عليها وحجبتها • وقد تجمدت حدود الامبراطورية العثمانية في عهد سليم الثاني ، وأخذت بالتقلص التدريجي فيما بعد • ففي أوروبا عقد العثمانيون هدنة في ١٥٦٨ مع أمبراطور النمسا وفي الجبهة الشرقية توقفت الجيوش

---

١ - انظر أحداث ولاية مصر في الفصل السابع •

العثمانية عند حدود العراق ولم تستطع اختراق بلاد فارس لاسباب عسكرية وجغرافية ؛ وفي البحر الاحمر والمحيط الهندي اصطدم الاسطول العثماني باسطول البرتغاليين الاحسن تدريباً وعدة والذي سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح ، فانحسر نشاط العثمانيين التجاري في المحيط الهندي والخليج العربي • وحاول العثمانيون التوصل الى المحيط والخليج هذين بطريق روسيا وفارس فاحتلوا جزءاً من القرم وخضع لهم خانات التتار فيها ، وفي **١٥٦٩** وضع العثمانيون خطة لشق قناة بين نهري الدون والفولغا بغية ارسال قواتهم عبر بحر أزوف ثم الدون ومنه ، عبر هـذه القناة ، الى الفولغا ، ومن ثـم الى بحر قزوين ليهاجموا من هنـاك تبريز ويصلوا الى الخليج الفارسي • وحين وضعت هذه الخطة قيدالتنفيذ في عهد السلطان سليم الثاني هرعت روسيا لقتال العثمانيين لاول مرة ، فهزمت خانات قازان واصطراخان وبدأت تهدد خاناتالقرم الخاضعين للعثمانيين • وفي أفريقية اقتصر النفوذ العثماني السطحي على المناطق الساحلية في طرابلس وتونس والجزائر ، وحدت طبيعة المنطقة من توغلهم في الداخل • ونتيجة لهذا الجمود عـلى الحدود وغياب الانتصارات التيحجبت مواطنالضعف في الداخل، ازداد تمرد الجيش الانكشـاري ، واضطرب الاقتصـاد لانعدام الفتوحات وازدياد متطلبات الدولة المالية وفقدان التوازن النقدي اثر تدفق النقد من العالـم الجديد ـ أمريكا ـ الى اسبانيا ودول البحر المتوسط[١] •

ـ انظر حول الاحداث السابقة في الدولة العثمانية :

Creasy, 156-223; Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 52-57; Gibb and Bowen, I.i. 91-94; B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, pp. 24-29 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Emergence

انظر أيضا : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٧آ ـ ١٢ آ ؛ تحفة الاحباب ، ٧٧ آ ـ ٨١ آ

واثر هذا الوضع في الدولة العثمانية على مجرى الاحداث في بلاد الشـــام ومصر وغيرهما من الولايـات • فحين كانت الدولة العثمانية قوية قضي بسرعة على الثورات في هاتين الولايتين ، ثم سادت فيهما فترة من الهدوء دامت حتى الربع الاخير من القرن السادس عشر حين بدأ الضعف يدب في الدولة العثمانية ،وانعكس أثره على الولايات • وفي غمرة الانتصارات العثمانية ، وخاصـة في عهد السلطان سليمان ، أتيح المجال لعدد من الوزراء العثمانيين أن يظهروا بطولاتهم • وحين عين بعضهم ولاة في الشام ومصر خلدوا بطولاتهم بأعمال عمرانية وخيرية مختلفة • ولكن ما كادت بذور الضعف تظهر في الدولة العثمانية ، في عهد السلطان سليم الثاني ، حتى برزت بوادر الفتن والتمرد في كثير من الولايات بما في ذلك بلاد الشام ومصر • وبدأت فترة جديدة في تاريـخ هذه الولايات ، وبالتالي في تاريخ الدولة العثمانية • وسنستعرض مميزات هذه الفترة الجديدة في القسم الثالث •

الفصل الخامس

الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر

الاسباب المباشرة للفتح العثماني ۰/ـ اثار قيام الشاه اسماعيل الصفوي وتوسعه خوف المماليك والعثمانيين ، وادى الى التقارب بينهما[١] . وفي ٧ جمادى الثانية ٩١٣/١٤ تشرين الاول ١٥٠٧ ارسل المماليك قوات الى حلب للدفاع عنها بسبب ما أشيع عن قتال الشاه اسماعيل لعلاء الدولة حاكم ألبستان ، وعن قربه من حلب[٢] . ولكن محاولة الشاه اسماعيل التحالف مع الدول الاوربية ، وعثور المماليك على مكاتبات من الاوربيين الى الشاه اسماعيل بهذا المعنى ، ارهب المماليك الذين خشوا ان يتم هذا الاتفاق فيتعرضون الى خطر الشاه اسماعيل والدول الاوربية[٣] . وقد حدث بالفعل في هذه الاثناء أن هاجمت مراكب اوربية الساحل السوري ، ولهذا حاول المماليك شراء الخشب من الدولة العثمانية ومن طرابلس الغرب لصنع المراكب ومجابهة غزوات الاوربيين الذين هددوا ايضاً ، ممثلين بالبرتغاليين ، خاصة سواحل البحر الاحمر ، للسيطرة على تجارته ، بعد سيطرتهم على طريق رأس الرجاء الصالح . وبجانب ذلك دخل المماليك في مفاوضات مع الشاه اسماعيل[٤] لتجنب شره ، وبقوا في الوقت ذاته على علاقات ودية مع العثمانيين[٥] .

---

١ ـ انظر : ابن طولون Das Tübinger ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ٢٦٢ و ٢٦٨ و ٣٣٦ .

٢ ـ ابن طولون ، Das Tübinger ، ١٤٢ ؛ ابن اياس ، ج ٤ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٢٥٢ .

٣ ـ ابن اياس ، ج ٤ ، ١٩١ ، ٢٠٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، ٢٢٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ؛ مرعي الحنبلي ، ٢٠٥ آ .

٥ ـ ابن اياس ، ج ٤ ، ٤٦ ، ٥٥ .

وبهجوم السلطان سليم الاول على الصفويين وتغلبه عليهم في معركة جالديران سنة ١٥١٤ ، اختل توازن القوى في المنطقة لصالح العثمانيين لاسيما وأن هؤلاء أزاحوا حاكم ألبستان علاء الدولة ، الذي كان حليف المماليك ، من الحكم ، بسبب عدم مساعدته لهم ضد الشاه اسماعيل ،ووضعوا خلفاً له علياً ابن شاه سوار الذي أصبح تابعاً للعثمانيين[١] • وقد أقلق هذا التبدل على الحدود الشمالية المماليك وزاد من شقة الخلاف بينهم وبين العثمانيين[٢] • واتهم المماليك العثمانيين بأنهم يمنعون التجار ،المارين ببلادهم، من جلب المماليك الشراكسة الى بلاد السلطنة المملوكية[٣] • ولكن الموقف تأزم كثيراً حين علم العثمانيون ، اثناء القتال مع الصفويين، بالمفاوضات السرية بين الشاه اسماعيل والمماليك ، وبمحاولة هؤلاء ايقاف قوافل المؤن العثمانية الى السلطان سليم[٤] • ثم ان لجوء ابن شقيق السلطان سليم الى المماليك ، وكان قبل ذلك لاجئاً لدى الشاه اسماعيل[٥] ، ورفض هؤلاء تسليمه الى العثمانيين بقصد المساومة عليه ، زاد من حدة الموقف[٦] •

غادر السلطان قانصوه الغوري مصر باتجاه بلاد الشام في ١٥ ربيع الثاني ١٨/٩٢٢ أيار ١٥١٦ ، على رأس جيش كبير ضم حوالي خمسة آلاف من القرانصة والجلبان واولاد الناس ، عدا عن السيفية • وعين الأمير طومان باي نائبا عنه • وكان هدف السلطان المملوكي استعادة مرعش من

---

١ ـ المصدر السابق ، ٤٣٥ ـ ٤٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٢ ، ٤٨٣ •

٢ ـ المصدر السابق ، ٣٩٨ •

٣ ـ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٧ ب

٤ ـ المصدر السابق ، ٢ آ ؛ مرعي الحنبلي ، ٢٠٦ ب ؛ ابن طولون Das Tübiuger ١٣٨ ؛ الاسحاقي ، ١٢٨ ؛ ابن اياس ، ج ٣ ، ٢٣ ؛ انظر ايضا : عبد الغني النابلسي، تاريخ الدولةالعثمانية ،مخطوط في مجموعةبرلين ،برقم 9727.we.1808 ، الاوراق ٦٠ ـ ٦٤ ؛ ويظهر هذا النص في مخطوط آخر للنابلسي بعنوان : الابيات النورانية في ملوك الدولة العثمانية ، موجود في مجموعة برلين ،برقم 9727. pet. 347 ، الاوراق ٦٥ـ ٧٣• انظر أيضا : ذكر نبذة في الدولة الرومية والسلطنة العثمانية ، هذا المخطوط لايذكر اسم المؤلف ، ويوجد في مجموعة برلين ، برقم 9728. Mq. 461 ، الاوراق ١ ـ ٢٣ •

٥ ـ انظر ص

٦ ـ انظر ابن طولون ، Das Tübinger ، ١٣٥ ؛ ابن اياس ، ج ٤ ، ٢٨٩ ؛ ابن زنبل ، (Munich. 411) ٧ آ ـ ٨ آ •

العثمانيين ، وتخليص ألبستان من نفوذهم[1] • ودخل السلطان قانصوه الغوري دمشق في ١٨ جمادى الاول ١٩/٩٢٢ حزيران ١٥١٦ ، وكان يصحبه الخليفة العباسي المتوكل على الله ابو عبد الله محمد بن المستمسك بالله ، الذي كان مقيماً في مصر يتحكم فيه سلاطينها ويستخدمون نفوذه الديني لاغراضهم •

واستقبل الغوري في دمشق استقبالا رسمياً حافلا برز فيه كبار الاداريين المماليك والقضاة والعلماء والفرنجة المستأمنون في دمشق • ونثر صدقة اليهودي المسؤول عن دار ضرب النقود ، وقنصل الفرنجة الدراهم على الاهلين بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهما ولكسب رضى السلطان ، وربما لاستثارة الشعب للترحيب به • وفي يوم الاربعاء ٢٤ جمادى الاول ٢٥/٩٢٢ تموز ١٥١٦ ، غادر الغوري دمشق متجهاً نحو حلب ، وانضم اليه في القطيفة نائب حلب خاير بك ونائب حماة جان بردي الغزالي[2] •

وظن السلطان قانصوه الغوري ان مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من ممتلكاته سيخيف السلطان العثماني فيتنازل له عما يريد • وكان الغوري يفاوض في الوقت ذاته الشاه اسماعيل الصفوي ليتحالف معه ضد العثمانيين• ولكن وقوع مراسلات الغوري الى الشاه اسماعيل في ايدي السلطان سليم ، جعل هذ يتعجل الامر للقضاء على جيش المماليك • ولهذا احتل عنتاب واستعد للمسير على حلب للقاء الغوري الذي دخلها في ١٠ جمادى الثاني/ ١١ تموز • واذا كان السلطان الغوري قصد فعلا من مجيئه الى بلاد الشام مجرد اخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فيكون ، ازاء ماحدث ، قد اساء التقدير ، لأنه بعمله هذا قد استثار العثمانيين ودفعهم الى القتال •

---

١ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ٢٥ و ٣٥ ؛ محمد البكري الصديق : التحفة البهية ، ٦آ ـ ٧آ

٢ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٧ ـ ٢٣ Das Tübinger ، ١٣٨ ـ ١٣٤ ، انظر أيضا : ابن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٩٦٤ ، ص ٢١١ ـ ٢١٣ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : اعلام الورى

معركة مرج دابق واحتلال بلاد الشام ومصر • ـ اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في ٢٤ رجب ٩٢٢/٢٣ آب ١٥١٦[١] في موضع يعرف بتل الفار في مرج دابق ، قرب حلب ، وغلب المماليك بنتيجة المعركة ، وتوفي اثناءها السلطان قانصوه الغوري • ويعود انتصار العثمانيين الى قوتهم العسكرية ولاسيما استخدامهم بندق الرصاص في المعركة ـ ذلك السلاح الذي كره استخدامه المماليك الفرسان[٢] والذي ثبتت فعاليته في ظروف مشابهة ، في موقعة جالديران[٣] • وكان القتال يسير في البدء لصالح المماليك الذين أبدوا شجاعة كبرى ، ثم تحول ضدهم بفعل تأثير رصاص العثمانيين من ناحية ، والخيانة في صفوف المماليك من ناحية اخرى • فقد كان جان بردي الغزالي متواطئاً مع العثمانيين[٤] وكان خاير بك يعمل علناً لصالحهم ، وانتقل مع اتباعه من صفوف المماليك الى صفوف العثمانيين اثناء المعركة • وكافأ العثمانيون الغزالي وخاير بك فيما بعد فأعطوا الاول حكم ولاية الشام ، والثاني حكم ولاية مصر • وكان قانصوه الغوري قد حذّر مقدماً من اتصـــال خاير بك بالعثمانيين سراً ، ولكنه لم يفعل شيئاً • ويضاف الى الخيانة في صفوف المماليك ، التنافر الشديد بين فئاتهم مما عطل الكثير من فعالياتهم • فالسلطان الغوري قرب اليه مماليكه المشتروات ورمى في لظى المعركة مماليك السلاطين المتقدمة ، القرانصة ، بقصد اضعافهم ليبقي السيطرة في النهاية لجلبانه من المشتروات

---

١ ـ يذكر هذا التاريخ ابن طولون (انظر مثلا : مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٢٤) الذي عاصر الحادث وكان يكتب من دمشق القريبة ، بينما يذكر المؤرخون المصريون المعاصرون مثل ابن اياس (ج ٣ ، ٤٥) ان المعركة حدثت في ٢٥ رجب (ويؤيده في ذلك نجم الدين الغزي الدمشقي في الكواكب السائرة ، ج١ ، ٢٩٧) ، ويذكر ابن زنبل (Munich, 411) ١٥ ب أن القتال بدأ في ٢٣ رجب • ويقول صاحب التحفة البهية (١٥ ب) ان المعركة جرت في ٢٧ رجب •

٢ ـ انظر ص ٢٠ ـ ٢٣

٣ ـ انظر ص ٥٤ •

٤ ـ انظر ابن زنبل (Munich, 411) ١٩ آ ـ ١٩ ب ، ٧٣ آ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٣٠ آ ؛ مرعي الحنبلي ، ٢٠٦ ب ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٦٨ ؛ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٠٧ •

ولم يغب ذلك عن القرانصة فتغيرت نياتهم حين علموا به [1] وكان الجيش العثماني بالمقابل يتمتع بكثير من التنظيم اذ ان الفساد لم يدب بعد بشكل كبير في صفوف الانكشارية، فكانوا عنصراً فعالا في القتال واحسنوا استخدام الاسلحة النارية • وكانت الدولة العثمانية آنذاك في اوج قوتها ، تخرج من ظفر الى آخر ، وكان انتصار قواتها منذ فترة وجيزة وفي منطقة قريبة ، في جالديران سنة ١٥١٤ مثبطاً لنشاط المماليك بقدر ما كان مشجعاً للعثمانيين •

عاد الغزالي الى دمشق يوم الثلاثاء في ٥ شعبان ٩٢٢/٣ ايلول ١٥١٦، ونادى به الامراء المماليك نائباً عليها • اما السلطان سليم فتابع سيره الى حلب يرافقه خاير بك والخليفة العباسي ، ودخلها بقبول اهلها الذين طردوا عساكر المماليك الهاربين حين حاولوا اللجوء اليها ، وذلك بسبب ما قاسوا منهم قبل المعركة • وخطب للسلطان سليم في جوامع حلب يوم الجمعة في ٨ شعبان ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين • وقد استولى على اموال المماليك فيها ، واحسن الى العلماء ، وبعد ان عين حاكماً رومياً عليها ، توجه لاحتلال دمشق •

وعين الغزالي حكاماً من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين ابن الحنش الامير البدوي المسيطر على البقاع ، وعينه ، حسب طلبه، نائباً على حمص لقاء مقاومته للعثمانيين وحمايته للمنطقة الممتدة بين حماة والبقاع ، كما انه عين صهر ابن الحنش ، ابن جانباي البدوي الملقب بامير الشام على بلاد حوران والمرج • الا ان اخار تقدم السلطان العثماني جعلت حاكمي حماة وحمص يفران الى دمشق ، واخذ المماليك يخرجون منها ،

---

١ ـ انظر حول معركة مرج دابق : ابن زنبل (Munich, 411) ، ١٤ آ ـ ٢٤ آ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ١٢ ب ـ ١٤ ب ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٢٣ ـ ٢٤ ، Das Tübinger ١٣٤ ، اعلام الورى ، ٢١٣ ـ ٢١٤ ؛ ابن اياس ج ٣ ، ٤٥ ـ ٤٨ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ٢٩٧ ؛ انظر ايضا حول فتح السلطان سليم سورية ومصر : علي ابن محمد اللخمي الاشبيلي ، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، نشره يولنس أرنست ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١ ـ ١٩ •

ومن بينهم الغزالي ، باتجاه مصر وتسلم نائب القلعة المملوكي المحافظة على الأمن • وقد استغل الزعر (الزعران) بدمشق اضطراب الوضع السياسي ، وقاموا بهجمات ضد المماليك ، وحصل نزاع بين اهل المزة وداريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلافات قديمة •

وأرسل السلطان سليم الرسل الى دمشق يطلب تسليمها ، فاجتمع العلماء ومشايخ الحارات وقرروا تسليم البلد ، ولكن نائب (آغا حسب التعبير العثماني) القلعة المملوكي عارض ذلك واعتصم في القلعة • وكان هدف العلماء ومشايخ الحارات الذين القيت عليهم المسؤولية ، حماية البلد من النهب ، لاسيما وان حكم المماليك الفاسد وتعدي جنودهم على الاهلين لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون عنه ، بعد ان فشل المماليك عسكرياً • وفي يوم الجمعة ٢٩ شعبان/٢٧ ايلول دخل فريق من العثمانيين الى دمشق يضم المتسلّم (نائب الوالي العثماني) ، وخاير بك الذي انضم الى العثمانيين • وقدم بعد ذلك الوالي العثماني يونس باشا المعين لدمشق • وقد وفق خاير بك بينه وبين نائب القلعة ريثما يصل السلطان • وخطب في ذلك اليوم في الجامع الاموي باسم السلطان سليم ، وأخذ الجنود العثمانيون يتوافدون على دمشق ، كما وصل اليها القاضي الحنفي زين العابدين ابن الفنري الرومي فتعاطى الحسبة فيها ، وعيّن من قبله قضاة من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ، وادخل بعض التنظيمات القضائية •

وصل السلطان سليم في ١ رمضان ٩٢٢/٢٩ ايلول ١٥١٦ الى برزة ، في ظاهر دمشق ، فقدم له قضاة المذاهب الأربعة والسيد كمال الدين ابن حمزة ومعه جماعة من الاشراف خضوعهم ، وكذلك فعل نائب القلعة المملوكي • وكان مع السلطان سليم الخليفة العباسي • وقد هرع ناصرالدين ابن الحنش أمير البقاع فقدم الطاعة للسلطان سليم فمنحه صنجقاً وبعض الاقطاعات ، والتزم ابن الحنش بأن يقدم البدو ولاءهم للسلطان العثماني •

وادخل الاداريون العثمانيون في دمشق تنظيمات جديدة فيما يختص

بالقضاء والعلماء والشؤون المالية . وطلب القاضي الحنفي العثماني من ارباب الوظائف الدينية احضار مستنداتهم للموافقة عليها من قبله ومن قبل قاضي العسكر العثماني ، وكانوا يدفعون رسماً لقاء ذلك . وبدأ الدفتردار العثماني بتدقيق الدخل والخرج وطلب احضار المربعات والمناشير التي منحت بموجبها الاقطاعات في السابق لينظر فيها . كما اجرى احصاءاً للسكان والممتلكات في دمشق . حدث كل هذا والسلطان سليم مقيم في برزة ، وقد زار أثناء ذلك احدى حمامات دمشق ، كما صلى في الجامع الاموي . وكانت قوته العسكرية ، وخاصة الاسلحة النارية التي جربها في تظاهرة قوة وهو في برزة فظنت اهل دمشق ان السماء انطبقت على الارض - على حد تعبير ابن طولون - مرهبة للاهلين فلم يثوروا على الاجراءات التي قام بها موظفوه . ولكن حصل تعد من قبل الجنود العثمانيين على الاهلين في دمشق اذ استخدموا منازلهم للسكن ، ولم يوقروا حتى العلماء مما اثار النقمة في النفوس . ويبدو ان هدف السلطان سليم من اقامته في برزة مراقبة الوضع في دمشق ، وتهيئة الجو لدخوله ، ورؤية رد فعل الدمشقيين تجاه الاجراءات التنظيمية العثمانية . وازاء النقمة التي اثارتها هذه الاجراءات وجد السلطان سليم الجو مناسباً ليدخل دمشق كمنقذ لأهلها فدخلها في ١٣ رمضان/١٠ تشرين الاول ، ووزع المال على العلماء وعزل يونس باشا من نيابة[1] دمشق ، في محاولة منه كما يبدو لارضاء الدمشقيين ، وعين مكانه شهاب الدين احمد بن يخشي ، كما انه عين لنيابة القلعة اميراً عثمانياً . وعزم السلطان سليم على هدم البيوت والدكاكين حول القلعة وسور المدينة ليعزز تحصيناته العسكرية ، كما فعل في حلب . وكان وجود البيوت والدكاكين في هذه الامكنة الستراتيجية يدل على الاهمال العسكري زمن المماليك ، ويفسر بعدم تعرضهم الى غزو خارجي منذ غزوة تيمور في مطلع القرن الخامس عشر . وقد حاول السلطان سليم التعويض على اصحاب هذه الاماكن الا ان كثرة التعويضات المقدرة جعلته

---

١ - ان استعمال تعابير نيابة ونائب في هذه الفترة في كتابات المؤرخين المحليين المعاصرين انما هو استمرار للتعابير السائدة زمن المماليك ، وستمضي فترة من الزمن حتى يترسخ استعمال التعابير العثمانية مثل ايالة وبيلربيي ووزير .

يعدل عن خطة الهدم . ويظهر من هذا انه كان يحرص في هذه المرحلة على كسب رضى الاهلين ، ويؤيد ذلك طرده للدفتر دار العثماني الذي تشكى عليه اهل القرى بسبب متطلباته المالية . وليتقرب اكثر الى السكان وليكسب عطف العلماء والرأي العام الاسلامي وليظهر انه جدير بلقب خادم الحرمين الشريفين زين السلطان سليم ثوب المحمل ، الذي يرافق الحاج الى الحجاز ، وعين جنداً كثيراً الى غزة والقدس والمناطق المجاورة للمحافظة بالظاهر على سلامة الحاج . ويبدو ان ارسال هؤلاء الجند كان يقصد منه ايضا رؤية رد الفعل لدى مماليك مصر فيما لو هاجم مصر[1] .

ويبدو أن السلطان سليم لم يكن في هذه الاثناء مهتماً جداً بفتح مصر . لقد حطم امكانية التحالف بين الصفويين والمماليك ، واحتل سورية ، وفي هذا فوائد عسكرية ودينية كثيرة . ثم ان حملته الى مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء ، بما في ذلك من خطر هجوم البدو عليه وامتداد خطوط مواصلاته[2] . وان سهولة فتح سورية يجب ان لاتؤخذ مقياساً لسهولة فتح مصر . فالمماليك في سورية كانوا قلة اذا ما قورنوا باعدادهم في مصر . كما ان كراهية الشعب في سورية للمماليك ونقمته على ظلمهم وتعسفهم ، وخاصة منهم المشتروات بسبب اعتدادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثماني الذي لم يلق مقاومة شعبية ، ومع ذلك فان الفتح العثماني ، والحق يقال ، لم يلق ايضاً ترحيباً حاراً لأن السكان العرب المحليين انما كانوا يستبدلون حاكماً تركي اللغة بحاكم آخر تركي اللغة . وكان السلطان سليم يتوقع ان تكون المقاومة المملوكية اكثر عنفاً في مصر نظراً لتمركز المماليك فيها واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف الى هذه الاعتبارات ان توغل العثمانيين في مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم واعادة تهديد المناطق العثمانية ، وهذا ما تم بالفعل بعد قليل اذ هرع السلطان سليم،

---

١ ـ انظر بشأن الاحداث السابقة : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٢٣ ـ ٣٨ ، Das Tübinger ١٣٣ ـ ١٢٧ .

٢ ـ انظر : ابن زنبل (Munich, 411) ، ٣١ آ ـ ٣٢ آ ، ٣٤ آ .

اثر فتحه لمصر ، لرد خطر هجمات الصفويين على بلاده • ولهذه الاسباب مجتمعة فاوض السلطان سليم ، وهو في دمشق ، طومان باي ، سلطان المماليك الجديد ، على الخضوع له والبقاء حاكما في مصر من قبله شريطة ان تضرب السكة في مصر باسم السلطان العثماني وتكون الخطبة باسمه أيضاً[1] • وكان طومان باي قد أعلن سلطاناً بمصر في ١٤ رمضان/١١ تشرين الاول ، ولقب بالملك الصالح • وقد تمنّع في البدء عن قبول السلطنة بسبب قلة المال لدى الدولة ، والخوف من عدم التفاف المماليك حوله ، وامكانية الغدر به وخلعه • وفي اليوم التالي عين طومان باي جان بردي الغزالي نائباً على دمشق من قبله • وكانت الخطبة في مصر قد اعلنت في الفترة بين وصول انباء مقتل السلطان الغوري وسلطنة طومان باي باسم الخليفة فقط • وكان الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله محتجزاً آنذاك لدى السلطان سليم ويرافقه في تنقلاته • بينما كان والده يعقوب وشقيقه هارون موجودين في مصر ، وكان المماليك يلجأون اليهما لاسباغ الشرعية على اعمالهم ولاثارة الرأي العام الديني على العثمانيين ، كما حدث في مبايعة يعقوب للسلطان طومان باي بطريق الوكالة عن الخليفة محمد المتوكل على الله[2] •

رفض طومان باي تحت الحاح امراء المماليك عرض التبعة للسلطان سليم ، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض الى مصر • وليس هذا الرفض بالامر الغريب نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم ولان قبولهم يعني مساهمتهم في القضاء على سلطنتهم • ولكن الغريب حقاً استمرار اعتداد المماليك بفروسيتهم ، رغم ما قاسوا في سبيلها من انكسارات ، وعدم اعترافهم بفعالية رصاص العثمانيين، وبالتالي عدم استخدامه بصورة فعالة في صفوفهم[3] • وازاء هذا الرفض ، وبالحاح من خاير بك على السلطان سليم للتوجه الى

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٦ ب ، ٣٢ آ ؛ انظر أيضا : ابن اياس ، ج ٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ •

٢ ـ انظر : محمد البكري الصديقي في التحفة البهية ، ٢١ آ ـ ٢٣ آ ؛ ابن اياس ، ج ٣، ٦٩ •

٣ ـ انظر حول ذلك : ابن زنبل ، (Munich, 411) ٣٣ آ •

مصر طمعاً بحكمها من قبل العثمانيين وخوفاً على حياته اذا لم يقض على السلطنة المملوكية[1]، قرر السلطان سليم، بعد احتلال الجيش العثماني لمناطق غزة والقدس وانعدام المقاومة الشعبية له (أرسلت قلعة صند مفاتيحها للسلطان سليم في دمشق) غزو مصر. وبالفعل فان وجود قوة معادية له في مصر من شأنه ان يهدد حكمه في بلاد الشام .

وقبل ان يغادر السلطان سليم دمشق في ٢٠ ذي القعدة ٩٢٢/١٥ كانون الاول ١٥١٦[2] لفتح مصر، زار قبر محي الدين ابن عربي الصوفي المشهور وغيره من المزارات في دمشق، ووزع المال ولاسيما على اهل الصالحية حيث يسكن كثير من العلماء والمتصوفة . وكان هذا العمل ابتهاجاً باحتلال عسكره للقدس وغزة[1]، ولكنه يظهر من ناحية أخرى رعاية الدولة للمتصوفة بصورة خاصة[2] .

تغلبت طلائع الجيش العثماني بقيادة الوزير سنان باشا في ١٦ ذي القعدة/١١ كانون الاول عند خان يونس على حملة مملوكية خرجت لقتالهم بقيادة جان بردي الغزالي الذي اسره العثمانيون ولكنه تمكن من الفرار فيما بعد، او بالاحرى سهل له الفرار، كما يبدو، نظراً لثبات تواطئه مع العثمانيين سابقاً ولاحقاً . وقد اطلع الغزالي خاير بك على خطة طومان باي العسكرية وعلى الطرق التي يجب على السلطان سليم اتباعها لقهر المماليك، وذلك قبل المعركة الحاسمة في الريدانية[3] وساعد بدو سيناء العثمانيين في معركة خان يونس، وقد ارهب هذا الانتصار العثماني بدو بني بقر المسيطرين على اقليم الشرقية في مصر، فقدم شيخهم أحمد بن بقر وأولاده عبد الدايم وبيبرس ولاءهم للسلطان سليم الذي ابقاهم وغيرهم من مشايخ البدو المؤيدين له، على مناطقهم وامتيازاتهم[4] . وكان ولاء البدو عاملا هاماً

---

١ ـ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج ٢، ٤٠ .

٢ ـ انظر المصدر السابق، ٣٦ ؛ انظر أيضا ص ٤١ .

٣ ـ ابن زنبل (Munich, 411) ٣٥ آ، ٣٧ آ ـ ٣٨ آ ؛ انظر أيضا ابن اياس، ج ٣ . ٧٨، ٨٦ ؛ ابن طولون، اعلام الورى، ٢١ .

٤ ـ انظر : ابن زنبل (Munich, 411)، ٣٥ ب ـ ٣٦ آ .

في نجاح العثمانيين لانه لو لم يكن الامر كذلك لكان بامكانهم اشغال قسم كبير من الجيش العثماني في قتالهم في منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهديدهم لقوافل المؤن . ولم تخرج قافلة الحاج المصري في هذه الأثناء الى الحجاز نظراً للاضطرابات في مصر . وكان اثر ذلك شديداً لدى الرأي العام الاسلامي[1] .

واصطدم العثمانيون ، بقيادة السلطان سليم ، بالمماليك ، بقيادة السلطان طومان باي ، في الريدانية (عند مشارف القاهرة) في ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢/ ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ . وكان طومان باي يرغب في مقاومة الزحف العثماني في نقطة ابعد ، عند الصالحية ذات الاهمية الستراتيجية حيث تلتقي الصحراء بالدلتا وحيث يكون العثمانيون قد انهكهم عبور صحراء سيناء ، غير إن الامراء المماليك فضلوا التمركز في الريدانية ، ووضعوا فيها المدافع . ولكن العثمانيين التفوا من خلف المدافع ، وتفوق رصاصهم من جديد على الفرسان المماليك ، وهرب طومان باي الى القاهرة فتبعه العثمانيون ودخلها السلطان سليم في ٣ محرم ٩٢٣/٢٦ كانون الثاني ١٥١٧[2] . وكان قد سبقه اليها الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله برفقة العثمانيين ، فنادى بالامان وقصده اسباغ الشرعية على الحكم العثماني وتهيئة الجو لدخول السلطان سليم . ولكن قتال الشوارع في القاهرة بين العثمانيين والمماليك استمر من ٥ الى ٨ محرم حين هرب طومان باي من القاهرة . وبعد أن خطب للسلطان سليم في مساجدها يوم الجمعة في ٣٠ ذي الحجة ، اثر انتصار الريدانية ، خطب للسلطان طومان باي في الجمعة التي تليها في ٧ محرم[3] .

ومما تجدر ملاحظته تضارب الانباء في الشام حول تقدم الجيش

---

(١) ـ المصدر السابق ، ٣٤ ب ؛ ابن اياس ، ج ٣ ، ٧٦ .

(٢) ـ تذكر بعض المصادر مثل الكواكب السائرة للغزي ، ج ١ ، ٢١٠ ، ان السلطان سليماً دخل مصر يوم ٥ محرم .

(٣) ـ انظر حول ذلك : ابن اياس ، ج ٣ ، ٩٢ ـ ١٠٤ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٢٣آ ـ ٢٨ب ؛ ابن زنبل (Munich, 411) ٣٨ آ ـ ٥٠ب ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٤٤ ـ ٤٧ ؛ Creasy, pp. 143-146

العثماني ، وانعكاس ذلك على الاحداث المحلية • فقد راجت شائعات تقول بهزيمة العثمانيين ، وحدثت اضطرابات نتيجة لذلك • ففي صفد ثارت فتنة ضد العثمانيين ، وفي دمشق تحرك بعض الزعر في ٢٢ محرم٩٢٣/١٤ شباط ١٥١٧ ضد اعوان الظلمة (العوانية) من المماليك ، وضد العثمانيين فلجأ هؤلاء الى القلعة • وفي يوم ٢٧ محرم/١٩ شباط استعرض والي دمشق ونائب القلعة والقاضي الرومي القوات العثمانية تحت القلعة وفي الميدان لطمأنة الاهلين[1] •

وردت الى دمشق في ٣ صفر ٩٢٣/٢٥ شباط ١٥١٧ انباء عن انتصار العثمانيين في الريدانية ؛ وفي ٦ صفر وردت اليها بلاغات عثمانية رسمية حول انتصار العثمانيين واحتلالهم القاهرة • وتذكر البلاغات قتل العثمانيين لكثير من العوام في القاهرة بسبب مساعدتهم للشراكسة ، وتشيد ايضا بمساعدة خاير بك للسلطان سليم في التسرب خلف المماليك ودحرهم ، وفي هذا تذكير لعوام وزعر دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيع للموالين للعثمانيين على غرار خاير بك • وقد زينت دمشق لهذه الانباء ، واخذ العثمانيون ، اثر ذلك ، يوطدون نفوذهم فيها • فبدأوا بأبطال العملة القديمة واصدار عملة عثمانية جديدة ، كما احضر الوالي العثماني اهالي الحارات اليه وجعلهم مسؤولين عن سلوك الزعر في حاراتهم[2] •

كان السلطان سليم في مصر يحاول ، في هذه الاثناء ، القضاء على طومان باي • ورغم أن هذا كان هارباً وقد ضعف كثيراً الا أن القضاء عليه كان ضروريا بصفته السلطان المملوكي الشرعي الذي يستطيع استقطاب حركة المقاومة للعثمانيين • ولا ادل على درجة الضعف التي وصل الها طومان باي من محاولته المفاوضة مع السلطان سليم على اساس قبول عرضه السابق له بأن يكون نائبه في مصر • وبالفعل أرسل له السلطان سليم وفداً للمباحثة

---

١ ـ ابن طولون ، Das Tübinger ، ١٢٦ ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٤١ ـ ٤٣ ، اعلام الورى ، ٢٢١ •

٢ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٤٣ ـ ٦٠ ، Das Tübinger ، ١٢٣ •

في ذلك ، الا ان المماليك المتطرفين قتلوا الوفد • ويبدو ان العثمانيين ، الذين احتلوا القاهرة واثبتوا مقدرتهم العسكرية ، كانوا يحاولون كسب الوقت للايقاع بطومان باي الذي كان سيبقى شوكة في جنبهم اذا لم يقض عليه • وربما كانوا مضطرين لتسوية الامور في مصر بسرعة نظرا لورود انباء عن تحرك الشاه اسماعيل الصفوي في مناطق آمد والرها وطرده الحكام العثمانيين منها[1] •

وفي محاولة لكسب المؤيدين اعلن طومان باي الغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات ، فهرع لتأييده كثير من الفلاحين والعربان • ولكن الخيانة اخذت تدب في صفوف طومان باي فهرب الغزالي ، ومعه عدد من امراء المماليك ، الى جانب العثمانين ، بعد ان انكشف تواطؤه ، وكان يطمع بمنصب كبير • وهرب ايضاً الى جانب العثمانيين جانم السيفي كاشف الفيوم بعد وعد السلطان سليم له باعطائه الفيوم اقطاعاً • وانفض عرب هوارة الاشداء في الصعيد عن تأييد المماليك بعد ان ادركوا ان قضية طومان باي اصبحت خاسرة وان العثمانيين يفتكون بالاعداء بالاسلحة النارية • وقد استخدم العثمانيون الامراء المنضمين اليهم في قتال المماليك ، وكان هذا اضعافاً لجبهة طومان باي ومماليكه الذين فشلوا مجدداً في المعارك العسكرية مع العثمانيين • وقد لجأ طومان باي الى شيخ بدو البحيرة حسن ابن مرعي فسلمه الى السلطان سليم بعد ان نال منه وعداً بتقديمه على جميع مشايخ البدو ، وبجعل المنطقة التي يسطر عليها اقطاعاً له ، وان لاتؤخذ منه اية ضرائب • وسلم الامير أحمد بن بقر (من زعماء بدو الشرقية) الامير شاذبك المملوكي وهو احد كبار مساعدي طومان باي ، الى السلطان سليم ، في محاولة منه للتقرب من العثمانيين للاعتراف بسلطته • وقد شنق السلطان سليم طومان باي في باب زويلة في القاهرة في ٢١ ربيع الاول ١٣/٩٢٣ نيسان ١٥١٧ ،

---

١ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٥٨ ، Das Tübinger ١٢٤ •

فأكد بذلك نفوذه ، وقضى على الشائعات القائلة بأن السلطان طومان باي مازال طليقاً [1] .

وصلت الى دمشق في ٨ ربيع الثاني ٩٢٣/٣٠ نيسان ١٥١٧ أنباء القبض على طومان باي ، وأعلن نبأ شنقه في اليوم التالي ، وأمر بتزيين دمشق مدة سبعة أيام . وقد تعاظم نفوذ العثمانيين في الشام وتوطدت سلطتهم ، وقاموا بعد ذلك باجراءات هامة كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ولكنهم لم يجرأوا على الثورة . واتخذت اجراءات أمن مشددة لردع الزعر ، وأعدم اثنان من اللصوص ، وأقيمت (الخوازيق) في الحارات لارهاب الاهلين . وأوعز الوالي والقاضي والدفتردار في دمشق بضبط الممتلكات خارجها والتفتيش على المستندات المتعلقة بها لمعرفة التزوير فيها ، كما طلبت مستندات الاوقاف لتدقيقها [2] . وهكذا نرى كيف استغلت انتصارات العثمانيين في مصر لادخال كثير من التنظيمات في بلاد الشام .

وقام السلطان سليم اثر القضاء على طومان باي ببعض الاجراءات الادارية في مصر . ولم تكن هذه شاملة أو ذات صبغة عثمانية جذرية ، بل كان الهدف منها ، كعادة العثمانيين بعد فتوحاتهم ، تسيير الامور بشكل مؤقت والابقاء على الادارة المحلية بكاملها تقريباً ريثما تصدر تنظيمات أشمل وأدق . وقد عين السلطان سليم جانم السيفي كاشفاً على البهنسا والفيوم مكافأة له على دعمه العثمانيين . كما عين زميلا لجانم ، لعله اينال السيفي ، على الجيزة واقليم الغربية . وأبقى القضاة الاربعة كما كانوا عليه زمن طومان باي ، وأبقي امتيازات أصحاب الاقطاعات والارزاق والاوقاف من شراكسة وأولاد ناس على ما كانت عليه . وقد خلع على الامير علي بن عمر شيخ قبيلة هوّارة في الصعيد ، وأبقى له امارة الصعيد ومركزها جرجا ،

---

١ ـ انظر حول احداث مصر في هذه الفترة : ابن زنبل (Munich, 411) ، ٥٠ آ ـ ١٢٤ ب ؛ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٠٦ ـ ١١٥ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٢٩ آ ـ ٣٣ ب ؛ Creasy, 146

٢ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٦٠ ـ ٦٥ ؛ Das Tübinger ، ١٢٣-١٢٢ .

وكذلك أبقى غالبية أمراء البدو الآخرين في اماراتهم • ثم أمر السلطان سليم بارسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع الى استانبول بحراً بطريق الاسكندرية للاستفادة من خبرتهم ،وذكر أن البنائين والنجارين والحدادين والمبلطين ، من مسلمين ومسيحيين ، ممن أرسلوا من مصر الى استانبول سيستخدمون في بناء مدرسة فيها على غرار مدرسة السلطان الغوري في القاهرة • وقد أمر السلطان سليم أن يجلب بالمقابل من استانبول الى مصر عدد من الافراد لم تذكر المصادر المحلية هوياتهم أو نوعية مهنهم ، ولكن يبدو أن هذا الاجراء يتفق مع عادة مألوفة في الدولة العثمانية باجراء تنقلات بين السكان اثر الفتح لنقل الخبرات أو لترسيخ الصبغة العثمانية في البلد المفتتح • وقد أرسل أيضا من مصر الى استانبول عدد من كبار المماليك وأسرهم[١] • وسمح السلطان سليمان فيما بعد لكثير من هؤلاء بالعودة الى مصر[٢] •

وقام السلطان سليم بزيارة الى الاسكندرية ، وعين نائباً عنه في القاهرة يونس باشا • ثم عاد منها وبدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلته أنباء مكدرة عن تحركات الشاه اسماعيل الصفوي • وتلقى السلطان سليم وهو في مصر وفداً أرسله شريف مكة الذي قدم اليه الخضوع ، فاعترف به السلطان سليم حاكماً على مكة • ثم عزل يونس باشا وعين بدلا عنه في ولاية مصر خاير بك المملوكي وأوصاه باعطاء الامان للمماليك الهاربين • وصنع السلطان سليم ، كما فعل في دمشق ، كسوة للمحمل الشريف مما أكسبه عطف المسلمين • وبعد أن ترك من عسكره لدى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق ، وبعد أن عين أميراً عثمانياً هو خير الدين باشا نائباً على قلعة القاهرة ، غادر السلطان سليم مصر في ٢٣ شعبان ٩٢٣/١٠ ايلول ١٥١٧ متجهاً نحو دمشق • وكان قد خرج قبل ذلك الى استانبول

---

١ ـ وصف الغزي في الكواكب السائرة ، جـ ١ ، ٢١٠ ، الجماعات الذين أخرجهم السلطان سليم من مصر الى استانبول بأنهم من أعيان مصر أخذوا منها سركنا أي منفيين ، على عادة الاتراك •

٢ ـ انظر : Creasy, 159

الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله بناء على أوامر السلطان سليم[1] •
ويبدو أن اخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أي ثائر محلي على العثمانيين من استغلال سلطته الدينية • كما أن اقامة الخليفة في استانبول يضفي عليها مجداً دينياً كمركز زعيم المسلمين • ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك ما حل بالخليفة العباسي أو بخلفائـه ، وبقي السلطان العثماني وحده بعد ذلك زعيم المسلمين رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة بشكل جدي[2] حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني•
وباحتلال العثمانيين لمصر ورثوا السلطنة المملوكية ومسؤولياتها في حمايـة الاماكن المقدسـة في الحجاز ، وأصبحت الدولة العثمانيـة بذلك زعيمة المسلمين السنيين •

وصل السلطان سليم الى دمشق في ٢١ رمضان ٧/٩٢٣ تشرين الاول ١٥١٧ ، وقد أصبح وضع العثمانيين فيها أكثر استقراراً عما كان عليه يوم دخلها السلطان سليم فاتحاً • وقد رأينا كيف أنه حاول التقرب آنذاك من الاهلين باعفائهم من بعض التنظيمات العثمانية الضارة بهم بسبب أن الخطر المملوكي في مصر لم يقض عليه بعد • ورأينا أيضاً كيف أن كـل ظفر للعثمانيين على المماليك في مصر كان يتلوه اتخاذ اجراءات (غير شعبية) في بلاد الشام • وقد اهتم السلطان سليم الآن في دمشق بثلاثة أمور : ادخال بعض التنظيمات العثمانية في دمشق ، بقصد ايجاد المال للدولة ، وتوطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لايجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحاج ، والانتقال بسرعة الى الاناضول لمواجهة خطر الشاه اسماعيل الصفوي •

ولم تكن التنظيمات العثمانية الآن في دمشق شاملة أو عميقة وانمـا كانت ، أشبه بالتنظيمات العثمانية التي تمت في مصر ، يقصد منها تسيير

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : ابن زنبل (Munich, 411) ، ١٢٥ آ ـ ١٢٨ ب ؛ ابن اياس ، ج ٣ ، ١١٦ ـ ١٣٣ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٣٣ ب ـ ٤٠ آ ؛ Creasy, 148-150;

٢ ـ يذكر ان السلطان العثماني قد أطلق على نفسه لقب خليفة في معاهدة كجك قاينارجه في سنة ١٧٧٤ التي وقعتها الدولة العثمانية مع روسيا ، انظر ص ٥٩

الامور بصورة مؤقتة • وبعد يومين من دخول السلطان سليم الى دمشق ، أي في ٢٣ رمضان / ٩ تشرين الاول ، أمر العثمانيون عرفاء الحارات ونفراً من أكابرها بحصر البيوت في دمشق وكتابة أسماء أصحابها استعداداً لفرض ضريبة على كل شخص فيها • وبالفعل فرض أشرفي (قطعة نقدية) على كل شخص ولكن نظراً لاستياء الناس من ذلك عمد العثمانيون الى حساب مايمكن أن تجمعه هذه الضريبة من المال ووزع مجموع ذلك بشكل متفاوت على السكان حسب مراتبهم في الغنى والفقر[1] • واذا صح أن هذا الاجراء قد تم بصورة منصفة فيكون العثمانيون قد خففوا أعباء الطبقات الفقيرة ،دون أن يخسروا شيئاً من المال • وقد فرض العثمانيون بجانب ذلك ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق[2] • وزاد في تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها وطلب القاضي العثماني محاسبة نظار الاوقاف على وارداتهم[3] • وبالمقابل أمر السلطان سليم ببناء جامع ثم تكية عند قبر محي الدين ابن عربي في الصالحية[4] ، ومن شأن ذلك أن يكسبه عطف كثير من المتصوفه في دمشق • وقد سمح العثمانيون لاصحاب الاقطاعات بالبقاء على اقطاعاتهم ولارباب الوظائف المدنية بالبقاء في وظائفهم[5] • ولابد أن هـذا الاجراء قد أرضى كثيراً من المنتفعين ودعم استمرار كثير من التنظيمات المملوكية التي كانت في صالح جان بردي الغزالي في المستقبل • وقد وطد العثمانيون الامن والهدوء في دمشق وفتكوا باللصوص الذين حاولوا استغلال تبديل السلطة السياسية ، فحفظوا بذلك هيبة حكمهم وحافظوا على أموال الناس وأمنهم • وهكذا نرى كيف أن العثمانيين وازنوا في سياستهم بين الاستثمار والتسامح في سبيل استمرار حكمهم •

واتخذ السلطان سليم اجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الامراء

---

١ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨١ ، أعلام الورى ، ٢٢٧

٢ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٧٠ ، ٧٣ •

٣ ـ المصدر السابق ، ٦٨ ، ٧٢

٤ ـ المصدر السابق ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٩ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ٢١٠ •

٥ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨١ •

المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطة الذين عارضوه • وقد حاول أولا القضاء على أمير البقاع البدوي ناصر الدين ابن الحنش بسبب ازدياد نفوذه ، وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية والتي تمر فيها الطريق الرئيسية بين دمشق وبيروت وأيضاً بسبب ايوائه كثيراً من المماليك الفارين • فهرب ناصر الدين اثر سماعه بخروج السلطان سليم نفسه على رأس حملة ضـده • وعين السلطان سليم مكانه الامير محمد بن قرقماس الشركسي ، وأضاف اليه حكم بيروت وصيدا[1] وقـد تضرر الامراء التنوخيون في جبل لبنان لتأييدهم لناصر الدين ابن الحنش فاعتقلوا ولم يطلق سراحهم الى أن قتل ناصرالدين فيما بعد • وكان الامراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، الا انهم خسروا هذه الزعامة لصالح المعنيين ، وزعيمهم فخر الدين ، الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق ، فاعترفوا بهم أمراء على جبل لبنان[2] • وقدم أمير منطقة صفد البدوي ،ابن طرابايي ،خضوعه للسلطان سليم فاعترف بسلطته وجعله نائباً على صفد[3] • وكان السلطان سليم مهتماً بسلامة الحاج ولم يخرج الحاج الشامي سنة ٩٢٣ هجرية خوفاً من اعتداء البدو عليه[4]•

اشتد تهديد الصفويين لمقاطعات العثمانيين في شرقي الاناضول حين كان السلطان سليم منشغلا في قتال المماليك في مصر • واستمرت أنباء تهديـد الصفويين ومناوشاتهم مع العثمانيين تصل السلطان سليم حين كان في دمشق•

---

١ ــ المصدر السابق ، ٧٧ ــ ٧٨ ، ٧٩ ؛ Das Tübinger ، ١٢١ ــ ١٢٠ •

٢ ــ انظر : طنوس الشدياق ، أخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، بيروت ١٩٥٤ ، انظر الجزء الاول ، ص ٢٨٧ ، ٢٩٣ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : شدياق ؛ انظر أيضا : عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٢ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : تاريخ فخر الدين •

٣ ــ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، Das Tübinger ، ١٢٠ ؛ انظر أيضا :
A.N. Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900, London, 1939, p. 59 : Poliak سيذكر هذا باختصار كما يلي :

٤ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ٧١ •

وعززت تبعاً لذلك الحامية العثمانية في منطقة ديار بكر[1] • وازاء هـذا الوضع ، وبعد غياب في بلاد الشام ومصر دام حوالي سـنة ونصف غادر السلطان سليم دمشق في ١٠ صفر ٩٢٤/٢١ شباط ١٥١٨ • وكان قد عزل عنها واليها شهاب الدين أحمد بن يخشى الرومي فعين عليها الآن جان بردي الغزالي الذي كوفيء أخيراً على خيانته المماليك ، ونال ماطمح اليه ، مثل خاير بك • وكانت المنطقة التي عهد اليه بولايتها تمتد من معرة النعمان الى عريش مصر • وقد عين ولي الدين بن الفرفور الدمشقي بمنصب القاضي الحنفي في دمشق ،وجعل قضاة المذاهب الأخرى في ولاية الشام تحت امرته[2]• وفي ٢٣ رمضان ٩٢٤/٢٨ ايلول ١٥١٨ وصلت الى دمشق أنباء احتـلال العثمانيين لبعض القلاع التي كانت تحتلها قوات الشاه اسماعيل الصفوي[3] •

---

١ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٧٤ ، ٧٩ •

٢ ـ انظر المصدر السابق ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٣ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٦٩ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٣١١ ؛ انظر أيضا : صالح فرفور ، الدر المنثور على الضياء الموفور في أعيان بني فرفور ، دمشق ١٩٦٣ ، ص ٧٧ ـ ٨١ •

٣ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨٧ ، Das Tübinger ، ١١٩ •

الفصل السادس

الإضطرابات في بلاد الشام ومصر إثر الفتح العثماني

حكم الغزالي في بلاد الشام وثورته على العثمانيين

اهتم جان بردي الغزالي أثناء ولايته على الشام بثلاثة أمور رئيسيه : توطيد سلطته في دمشق وخارجها ، وتأمين سلامة الحاج ، وتحين الفرصة للثورة على العثمانيين .

بعد أن ودع الغزالي السلطان سليماً في حمص ، عاد الى دمشق يوم الجمعة في ٢٢ صفر ٩٢٤/٥ آذار ١٥١٨ ، فاستقبله ، على حد تعبير ابن طولون «الامراء الباقون بدمشق (وربما قصد بذلك الامراء المماليك الباقين في دمشق) ، وشباب الحارات الذين كانوا يحملون أسلحتهم . وكان يتقدمه الانكشارية ورماة البندق وعددهم نحو خمسمائة شخص . وقد أمر بترميم دار السعادة (أي السرايا) حيث يجلس الوالي ، ثم أبطل رؤساء الحراس ونقباء الصنائع ومشايخ الحارات . ويبدو أنه عين بدلا عنهم أناساً يدينون له بالولاء . وقد هرع ناصر الدين بن الحنش للتوسط لدى الغزالي بالعودة الى منطقة البقاع ، وكان قد هرب منها خوفاً من السلطان سليم .

ولم يكن استقبال الغزالي على هذا النحو مجرد استقبال ظاهري مخادع رتب في يوم جمعة أثناء راحة تقليدية ، بل ان مدلوله عميق اذا مانظرنا الى أنواع الفئات التي خرجت لاستقباله ، واذا ربطنا ذلك بالاحداث التالية . لقد برز بين المستقبلين الامراء الباقون في دمشق وشباب الحارات . وكان هؤلاء الاخيرون قد استغلوا انتقال السلطة من المماليك الى العثمانيين فمارسوا

نفوذاً هاماً في دمشق في أوقات ضعف السلطة الادارية المحلية ، وان تسامح الغزالي بوجودهم وهم يحملون السلاح ، بل مشاركتهم في استقباله ، يظهر رغبته في الاعتماد عليهم ، الى جانب المماليك ، في سبيل توطيد سلطته الشخصية . وقد أعاد بعض العادات التي سادت زمن المماليك كدق الطبل في القلعة وعلى أبواب البلد ، وكان السلطان سليم قد أبطلها ، ففرح الناس بذلك ، كما ذكر ابن طولون[1] . ولم يكن الهدف من ذلك التقرب من الناس فقط ، بل تكريس العادات المملوكية والغاء التنظيمات العثمانية بالتدريج . وقد أبطل الغزالي أيضاً عادة فرض الضرائب على الداخلين من أبواب المدينة ، وأعاد الشهود الى المحاكم كما كان الامر زمن السلطنة المملوكية ، وكان السلطان سليم قد أزالهم من مراكزهم . وزاد في تحببه الى الاهلين مناداته بمعاقبة الاروام (العثمانيين) الذين يتعرضون لهم[2] .

ونتج عن ابطال الغزالي لكثير من الانظمة التي أدخلها العثمانيون ، ولاسيما اعادته لشهود المحاكم ، ان اصطدم مع القاضي الحنفي ولي الدين ابن الفرفور الذي أخلص في الظاهر للعثمانيين ، وكان أشد منافسي الغزالي في دمشق . وليس أدل على شدة نفوذ ابن الفرفور من كيفية عودته الى دمشق اثر توديعه للسلطان سليم . فقد صحب السلطان حتى حلب ، وذلك زيادة منه في الولاء ، بينما عاد الغزالي من وداعه من حمص . وحين دخل ابن الفرفور دمشق كان موكبه حافلا ظهر فيه شهود المحاكم والانكشارية الذين ساروا في المقدمة ، بينما سار خلفه الغزالي وعسكره . وازداد الجفاء بين الاثنين بازدياد نفوذ الغزالي وارتداده الى عادات المماليك . والجدير بالذكر أن أعمال الغزالي هذه اذا ما قرنت بثورته فيما بعد أمكن تفسيرها بردة مقصودة الى التقاليد المملوكية . ولكن العثمانيين لم يشكوا بولاء الغزالي . وفي يوم ١١ رمضان ٩٢٤/١٦ ايلول ١٥١٨ أعلن في دمشق مرسوم

---

١ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨٣ ـ ٨٥ ، Das Tübinger ، ١١٩ ، اعلام الورى ، ٢٢٨ .

٢ ـ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٦٩ .

سلطاني بتعيين الغزالي ناظراً علـــى أوقاف الجامع الاموي ، وعزل الناظر الرومي[١] • وكانت العادة زمن المماليك أن يولى ولاة دمشق النظر عـلى أوقاف الجامع الاموي • وقد خشي ابن الفرفور من ايقاع الغزالي به اذا ما استمر في معارضته ، فهرب الى الروم في ١٤ محرم ٩٢٦/ه كانون الثاني ١٥٢٠ ، ليثير سلطات استانبول على الغزالي • وبقي مدة في حلب ، فحاول الغزالي اثارة واليها عليه لاعاقته عن الوصول الى استانبول • وقام مقامه في القضاء في دمشق المحيوي بن يونس ، ثم عين في منصبه شـرف الدين ابن مفلح الحنبلي الذي رشحه الغزالي بعد أن أعلم السلطان أن ابن مفلح هذا يدفع في القضاء عشرة آلاف دينار ، وربما يقصد بذلك انه يلتزم واردات منصبه بهذا المبلغ • وقد بقي ابن مفلح في منصبه حتى مقتل الغزالي وعودة ابن الفرفور اثر ذلك[٢] •

شرع الغزالي بعد ذلك بتعميق نفوذه في دمشق فتخلص من بعض الموظفين العثمانيين[٣] ، وعين أميراً من المماليك نائباً عنه في غيابه[٤] ، وشدد الرقابة على الاخبار المرسلة الى خارج دمشق بأن أمر بعرضها على رئيس السعاة • كما بنى البوابات عند منافذ دمشق ، خارج السور ، بقصد التضييق على اللصوص في الظاهر ولتقوية الدفاع عن دمشق ضد الامراء المحليين من بدو وغيرهم الذين أوقع بهم الغزالي ،وربما ضد العثمانيين أيضا اذا ما أعلن ثورته[٥] • وبعد هرب ابن الفرفور بقي آغا الانكشارية ، وهو نائب القلعة ، المنافس القوي للغزالي لانه يرتبط مباشرة بآغا الانكشارية في استانبول ، وكان يعين عادة من بين الاروام[٦] •

---

١ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٨٥ •

٢ ــ المصدر السابق ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، Das Tübinger ، ١١٨ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١ ، ١٦٩ ؛ انظر أيضا : محمد بن طولون ، الثغر البسام في ذكرمن ولي‌قضاء الشام ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ ، انظر ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الثغر البسام •

٣ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٤

٤ ــ المصدر السابق ، ٩٠ •

٥ ــ المصدر السابق ، ١٠٠

٦ ــ المصدر السابق ، ٨٨ ، ١٠٥

واهتم الغزالي في توطيد سلطته خارج دمشق بالقضاء أولا على أمير البقاع ناصر الدين بن الحنش الذي فشل السلطان سليم في القضاء عليه • وقد عرض ناصر الدين على الغزالي ، في مطلع ولايته ، المصالحة ، ولكن الغزالي جرد عليه حملة الى البقاع خرجت بقيادته من دمشق في ٢١ ربيع الاول ٢/٩٢٤ نيسان ١٥١٨ ، وتغلب عـلى ناصر الدين في معركة جرت قُربَ بعلبك في ٦ ربيع الثاني ١٧/٩٢٤ نيسان ١٥١٨ ، وقطع رأسه وأرسله الى السلطان فبعث اليه خلعة ، وهذا دليل على امتنانه[1] • ورغم أن السلطان أرســل من قبله حاكماً رومياً عـلى البقاع يسمى الامـير يوسف سنان الرومي[2] ، ليضمن كما يبدو عدم ازدياد نفوذ الغزالي بسيطرته عــلى البقاع الغني اقتصادياً والهام استراتيجياً ، فان القضاء على ابن الحنش ذي النفوذ المحلي الكبير زاد من هيبة الغزالي في أنحاء ولايته •

وقد اشتهر الآن في ولايــة الشام كثير من الامراء المماليك والامراء المحليين الذين استمروا يحكمون منذ زمن المماليك وذلك بعد تقديمهم الولاء للعثمانيين • ومن هؤلاء الامراء جان بلاط المملوكي نائب غزة الذي عين أميراً للحاج الشامي مرتين في ولايــة الغزالي • وكان الغزالي من القوة بحيث أنــه كان يلجأ الى السّــلاح للبطش بالامراء المحليين الذين تحدوا سلطته ، كما حدث في بطشه بابن الامير ساعد ، وربما هــو ساعد أمير عجلون[3] ، وبآخرين من أعيان نابلس لاعتدائهم على موظفي الغزالي[4] •

واصطدم الغزالي بالبدو لإهتمامه بتأمين سلامة الحاج في المناطق التي سيطروا عليها • ولم يكن الغزالي الامير الفعلي للحاج الشامي الا أنه كان مسؤولا عن سلامته بصفته حاكماً لدمشق مكان تجمع الحجاج ولولايــة الشام التي كانت تتاخم الباديــة حيث يتعرض البدو للحاج • ولهذا غادر الغزالي دمشق في ١ ذي الحجة ٤/٩٢٤ كانون الاول ١٥١٨ متجهاً نحو

---

١ ـ ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩

٢ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ١١٤ ، ١٢١

٣ ـ انظر : البوريني ، ج ١ ، ١٨٦

٤ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ١١٩ ، ١٢١ •

الجنوب لحماية الحاج من البدو في المنطقة بين حوران وعجلون وكان بدو ال دغيم قد تعرضوا للحاج بعد خروجه من تبوك ولكنهم صدوا عنه ، وعاد الغزالي الى دمشق في ١٨ صفر ٩٢٥/١٩ شباط ١٥١٩[١] • وفي عام ٩٢٥ قام الغزالي بحملتين على بدو حوران : الاولى في ١٧ ربيع الاول/١٩ آذار وأسر فيها أحد أمراء البدو ويسمى ملحماً ، والثانية في ٢٩ شعبان/٢٦ آب حيث حاول أسر أمير عرب حوران المسمى جغيمان الذي هدد الحاج ، ولكنه هرب من الغزالي • ولتلافي ثأر جغيمان وهجومه على الحاج قرر الغزالي ارسال قافلة الحاج عن طريق غزة لتأمين سلامتها[٢] • والجدير بالذكر أن هـذا الطريق الفرعي ، الذي عرف بالطريق الغزاوي ، كان أكثر أمناً لانه يشكل جزءاً من الطريق التجاري المؤدي الى مصر • وكان الحاج يذهب ، في هذه الحالة ، من غزة باتجاه الكرك والشوبك حيث يتصل بالطريق الرئيسي الذي يذهب رأساً من دمشق الى الحجاز والذي عرف بالطريق السلطاني • وفي ٣ ذي الحجة ٩٢٥/٦ تشرين الثاني ١٥١٩ خرج الغزالي من دمشق لقتال جغيمان خوفاً من تعرضه لقافلة الحاج أثناء عودتها ، فهاجمه في منطقة معان وأسر بعض أتباعه وأحد أقربائه المسمى دويعر ، واستولى على بعض متاعه ، وعاد الى دمشق في ١٤ صفر ٩٢٦/٤ شباط ١٥٢٠ • ثم تجدد القتال بين الغزالي وجغيمان في ربيع الاول ـ ربيع الثاني ٩٢٦/شباط ـ نيسان ١٥٢٠[٣] •

سر السلطان من محافظة الغزالي عـلى الحاج فأغدق عليه الخلع ، واستفاد الغزالي من ذلك فكسب رضى المسلمين ، وازداد بالتالي نفوذه في دمشق • وكان الغزالي يجمع الاموال ويفرض الضرائب لاجل ، أو بحجة ، تمويل الحاج[٤] •

---

١ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، اعلام الورى ، ٢٢٩

٢ ـ ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٢٩ ـ ٢٣٠

٣ ـ المصدر السابق ، ٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٤

٤ ـ انظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨٧ ، ٩٣ •

ثورة الغزالي . – يبدو أن الغزالي ، وقد عظم نفوذه ، حدثته نفسه بالثورة على السلطان . ورغم أنه لم يجاهر بذلك حتى الآن ، فقد كان يعد العدة لهذا الامر . وفي ٢ ذي القعدة ١٤/٩٢٦ تشرين الاول ١٥٢٠ غادر الغزالي دمشق الى بيروت بعد أن كثرت اعتداءات الفرنجة (يرجح أنهم قراصنة) عليها . وكانت قد أرسلت عدة رؤوس من قتلى الفرنجة الى دمشق لاستثارة أهلها . كما وصلت دمشق الآن أنباء عن تجول مراكب الفرنجة (يرجح أنهم برتغاليون)[1] بالقرب من جدة فأثارت ذعر المسلمين خوفاً من اعتدائهم على الاماكن المقدسة . وهكذا فان ذهاب الغزالي الى بيروت من شأنه أن يكسبه ثقة المسلمين بدفاعه ضد أعداء الدين . وقد أراد الغزالي أن يتأكد من قدرة القلاع في ساحل بيروت على الدفاع ضد الفرنجة وربما ضد العثمانيين فيما لو أعلن ثورته .

وفي ١٢ ذي القعدة ٩٢٦ وصل الى دمشق رسل من استانبول يحملون أنباء خاصة الى الغزالي بموت السلطان سليم ، فأرسلوا اليه في بيروت . وما أن علم الغزالي بذلك حتى عاد فجأة الى دمشق في ١٥ ذي القعدة/٢٧ تشرين الاول ، وعزل الامير سنان الرومي عن البقاع ، وعين مكانه أحمد ابن ناصر الدين بن الحنش . ويبدو أن آل الحنش قد بقوا الزعماء الفعليين في البقاع وان الغزالي قصد حين عين أحد أفرادهم حاكماً على البقاع أن يكسبهم الى جانبه . وقد اعتصمت القوات العثمانية في قلعة دمشق في ١٦ ذي القعدة حين تيقنت من نية الغزالي على الثورة . وشرع الغزالي بمحاصرة القلعة ، وبذلك أعلن ثورته . ونتبين من هذه الحركة المفاجئة من الغزالي انه كان يبيت للثورة منذ فترة ، ولم يكن موت السلطان سليم في ٩ شوال ٢٢/٩٢٦ ايلول ١٥٢٠[2] الا مناسبة لاعلانها .

وانضم الى الغزالي في محاصرة القلعة شباب حارات الشاغور والصالحية وميدان الحصا ، الى جانب جماعة من المماليك كانوا قبلا يحرسون القلعة في

١ ـ نشط البرتغاليون في تلك الاثناء في منطقة المحيط الهندي والبحر الاحمر .
٢ ـ انظر حول وفاته : Creasy, 153 ff.

عهد السلطنة المملوكية • وتمكن الغزالي في ١٧ ذي القعدة/٢٩ تشرين الاول من احتلال القلعة بالحيلة وبسبب ضعف حاميتها التي ضمت نحو مائة وخمسين شخصاً بينهم فقهاء وصوفية • ويدل وجود الصوفية بين الانكشارية على الرابطة القوية بين الجيش الانكشاري والطرق الصوفية • وبعد احتلال الغزالي للقلعة عين نائباً عليها الامير اسماعيل بن الاكرم ، وأعاد الى ادارتها والدفاع عنها موظفيها زمن المماليك • ثم أظهر ملابس اشتراكسة من التخفيفات وأبطل لبس العثمانيين من العمائم والقفطانات • وأمر بايقاف بناء الجامع والتكية عند قبر محي الدين بن عربي في الصالحية • وكان السلطان سليم قد أمر ببنائهما • وصادر المؤن والاموال التي رصدت لهما ، ومنع خطباء المساجد من ذكر اسم السلطان الجديد سليمان (القانوني) في الخطبة[1] •

وعين الغزالي حاكماً من قبله يسمى المقوقع على حماة • ولدى وصول هذا الحاكم الى حمص قتل الصوباشي (مدير الشرطة) فيها ، وعين حاكماً عليها أحد أمراء آل الحرفوش وهي أسرة متوالية شيعية في البقاع الشمالي • ثم تابع المقوقع مسيره الى حماة حيث طرد منها حاكمها العثماني• وكان الغزالي قد أرسل حاكماً استولى على طرابلس ، باستثناء القلعة ،وطرد منها واليها العثماني • وحضر الى دمشق حاكم صفد وحاكم القدس ، وهما من مؤيدي الغزالي ، فاصطحبهما الغزالي مع قوات أخرى ، ضمت جنوداً أرسلهم ابن الحنش ، لاحتلال حلب ، وكان خروجه من دمشق في ١٤ ذي الحجة ٢٥/٩٢٦ تشرين الثاني ١٥٢٠ •

اتخذ والي حلب الرومي قراجا باشا الاستعدادات للدفاع ، فصادر كثيراً من المؤن والحيوانات من القرى التابعة لحلب • وحدثت مناوشات بين قواته وطلائع قوات الغزالي قرب حلب ، ثم في ضاحيتها ، الانصاري ، في ٢٣ ذي الحجة/٤ كانون الاول ، فرجح جانب قوات الغزالي ، وارتدت قوات قراجا باشا الى داخل أبواب المدينة • وحاصر الغزالي حلب ستة

---

١ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ١٢٢ ـ ١٢٤ ، Das Tübinger ، ١١٧ ـ ١١٦ اعلام الورى ، ٢٣١ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٦٩

عشر يوماً ، وقذفها بالمدافع ، وقطع الماء عنها ، ولكنه لم يفلح في احتلالها • ولم تحدث ثورة داخلها ضد العثمانيين رغم الغلاء في الاسعار الذي حصل• واضطر الغزالي الى رفع الحصار في ٩ محرم ٩٢٧/٢٠ كانون الاول ١٥٢٠ ، وعاد أدراجه الى دمشق • ويعزى تراجع الغزالي الى خوفه من اقتراب الجيش العثماني المتوجه ضده من الشمال • وقد وصلت بالفعل طلائع هذ الجيش بقيادة الامير علي بن سوار الى حلب بعد يومين من مغادرة الغزالي لها ، وأقامت فيها تنتظر قدوم قوات القائد العثماني فرهاد باشا الذي عينه السلطان سليمان لقتال الغزالي • ومن ناحية أخرى ، لم يحظ الغزالي بتأييد خاير بك والي مصر ، وكان قد طلب اليه مساعدته • وبقي خاير بك على ولائه للعثمانيين ، وأرسل يبلغ السلطان سليمان عن استعداده لارسال جيش ضد الغزالي • كما ضايق حلول فصل الشتاء قوات الغزالي•

وفي ٧ صفر ٩٢٧/١٧ كانون الثاني ١٥٢١ عاد الحاكم الذي كان الغزالي قد عينه على طرابلس الى دمشق مطروداً من قبل حامية القلعة التي بقيت موالية للعثمانيين والتي تشجعت الآن بوصول أنباء قدوم الجيش العثماني، وتراجع الغزالي • ووصل الغزالي الى دمشق في اليوم التالي ، وأخذ يعزز الدفاع عنها • فأقام الاستحكامات والتحصينات في المدينة ، واستعرض شباب الحارات في المرجة • وقد خطب باسمه في الجامع الاموي يوم الجمعة في ٢٢ صفر ٩٢٧/١ شباط ١٥٢١ بأنه سلطان الحرمين الشريفين ، ولقب بالملك الاشرف[١] • ومما تجدر ملاحظته تأخير اعلان الغزالي نفسه سلطاناً حتى هذه المرحلة الاخيرة من ثورته حين تقلصت سلطته وأصبح ضعيفاً • وربما يفسر ذلك بمحاولة الغزالي عدم استفزاز خاير بك والي مصر بعد أن طلب مساعدته وعرض عليه فصل سورية ومصر عن العثمانيين واعادة السلطنة المملوكية ، ووعد الغزالي خاير بك باقتسام السلطة وأن يكون الغزالي حاكماً على سورية وخاير بك على مصر • وربما شعر الغزالي بقرب نهايته ففضل أن يموت سلطاناً وبذلك يحقق حلماً طالما سعى اليه •

---

١ ـ انظر : ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٣١ ـ ٢٣٦ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١ ، ١٦٩ ـ ١٧٠ ؛ ابن زنبل ، (Munich, 411) ، ١٣١ آ ـ ١٣٦ آ •

وصلت طلائع الجيش العثماني الى برزة واستعد الغزالي للخروج لقتالها • فما هي امكانياتـه في النجاح ، وبالتالي ماهي القوى التي كانت تدعمه ؟ اعتمد الغزالي في ثورته على بقايا المماليك وبعض الموظفين والمنتفعين من عهد السلطنة المملوكية بالاضافة الى بعض الشبان المسلحين من حارات دمشق، وكان أغلبهم من الزعر الذين تعاظم نفوذهم في فترة انتقال السلطة من المماليك الى العثمانيين • ورغم عنصر المغامرة لدى هؤلاء الشبان وتحينهم المناسبات لاثبات وجودهم والتعبير عن قوتهم والتباهي بها ،فانهم مثلوا السكان المحليين الذين دعاهم نجم الدين الغزي في هذه المناسبة بأولاد العرب[1] • وطبيعي أن مؤيدي الغزالي تضاءلوا بازدياد ضعف سلطته التي اقتصرت أخيراً على مدينة دمشق ،وأخذ يستثير أهلها على المقاومة حرصاً على مصلحتهم ،وطلب من مشايخ الحارات أن يعاهدوه على عدم خيانته • وكان هؤلاء يحرصون مع غيرهم من الاعيان على دفع الاذى عن دمشق • وابتهل الكثيرون أن يكون قتال الغزالي مع العثمانيين خارج دمشق ، وبالفعل خرج الغزالي الى منطقة برزة حيث اصطدم مع العثمانيين في ٢٦ صفر **٩٢٧/٥ شباط ١٥٢١** فهزمت قواته وقتل ، واحتل العثمانيون دمشق • وحين دخلها القائد العثماني فرهاد باشا كان يرافقه قاضي دمشـق السابق ولي الدين بن الفرفور الذي عارض سياسة الغزالي ، وعاد الآن الى منصب القاضي الحنفي فيها[2] •

---

١ ـ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٧٠ • وقد شاع استخدام تعبير أولاد العرب بهذا المعنى في كتابات المؤرخين في بلاد الشام ومصر طيلة الفترة التي يعالجها هذا الكتاب ' انظر بهذا الخصوص كتابنا The Province of Damascus, p. 7 n. 1 .

٢ ـ ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ انظر أيضا مخطوط محمد بن جمعة : الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشـات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن السلطان سليم خان عليـه الرحمة والرضوان وقد أشار الدكتور صلاح الدين المنجد الى هـذا المخطوط باختصار باسـم : الباشات والقضاة ، ونشره عن نسخة مصورة في المجمع العلمي العربي بدمشق مأخوذة عن مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9785. Spr. 188 • وقد نشر المنجد هذا المخطوط مع مخطوط آخر يوجد في الظاهرية بدمشق برقم ٤٧٧٢ ، وعنوانه : هذه أسماء الوزراء الذين حكموا في دمشق الشام من خلافة السلطان سليم من سنة ٩٢٢ هـ ، للسيد رسلان القاري ،في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ،دمشق ، ١٩٤٩ : سيذكر هذان المصدران باختصار كما يلي : ابن جمعة ، نشر منجد ، والقاري ، نشر منجد • انظر في هذا المجال : ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ١ ـ ٤ • وتجب الاشارة هنا الى أنه توجد في مجموعة برلين نسخة مخطوطة

لم يكن الغزالي مجرد ثائر عادي ، على كثرة ماشهدته الدولةالعثمانية طيلة عهودها من ثائرين • ولم يكن اتخاذه لقب السلطنة بالامر الذي يقض مضاجع العثمانيين نظراً لان قوته كانت في دور التصفية آنذاك • وخطورة ثورته انما تكمن في أهمية المنطقة حيث ثار وفي الزمن الذي قامت فيه • فبالاضافة الى أهميةبلاد الشام ، وخاصة دمشق ،في التاريخ العربيالاسلامي، واعتزاز العثمانيين بفتحها لانها وضعتهم في قلب العالم العربي الاسلامي ، كان هناك خوف من تأييد خاير بك للغزالي والقيام معاً بثورة مملوكية ولما تمض بضع سنوات على القضاء على السلطنة المملوكية التي مازال لها أتباع كثيرون • وهناك خطر استغلال الشاه اسماعيل الصفوي لهذه الثورة كمؤيد للغزالي ، أو كمستفيد من انشغال العثمانيين بها ، وامكانية احتلاله بعض أجزاء الاناضول • ومهما يكن ، فان ثورة الغزالي حدثت في زمن كانت فيه قوة العثمانيين في أوجها فتمكنوا من القضاء عليها بسهولة •

ويعتبر القضاء على الغزالي قضاء على آخر نفوذ للمماليك في سورية وبداية لحكم العثمانيين الفعلي لها • وقد عزز العثمانيون حاميتهم في دمشق فأرسلوا لها الف انكشاري ، وعينوا رومياً هـو اياس باشا حاكماً علـى دمشق[1] • كما أنهم حدوا من سعة ولاية الشام ،وأعادوا النظر في التقسيمات الادارية في سورية • وعوضاً عن امتداد سلطة والي الشام عـلى المنطقة الممتدة بين معرة النعمان وعريش مصر ،كما كان الامر في عهد الغزالي ،اقتصرت سلطة الوالي الآن على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش ، وقسمت هذه

→

اخرى عن مؤلف ابن جمعة هذا ولم يطلع عليها المنجد ،وهي برقم 9785. We. (II) 418 وهذه النسخة أحسن من سابقتها لانها لاتحتوي على ثغرات (خروم) كالتي تظهر في النسخة التي استخدمها المنجد • وحيث يفيد استخدام هذه النسخة الثانية فسيشار اليها كما يلي : ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We. (II) 418 • وتوجد في الظاهرية بدمشق نسخة غير كاملة عن مخطوط ابن جمعة هذا تتفق تقريبا مع نسخة برلين الثانية ، وهي برقم ٧٥٢٢ ، وأعطاها المصنف عنوان : قطعة من تاريخ • وحين استعمالها هنا فسنشير اليها باختصار كما يلي : ابن جمعة ، قطعة من تاريخ • وسنستخدم هنا ما أمكن نسخه ابن جمعة ، نشر منجد ، ليسهل على القارىء الرجوع اليها •

١ ــ انظر : ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤ ــ ٥ ؛ ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٣٧ ــ ٢٣٨

بدورها الى صناجق[1] • وأصبحت التقسيمات الادارية في سوريه في القرن السادس عشر على النحو التالي[2] : ولاية الشام وتتألف من الصناجق التالية : دمشق مركز الولاية ، القدس ، غزة ، صفد ، نابلس ، عجلون ، اللجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك ؛ وولاية حلب وتتألف من صناجق : حلب مركز الولاية ، ادنة ، كلس ، بيرەجك ،بالس، منبج ، معرة النعمان ، وتركمان حلب واعزاز ؛ وولاية طرابلس وتتألف من صناجق : طرابلس مركز الولايــة ، حماة ، حمص ، سلمية ، جبلــة ، اللاذقية ، والحصن • ويجب الانتباه هنا الى أن هذه التقسيمات لم تكن نهائية اذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما أو يدمج بآخر أو يؤسس صنجق جديد • وسنرى في حينه كيف أن صنجقي صفد ، وصيدا مع بيروت ، قد سلخا عن ولاية الشام في القرن السابع عشر وتأسست منهما ولاية رابعة في سورية هي ولاية صيدا • وكانت بعض الصناجق في ولاية ما تلحق بولاية أخرى لاسباب معينة ، كما حصل مثلا في القرن الثامن عشر حين الحق صنجقا حمص وحماة بوالي دمشق على شكل مالكانه Malikane [3] ليستفيد من عائداتهما ، وذلك بعد أن أصبح ولاة دمشق أمراء للحاج الشامي ومسؤولين عن تأمين نفقات قافلة الحاج •

الاضطرابات في ولاية مصر من ٩٢٣ ـ ٩٣١/١٥١٧ ـ ١٥٢٥

ولاية خاير بك • ـ غادر السلطان سليم الاول مصر في ٢٣ شعبان ٩٢٣/١٠ ايلول ١٥١٧ ، بعد أن أمضى فيها حوالي ثمانية أشهر ، وعين

---

١ ـ انظر : ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٣٧

٢ ـ هذه التقسيمات مبنية على عدة مصادر منها : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ؛ وايضاً :

Belin, 274 - 276; Poliak, 43; Lewis, « Studies - I », 153 -155, R. Mantran et I. Sauvaget, Règlements Fiscaux Ottomans, Les Provinces Syriennes, (Institut Français de Damas), Beyrouth, 1951, pp. 35, 43, 47, 53, 55, 56, 59, 77, 81, 88, 93, 97, 110, 111, 119; Evliya Efendi, Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the 17th Century, translated from Turkish and edited by Joseph Von Hammer - Purgstall, 1 Vol., in two parts, London, 1834, 1846, see pt. I, p. 93.

٣ ـ انظر ص ٦٨ •

خاير بك حاكماً عليها ، كما عين شخصاً عثمانياً يسمى خير الدين باشا نائباً على القلعة وقائداً على القوات العثمانية التي تركها فيها • ولعل أهم الاسباب التي أدت الى تعيين خاير بك هي خيانته للمماليك والتجاؤه للعثمانيين مما سهل انتصارهم في مرج دابق ، ومساعدته لهم في احتلال سورية ، ثم تشجيعه للسلطان سليم والحاحه عليه في الهجوم على مصر ، واطلاعه العثمانيين على ضعف المماليك فيها وعلى خير الطرق في الاستيلاء عليها • وهناك سبب آخر لتعيين خاير بك وهو السياسة العثمانية آنذاك في الاستعانة أولا بالحكام المحليين الموالين ثم توطيد السلطة العثمانية بالتدريج بعد ذلك• وهذا ما يفسر تعيين الغزالي على دمشق وخاير بك على مصر • ويضاف الى ذلك أن السلطان سليماً كان لايزال يخشى هجوم الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا اضطر لمسايرة الامراء المماليك الموالين •

ذكر بعض المؤرخين[1] أن السلطان سليماً جعل مصر مطعمة أو اقطاعاً لخاير بك حتى موته • وليس هناك من دليل قاطع على هذا ، ولكن الملاحظ أن خاير بك بقي بالفعل يحكم مصر حتى وفاته في ١٤ ذي القعدة ٩٢٨/٥ تشرين الاول ١٥٢٢ • وكان يتلقى في كل سنة فرماناً من السلطان باستمراره في حكم مصر[2] • ويظهر من هذا أن خاير بك لم يعين بموجب فرمان لمدى الحياة ، وانه كان مهدداً دائماً بعدم تجديد ولايته • وقد حدث حين اعتلى السلطان سليمان الحكم في ١٧ شوال ٩٢٦/٣٠ ايلول ١٥٢٠ انه لم يرسل مباشرة فرمان الاستمرار في الحكم الى خاير بك • وكان من ذلك أن سلطة خاير بك ضعفت في مصر ، وطمع فيه كثيرون الى أن وصل فرمان الاستمرار بعد حوالي شهرين من اعتلاء السلطان سليمان الحكم[3] • ويدل هذا أيضا على أن نفوذ السلطان كان

---

١ ـ الاسحاقي ، ١٣٠ ، ١٣٥ ؛ ابن زنبل ، (Munich, 411) ، ١٢٨ ب ، ويذكر هذا المؤرخ أيضاً (١٣٠ ب) ان السلطان سليماً منح الغزالي الشام اقطاعا الى أن يموت ؛ انظر أيضاً : علي بن حسن الشمالي ، ١١٣ ب •

٢ ـ ابن اياس ، جـ ٣، ١٥٥ ، ١٨٥ ، ٢٢٨ ، ٢٨٣

٣ ـ المصدر السابق ، ٢٤٤ ـ ٢٤٥

قوياً على خاير بك يعزله أو يبقيه حسبما يريد • كما أن وجود قوات عثمانية في مصر وتسليم قيادتها الى أمير عثماني كان ضمانة أخرى للسلطة العثمانية ضد خاير بك وضد المماليك الذين عادوا الى الظهور في مصر •

لقد عمل السلطان سليم على ازاحة المماليك من السلطة العليا في مصر وكسر شوكتهم ، ولكنه لم يحاول ابادتهم • وقد سمح لهم بأن يبقوا جنوداً[1] • وهكذا ما أن غادر السلطان سليم مصر حتى ظهر المماليك ، وأعطاهم خاير بك الامان ، ثم نادى عليهم بركب الخيل وشراء السلاح والتزيي بزي المماليك لا بزي العثمانيين ، وأنفقت عليهم الجامكية ، كما كان الامر عليه في السابق[2] • واشترك المماليك جنباً الى جنب مع القوات العثمانية في الحملات التي وجهها خاير بك ضد البدو[3] • والجدير بالذكر أن خاير بك استخدم المماليك لقمع بعض الانكشارية والسباهية الذين تمردوا على أوامر السلطان سليم القاضية بارسالهم من مصر اليه ، وتم ارسالهم بالفعل[4] • وكان المماليك يستخدمون في مصر لموازنة قوة الانكشارية والسباهية ، وكثيراً ما كانت تقوم المنافسات والفتن بين الفريقين[5] •

ولم يكن جميع المماليك مؤيدين للحكم العثماني ، كما لم يكن جميع المماليك الذين عينوا ، أو استمروا ، في مناصب هامة في العهد العثماني مخلصين للعثمانيين • ويتبين هذا الانقسام في الولاء منذ بداية الاحتلال العثماني • فقد رأينا كيف أن خاير بك والغزالي وغيرهما من أمراء المماليك وقفوا الى جانب العثمانيين ضد قانصوه الغوري وطومان باي • وبسيطرة السلطان سليم على بلاد الشام ومصر ، كثر عدد المؤيدين للعثمانيين ـ وهذا شيء طبيعي ـ وقل المعارضون ، ولكن نشاط بعضهم بقي مستتراً • وفي ٢٠ ربيع الاول ٩٢٥/١٣ آذار ١٥١٩ وردت أنباء الى القاهرة ان الامير المملوكي اينال السيفي طراباي ،

---

١ ـ الاسحاقي ، ١٣٠
٢ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٩ •
٣ ـ المصدر السابق ، ١٦٨ ، ١٦٩ •
٤ ـ المصدر السابق ، ١٥٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٨٢ •
٥ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٣٧ ، ٢١٦ •

كاشف اقليم الغربية ، وجانم السيفي ، كاشف البهنسا والفيوم ، قبضا على اثنين من مشايخ البدو ، وهما حسن بن مرعي وابن عمه ، وقد سبق أن التجأ اليهما طومان باي حين هرب من وجه السلطان سليم ثم سلماه اليه ليقتله ، وثأرا منهما ، وشرب المماليك من دمهما[1] . ويتبين لنا من هـذا الحادث أن اثنين من الموظفين العثمانيين من المماليك قد ثأرا لقتل السلطان المملوكي . ورغم انه يمكن القول ان قضية الثأر هذه كانت شيئاً طبيعياً في التقاليد المحلية الا انا اذا أخذنا بعين الاعتبار منصبي اينال وجانم ، وأهم من ذلك الدور الذي لعباه بعد سنوات في الثورة عـلى الحكم العثماني ، لوجدنا أن ذلك كان أكثر من مجرد أمر طبيعي . ولو ربطنا هذه الحادثة برد الفعل الذي حصل عنـد المماليك في مصر ازاء ثورة الغزالي في بلاد الشام لوجدنا أيضا أن الحادثتين مترابطتان وتدلان عـلى انقسام في ولاء المماليك تجاه العثمانيين . ومثل هـذا الانقسام ليس بغريب نظراً لقرب سقوط السلطنة المملوكيـة ولمـا عرف عن المماليك من توزع في الولاء نحو أساتذتهم .

وما أن أعلن نبأ وفاة السلطان سليم حتى « أقامت المماليك الجراكسة صدورها » على حد قول ابن اياس[2] . ولكن لم تحدث ثورة في مصر بمجرد وصول هذا النبأ ، كما حدث في بلاد الشام ، ولا حتى بوصول نبأ ثورة الغزالي الى مصر في ٢٦ ذي القعدة ٩٢٦/٧ تشرين الثاني ١٥٢٠[3] . وربما كان المماليك ينتظرون أن يستلم خاير بك زمام المبادرة في الثورة أسوة بالغزالي. ولكن خاير بك ، على عكس ذلك ، أرسل الاخبار التي وصلته من الشام الى السلطان سليمان ، وأخذ يعد الجنود للزحف على الشام لمقاومة الغزالي فيما اذا أمره السلطان بذلك[4] . ويظهر أن خاير بك كان يخشى أن ينفرد الغزالي بالسلطنة على سورية ومصر فيما اذا نجح في حركته . وكان الغزالي قد أرسل يعرض عـلى خاير بك بأن يعلن الثورة في مصر ويتسلطن فيها

---

١ ــ انظر : ابن اياس ، ج ٣ ، ١٩١ ؛ ابن زنبل ، (Munich, 411) ، ١٣٧ ب .

٢ ــ ابن اياس ، ج ٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ .

٣ ــ المصدر السابق ، ٢٣٩

٤ ــ المصدر السابق ، ٢٤٠ ــ ٢٤٢

ويبقى هو سلطاناً في الشام ويكون له الحكم من الفرات الى غزة ، ولكن خاير بك أبلغ ذلك أيضاً للسلطان سليمان[1] • ان ماضي خاير بك في اللجوء العلني للعثمانيين املى سلوكه الآن في الاستمرار بالخضوع لهم ،وهو يعلم دون شك انه لو ايد الغزالي لغامر بمركزه الحالي في مصر ، لانه اذا نجح الغزالي بواسطة تأييده فسيقوم الخلاف بينهما في المستقبل نظراً لان مصر وسورية كانتا في الزمن المملوكي تحت حكم سلطان واحد ؛ كما ان فشل الغزالي سيعود بالخسارة على خاير بك اذا ما ايده • ويعتبر عدم تأييد خاير بك للغزالي سبباً هاماً من أسباب انكسار الغزالي • وفي الحقيقة لم يكن الغزالي مخلصاً نحو خاير بك حين عرض عليه الثورة والتسلطن بمصر لان هدفه كان اولا القضاء على العثمانيين في سورية ومن ثم التوجه الى مصر واحتلالها • ولكن فشله في احتلال حلب كان بداية نهايته • وبشهادة ابن اياس ان الغزالي لو توجه الى مصر « لكان خيراً له وكان العسكر من الجراكسة واهل مصر والعربان قاطبة يقلبوا على ملك الامراء خاير بك ويمضوا اليه فانه كان محبباً للرعية »[2] ،وربما كان حكم ابن اياس هذا مصيباً فيما يتعلق بالتأييد الذي كان من الممكن ان يلقاه الغزالي في مصر فيما لو توجه اليها ، نظراً لكثرة المماليك فيها ووجود معارضين للحكم العثماني بينهم • فما هو موقف المماليك في مصر من هذه التطورات ؟

ان عدم ثورة المماليك في مصر بمجرد وصول انباء ثورة الغزالي يعود الى اسباب مختلفة • ان عدداً كبيراً من امراء المماليك كان مؤيداً للعثمانيين على غرار خاير بك ، ولما كان ولاء المماليك هو عادة لاستاذهم نتج عن ذلك توزع في ولائهم • كما ان غالبية المماليك كان ينقصهم السلاح الكافي حين سمعوا بثورة الغزالي[3] • ورغم أن خاير بك وزع على المماليك السلاح بعد ذلك ، أثناء استعداده لمقاومة الغزالي ، الا أن توزيع السلاح هذا قد تم

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٧٦

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٧٥

٣ ـ المصدر السابق ، ١٥٥ ، ٢٤٣

بعد أن استنفرت القوات العثمانية وحصنت القلعة[1] ، ومن شأن ذلك أن يرهب المماليك فيما اذا دعوا للتمرد . ومع هذا كان المماليك ينتظرون هجوم الغزالي على مصر ، كما شاع فيها آنئذ[2] ، ليعلنوا ثورتهم . ويبدو أن السلطان سليمان كان يخشى ثورة المماليك في مصر فيما اذا طلب الى خاير بك ارسال جنود من مصر لقمع ثورة الغزالي ، ولذلك ارسل اليه أن يبقى وقواته في مصر ، وهو يتدبر امر الغزالي . ولم يقتصر رد فعل بعض المماليك في مصر على مجرد الفرح بثورة الغزالي ، بل ان فريقاً منهم غادر مصر ليلتحق بالغزالي الثائر ، وقد فتك خاير بك بهؤلاء اثر ذلك[3] .

والى جانب ظهور المماليك كطائفة عسكرية زمن خاير بك، تسلم بعض افرادهم مراكز حساسة كانوا يشغلونها سابقاً كامارة الحاج والكشوفيات . وفي عام ٩٢٢/١٥١٦-١٥١٧ لم تخرج قافلة الحاج من مصر بسبب الفوضى التي حصلت من جراء القتال بين المماليك والعثمانيين . وقد حدث قبل ذلك، في عام ٩١١/١٥٠٥ - ١٥٠٦ ان قافلة الحاج لم تخرج من مصر الى الحجاز بسبب الاضطرابات التي أحدثها البدو في الحجاز مما جعل السلطان المملوكي يأمر بابطال الحاج تلك السنة . وذكر آنئذ ابن اياس انه لم يسمع من مبتدأ دولة الاتراك الى الآن ان الحجاج امتنع خروجهم الى الحجاز[4] . وفي عام ٩٢٣/١٥١٧-١٥١٨ كان أمير الحاج القاضي علاء الدين بن الامام[5] . وفي العام التالي ٩٢٤/١٥١٨ - ١٥١٩ عين الزيني بركات بن موسى المحتسب أميراً على الحاج . وكان الزيني هذا يتمتع بمركز ممتاز في عهد السلطنة المملوكية حتى شبه دوره فيها بدور نظام الملك[6] وزير ملكشاه السلطان السلجوقي (١٠٧٢ - ١٠٩٢) . ولم يكن اي من اميري الحاج هذين من المماليك ولم

---

١ - المصدر السابق ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٣٤

٢ - المصدر السابق ، ٢٤٤

٣ - المصدر السابق ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢

٤ - المصدر السابق ، ج ٤ ، ٨٩ ، ٩٣ .

٥ - المصدر السابق ، ج ٣ ، ١٤١

٦ - المصدر السابق ، ١٥٨ ، ١٨٠ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ٨ آ ، ٢٧ آ

يكونا ايضاً روميين ، بل كانا موظفين سابقين في السلطنة المملوكية • وفي ١٥١٩/٩٢٥ عين احد مماليك خاير بك وهو الامير برسباي اميراً على الحاج[١] • ويبدو ان تعيين برسباي لهذا المنصب كان بسبب اعتداء البدو على قافلة الحاج في العام السابق ، ويدل على اهتمام خاير بك بسلامة الحاج• ويظهر هذا التعيين من ناحية اخرى بروز المماليك واستعدادهم لاحتلال المناصب العليا • وقد عين لامارة الحاج في السنوات الثلاث التالية : ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ الامير جانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم في عهد السلطنة المملوكية وفي عهد خاير بك[٢] • ثم استمر بعد ذلك ، مع بعض الاستثناء ، تعيين المماليك امراء لقافلة الحاج •

ومن ابرز الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في هذه الفترة في توطيد الحكم العثماني في مصر وفي القيام بدور الوسيط بين سلطات مصر واستانبول الامير جانم الحمزاوي • ولم يكن جانم هذا مملوكاً بل كان من اولاد الناس[٣] • وقد ظهر ايضاً في هذه الفترة اينال السيفي طراباي الذي عين كاشفاً احياناً على الغربية واحياناً على الشرقية[٤] ، بالاضافة الى جانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم وامير الحاج •

والى جانب ظهور المماليك استمر عدد من الموظفين ، من عهد السلطنة المملوكية يشغلون وظائفهم أو وظائف أخرى الآن • وقد بقي قضاة المذاهب الاربعة يمارسون اعمالهم في القسم الاكبر من ولاية خاير بك ، كما كان الامر زمن المماليك • وكانوا في مطلع كل شهر يذهبون لتهنئة خاير بك • وقد استمر اولاد الجيعان يشرفون على الادارة المالية في مصر ، كما كان الامر ايضا خلال المائة وخمس عشرة سنة الاخيرة من عهد السلطنة المملوكيه[٥] •

---

١ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٩١ ، ٢٠٥ •
٢ ـ المصدر السابق ، ٢٣١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٨٣ ، ٢٧٩ •
٣ ـ المصدر السابق ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ٢٢٨ ، ٢٥٦ ، ٢٨٣ ، ٣١٨ •
٤ ـ المصدر السابق ، ١٩١ ، ٣١٢ ، ٣١٨ •
٥ ـ المصدر السابق ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ •

وهكذا يتبين لنا ظهور المماليك كقوة عسكرية وكموظفين اداريين وكامراء للحاج . وكان يوازن سلطة المماليك العسكرية وجود القوات الانكشاريه والسباهية العثمانية في مصر . وبقي كثير من الموظفين المحليين يمارسون سلطات واسعة . ومما يلفت النظر الآن اشتهار عدد من اولاد الناس ، مثل جانم الحمزاوي ، والسيفية ، مثل جانم السيفي واينال السيفي. ويعتبر هذا خروجاً على التقاليد التي سادت زمن السطلنة المملوكية حين لم يكن لاولاد الناس وللسيفية اهمية عسكرية او سياسية . وكان مماليك السلطان من المشتروات والمماليك القرانصة يفوقونهم أهمية آنذاك . ومهما يكن فهذا التبدل في الاهمية هو تطور طبيعي نظراً لزوال السلاطين المماليك . وقد استمر في العهد العثماني استعمال التعابير الادارية المملوكية مثل لقب امير الامراء الذي كان يعرف به خاير بك ، وتعبير كاشف اي حاكم اقليم ، وامير ركب المحمل الذي كان يقصد به امير الحاج ،ونيابة أي ولاية.وبعض هذه التعابير مثل كاشف وكشوفية بقي يستعمل طيلةالعهد العثماني ، بينما حلت بالتدريج مكان بعضها الآخر تعابير عثمانية .

حدثت في السنة الاخيرة من ولاية خاير بك ، أي في عهد السلطان سليمان ، تبدلات هامة في الادارة في مصر . ويتفق هذا مع السياسة العثمانية بصورة عامة التي تميل الى ابقاء الادارة المحلية في البدء ثم تحاول الغاءها أو دمجها بالانظمة العثمانية بالتدريج . ويبدو أن ثورة الغزالي على العثمانيين قد عجلت في ادخال هذه التبدلات في مصر . ورغم أن هذه التبدلات لم تكن واسعة ، الا أنها كانت هامة بمدلولها ، ومقدمة لتغييرات أوسع تلتها . وتناولت التبدلات الآن القضاء وملاشاة نفوذ أولاد الجيعان . وفي جمادى الثاني ٩٢٨/نيسان ـ أيار ١٥٢٢ أرسل قاض عثماني الى مصر ، وأصبح جميع العثمانيين من مدنيين وعسكريين خاضعين لسلطته فيما يختص بالعشر وبعقود الزواج . وكان هذا انتقاصاً لسلطة القضاة الاربعة . ووصلتأوامر في الشهر ذاته بابطالالقضاة الاربعة بمصر ،وأعلن عن ارسال قاض للعسكر ليتصرف في الاحكامالشرعية على المذاهب الاربعة.

وقد وصل هذا القاضي ، ويلقب قاضي العسكر وأحياناً قاضي القضاة ، مثل قاضي دمشق الحنفي الرومي ، في ١٠ رجب ٩٢٨/٥ حزيران ١٥٢٢ ،فأقام نائباً حنفياً له من الاروام وآخر شافعياً من الاروام أيضاً ، وجعل لكل منهما نائباً من نفس المذهب من السكان المحليين • كما أنه أقام نائباً للمالكية وآخر للحنابلة من السكان المحليين ، وكانا ، مثل الآخرين ، مرتبطين به[1] •

واستاء خاير بك من أولاد الجيعان في نهاية حكمه متهماً اياهم بالتأخر في سداد أموال الدولة ، فعزلهم وسجنهم ، وقضى على نفوذهم ، وعلى حد تعبير ابن اياس « خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره »[2] • وهكذا زالت أهمية هذه الاسرة البيروقراطية ، وزال معها ركن من أركان الادارة المملوكية[3] •

وكان الوضع خارج القاهرة في هذه الفترة مضطرباً جداً بفعل تهديد البدو • وقد أسهم انتقال السلطة من المماليك الى العثمانيين وأخبار ثورة الغزالي ، بالاضافة الى سياسة خاير بك التعسفية وعدم وجود تنظيم عثماني شامل للادارة في مصر ، في ازدياد تمرد البدو • وسيطر هؤلاء على أكثر المناطق الواقعة خارج المدن في ولاية مصر في هذه الفترة الانتقالية • ففي الصعيد سيطرت قبيلة هوارة ، وكانت قد نزحت الى هناك من اقليم البحيرة في القرن الرابع عشر ؛ وفي اقليم الشرقية برز بدو بني بقر الاقوياء • ووجد الى الشرق منهم بدو السوالم وكانوا ضعافاً نسبياً • وظهر في اقليم البحيرة بدو بني مرعي ،وفي اقليم الغربية ظهر بدو بني بغداد • وكانت أهمية هذه القبائل تتفق مع هذا الترتيب وتشتق من الاهمية الستراتيجية والاقتصادية للمناطق التي ظهرت فيها • فالصعيد هام لمصر لانه يزودها بالحبوب ،واقليم الشرقية أكثر أهمية من الاقاليم الاخرى لأنه يمر فيه الطريق التجاري بين الشام ومصر ، ولأنه يسيطر على طريق قافلة الحاج المتجهة الى الحجاز •

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ـ ٣٠٠ •
٢ ـ المصدر السابق ، ٢٩٦
٣ ـ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٠ آ ؛ قارن مع ابن اياس ، جـ ٣ ، ٣١٧ •

واقليم البحيرة أكثر أهمية من اقليم الغربية بسبب تحكمه في المواصلات البحرية وفي منطقة الدلتا الغنية ، بينما تقلل الصحراء من أهمية اقليم الغربية . وكانت سياسة خاير بك ، ومن قبله السلطان سليم ، تجاه البدو تعتمد أحياناً على المصالحة وأحياناً على القوة . وكان خاير بك أحياناً يهادن قبيلة ما في سبيل التركيز ضد قبيلة أخرى . وكان يلجأ أيضاً الى سياسة التفرقة واستغلال الخلافات الداخلية ضمن القبيلة الواحدة في سبيل اضعافها من الداخل للتحكم فيها .

وكانت غالبية هذه القبائل في العهد المملوكي تعطى اقطاعات مقابل حمايتها للطرق ومعاقبتها اللصوص . وأطلق آنذاك على الزعيم البدوي العادي لقب شيخ العرب ، واعتبر من أجناد الحلقة . ومنح الزعيم الاقوى لقب أمير ، وهو رتبة عسكرية[1] كانت أحياناً من نوع طبلخانة أي أمير أربعين (تحت أمرته أربعون جندياً)[2] . وقد بقيت هذه التنظيمات المملوكية سارية في هذه الفترة من الحكم العثماني الى أن حدثت ثورة حاكم مصر أحمد باشا الخائن في ١٥٢٤ ، فجرد عندئذ زعماء البدو من اقطاعاتهم وأصبحوا ملتزمين على أراضي الدولة[3] .

وقد خلع السلطان سليم ، حين كان في مصر ، على الامير علي بن عمر زعيم قبيلة هوارة في الصعيد ، ومنحه امرة الصعيد ، وجعل مركزه جرجا، وذلك بعد أن قدم اليه خضوعه[4] . ويبدو أن أمراء هذه القبيلة استمروا يحكمون الصعيد ، جنوبي البهنسا والفيوم ، بموافقة السلطات العثمانية ، حتى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، حين عين العثمانيون صنجقاً (أي شخصاً يحمل لقب بك) على الصعيد . وعرف الموظفون العثمانيون

---

١ ـ انظر : Poliak, 10

٢ ـ Ibid. , p. 3 ؛ ابن زنبل ، (Munich, 411) ٣٦ آ .

٣ ـ انظر : Poliak, 41

٤ ـ ابن زنبل (Munich, 411) ، ١٢٥ ب .

الذين حكموا الصعيد باسم حكام الصعيد ، وكان مركزهم أيضا جرجا[1] • وخلع السلطان سليم على الامير أحمد بن بقر ، زعيم بدو الشرقية ، وأبقاه في منصبه ؛ وكان أحمد بن بقر أمير طبلخانة في مصر[2] • وكذلك خلع على حسن بن مرعي ، أمير بدو البحيرة ، بسبب تسليمه السلطان طومايباي الى العثمانيين[3] • ويبدو أن بدو بني بغداد في اقليم الغربية لم يشتهروا آنذاك ، ولكن يذكر أنهم كانوا في النصف الثاني من القرن السادس عشر حكاماً على المنوفية[4] •

واعترف خاير بك ، بعد مغادرة السلطان سليم مصر ، بأمرة أحمد ابن بقر في اقليم الشرقية ، بعد أن التزم باصلاح أحوال منطقته[5] • كما أنه عفا عن عبد الدائم ، ابن الامير أحمد بن بقر ، الذي كان عاصياً على قانصوه الغوري ، ومن بعده على السلطان سليم[6] • وكان هدف خاير بك من ذلك تأمين سلامة الحاج المصري ، الذي كان يمر في الشرقية ،من تهديد البدو ، وأيضاً تأمين سلامة القوافل التجارية بين الشام ومصر[7] • ويبدو أنه كان يوجد آنذاك نزاع على السلطة بين أحمد ابن بقر وابنه عبد الدائم • وقد استغل خاير بك هذا النزاع ليضعف بني بقر ويضمن خضوعهم • ففي محرم ٩٢٤/ كانون الثاني ـ شباط ١٥١٨ خرجت بعض القوات العثمانية من مصر للحاق بالسلطان سليم[8] • فاستغل عبد الدائم

---

١ ـ انظر :

P.M. Holt, «The Beylicate in Ottoman Egypt during the seventeen century», BSOAS, XXIV. 2 (1961), 220,-221 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : « The Beylicate »

انظر أيضاً : Holt, Egypt and the Fertile Crescent, pp. 44, 51

٢ ـ ابن زنبل (Munich 411) ، ٣٥ ب ـ ٣٦ آ ، ١١٧ ب ، ١٢٤ ب •

٣ ـ المصدر السابق ، ١٠٤ آ ـ ١٠٥ آ ، ١٢٤ ب •

٤ ـ الاسحاقي ، ١٣٧ •

٥ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٣٧ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٢٤ آ •

٦ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٤٣

٧ ـ المصدر السابق ، ١٤١ ، ١٧٧

٨ ـ المصدر السابق ، ١٥٣

ابن بقر هذا الوضع ، بعد أن شاع أن القاهرة لم يعد يوجد بها جنود عثمانيون ، وعاد الى العصيان ؛ فاعترف خاير بك بأمرة أحمد بن بقر على اقليم الشرقية ، بما في ذلك ، كما يبدو ، اقطاع ابنه عبد الدائم[١] ، وأخذ يستعد لارسال جيش ضد عبد الدائم[٢] . وفي جمادى الثاني ٩٢٤/حزيران - تموز ١٥١٨ هدد عربان السوالم طريق الحاج في الشرقية ، فأرسل خاير بك قوة غلبتهم ولكنها لم تقض عليهم بسبب هربهم . وكان عربان السوالم أعداء لبني بقر[٣] ، وهذا ما يفسر عدم التحالف بين الفريقين .

وثار في سنة ٩٢٤/١٥١٨ - ١٥١٩ معظم قبائل البدو في اقليمي البحيرة والغربية . ففي البحيرة أظهر الامير حسن بن مرعي العصيان ، والتف البدو من حوله ، كما انضم اليه البدو الثائرون في اقليم الغربية . واضطربت أحوال خاير بك كثيراً ازاء هذا العصيان ، لاسيما وان تهديد الفرنجة من البحر نشط في هذه الفترة . وقد استنجد شريف مكة بخاير بك ضد تهديد الفرنجة لميناء جدة . ولو قرر خاير بك مقاومة هذه الاخطار بالقوة في آن واحد لما استطاع ذلك بسبب حاجته الى الجنود . وبعد أن أمر بتوجيه حملة ضد حسن بن مرعي أعطاه الامان ليكسب صداقته وليوفر في الوقت ذاته قواته ويركزها ضد عبد الدائم بن بقر الذي عصى في اقليم الشرقية الاكثر أهمية . وقد تمكن خاير بك من أسر عبد الدائم ، ونصب مكانه شيخاً على اقطاعه أخاه بيبرس بن أحمد بن بقر[٤] . ويظهر من تهديد البدو في الشرقية لقافلة الحاج في سنة ٩٢٤ أن أتباع عبد الدائم قد حاولوا الثأر لأسر شيخهم ، وهذا ربما يفسر شنق خاير بك لجماعة من أتباع عبد الدائم[٥] . والجدير بالذكر أن البدو المسيطرين على الطريق التي تمر منها قافلة الحاج المصري كانوا يتقاضون ضريبة سنوية (تسمى صَرّاً) ، لقاء عدم

---

١ - انظر : ابن زنبل (Munich, 411) ، ٣٥ ب ، ٣٦ آ .
٢ - ابن اياس ، ج ٣ ، ١٥٤ - ١٥٥ .
٣ - المصدر السابق ، ١٦٧ .
٤ - المصدر السابق ، ١٦٨ - ١٧٠ ، ١٧٧ .
٥ - المصدر السابق ، ١٨٠ ، ١٨٣ .

اعتدائهم على الحاج وقيادتهم له في الطريق الصحراوي • وكانوا يثورون عندما تمنع عنهم[1] • ولهذا كانت ترسل تجريدة لاستقبال الحاج والمحافظة عليه[2] • وان كثرة تهديد البدو لقافلة الحاج في السنوات الاولى من الاحتلال العثماني ، حين كان أمير الحاج المصري من الموظفين ، يفسر لنا لماذا عين بعد ذلك أمراء من المماليك لقيادة قافلة الحاج • ورغم أن تعيين هـؤلاء كان نتيجة طبيعية لظهور الامراء المماليك آنذاك الا أنه يرينا من ناحية أخرى الحرص على تأمين سلامة الحاج على أيدي هؤلاء الامراء الذين اعتادوا هم أو أمثالهم تأمين ذلك ابان السلطنة المملوكية •

وبالرغم من تعدد تمرد البدو في مناطق مختلفة اثر انسحاب السلطان سليم ، فلم يكن هناك مايجمع بـين أفراد البدو هؤلاء لتوحيد ثورتهم • ولهـذا حاول خاير بك أن يشتري ولاء قبيلة ما ليستطيع تركيز جهوده العسكرية ضد قبيلة أخرى • كما أنه كان يبث التفرقة بين زعماء القبيلة الواحدة ، كما حدث مثلا في أسرة بني بقر ، ليضمن تأمين نفوذه بالخديعة اذا لم يكن بالقوة • وكانت مغادرة السلطان سليم لمصر مناسبة للبدو للتخلص من عبء سلطات المدن • وما كاد خاير بك يبدأ بتكييف سياسته تجاه البدو حتى برزت حالة فوضى أخرى كان مصدرها الشام ، وامتد أثرها الى مصر ، وهي ثورة الغزالي • فماذا كان موقف البدو ازاء هذه الثورة ؟ •

نجد هنا أيضاً أن كل قبيلة قررت موقفها بالنظر لمصلحتها • فعربان السوالم ، في أقصى اقليم الشرقية ، وقفوا الى جانب السلطة العثمانية ، بعد أن تصالح خاير بك معهم ، وأمروا بالاستعداد لمقاومـة الغزالي فيما اذا توجه نحو مصر[3] • ويبدو أن سياسة الغزالي في البطش سابقاً بقبائل البدو في بلاد الشام ، مثل آل الحنش والبدو في منطقة حوران ـ عجلون ، قد أرهب السوالم وغيرهم من القبائل المستضعفة • وهـذا ما يفسر لماذا طرد

---

١ ـ المصدر السابق ، ١٨٢ •
٢ ـ المصدر السابق ، ١٨٣ •
٣ ـ المصدر السابق ، ٢٤٠ •

بدو الكرك نائب الغزالي من قلعة الكرك حين أعلن ثورته[1] . ولكن بيبرس ابن بقر ثار في الشرقية على خاير بك ، فأرسل هذا قوة ضده طردته ومؤيديه، وبقي خاير بك يعترف بسلطة أحمد بن بقر نظراً لولائه[2] . وبعد القضاء على ثورة الغزالي قدم أمراء البدو في الشرقية والغربية خضوعهم للسلطات العثمانية[3] .

ثورة اينال السيفي وجانم السيفي . ـ سبقت الاشارة الى أن المماليك في بداية الحكم العثماني في مصر انقسموا الى قسمين : قسم أيد العثمانيين وحصل على مناصب عليا ، وقسم آخر نقم على العثمانيين ومنه من أعلن نقمته حين أتيحت المناسبة لذلك كما حدث مثلا حين ثار الغزالي ، ومنه من أخفى نقمته واستطاع أن يصل الى مناصب عليا مثل اينال السيفي طراباي كاشف الغربية[4] وجانم السيفي كاشف البهنسا[5] والفيوم وأمير الحاج . وحين توفي خاير بك في ١٤ ذي القعدة **٩٢٨/٢٠** تشرين الاول **١٥٢٢** وخلفه الوزير الاعظم السابق مصطفى باشا الذي دخل مصر في **٢٣** ذي الحجة **٩٢٨/١٣** تشرين الثاني **١٥٢٢** ، بقي الموالون من المماليك على ولائهم للعثمانيين . ولكن الفريق المملوكي الناقم بزعامة اينال السيفي وجانم السيفي، استغل مناسبة تعيين حاكم جديد على مصر ، وأعلن الثورة على الحاكم العثماني . وقد ادعى هذا الفريق أنه لن يطيع السلطان سليمان الصغير السن، وقال : « لقد مات السلطان سليم وأما ابنه فهذا ولد صغير ولو جاء بنفسه

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٤٥

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٥٨

٣ ـ المصدر السابق ، ٢٨٣

٤ ـ المصدر السابق ، ١٩١ ، ٣١٨ .

٥ ـ انظر : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٠ آ . انظر أيضا : أحمد شلبي ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، مخطوط في جامعة (Yale) في الولايات المتحدة ، برقم Landberg, 3
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : احمد شلبي ، انظر ورقة ٣ ب حيث يذكر احمد شلبي ، خلافا لغالبية المصادر الاخرى ، ان البهنسا كان يحكمها كاشف يسمى قرقماس وقد اشترك في الثورة .

حاربناه وكسرناه »[1] • ومما تجدر ملاحظته أن وفاة السلطان سليم وسلطنة ابنه سليمان حدثتا في ١٥٢٠ ، فلماذا لم ينتبه المماليك الى صغر سن سليمان في حينه ، ولماذا انتظروا انقضاء سنتين على الحادث حتى ثاروا عليه ؟ ربما أنهم اعتبروا آنذاك وجود خاير بك المملوكي ، رغم ولائه للعثمانيين ، ضمانة لوجودهم كمماليك ، ومدعاة فخر لهم ، بدليل أنهم استمروا في مناصبهم في عهده ، وانه لم يعاقبهم لقتلهم الامير حسن بن مرعي وابن عمه لتسليمهما طومان باي للعثمانيين • وربما اعتبروا أن ارسال الحاكم الرومي مصطفى باشا ليخلف الحاكم المملوكي هو اضعاف لنفوذهم كمماليك • ومهما يكن ، فليس هناك من شك بأن المماليك استغلوا فرصة تبديل الحاكم لاعلان ثورتهم على العثمانيين ، وكانت صيحة الثائرين (لن نترك المملكة لهؤلاء الترك الذين لايعرفون ملاقاة الفرسان)[2] ، وفي هذا تعبير واضح عن كراهية ، بل احتقار ، المماليك الفرسان للاتراك حملة البنادق •

وكان من ثورة جانم السيفي في البهنسا والفيوم أن تهددت المواصلات بين مصر والصعيد ، ولاسيما مرور القمح من مصر العليا الى مصر السفلى • ولكي يوحد جانم جهوده مع زميله الثائر اينال السيفي ، اتفقا على الالتقاء بقواتهما في الشرقية حيث يمكنهما السيطرة على الطريق التجارية مع الشام وعلى طريق الحاج ، وحيث يمكنهما طلب المعونة من بدو بني بقر • وقد حاول الزيني بركات بن موسى المحتسب التوسط بين مصطفى باشا والمماليك الثائرين ، وحصل من مصطفى باشا على كتاب بالامان للثائرين اذا ماعادوا الى الطاعة • ولكن اينال اتهم الزيني بركات بخيانة المماليك وبتأييد العثمانيين ، وقتله • فثار مصطفى باشا لسماعه بذلك ، وجهز جيشاً بقيادة آغا الانكشارية قره موسى للقضاء على الثائرين • وكان هؤلاء قد اجتمعوا في الشرقية ووعدوا من قبل عدد من أمراء المماليك في القاهرة وخارجها بتأييدهم ، وذلك بأن يخرجوا ، وكأنهم يريدون قتالهم ، ثم ينضمون اليهم • وبعد انتظار دام عدة

---

١ ـ ابن زنبل Munich, 413 ، ٨٥ ب •
٢ ـ ابن زنبل (Munich, 413) ٨٥ ب

أيام في الشرقية تبين للثائرين كذب وعود هؤلاء الامراء المماليك الذين كانوا في الواقع ينتظرون نتيجة القتال ، فاذا انتصر الثائرون انضموا اليهم وقاسموهم غنيمة الانتصار ، واذا فشلوا تبرأوا منهم • وقد استفاد مصطفى باشا من هذا الانتظار فنظم الحملة ضد الثائرين • وخرج سليمان آغا التفنكجية مع قره موسى ، ودعمت الحملة بالاسلحة النارية • ولكن لم يخرج فيها أحد من الجند المماليك المؤيدين للعثمانيين • ولم يؤيد البدو الثائرين ولذلك فشلوا في القتال الذي دار في الشرقية ، وقتل جانم ،وأرسل رأسه الى السلطان بعد أن علق بباب زويلة في القاهرة بعض الوقت • أما اينال فانه هرب باتجاه غزة •

ولم يغتنم العثمانيون فرصة القضاء على هذه الثورة للقضاء على المماليك• وبقي الموالون منهم يتمتعون بنفوذ كبير في مصر وخاصة في الجيش • ولم يقض أيضاً على جميع المماليك الناقمين • وقد أصبح كاشفاً على الفيوم بعد ذلك الامير جانم وهو مملوك جانم السيفي الذي قتل[1] •

ثورة أحمد باشا الخائن • ـ بقيت الامور هادئة في مصر ، اثر القضاء على ثورة جانم واينال ، الى أن ولي عليها أحمد باشا • وقد دخل مصر في ١٨ شوال ٩٢٩/٣٠ آب ١٥٢٣ ، ثم ما لبث أن ثار فيها في أواخر سنة ١٥٢٣ وأوائل السنة التالية • وقبل معالجة الاسباب المباشرة لثورة أحمد باشا ، ومعرفة الفئات التي دعمته والتي عارضته ، ودراسة النتائج التي ترتبت على ثورته ، يجدر بنا التعرف الى ماضي أحمد باشا ، الذي أملى ، الى حد كبير ، سلوكه في مصر •

كان أحمد باشا شركسي الاصل من جيورجيا (الكرج) ، أي من المنطقة التي زودت المماليك بالكثرة الغالبة من أفرادهم • ولكن أحمد باشا ، على خلاف المماليك ، تدرب في سرايا السلطان سليم الاول ، ثم اشترك مع السلطان سليم في قتال المماليك في ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، وفي احتلال مصر •

---

١ ـ المصدر السابق ، ٨٥ آ ـ ٨٨ آ ؛ أحمد شلبي ، ٣ ب •

وأصبح بعد ذلك بيلربيي (حاكم) روميلية في ١٥١٩ • وقد ساهم في حملات السلطان سليمان في البلقان وفي رودس ، ولعب دوراً بارزاً فيها ، ومنحه السلطان تبعاً لذلك ، رتبة وزير في الديوان في استانبول ، الا أن أحمد باشا كان يطمح بالوصول الى منصب الصدارة (الوزارة) العظمى في الدولة • ولم يعط السلطان سليمان هذا المنصب لاحمد باشا ، بل عين له أحد مقربيه المسمى ابراهيم باشا ، وعين أحمد باشا حاكماً على مصر • ومن هنا نشأ الصراع بين ابراهيم باشا الوزير الاعظم الذي حاول التخلص من أحمد باشا خوفاً من منافسته ، وبين أحمد باشا الذي أحبطت آماله [١]•

وقد وجدت لدىأحمد باشا في مصر الشروطالتي شجعته على الثورة؛ ولعل أهمها بعد مصر عن مركز السلطنة العثمانية ، ووجود فئات متنافرة فيها بعضها ما زال يعارض الحكم العثماني • ويبدو أن أصل أحمد باشا الشركسي قربه الى المماليك ،ودعمته خاصة الفئة المعارضة التي التفت حوله حين أعلن ثورته •

بدأ أحمد باشا ولايته باتخاذ تدابير قاسية ضد أعيان مصر للحصول منهم على المال ، وصب نقمته خاصة على جانم الحمزاوي المؤيد للعثمانيين ، فسجنه في القلعة مع أمراء آخرين مثل الامير فارس نائب دمياط المملوكي الذي غرر باينال وجانم السيفيين ، ومحمود بك • وبطش بعد ذلك بالامير فارس لعدم تقديمه الطاعة له وليرهب بذلك غيره من الامراء الذين قدموا له بالفعل الطاعة اثر ذلك[٢] • وعندما ذهب اليه آغا الانكشارية قرەموسى وغيره من الامراء للتوسط في اطلاق سراح جانم الحمزاوي ، قتل أحمد باشا قرەموسى لانه كان قد اطلع على مكاتبات من السلطان الى قرەموسى يأمره فيها بقتل أحمد باشا ، وكان هـذا بدسيسة الوزير الاعظم ابراهيم

---

١ ـ انظر ماكتبـه H. Inalcik تحت عنـوان Ahmad Pasha kha'in في دائرة المعارف الاسلاميـة ، الطبعة الثانية ، انظر أيضا : ابن زنبل (Munich, 413) ـ ٩٠ آ ـ ٩٠ ب ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٥٦

٢ ـ انظر : ابن زنبل (Munich, 413) ، ٨٦ ب ، ٨٨ آ

باشا • وبطش أحمد باشا بعد ذلك بعدد من الانكشارية ، وهاجم القلعة التي اعتصموا فيها ، في ١٩ ربيع الاول ٢٦/٩٣٠ كانون الثاني ١٥٢٤ حتى تمكن من احتلالها في ١ ربيع الثاني ٧/٩٣٠ شباط ١٥٢٤ ، بواسطة جنوده ومؤيديه من المماليك والعوانية (أعوان الظلمة) وبعض العامة (الزعر) من القاهرة • ثم أعلن أحمد باشا نفسه سلطاناً على مصر في ٦ ربيع الثاني ٩٣٠ ، وجعل القضاة وابن الخليفة العباسي يبايعونه على ذلك ، كما ضربت السكة باسمه ، وذكر أيضاً اسمه في الخطبة • ثم عمد أحمدباشا الىمصادرة الاعيـان بما فيهم القضاة والتجار والاقليات ، وكان يشـير عليه في ذلك دفترداره ومستشاره ابراهيم المرقباني • وقد تحول عنه أحمد باشا فيما بعد وقتله لشكه باخلاصه[١] •

وبعد أن وطد أحمد باشا سلطته في القاهرة ، ومول جنوده منالاموال التي صادرها فيها ، التفت الى خارجها ليحصل على ولاء البدو له • فأطلق سراح عبد الدائم بن بقر الذي كان مسجوناً منـذ زمن خاير بك ، وعاد الى الشرقية • وكان هدف أحمد باشا من عمله هذا أن يقيم قوة مناصرة له في اقليم الشرقية ، عـلى الطريق الرئيسية بين الشام ومصر ، لتمنع تقدم الجيوش العثمانية ضده من الشام •

دخل أحمد باشا يوم ١٧ ربيع الثاني ٢٣/٩٣٠ شباط ١٥٢٤ احدى حمامات القاهرة ، فعلم بذلك أعداؤه ، وعلى رأسهم محمد بك الرومي ، وفاجأوه ، وهو في قلة من جنوده ، فهرب ولجأ الى القلعة • وحين علم بتزايد معارضيه وبخيانة بعض أتباعه ، الـذين أثارهم بتسلطنه ، فر من القاهرة قاصداً الشرقية حيث أمل بدعم بدو بني بقر • ووعد أحمد باشا هـؤلاء البدو باعفائهم من الخراج مـدة ثلاث سنوات وبتمكينهم من نهب القاهرة اذا أيدوه • ولكن بني بقر بزعامة الامير أحمد تقاعسوا عنمساعدته لما رأوا أن قضيته خاسرة • وتمرد عليه أيضا عبد الدائم • وكان أعداؤه

---

١ ـ الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١ ، ١٥٦ ـ ١٥٧ ؛ ابن زنبل (Munich, 413) ٨٨ آ ـ ٨٩ ب ؛ الاسحاقي ، ١٣٥ ، علي ابن حسن الشمالي ، ١١٣ ب •

في القاهرة ، وعلى رأسهم محمد بك وجانم الحمزاوي ، الذي أطلق من سجنه ، يحرضون أهلها ضده • وقد أقاموا فيها قائم مقام (نائباً للحاكم)، ونائباً للقلعة ، وأعطوا الامان للمماليك الثائرين لجعلهم ينفضون عن تأييد أحمد باشا[1] • وكان زعماء المعارضة هؤلاء يستثيرون السكان للقيام على أحمد باشا بتذكيرهم بمصادراته الجائرة وبثورته على السلطان الشرعي سليمان • ويذكر نجم الدين الغزي صاحب الكواكب السائرة أن أحمد باشا قد فعل مافعله من ثورة وتسلطن ومصادرة لاعيان القاهرة باغراء ظهير الدين الاردبيلي الشهير بقاضي زاده الاردبيلي[2] الذي استمال أحمد باشا عن اعتقاد أهل السنة الى اعتقاد الشاه اسماعيل الصفوي ، ويذكر أيضا أنه قد وجد عند أحمد باشا تاج من شعار الصوفية ،وأن أعداءه الآن في مصر وعلى رأسهم قضاة المذاهب الاربعة قد أعلنوا كفره وأوصوا بالجهاد ضده بعد أن قتلوا الاردبيلي في ٢٠ ربيع الثاني ٩٣٠[3] • ولم يذكر ابن زنبل المعاصر شيئاً من هذا الاتهام • واذا كانت التهمة غير صحيحة فان اثارتها الآن تفيد في تأليب العثمانيين والسكان المحليين ضد أحمد باشا خوفاً من فصله مصر عن العثمانيين وربطها بالشاه اسماعيل الصفوي • ومهما يكن ، فان القوات التي تجمعت في القاهرة كانت أكثر مما يستطيع أحمد باشا الهارب مجابهته ، بعد أن تفرق عنه كثير من أتباعه • وزاد في ترجيح الكفة ضده ارسال السلطان سليمان قوة انكشارية وصلت مصر بطريق البحر • ووقف بدو ابن بغداد في اقليم الغربية ضد أحمد باشا ، وتقفوا أثره مع القوات العثمانية حتى أدركوه ، وقتل في ٢٩ ربيع الثاني ٦/٩٣٠ آذار ١٥٢٤ ، وعلق رأسه على باب زويلة ، ثم أرسل الى السلطان[4] • وأصبح أحمد باشا يعرف بعد ذلك بالخائن •

---

١ ـ ابن زنبل (Munich, 413) ٩٠ آ ـ ٩١ ب ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٥٧ ـ ١٥٨

٢ ـ أنظر ترجمته في الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ٢١٦

٣ ـ المصدر السابق ، ١٥٨ ـ ١٥٩

٤ ـ أنظر المصدر السابق ، ١٥٩ ؛ ابن زنبل (Munich, 413) ، ٩١ ب ـ ٩٢ آ ؛ الاسحاقي ، ١٣٥ ؛ مرعي الحنبلي ، ٢٠٦ ب ـ ٢٠٧ آ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٧ ٠

توطيد السلطة والادارة العثمانية في مصر • ـ أتى الوزير الاعظم ابراهيم باشا الى مصر في سنة ٩٣١[1] ، اثر القضاء على أحمد باشا الخائن ، لينظم أمورها ويوطد السلطة العثمانية فيها • وقد بقي في مصر حوالي ثلاثة أشهر بنى خلالها أبراجاً في القلعة حيث يقيم الانكشارية ، وعهد اليهم بالمحافظة عليها وتركيز أسلحتهم على السرايا (وهي في القلعة) ، حيث يقيم الباشا ، خوفاً من عصيانه ، ومن هنا تسمية الانكشارية بالمستحفظان[2] • وأصدر ابراهيم باشا القانون نامه (مجموعة القوانين) التي نظمت أمور مصر العسكرية والمدنية[3] •

ذكر القانون نامه ست طوائف أو جماعات أو بلكات عسكرية في مصر وهي :

١ ـ طائفة الجنليان (Gonüllüyan) وتعني المتطوعين • وكان أفرادها من الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم الاول في فتح مصر • وكانت مهمتهم توطيد الامن في الاقاليم ، ومنع البدو من غزو المناطق الزراعية أو تهديد طرق المواصلات • وقد أطلق فيما بعد على هذه الطائفة اسم جمليان (جمع فارسي لكلمة جملي) ، أي صاحب جمل ، وذلك بالنسبة

---

١ ـ يوجد ارتباك في المصادر حول الباشا الذي خلف أحمد باشا الخائن في حكم مصر فيذكر محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٠ ب، ان قاسم باشا عين على مصر في ٧ جمادى الثاني ٩٣١ وبقي فيها حوالي عشرة أشهر ، ثم تسلمها ابراهيم باشا الوزير الاعظم من بعده فوصلها في ٧ جمادى الثاني ٩٣٢ وبقي فيها حوالي ثلاثة أشهر • ويتفق معه في ذلك مرعي الحنبلي ، ٢٠٨ آ ، (كلا هذين المؤرخين متأخران عاشا في القرن السابع عشر) • ولكن ابن زنبل المعاصر (٩٢ آ ـ ٩٢ ب) لا يذكر تعيين قاسم باشا هذا ، ويكتفي بذكر وصول ابراهيم باشا الى مصر وتعيينه لسليمان باشا (الخادم) حاكماً عليها ولايذكر الاسحاقي المتأخر (ص ١٣٦) تعيين قاسم باشا وانما يذكر تعيين ابراهيم باشا في ٩٣١ بعد أحمد باشا الخائن مباشرة ويذكر Shaw, Ottoman Egypt, 1517-1798, p 49 الذي يعتمد على مصادر عثمانية ، ان ابراهيم باشا أصدر القانون نامه في سنة ٩٣١/١٥٢٤ ـ ١٥٢٥ •

٢ ـ انظر علي بن حسن الشمالي ١١٤، آ ؛ ابن زنبل (Munich, 413) ، ٩٢ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٠ ب ـ ٣١ آ

٣ ـ أنظر Holt, Egypt and The Fertile Crescent, 51.

لاستخدام أفرادها للجمال[١] • ويذكر المؤرخ ابن اياس هذه الطائفة باسم كلميا وأحياناً الكملية[٢] •

٢ ـ طائفة التفنكجيان (Tüfenkçyan) وأفرادها من حاملي البنادق الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم الاول في فتح مصر • وأسهموا بعد ذلك في توطيد السلطة العثمانية في الاقاليم •

٣ ـ طائفة الشراكسة (çerakise) وأفرادها من المماليك الفرسان • وقد أشير الى الطوائف الثلاث السابقة باسم السباهية (الفرسان) • وقد عهد الى المماليك الشراكسة ، بالاضافة الى توطيد الامن في الاقاليم ، بمهمة مراقبة زراعة الاراضي والمحافظة على شبكات الري وتوزيع المياه •

٤ ـ طائفة المستحفظان (Mustahfizan) وأفرادها انكشارية مشاة، وأشار اليهم أحياناً المؤرخون المحليون باسم ينيجرية أو ينكجرية • وقد أتت هذه الطائفة الى مصر مع السلطان سليم الاول وأقامت في القلعة ، وقد عرفت بطائفة السلطان لانها كانت تمثل بصورة خاصة السلطة العثمانية في الولاية • وعهد اليها بمهمة الشرطة ، ومن هنا قوتها في القاهرة • وسيطر أفرادها على الالتزامات المربحة وعلى دار ضرب النقود وعنابر المؤن ومراكز المكوس مما زاد في نفوذها • وقد رأينا قبل قليل كيف أن أهمية هذه الطائفة قد ازدادت اثر القضاء على أحمد باشا الخائن[٣] •

٥ ـ طائفة العزبان (Azaban) وأفرادها مشاة نافسوا الانكشارية ، وغالباً ماسموا في المصادر العربية باسم عزب (وتعني هذه اللفظة بالاصل غير متزوج ، وأطلقت على أنواع مختلفة من الجنود) • وقد عهد الى أفرادها

---

١ ـ انظر : Shaw, Ottoman Egypt, 1517-1798, p. 196;
S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Harvard, 1964, p. 89 : Ottoman Egypt سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

٢ ـ ابن اياس ، ج ٣ ، ١٥٤ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٦٦ ، ٢٨٠

٣ ـ Shaw, Ottoman Egypt, 1517-1798, pp. 189-190, 196-197; Ottoman Egypt, 90-91.

بمهمة حماية القلاع في القاهرة وخارجها وحماية الباشا الحاكم • وكانت تلي الانكشارية في الاهمية•ولما كانت الطائفتان تسكنان في القلعة في القاهرة فقد تمكنتا من التحكم بالسياسة في القاهرة ، وغالباً ما اصطدمتا مع بعضهما •

٦ ـ طائفة الجاووشان (çavushan) وتذكرها المصادر العربية باسم جاويشية ، واستخدم أفرادها كرسل لابلاغ الاوامر والمهمات ، وكجباة في الاقاليم • وكان ضباط الطوائف الاخرى يعينون عادة من بين أفرادها ، كما كانت الشواغر فيها تملأ من أفراد الطوائف الاخرى باستثناء المستحفظان والعزبان • وقد سيطر المماليك في القرن الثامن عشر ، في فترة تعاظم نفوذهم، على هذه الطائفة بعد أن كانت تحت سيطرة الباشوات •

ولم يذكر القانون نامه الطائفة العسكرية السابعة التي برزت في التاريخ المصري ـ العثماني وهي طائفة المتفرقة (Müteferriqa) • وكان أفرادها الحرس الخاص للباشا ، ولايوجد لها مثيل بهذا الاسم في الولايات العثمانية الاخرى • الا أن حرس السلطان في استانبول كان يعرف بهذا الاسم • ويذكر أنها تأسست في ١٥٥٤ من مماليك دخلوا في خدمة العثمانيين ، ثم انتسب اليها أناس جلبوا خصيصاً من استانبول • وقد منح أفرادها كثيراً من الامتيازات ومرتبات مرتفعة ،وتفوقوا بذلك على أفراد الطوائف الاخرى• ولكن بازدياد سيطرة الانكشارية والمماليك في القرن الثامن عشر أصبحت هذه الطائفة ميداناً لنفوذهم•وقد اشترك أفرادها في حماية القلاع في الاقاليم، كما عهد اليهم بملاقاة الحجاج العائدين من الحجاز وتأمين سلامتهم حتى يدخلوا القاهرة[١] • ويبدو أن هذه الطائفة كانت استمراراً لفرقة مملوكية عرفت بالخاصاكية كان أفرادها يشكلون حرس السلاطين المماليك • وكان قائدها هو الباشا نفسه[٢] •

وعمد واضعو القانون نامه في ناحية التنظيم الاداري الى تثبيت كثير من

---

١ ـ انظر حول المعلومات السابقة :

Shaw, Ottoman Egypt, 1517-1798, pp. 191-196; Ottoman Egypt, 84-89,94-95.

٢ ـ انظر : Holt, « The Beylicate », 216, 223

النظم والتقاليد التي كانت سائدة في مصر زمن السلطنة المملوكية ، وعدلت بعض النظم المحلية الاخرى لتتفق مع النظم العثمانية • ويرأس الادارة في مصر الباشا (الوالي)[1] ، وكان يلقب في مطلع العهد العثماني بأمير الامراء حسب العادة المملوكية ، وهو عادة من رتبة وزير • وكان يسكن في القلعة، ولهذا نشأت روايات في كتابات المؤرخين في القرن الثامن عشر بأنه كان محتجزاً فيها • واذا صح هذا القول على القرن الثامن عشر ، حين تضاءل نفوذ الباشا ، فلا يصح ذلك على القرنين السابقين ، حين كانت سلطة الباشا قوية نسبياً • وكان يوازن سلطة الباشا آغوات (قادة) الطوائف العسكرية ، والقاضي عسكر الحنفي الرومي ، والدفتردار المسؤول عن الادارة المالية في مصر • وكان ينوب عن الباشا في غيابه القائم مقام ، ويطلق على هذا الشخص في بلاد الشام لقب المتسلم • أما المتسلم أو المسلّم في مصر فهو موظف عند الباشا يبلغ رسائله الى مختلف الجهات ويقوم بمهمات أخرى أبرزها القدوم الى مصر من قبل الباشا الجديد المعين لها لكي ينصّب قائم مقام عنه حتى مجيئه• وقد اشترط القانون نامه على الباشا دعوة ديوان للمشاورة أربع مرات في الاسبوع •

وكانت مصر ولاية من نوع سالياني (Saliyaneli) ، أي ان موظفيها يتقاضون مرتبات وليس اقطاعات ، لأن هذه الغيت في مصر بموجب القانون نامه • وكانت أموال الميري تجمع فيها من قبل ملتزمين • وبعد أن تسد الحاجة المحلية ترسل المبالغ المتبقية الى السلطان ، عادة بطريق الشام ، وتسمى ارسالية خزينة أو فقط الخزنة • ولم توجد في ولاية مصر تقسيمات ادارية تسمى صناجق ، كما كان الامر عليه في الولايات الاخرى ، وانما كان يطلق على التقسيمات الادارية في مصر اسم كشوفيات (مفردها

---

١ ـ يجب الاشارة هنا الى أن لقب (والي) في هذا الكتاب يستخدم في معناه الشائع ، أي حاكم ولاية • وقد استعمل أيضا تعبير (والي) في مصر منذ عهد المماليك للدلالة على رئيس الحراس الليليين ، انظر : Shaw, Ottoman Egypt, 74 (2).

كشوفية) ، وعلى حكامها اسم كشاف (مفردها كاشف) ، كما كان الامر زمن السلطنة المملوكيـة • وكانت مهمات الكشاف الرئيسية صيانة شبكات الري حماية للزراعة ، وجباية الضرائب من الاهلين[1] •

١ ـ انظر :

Holt, « The Beylicate », 220; Egypt and the Fertile Crescent, 51; Shaw, Ottoman Egypt, 73 ff.

الفصل السابع

الهدوء في بلاد الشام ومصر

بلاد الشام من القضاء على الغزالي الى الربع الاخير من القرن السادس عشر

تميزت هذه الفترة من تاريخ الشام بأن جميع الولاة وأغلب القضاة الحنفيين الرئيسيين في دمشق كانوا من أصل رومي • وقد تقلب على ولاية الشام مايقرب من واحد وخمسين والياً منذ مقتل الغزالي وحتى نهاية القرن السادس عشر[1] ، وعين سبعة من هؤلاء الولاة مرتين على دمشق ، وعين وال واحد أربع مرات عليها • وكانت أطول مدة قضاها أحد الولاة بصورة مستمرة في حكم دمشق هي حوالي خمس سنوات ، وينطبق ذلك على أربعة ولاة في هذه الفترة • وهناك واليان حكم كل منهما مدة أربع سنوات • والاتجاه الغالب أن يحكم الوالي سنة أو نحو ذلك •ويمكن تفسير كثرة عدد الولاة هؤلاء بقوة الدولة آنذاك اذ كان بامكانها عزل الوالي متى شاءت ويبدو أن قوة السلاطين ، اذا ما قورنت بضعفهم بصورة عامة في القرون التالية ، منعت ظهور موظفين متنفذين يعتمد عليهم الولاة ويبقون في ولاياتهم مابقي هؤلاء الموظفون أقوياء ويدعمونهم ، كما حدث في القرن السابع عشر حين اشتهر الوزراء العظام من آل كوبريلي بسبب ضعف شخصيات السلاطين ، وفي القرن الثامن عشر حين برز الكزلار آغا كمنافس لسلطة الوزير الأعظم • وانعكس هذا الوضع على الولاة الذين انتسبوا الى فريق أو آخر • ولاشك في أن كثرة تعيين الولاة أمر مربك للادارة المحلية ومرهق للشعب الذي تعرض لاعتداءات الكثيرين منهم ولاسيما أولئك الذين

---

١ ـ هذا الاحصاء مبني على ماذكره ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٤ ـ ٢٦ •

اشتروا تعيينهم بالمال وحاولوا تعويض ذلك باساءة استعمال صلاحياتهم • ونرى أمثلة عن ذلك في نهب القرى وأخذ السبايا الذي كان يرافق حملات الولاة خارج دمشق[١] •

ولم يعين رومي لمنصب القاضي الحنفي في دمشق اثر القضاء على ثورة الغزالي كما كان الامر بالنسبة للوالي ، ويعود السبب في ذلك الى أن القاضي ولي الدين ابن الفرفور ، الذي عارض سياسة الغزالي وأيد العثمانيين ، قد أعيد الى منصبه بعد مقتل الغزالي • ولكنه عزل في نفس السنة في ٩٢٧ ، وتلاه قاضيان حنفيان من أصل رومي في الفترة بين ٩٢٧ - ٩٣١ • ثم عين في ٩٣١/١٥٢٤ - ١٥٢٥ القاضي ولي الدين ابن مفلح وهو من أصل محلي وتلاه في نفس السنة ولي الدين ابن الفرفور الذي بقي يشغل منصب القاضي الحنفي حتى سنة ٩٣٥/١٥٢٨ - ١٥٢٩[٢] • ومن هذا التاريخ وحتى نهاية القرن الثامن عشر على الاقل أصبحت الغالبية الساحقة للقضاة الحنفيين في دمشق من أصل رومي • أما بالنسبة للمفتين الحنفيين في دمشق في هذه الفترة فكان بعضهم من أصل دمشقي والبعض الآخر من أصل رومي ، وكانت نسبة هؤلاء الاخيرين غالبة[٣] • وتبدل الوضع في القرن السابع عشر حين أصبح غالبية المفتين من أصل محلي • ثم اقتصر التعيين عليهم فيما بعد •

---

١ - انظر مثلا : ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٨ •

٢ - انظر : المصدر السابق ، ٥ - ١١ ؛ ابن طولون ، الثغر البسام ، ٣١٢ - ٣١٣ ؛ شرف الدين موسى الانصاري الشافعي ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٧٨١٤ ، انظر الاوراق ، ٣٧٨ آ - ٣٧٨ ب ؛ سيذكر هذا باختصار كما يلي : شرف الدين موسى

٣ - انظر مخطوط ، رسالة في من تولى وقضا وافتا في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة الف ومايتين وأربعين ، (للمخطوط عنوان آخر هو : ذكر دمشق الشام وتاريخ وزرها وقضاتها ومفتييها) ، وهو مجهول المؤلف ، ويوجد في مكتبة جامعة تيوبنغن Tübingen بألمانيا برقم M.a.VI. 8 انظر الاوراق : ٣٠ آ - ٣٢ ب : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : رسالة ؛ انظر أيضا : محمد خليل المرادي : عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٩٠٥٨ ، انظر الاوراق : ٩ ب - ١٤ ب : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : عرف البشام •

ويمكننا حصر مشاغل ولاة دمشق في هـــذه الفترة بثلاث نواح : الحالة داخل دمشق ، علاقة الولاة بالبدو وحرصهم بالتالي على تأمين سلامة الحاج ، ثم علاقتهم بالامراء التابعين لهم ضمن الولاية •

الحالة داخل دمشـــق • ـ تميزت الحالة السياسية في دمشق طيلة هذه الفترة بهدوء نسبي ، ويفسر ذلك بعوامل مختلفة • فالقضاء التام على ثورة الغزالي أرهب الدمشقيين ، لاسيما حين رأوا كثرة الجنود وعربات المدافع التي استخدمها العثمانيون ضد الغزالي • وبعد أن أدت هذه القوى مهمتها وعادت الى الاناضول عزز العثمانيون حامية القلعة في دمشق بأن أرسلوا اليها الف جندي انكشاري وصلوها بطريق البحر[١] • يضاف الى هذا أن انتصارات العثمانيين ، بصورة خاصة في البلقان ، في هذه الفترة من عهد السلطان سليمان القانوني ، والزينة التي كانت تأمر بهـا الدولة في دمشق ، كما في غيرها من الولايات ، في مثل هذه المناسبات[٢] ، أظهرت للدمشقيين قوة الدولة وجبروتها•كما أن حملات ولاةدمشق ضد أمراءجبل لبنان ، اثر القضاء على الغزالي ، والاتيـان برؤوس كثير من قتلى الجبل ورميها بدمشق ، كان تذكيراً مادياً بقوة الدولة ، زاد من هيبة الولاة •

وقد أرهب الولاة العثمانيون الدمشقيين في عصر قوة الدولة هذا • ففي أواخر عام **٩٢٧**/أواخر **١٥٢١** فرض اياس باشا على الدمشقيين ، اثر وصول الانباء بفتح العثمانيين لبلغراد ، ضريبة من المال ، ثم ما لبث أن عدل عنها بتوسط أحد العلماء[٣] • وقام هذا الوالي بسجن الشيخ تقي الدين القاري الشافعي بسبب انتقاده للحنفية وقوله بأن العثمانيين أهل بدع ، وقد أفرج عنه بتوسط أحد المعتقدين بابن عربي ، ولكنه حرم من امتيازاته • وفي العام التالي قام فرهاد باشا والي دمشق بسجن وتغريم الدمشقيين الذين هدموا الاصطبلات في بيوتهم بقصد عدم ايواء العثمانيين فيها[٤] •

---

١ ـ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤

٢ ـ المصدر السابق ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١١

٣ ـ ابن طولون ، أعلام الورى ، ٢٣٧ •

٤ ـ المصدر السابق ، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ •

وكانت الضرائب تفرض على الدمشقيين دون أن تثير رد فعل قوي من جانبهم[١]. وكان اذا اشتد ظلم الحكام على الاهلين يتدخل العلماء لدى الولاة لتبديل سياستهم ،وكثيراً ماكانوا ينجحون[٢] . الا أن العلماء بدورهم كانوا يعذبون أحياناً ، كما رأينا ، وكما حدث في ٩ شعبان ٩٤٢/٢ شباط ١٥٣٦ في عهد الوالي محمد كزل باشا حين قتل اثنين من العلماء ، رغم معارضة مفتي الحنفية ، بتهمة انهما رافضيان[٣] .

والى جانب هذه الصورة من تسلط الولاة في دمشق[٤] نجد أن بعضهم ترك في هذه الفترة آثاراً هامة . فالوزير لالا مصطفى باشا الذي حكم دمشق في الفترة بين ٩٧١ - ١٥٦٣/٩٧٦ - ١٥٦٩ بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق ، ويقوم مكانه اليوم سوق الهال . كما أنه بنى حماماً في سوق السروجية[٥] . وقام مراد باشا ، الذي خلفه ، ببناء جامع في السويقة عرف بجامع المرادية نسبة له ، ولايزال حتى اليوم[٦] . وحين ولي درويش باشا على دمشق في سنة ١٥٧١/٩٧٩ - ١٥٧٢ أمر ببناء جامع فيها عرف باسمه وهو جامع الدرويشية المعروف اليوم قرب باب الجابية ، وذلك بالاضافة الى مآثر أخرى كعمارته لسبل مختلفة ولحمام ، بالقرب من الجامع الاموي ، ولقيسارية وسوق قرب سوق الجوخ[٧] . وفي سنة ١٥٩٠/٩٩٩ - ١٥٩١ تم بناء جامع السنانية بدمشق قرب باب الجابية ، وكان قد أمر ببنائه سنان باشا الوزير الاعظم الذي عين على دمشق سنة ١٥٨٩/٩٩٨ - ١٥٩٠ وعزل في نفس السنة[٨] . ونتساءل هنا لماذا بنيت هذه الابنية ذات النفع العام في هذه السنوات المتلاحقة وليس قبلها أو بعدها ؟ اذا تمعنا في شخصيات البناة

---

١ - المصدر السابق ، ٢٤٣

٢ - المصدر السابق ، ٢٣٧   ٢٤٤

٣ - المصدر السابق ، ٢٤٧

٤ - انظر أيضا : الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ١٥٧ - ١٥٨

٥ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ١٥

٦ - المصدر السابق ، ١٦ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

٧ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ١٦ ، الغزي ، الكواكب السائرة ١٥٠ - ١٠١ .

٨ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٢٠ ؛ انظر : شرف الدين موسى ، ٣٣٣ آ - ٣٣٤ ب ، ٣٨٢ ب .

وجدنا أن لالا مصطفى باشا مثلا كان سابقاً وزيراً أعظم وقد اشترك في فتح قبرص • أمـا مراد باشا فيوصف أنه صاحب الخيرات والحسنات • وكان درويش باشا وزيراً أعظم ، وقد توجه الى الحجاز أميراً على الحاج في سنة ١٥٦٧/٩٧٤ • أما سنان باشا فكانت له أعمال خير كثيرة في مختلف البلدان ، وقد اشتهر أمره باخضاع الثائرين في اليمن (١٥٦٩ - ١٥٧١)، وبنى مالايقل عن أربعين مسـجداً جامعاً في مناطق مختلفة[١] • وهكـذا فبالاضافة الى صفات الغنى والخير والشهرة التي اتصف بها هؤلاء الاشخاص يجب أن نذكر أنه في هذه الفترة التيحكموا فيها دمشق بلغتالامبراطورية العثمانية أوج مجدها ، ونالوا هم من هذا المجد الشيء الكثير ، فلا عجب بعد أن حاز هؤلاء الاشخاص المناصب العالية والشهرة في الدولة أن يخلدوا ذكرهم بهذه الاعمال الخيرية لاسيما في دمشقعاصمة الخلافة سابقاً ومركز انطلاق الحجاج القادمين من أقطار مختلفة ، فيرى هؤلاء أعمالهم وينقلون أخبارهـا الى بلادهم • ولعل نفس الاسباب هي التي حدت بالسلطانسليمان لأن يأمر ببناء التكية السليمانية في دمشق في موضع القصر الابلق بالوادي الاخضر (مقابل متحف دمشق اليوم) • وقد بوشر ببنائها في سنة ٩٦٢/ ١٥٥٤ - ١٥٥٥ ، وانتهى ذلك في أوائل صفر ٩٦٧/أوائل تشرين الاول ١٥٥٩[٢] •

وحدثت تطورات هامة في مطلع الربع الاخير من القرن السادس عشر فيما يتعلق بالانكشـارية في دمشق • فقد رأينا كيف ازداد عددهـم بعد القضاء على ثورة الغزالي • وكانت مهماتهم الرئيسية في دمشق حمايـة القلعة وحراسة أبواب المدينة ، والقيام بأعمال الشرطة • ولكن بانحطاط

---

١ - انظر : نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل كتابه : الكواكب السائرة) ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٤١ ، انظر الاوراق : ٢١٦ آ - ٢١٦ ب : سيذكر هنا المصدر باختصار كما يلي : لطف السمر ؛ انظر أيضـا : المحبي ، ج ٢ ٢١٤ - ٢١٧ ؛ البوريني ، ج ٢ ١٣٤ - ١٥٣ ؛ انظر : ص ١٧٣ •

٢ - انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ١٥٦ - ١٥٧ •

الدفشرمة[1] ودخول المسلمين الاحرار الى الجيش الانكشاري وبازدياد تمرد الانكشارية منذ عهد السلطان سليم الاول ، كثر العصيان في الجيش الانكشاري في استانبول وامتد ذلك الى الولايات • وقد انتسب الى الانكشارية في دمشق ، كما حدث في كثير من الولايات الاخرى ، أناس من أصل محلي ، أو غير تركي ، ليستفيدوا من الامتيازات الكثيرة التي تمتع بها أفراد هذا الجيش • وبدأ انكشارية دمشق يعيشون خارج القلعة ويدخلون الحرف وأصبحوا تجاراً ، كما تعاطوا الربا • وبذلك لم يعد الجيش الانكشاري جيشاً مغلقاً على السكان المحليين • وكان خطر هذه الظاهرة بادياً للسلطان العثماني ولهذا أصدر فرماناً في جمادى الأول **٩٨٥**/ تموز **١٥٧٧** موجهاً الى حاكم دمشق يأمره فيه بأن يعين في الوظائف التي تشغر بين الانكشارية اناساً من أصل رومي وليسوا محليين (Yerlü) أو غرباء (Tat) مثل الاكراد[2] • ويظهر أن دخول غير الاروام الى طائفة الانكشارية في دمشق قد بدأ قبل تاريخ صدور هذا الفرمان بفترة ، ولم يتوقف بصدوره ، بل ازداد شدة • ولهذا عمت الفوضى انكشارية دمشق وكثر تحديهم للسلطة القائمة ووسعوا مجال تسلطهم خارج دمشق• وسنرى في الفترة التالية أمثلة متعددة على تمرد الانكشارية في بلاد الشام وعلى سيطرة المحليين بالتدريج على هذه الطائفة في بداية ضعف الدولة حين كثر الثائرون عليها •

عَلاقَةُ وُلاةُ دِمَشْق بالبدو • ـ كانت مشكلة تمرد البدو على السلطات الحاكمة في المدن من المشاكل المعقدة التي ظهرت في مختلف مراحل التاريخ العربي • وقد سبق ورأينا كيف أن السلطان سليماً وجان بردي الغزالي[3] اهتما بهذه المشكلة لتوطيد الأمن خارج المدن وللمحافظة على سلامة قافلة الحاج التي تمر ، في طريقها الى الحجاز ، بمناطق تسيطر عليها قبائل

---

١ ـ انظر ص ٧٤ •

٢ ـ انظر : Heyd, Uriel, Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615, Oxford, 1960, pp. 68, 69.
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Heyd

٣ ـ انظر ص ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٨ ـ ١١٩

البدو . ولكن ثورة الغزالي على العثمانيين واعتماده على أمراء من آل الحنش وآل الحرفوش ، الاسرتين المتنفذتين في منطقة البقاع ، بعد أن حدّ بالقوة من تسلطهما[1] ، أعاد الثقة للامراء المحليين ، بما في ذلك أمراء البدو ، لاسيما وقد رأوا ثورة الغزالي نفسه على الحكم العثماني . ورغم أنه قضي على ثورة الغزالي فلم يكن من السهل القضاء على تمرد البدو . وبقيت هذه المشكلة شوكة في جنب حكام المدن طيلة الحكم العثماني . وربما لم يكن مجرد مصادفة أن البدو هاجموا الحاج في العلا في السنة التي ثار فيها الغزالي[2] .

واضطر اياس باشا ، الذي خلف الغزالي في حكم دمشق ، أن يدفع مالا للبدو لدفع خطرهم عن الحاج في سنة **١٥٢١** ، وذلك بعد أن فشل باخضاعهم بالقوة[3] . وكان هذا أول مظاهر الضعف من قبل الحكم العثماني في هذه الناحية ، وتلاه تبدل كثير في العلاقات بين الحكام والبدو .

ولم يكن تمرد البدو ظاهراً على طريق الحاج فقط بل عم مناطق الريف حول دمشق أيضاً . ففي أواخر عام **٩٣٢**/ايلول ـ تشرين الاول **١٥٢٦** قام بدو آل علي باعتداء على منطقة المرج ، في ضواحي دمشق ، واصطدموا بأهلها فخرج لطفي باشا والي دمشق وقاتلهم واسر اثنين من زعمائهم وأعدمهما في دمشق[4] . ولكن هذا العنف لم يقض على تمرد هؤلاء البدو فنجدهم بعد عامين ، في **٩٣٤/١٥٢٧ ـ ١٥٢٨** ، يتعرضون للمسافرين في منطقة القسطل شمالي دمشق[5] . وأقلق تهديد البدو لقافلة الحاج الحكام العثمانيين في دمشق والادارة في استانبول بسبب تأثير مثل

---

١ ـ انظر : ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ؛ انظر أيضا :

H. Lammens, La Syrie, Précis Historique, 2 Vols. Beyrouth, 1921, Vol. I. P. 56 : Lammens : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

٢ ـ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٢

٣ ـ ابن طولون ، أعلام الورى ، ٢٣٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ٢٤٣ .

٥ ـ ابن جمعة ، نشر منجد ، ١٠

هذه الاعتداءات على الرأي العام الاسلامي • وفي عام ٩٣٧/ ١٥٣٠-١٥٣١ هاجم البدو الحاج في منزل ذات حج ، وملأوا برك الماء في تبوك والأخضر والمعظم بالمواد السامة لمنع استخدامها من قبل الحجاج ، وحدثت اصطدامات بين الفريقين واضطرت القافلة الى تحويل طريقها الى غزة (عوضاً عن متابعة الطريق الرئيسي المسمى بالسلطاني) ومنها أتت الى دمشق[1] • ولذلك قامت السلطات العثمانية ، في هذه الفترة من قوة الدولة ، بتعزيز الحاميات على طريق الحاج لتأمين سلامة برك الماء التي يستقي منها الحجاج ، وبناء قلاع اضافية في منازل الحاج لصد البدو • وفي عام ٩٣٨/١٥٣١ - ١٥٣٢ بنيت قلعة ، بناء على أمر السلطان ، في منزل الأخضر • كما بنيت عدة قلاع ورممت قلاع أخرى في المنطقة الواقعة بين قطرانة وتبوك في سنة ٩٦٧/ ١٥٥٩ - ١٥٦٠ ، وعززت بالحاميات[2] •

واضطرت الدولة العثمانية أن تدفع ، كسابقاتها ، مبالغ من المال كل سنة لامراء البدو المسيطرين على طريق الحاج ، وتسمى هذه المبالغ عادة بالصرّ (وأحياناً بالصّرة ، وكان التعبير الاخير يطلق عادة على المبالغ التي يرسلها السلطان كل سنة لتنفق على علماء وفقراء مكة والمدينة) ، وذلك لشراء سلامة الحجاج • وكان الصرّ يدفع عادة للقبائل القوية التي يخشى شرها ، أما الضعيفة فكانت تدفع الضرائب للدولة • ويقوم البدو ، مقابل أخذ هذا المال ، بالعمل كأدلاء للقافلة في الصحراء وبتأمين سلامتها ، وتكون كل قبيلة مسؤولة عن المنطقة التي تسيطر عليها ، كما يقدمون الجمال لنقل الحجاج لقاء مال معين • ولكن تردد أمراء الحاج في دفع الصر بأكمله للبدو كان يضطر هؤلاء لمهاجمة قافلة الحاج • والملاحظ أن الهجوم على القافلة كان يحدث عادة في طريق العودة من الحجاز لان امام البدو الآن آخر فرصة للحصول على صرهم في ذلك العام • وتجدر الاشارة هنا الى أن الصر كان يدفع للبدو على قسطين : الاول في الطريق الى الحجاز

---

١ - المصدر السابق ، ١١ - ١٢

٢ - الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ١٥٣

والثاني في طريق العودة ، وكان أمراء الحاج يحاولون عادة التخلص من دفع القسط الثاني • وكانت كثرة البضائع مع قافلة الحاج في طريق عودتها من الحجاز تزيد في اغراء البدو للهجوم عليها وأخذ كامل صرهم[١] •

وليست هناك معلومات كافية تبين هوية أمراء الحاج في هذه الفترة • ولكن يمكن القول ، بالاستناد الى المعلومات المتوفرة ، أن أشخاصاً روميين ، بعضهم من حكام الولايات ، عينوا أمراء للحاج في القسم الاكبر من هذه الفترة[٥] • وكان ولاة دمشق يهتمون بتأمين سلامة الحاج ، كما رأينا ، بسبب تجمع الحجاج في دمشق ومرور القافلة في مناطق خاضعة لاشرافهم ، رغم أنهم لم يكونوا أمراء للحاج • وفي حوالي **٩٨٠/١٥٧٢ – ١٥٧٣** عين قانصوه بن مساعدة الغزاوي أمير عجلون والكرك أميراً على الحاج الشامي ، وبقي في هذا المنصب مدة خمس عشرة سنة[٣] • ثم تلاه في امارة الحاج أمراء محليون آخرون • وسندرس في الفترة التالية الاسباب والظروف التي أدت الى تعيين هؤلاء الامراء في هذا المنصب •

علاقة ولاة دمشق بالامراء التابعين لهم • – اهتم ولاة دمشق بأمرين أساسيين في علاقاتهم بالامراء المحليين في ولايتهم : أولا تأمين سلطتهم عليهم وثانياً جمع مال الميري[٤] منهم • وقبل زمن السلطان سليمان القانوني كانت الضرائب والعائدات على أراضي الدولة واقطاعات الخاص السلطانية تجبى من قبل موظفين خاصين ذوي مرتبات يسمون أمناء (مفردها أمين) • الا أنه في عهد هذا السلطان أصبحت اقطاعات الخاص السلطانية تلزّم الى ملتزمين (Tax - Farmers) ، وسرعان ما انتشر هذا النظام في أراضي الدولة والاقطاعات وحتى الاوقاف[٥] •

---

١ – انظر الدراسة التفصيلية عن قافلة الحاج الشامي (تجمع الحجاج وخروجهم الى الحجاز وعودتهم ، ثم الانفاق على القافلة وحمايتها) في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 52-76

٢ – انظر مثلا : ابن طولون ، أعلام الورى ، ٢٢٤ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ١٥٠ •

٣ – انظر الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ – ٢٠٢ ؛ Heyd. p. 75, n. 7

٤ – انظر حول مال الميري ، ص ٦٧ •

٥ – انظر : Gibb and Bowen, I.i. 253.

وكانت المسؤولية العليا لجمع مال الميري في ولاية الشام تقع على عاتق الوالي لانه كان يقوم بأعباء المحصل • وكان والي الشام يوكل جباية مال الميري في منطقة ما الى موظف أو زعيم محلي يطلق عليه لقب ملتزم أو مقاطعجي وأحياناً شيخ • ويمكن لهذا الملتزم أن يوكل جباية الضرائب في منطقته الى أشخاص من قبله ، ولكن تقع عليه مسؤولية تسليم المال بعد ذلك الى المحصل • وهكذا نرى أن مهمة والي دمشق كمحصل كانت تقتضيه جمع عائدات الميري من ولايته ، وهذا ما جعله يصطدم بالملتزمين الذين كانوا يمانعون ، حسب ما يشعرون به من قوة ، في تأدية المال اليه• وغالباً ما كان هؤلاء الملتزمون في ولاية الشام من الزعماء المحليين الذين ترتكز قوتهم على أساس ديني أو بدوي أو اقطاعي ، مثل المعنيين والمتاولة وآل الحرفوش ، وآل الحنش وآل فروخ وال فريخ وال طرابـاي ، وقانصوه الغزاوي وغيرهم • ولكن كيف استطاعت هذه القوى المختلفة أن تثبت نفوذها محلياً ولماذا عين أمراؤها حكام صناجق أو ملتزمين ؟ اننا اذا لم نفهم أسباب وجود هذه القوى في الاماكن التي اشتهرت فيها في ولاية الشام فلن نستطيع فهم طبيعة العلاقات بين الولاة العثمانيين وهذه القوى أو بين هذه القوى بعضها مع بعض •

كانت ولاية الشام حتى سنة ١٦٦٠ ، حين تأسست ولاية صيدا ، تضم صنجق بيروت وصيدا ، وتشرف بالتالي على أمراء جبل لبنان • كما كانت تمتد جنوباً حتى العريش وشرقاً حتى مناطق البادية حيث صنجق تدمر • وهكذا ضمت أقليات مختلفة ، خاصة في جبل لبنان ، وقوى بدوية في المناطق الداخلية • ولقد أدرك الحكام والمحكومون منذ أقدم العصـور أهمية المنطقة الجبلية المحاذية للساحل السوري ، فأقام الحكام فيها الحاميات للدفاع ، كما هرع اليها المضطهدون بحثاً عن الملجأ•وغالباً ما كانت السلطات الحاكمـة تشجع القبائل البدويـة عـلى السكن في المناطق الساحلية أو الجبلية لتدافع عنها ، كمـا حدث زمن الغزو الصليبي ، وبذلك تتخلص

السلطات أيضا من فوضى القبائل في الداخل • وهكذا أقامت طوائف متعددة في المناطق الجبلية وقد نظمت على أساس عسكري اقطاعي • ومن هنا الاختلاف والمنافسة بين الطوائف بعضها مع بعض ، وبينها وبين المناطق الداخلية حيث السكان أكثر انسجاماً وتنظيماً وخضوعاً للسلطة المركزية • وزادت العزلة الجغرافية من هذا الاختلاف ، ونشأ عن ذلك كثير من الاصطدام بين الفريقين •

وقد لجأت ابان الفتح العربي لسورية قبائل مسيحية من أطراف الأمانوس الى جبل لبنان ، وكان أغلب هؤلاء من المرادئة (المردة) • وفي عهد الامويين اضطهد البيزنطيون الرهبان أتباع مار مارون وكانوا يسكنون قرب العاصي فهرب بعضهم الى جبل لبنان وأنشأوا فيه الطائفة المارونية • وقد سبب المرادئة وأتباعهم كثيراً من المشاكل للامويين ومن بعدهم للعباسيين بسبب قطعهم للطرق ، فأقام هؤلاء ، وخاصة العباسيون ، قبائل عربية على الساحل اللبناني بين طرابلس وجنوب بيروت للحد من تمرد سكان الجبل • وقبل الغزو الصليبي للساحل السوري في أواخر القرن الحادي عشر سيطر الشيعة المعتدلون من الاثني عشرية (المتاولة) على مناطق واسعة في جبل لبنان وخاصة على البقاع الشمالي ، وجبل عامل (ربما سمي كذلك نسبة الى قبيلة بني عاملة التي سكنته) • وفي عهد الحملة الصليبية الاولى كانت منطقة طرابلس تحكم من قبل أسرة بني عمّار الشيعية • وكان الشيعة قبل ذلك ، في القرنين العاشر والحادي عشر ، يتمتعون بدعم الفاطميين الحاكمين في سورية ومصر • وبضعف الفاطميين تجاه الغزو الصليبي أضعفت الجاليات العربية التي كانت تدافع عن الساحل السوري ولاسيما بعد احتلال الصليبيين لبيروت وصيدا في أوائل القرن الثاني عشر • ولهذا قامت السلالات السنية الحاكمة في سورية وعلى رأسها أتابكة دمشق ثم الايوبيون بنقل جاليات اسلامية جديدة ، غالبيتها من أصل عربي ، الى مناطق لبنان الساحلية • وهكذا أتى بنو بحتر وسكنوا منطقة الغرب ، وجاء المعنيون الى الشوف ، ثم تبعهم آل تلحوق وآل نكد • وسكن الشهابيون في أواخر القرن الثاني عشر في منطقة وادي التيم في البقاع الجنوبي

وبقوا على المذهب السني ، بينما اعتنق الآخرون مذهب السكان الذين سكنوا بينهم وهو المذهب الدرزي • والتسمية هذه نسبة الى محمد ابن اسماعيل الدرزي ، أحد مؤسسي المذهب ، الذي نشره في جبل لبنان في القرن الحادي عشر • وقد دعا الى الاعتقاد بالوهية الخليفة الحاكم الفاطمي (٩٩٦ – ١٠٢١) •

وبعد طرد الصليبيين الغزاة في أواخر القرن الثالث عشر نشر المماليك نفوذهم على جبل لبنان ، وأقاموا فيه عدداً من الجاليات السنية • ولكي يخففوا من النزاع بين الموارنة والدروز في مناطق المتن وكسروان أقام المماليك أسرة تركمانية عرفت ببني عساف في منطقة التلال الساحية شمالي نهر الكلب ، كما أقاموا أسرة كردية ، عرفت ببني سيفا ، في الكورة وعكار لمراقبة موارنة الشمال • وقد بقيت هاتان الاسرتان على المذهب السني •

وعلى عكس الموارنة ، الذين كانت تنقصهم الوحدة الداخلية ويمزقهم الصراع على السلطة بين الامراء والكهنة ، نجحت الاسر الاقطاعية الدرزية في لبنان الجنوبي برئاسة بني بحتر في جعل المماليك يعترفون بسلطتهم الوراثية في المناطق التي كانوا يسكنونها وذلك في حوالي سنة ١٣١٤ • واعترف المماليك بالامير البحتري أمير منطقة الغرب (١٢٨٨ – ١٣٤٨) أميراً على جبل لبنان الجنوبي •

وحين احتل العثمانيون سورية اعترفوا بالمعنيين أمراء الشوف حكاماً على لبنان الجنوبي مكان البحتريين الذين وقفوا الى جانب المماليك • ولم يؤذهم العثمانيون بسبب ذلك بل تركوهم أمراء على منطقة الغرب فقط • وقد أيد البحتريون المعنيين بعد ذلك وانتسبوا اليهم بالزواج[١] •

---

١ – انظر حول ذلك :

K.S. Salibi, The Modern History of the Lebanon, London, 1965, pp. XV-XXIV; « Lebanon in Historical Perspective », Middle East Forum, (March, 1959), pp. 16-21; Poliak, 9, 12-13, 16-41;

وانظر أيضا حول أصل هذه الاسر وتاريخها تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب ، لصالح بن يحيى ، نشره الاب لويس شيخو ، بيروت ١٩٢٧ ؛ واخبار الاعيان في جبل لبنان ، لطنوس الشدياق ، في جزئين ، بيروت ١٩٥٤

وكانت أسر جبل لبنان منقسمة الى حزبين : قيسية ويمنية ، وهذا من بقايا العصبيات التي أتت بها القبائل العربية • وكان المعنيون قيسية بينما كان أعداؤهم من الدروز ، برئاسة آل علم الدين ، يمنية • وكان الحزب الواحد يضم أتباعاً من مذاهب مختلفة كالسنة والمتاولة والموارنة • ولم تقتصر الاحزاب على جبل لبنان بل تعدته الى القرى والمدن في الداخل • ويذكر في مطلع الحكم العثماني لبلاد الشام أن اصطداماً حصل بين رجال بعض الاحياء في دمشق بسبب انتساب البعض الى القيسية والبعض الآخر الى اليمنية[١] • ورغم هذا الانقسام القيسي ـ اليمني في جبل لبنان استطاع المعنيون اثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي • وكان ينافس المعنيين بنو عساف الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالي ، التابع لولاية طرابس ، وقد وقف بنو عساف الى جانب العثمانيين في معركة مرج دابق فكافأهم العثمانيون باعطائهم حكم كسروان وجبيل ، وجعلوا مركز حكمهم في غزير • وبعد وفاة الامير عساف في ١٥١٨ حدث خلاف بين أبنائه • وفي ١٥٢٣ تولى الامارة الامير منصور ، حفيد عساف ، فبقي يحكم حتى ١٥٨٠[٢] • وكانت تنافس آل عساف أسرة آل سيفا الكردية الاصل التي تمركزت في منطقة طرابلس وحكمتها فترة طويلة بتأييد العثمانيين في القرنين السادس والسابع عشر[٣] •

لقد سبق القول الى أن علاقة ولاة الشام بالامراء المحليين في ولايتهم كانت تقوم على تحقيق الامن وجمع مال الميري ، واقتضى ذلك من الولاة القيام بعدة حملات • ففي ٢٧ ذي الحجة ٩٢٩/٦ تشرين الثاني ١٥٢٣ قام والي الشام خرّم باشا بحملة ضد دروز الشوف وانتصر عليهم • وليس هناك من ذكر للاسباب التي دعت الى هذه الحملة الا أنه يبدو أن العثمانيين بعد ان أخمدوا ثورة الغزالي قبل حوالي سنتين كانوا حذرين من زيادة سلطة الامراء المحليين لاسيما وأن الدولة العثمانية كانت في هذه الاثناء ،

---

١ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ١٠٥

٢ ـ شدياق ، ج ٢ ، ٣ ـ ٦

٣ ـ المصدر السابق : ج ٢ ، ٧ ـ ١٥

في عهد السلطان سليمان ، في أوج قوتها • وكانت أخبار انتصاراتها في الجبهة الاوربية بصورة خاصة مشجعة للولاة لاظهار قوتهم • الا أن دروز الشوف ردوا على انكسارهم بأن قتلوا المسؤول العثماني لديهم وثاروا على خرّم باشا • فجرد حملة أخرى ضدهم في ١٨ شعبان ٩٣٠/٢١ حزيران ١٥٢٤ فتكت ونكلت بهم من جديد[١] ويبدو أن دروز الشوف قد أخلدوا الى السكينة بعد هذه الانتصارات التي أحرزها والي الشام عليهم ، واستمروا كذلك طيلة القرن السادس عشر حتى قيام فخر الدين المعني الثاني وتحديه للعثمانيين[٢] •

وكانت سياسة العثمانيين تقوم على عدم جعل أي أمير قوياً الى درجة يهدد معها أمن المنطقة ، وكانوا يشجعون قيام أمراء محليين متعددين لخلق نوع من توازن القوى بينهم • وعلى هذا نجد في الربع الاخير من القرن السادس عشر عدة أمراء محليين استطاعوا أن يثبتوا نفوذهم محلياً فاعترف العثمانيون بسلطتهم في أجزاء متفرقة من ولاية الشام • فبالاضافة الى اعتراف العثمانيين في ولاية طرابلس بسلطة آل عساف في منطقة كسروان وبسلطة آل سيفا في منطقة طرابلس لاحقاق نوع من التوازن بينهما ولموازنة سلطة المعنيين في الجنوب ، اعترف العثمانيون أيضا بسلطة أسرتين متواليتين شيعيتين في لبنان الشمالي : أسرة آل حمادة في البقاع الشمالي[٣] وأسرة آل الحرفوش حول بعلبك[٤] التي كانت تابعة لولاة الشام • وقد ظهرت في البقاع الشمالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر أسرة بدوية يتزعمها منصور بن فريخ وحلت مكان أسرة آل الحنش البدوية الاصل التي ضعفت اثر فتح السلطان سليم الاول لسورية وزال نفوذها قبيل منتصف القرن السادس عشر • وقد أمن منصور بن فريخ الامن والنظام في البقاع فاعترف العثمانيون بامارته لكي يوازنوا به قوة آل الحرفوش بعد

---

١ ــ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦ ، ٨ ؛ ابن طولون ، اعلام الورى ، ٢٤١ ــ ٢٤٢ •
٢ ــ انظر الفصل الثامن •
٣ ــ انظر : شدياق ، جـ ١ ، ٢٠٦ ــ ٢٠٧
٤ ــ انظر : المحبي ، جـ ٤ ، ٤٣٢

أن كثرت تعدياتهم • واستطاع الامير منصور أن يحوز على ثقة العثمانيين فأعطوه حكومة صنجق نابلس ، ووقف بجانب الولاة العثمانيين ضد أمراء الشوف ، والتزم من العثمانيين صفد وعجلون ، وعين على هـــذه المناطق أبناءه أو أتباعه ، وكان يؤدي مال الميري في أول عهده بانتظام • وعين مرتين أميراً على الحاج في سنتي ٩٩٨ /١٥٨٩ ـ ١٥٩٠ و ٩٩٩/١٥٩٠ـ١٥٩١[١] •
ولكن سلطة منصور بن فريخ ازدادت الى درجة جعلته يشكل خطراً على السلطنة العثمانية المحليـة فانقلبت عليه بعد ذلك[٢] • وقد ظهر في منطقة عجلون ـ الكرك في النصف الثاني من القرن السادس عشر الامير قانصوه ابن مساعدة ابن مسلم الغزاوي ، فاعترف العثمانيون بسلطته بعد أن رأوه قد وطد نفوذه وتعهد بالطاعة وتقديم أموال الميري بانتظام ، واستخدموه لموازنة قوة غيره من الامراء المحليين • وقد عين قانصوه هذا أميراً على الحاج مدة خمس عشرة سنة بدءاً من حوالي ٩٨٠/١٥٧٢ ـ ١٥٧٣ • وخلفه في الامارة ، بعد فترة ، ابنه أحمد[٣] • وظهرت في غزة في هذه الاثناء أسرة حاكمة انحدر أفرادهـا من الامـير مصطفى الذي عرف بابي شاهين لكثرة حمله طائر الشاهين عند الصيد • وكان الامير مصطفى برتبـة وزير في عهـد السلطان سليمان القانوني ، وقد عين حاكماً على صنجق غزة ، ثم أرسل والياً على اليمن في سنة ٩٦٧/١٥٥٩ ـ ١٥٦٠ ، وخلفه في حكم غزة ابنه رضوان بك الذي عُين أيضا في تلك السنة أميراً للحاج الشامي • ولكن الامـير مصطفى (أصبح الآن مصطفى باشا) عين في نفس السنة حاكماً على مصر • وفي سنة ٩٧٢/١٥٦٤ ـ ١٥٦٥ عين ابنه رضوان بك والياً عـلى اليمن ،

---

١ ـ المصدر السابق ، ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ؛ شرف الدين موسى ، ٣٩٠ ب ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ ، ٢١٢ آ ـ ٢١٢ ؛ احسان النمر ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٣٨ ، انظر ص ٢٥ ـ ٢٦ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : النمر ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ ، انظر : ج ٢ ،٢٤٨: سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : كرد علي ؛ انظر أيضا :
Lammens, II, 73-74; Poliak, 12

٢ ـ انظر الفصل الثامن

٣ ـ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ ٢٠٢ ؛ كرد علي ، ج ٢ ، ٢٤٢ ؛ البوريني، ج ١ ، ١٩١ ؛ شرف الدين موسى ، ٣٨٣ آ ، ٣٩٠ ب •

واستمر فيها حتى شوال ٩٧٤/نيسان ـ أيار ١٩٦٧ • ويبدو انه حكم غزة ، بعد تعيين رضوان بك على اليمن ، مراد بك (المعروف بكور ، لخلل في عينه) الذي كان في الاصل من أفراد الدفشرمة • وفي محرم ٩٧٤/تموز ـ آب ١٥٦٦ عين مراد بك على اليمن وحكمها ، بعد أن قسمت ادارتها الى قسمين ، بالاشتراك مع رضوان بك (أصبح الآن رضوان باشا) • وفي حوالي ٩٧٩/١٥٧١ ـ ١٥٧٢ عُين على غزة الامير أحمد بن رضوان باشا ابن مصطفى باشا وبقي يحكمها حوالي ثلاثين سنة تولى خلالها امارة الحاج الشامي عدة مرات بعد الامير قانصوه الغزاوي[١] • ومن مماليك أسرة رضوان الامير فروخ بن عبد الله الجركسي الاصل الذي كان مملوكاً لدى الامير بهرام بن مصطفى باشا أبي شاهين ،وأصبح له شأن ، كما سنرى[٢]، في الربع الاول من القرن السابع عشر حين ولي حكم نابلس وامارة الحاج الشامي[٣] •

ومن بين أمراء البدو المحليين ، أمثال آل الحنش وآل فريخ ، نذكر أيضا آل طراباي الذين وجدوا في منطقة صفد منذ الزمن المملوكي • وقد اعترف السلطان سليم الاول بسلطة أميرهم وعينه نائباً على صفد اثر الفتح العثماني[٤] وقبض الغزالي بعد ذلك على أحد أفراد آل طراباي ، وهو شيخ عربان جبل نابلس ، وقتله[٥] • وقد اشتهر من أفراد هذه الاسرة في الربع الاخير من القرن السادس عشر أمير يسمى طراباي تولى حكومة صنجق اللجون في بلاد حارثة (جبل الكرمل والمنطقة التي في جنوبه) ، وخلفه

---

١ ـ انظر : المحبي ، ج ١ ، ١٨٧ ـ ١٨٩ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٩١ ـ ١٩٢ ؛ قطب الدين محمد بن احمد المكي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، مخطوط في مكتبة Top Kapi Seray في استانبول برقم ٢٨٨٠ ، انظر الاوراق ، ١٥٢ ـ ١٥٦ ، ١٧٠ ـ ١٧١ ، ١٩٧ ـ ٢٢٢ سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : قطب الدين محمد المكي ؛ انظر أيضا Heyd, 50, 78, 186, n.2

٢ ـ انظر الفصل الثامن •

٣ ـ انظر المحبي ، ج ٣ ، ٢٧١ ،انظر أيضا : ج ٢ ، ٤١٧ ؛ البوريني ،مخطوط فيينا ،١٢٣ب•

٤ ـ انظر ص ١١٢

٥ ـ كرد علي ، ج ٢ ، ٢٢٧ •

في حكم اللجون ، بعد وفاته في ١٠١٠/١٦٠١ - ١٦٠٢ ، ابنه الامير أحمد[1] •

كانت القوى المحلية السابقة توطد نفوذها في الفترة بين الفتح العثماني والربع الاخير من القرن السادس عشر • وقد ازدادت سلطتها بعد ذلك وعين عدد من أمرائها حكاماً على الصناجق المختلفة مثل نابلس وغزة وعجلون واللجون ، وعهد اليهم بامارة الحاج الشامي ، وسنرى في الفترة التالية ، ابان الضعف العثماني ، موقف هـذه القوى المحلية من الولاة العثمانيين ومن ازدياد قوة فخر الدين المعني الثاني أمير بلاد الشوف ، واثر هـذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام على مصير امارة الحاج •

ولاية مصر من ٩٣١/١٥٢٥ الى الربع الاخير من القرن السادس عشر

تميزت هذه الفترة من تاريخ ولاية مصر بثلاثة أمور رئيسية :

١ - شهدت هذه الفترة هدوءاً نسبياً في ولاية مصر ، ولم يتعرض الولاة فيها بصورة عامة الى معارضة قوية • ويفسر هذا الهدوء بالقضاء ، في الفترة السابقة ، عـلى العناصر المتمردة وبادخال تنظيمات وقوانين حفظت النظام • وقد نظم في سنة ٩٣٣/١٥٢٦ دفتر التربيع الذي عينت وضبطت فيه مساحات جميع الاقاليم في مصر[2] ، وأعطي الالتزام بموجبه • كما أن قـوة الدولة العثمانية في هذه الفترة والانتصارات العسكرية التي حققتها وزينت مصر من أجلها جعلت مختلف القوى المحلية تخشى بطش الدولة •

وقد توالى على حكم مصر في هذه الفترة عشرون والياً ، اثنان منهم : سليمان باشا الخادم وسنان باشا ، ولي كل منهما مصر مرتين ، الاول بين ١٥٢٥ - ١٥٣٥ ثم ١٥٣٦ - ١٥٣٨ ، والثاني بين ١٥٦٧ - ١٥٦٨ ثم ١٥٧١ - ١٥٧٤ • وربما كان سبب تعيينهما مرتين الخدمات التي أدياهـا الى الدولة العثمانية ، وخاصـة حملات الاول في اليمن والمحيط الهنـدي وحملات الثاني في اليمن • ويلاحظ في هذه الفترة طول عهد الولاة اذا

---

١ - المحبي ، جـ ١ ، ٢٢١ •
٢ - انظر : أحمد شلبي ، ٤ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣١ آ •

ما قورن بالفترات اللاحقة ، فسليمان باشا الخادم مثلا حكم مصر في المرة الاولى عشرة سنوات وفي المرة الثانية حوالي سنة ونصف • وحكم داود باشا، الذي خلف سليمان باشا بعد ولايته الثانية ، مصر احدى عشرة سنة ، من ١٥٣٨ الى ١٥٤٨ • ويمكن تفسير طول عهد الولاة بالهدوء النسبي في مصر وبالنفوذ الذي حصلوا عليه والخدمات التي أدوها الى الدولة ، وقد أصبح عدد منهم صدوراً عظاماً في الدولة العثمانية •

وأتاح طول عهد الولاة الفرصة لهم لبناء أبنية مختلفة في مصر منها ماهو للنفع العام ومنها ماهو للنفع الخاص ، وجميعها خلدت أسماءهم وكانت تعبيراً على النفوذ والغنى الذي بلغه هؤلاء الولاة في مصر وخارجها • لقد بنى سليمان باشا عدة جوامع ووكالات[1] وأسواق ؛ وبنى داود باشا مدرسة جعل لها أوقافاً ؛ كما بنى سنان باشا عدة جوامع وربط وتكايا ، وهو الذي بلغ شهرة واسعة في حروب اليمن • وقد بنى الوالي اسكندر باشا (١٥٥٦- ١٥٥٩) جامعاً ومدرسة وتكية وسبيلا وأوقف الاوقاف • وبنى الوالي مسيح باشا الخادم (١٥٧٥ - ١٥٨٠) مدرسة سميت بالمدرسة المسيحية ورصد لها الاوقاف[2] •

وحدثت في النصف الثاني من الفترة التي نحن بصددها حادثتان يمكن اعتبارهما عاديتين بحد ذاتهما ، ولكن اذا نظرنا اليهما في أبعادهما التاريخية ظهرت أهميتهما التي انعكست على الفترات التالية • فقد حدث في عهد الوالي علي باشا الصوفي (١٥٦٤ - ١٥٦٦) أن بدأت دار ضرب النقود في مصر تمزج كمية من النحاس أكثر من المعتاد مع الدراهم الفضية فانهارت قيمة الدراهم وضجت الرعايا وكثر المفسدون واللصوص نتيجة لذلك •

---

١ - ان تعبير وكالة اختص بمصر وهو يعني خان أو قيسارية في تعابير بلاد الشام ·

٢ - انظر حول حكم هؤلاء الولاة : أحمد شلبي ، ٤ آ - ٧ آ ؛ مخطوط باريس ، Arabe 1855 ، ٣١ آ - ٣٥ آ ؛ الاسحاقي ، ١٣٦ - ١٣٧ ؛ محمد البكري الصديقي، التحفة البهية ، ٤١ آ - ٤٧ آ ؛ أيضا محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة ، مخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 9973 ، انظر الاوراق، ١٦ آ - ٢٠ ب : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : الكواكب السائرة ؛ انظر أيضا علي ابن حسن الشمالي ، ١١٣ آ - ١١٥ ب ·

ويعلق محمد البكري الصديقي على ذلك بقوله « •• ولا زال يختل نظام المعاملة الى يومنا هذا »[١] ، أي فترة النصف الاول من القرن السابع عشر التي عاش فيها الصديقي • وسواء كان أمر تزييف العملة قد تم برغبة الكسب من قبل الوالي أو الذين تعهدوا دار الضرب في عهده ، فان هذا الامر يدل على ارتباك عام في قيمة النقد بدليل أنه استشرى بعد ذلك ، كما شهد المؤرخ المعاصر وكما سنرى في الفترة التالية[٢] • وكانت أسباب هذا الارتباك أعمق من مجرد تزييف واحتيال اذ ترتبط بالوضع الاقتصادي والعسكري للامبراطورية العثمانية ككل •

أما الحادثة الثانية في هذه الفترة فهي قتل والي مصر محمود باشا ، الذي لقب تبعاً لذلك بالمقتول ، في ٣٠ جمادى الاول ٩٧٥/٢ كانون الاول ١٥٦٧ ، وقد عرف عنه الشدة والبطش في ولايته في مصر اذ فتك بأمير الصعيد محمد بن عمر وقتل أمير بدو آل بغداد بالاضافة الى أناس آخرين، وصادر أموال كثيرين ، وأخيراً أطلق مجهول النار عليه فقتله • وتعود أهمية هذه الحادثة الى كونها أتت في أعقاب فترة طويلة من الهدوء في مصر ، وكانت بداية لحركات متقطعة من العنف بعد ذلك والتي ما لبثت أن تحولت الى ثورات عسكرية صاخبة في نهاية القرن السادس عشر • ورغم أن مقتل محمود باشا يمكن أن يعزى الى تعسفه الا أن اتهام اثنين من كبار الصناجق آنذاك وهما حمزة بك وماماي بك[٣] اللذان اشتركا بعد سنتين في حملة سنان باشا الى اليمن ، يدل ، وان لم تصح التهمة ، على علو شأنهما ، وبالتالي على أهمية الصناجق كقوة يحسب لها حساب في مصر • وستزداد أهمية الصناجق بالتدريج •

وقد ذكر عن الوالي مسيح باشا الخادم أنه قضى على اللصوص وقطاع الطرق وأرهب الكشاف • ويبدو أن فساد هذه الفئات يرجع من ناحية الى

---

١ ــ انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٣٤ آ ، ٤٤ ب ، الكواكب السائرة ، ١٧ ب ، ١٨ ب ؛ أحمد شلبي ، ٦ آ ؛ مخطوط باريس رقم Arabe 1855 ، ٣٢ ب •

٢ ــ انظر التمهيد للقسم التالي •

٣ ــ انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٤ آ ، الكواكب السائرة ، ١٨ آ •

الغلاء في الاسعار والى الطاعون الذي حدث في السنة التي سبقت ولايته ، ومن ناحية أخرى الى اختلال النقد والاقتصاد العثماني بصورة عامة • ورغم ما اتصف به هذا الوالي من شدة فقد كانت الدولة العثمانية تحاول آنذاك فرض سيطرتها على أقاليم مصر ولذلك عينت حاكماً من قبلها على الصعيد بدلا من حكامه التقليديين مشايخ البدو من قبيلة هوارة [1] • ولكن عمل مسيح باشا في القضاء على الظلمة والمظالم انهار في عهد الوالي التالي حسين باشا (١٥٨٠ ـ ١٥٨٤) الذي أقام كثيراً من المظالم بقصد اغناء نفسه[2] • وقد نتج عن المثال الذي ضربه هذا الوالي في الظلم واحتذاه بعض العساكر استفحال المظالم وتجرؤ الظلمة من العساكر على الثورة على من يقف في طريقهم ، بما في ذلك الولاة •

ع ـ امتد نفوذ ولاة مصر في هذه الفترة على اليمن والنوبا السفلى وساحل البحر الاحمر الافريقي • وجميع هذه المناطق افتتحت اما من قبل ولاة مصر أو بمساهمة قوات ولاة مصر بناء على أوامر من استانبول• فقد تعرضت سواحل البحر الاحمر في أواخر عهد السلطنة المملوكية الى غزوات البرتغاليين الذين استخدموا طريق رأس الرجاء الصالح للوصول الى الهند ، واضطر المماليك تبعاً لذلك الى تركيز مدفعيتهم على ساحل البحر الاحمر للدفاع عنه • وخف السلطان المملوكي قانصوه الغوري الى ارسال نجدة عسكرية الى سلطان الهند المسلم مظفر شاه الذي استنجد به ضد غزوات البرتغاليين • وكانت القوات التي أرسلها الغوري تتألف من اللاوند (بحارة الاسطول بالاصل)[3] ، وكانوا من أصل رومي ، وتعززها المدافع والبنادق التي لم تكن شائعة في الهند والتي لم يفد منها المماليك كثيراً • وقد عين قائد هذه الحملة العسكرية المملوكية ويسمى الامير حسين الكردي حاكماً على جدة التي استخدمها كقاعدة له وذلك في ٩١٧/١٥١١ ـ ١٥١٢ •

---

١ ـ انظر : Shaw, Ottoman Eghypt, 1517-1798, p. 13

٢ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٥ ب ـ ٤٦ ب ، الكواكب السائرة ، ١٩ ب ـ ٢٠ آ ؛ علي ابن حسن الشمالي ، ١١٥ آ •

٣ ـ انظر ص ٧٨ •

ولم يثبت الامير حسين في الهند طويلا ازاء الخطر البرتغالي المتزايد فيها وضعف المماليك آنذاك فعاد منها ، واستخدم قواته في القضاء على قوات السلطان عامر بن عبد الوهاب آخر ملوك بني طاهر في اليمن (بدأ حكم هذه الاسرة في اليمن حوالي ٨٥٩/١٤٥٤ ـ ١٤٥٥) ، وتمكن بمساعدة الزيدية ، أعداء السلطان عامر ، من احتلال زبيد في ١٩ جمادى الاول ٢٠/٩٢٢ تموز ١٥١٦ ، ثم توجه الامير حسين لاحتلال عدن وكانت آنذاك مركزاً هاماً للتجارة وللسفن القادمة من الهند ويحكمها الامير مرجان العامري الذي كان تحت نفوذ حكام اليمن . وقد فشل الامير حسين في احتلالها بعد أن تلقت مساعدة عسكرية وصلتها من تعز بقيادة أخي السلطان عامر ، واضطر الامير حسين الى رفع الحصار والعودة في ٢١ رجب ٩٢٢/ ٢٠ آب ١٥١٦ الى جدة حيث تلقى أنباء هزيمة المماليك أمام العثمانيين[1].

وقد تلقى السلطان سليم في مصر خضوع شريف مكة السيد بركات بن نمي فولاه على الحجاز وجدة . وتمكن الشريف من قتل الامير حسين نائب جدة فهرب المماليك من الحجاز الى زبيد في اليمن حين الامير برسباي المملوكي ، وتقووا فيها بدعم الزيدية ، وقتلوا السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان قد تحصن في تعز ، في ٢٣ ربيع الاول ١٥/٩٢٣ نيسان ١٥١٧ وبذلك انقرضت الدولة الطاهرية[2] . وكان يتزعم القوات المملوكية في اليمن الامير برسباي والامير اسكندر والامير رمضان وهو قائد اللاوند . وقد قتل عربان اليمن الامير برسباي فخلفه الامير اسكندر قائداً على القوات المملوكية ، الا أن الامير رمضان وقواته الرومية الاصل أعلنوا الولاء للاروام (العثمانيين) ، واضطر الامير اسكندر الى اعلان ولائه لهم فأرسل السلطان سليم اليه أمراً باستمراره والياً على اليمن ، وذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة[3] .

وتميزت الفترة بين ١٥١٨/٩٢٤ و ١٥٣٨/٩٤٤ باضطراب كبير في

---

١ ـ انظر : قطب الدين محمد المكي ، ١١ ـ ٢٧ .
٢ ـ المصدر السابق، ٢٨ ٣٥ .
٣ ـ المصدر السابق ، ٣٧ ـ ٣٩ .

أحوال اليمن نظراً لوجود قوى مختلفة فيها تتصارع على النفوذ ، فهناك الولاة المحليون من اللاوند الذين قبلوا الخضوع للعثمانيين ولكن عارضوا استبدالهم بباشوات عثمانيين ؛ وهناك أيضا الزيديون والعربان المحليون وولاة جدة الذين يطمعون بالوصول الى حكم اليمن ؛ ثم هناك بقايا أسرة بني طاهر الحاكمة في عدن . وقد شجع هذه الفوضى في اليمن ارتباك أحوال مصر في الفترة بين الاحتلال العثماني وصدور القانون نامه في **٩٣١/١٥٢٤-١٥٢٥** . ولم تفد التنظيمات التي أدخلت الى مصر آنذاك في تهدئة الحالة في اليمن نظراً لطبيعة القوى فيها ولازدياد تهديد البرتغاليين لسواحلها[١] . وازاء هذا الوضع المرتبك قام السلطان سليمان القانوني ، بعد أن حاز انتصارات حاسمة في البلقان ، بارسال حملة الى الهند بقيادة سليمان باشا الخادم والي مصر لمقاومة البرتغاليين وللسيطرة على تجارة الشرق الاقصى . وقد احتل سليمان باشا عدن من حاكمها عامر بن داود ، وهو من بقايا بني طاهر ، وذلك في النصف الاول من **٩٤٥**/النصف الاخير من **١٥٣٨** . ثم سار الى الهند ولكنه ، كسابقه الامير حسين الكردي ، عاد منها بعد قليل ، وقيل ان ذلك بسبب نزاعه مع أمراء الهند لغطرسته . وتوقف سليمان باشا في اليمن في طريق عودته فقتل حاكمها في ٨ شوال **٩٤٥/٢٧** شباط **١٥٣٩** ، ووطد السلطة العثمانية في مدنها الرئيسية ، وأقام الكشاف فيها . واعتبر ذلك ابتداء الفتح العثماني لليمن[٢] لأن السلطة العثمانية قبل ذلك كانت تقوم على ولاء الامراء المحليين لها . وفي عام **٩٤٧/١٥٤٠ - ١٥٤١** أطلق العثمانيون لاول مرة لقب باشا على حاكم اليمن ، وكانت رتبته آنذاك بيلربيي (بك البكوات) . وكان قبلا يلقب بك فقط[٣] . وحدث بعد سنوات قليلة أن هدد الزيديون بقيادة الامام شرف الدين السلطة العثمانية في اليمن واستولوا على الجبال ، وقام اللاوند بحركة تمرد وقتلوا الباشا العثماني . فظهر قائد عثماني يدعى ازدمر ، وكان مملوكاً شركسياً بالاصل ثم أصبح

---

١ ـ انظر حول هذه الفترة المضطربة في اليمن ، المصدر السابق ، ٤٠ ـ ٨٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ٨٤ ـ ١٠٥ ؛ أحمد شلبي ، ٤ آ ـ ٤ ب .

٣ ـ قطب الدين محمد المكي ، ١١٦ .

في خدمة العثمانيين ، فأخضع اللاوند والزيديين في حوالي ٩٥٣/١٥٤٦ - ١٥٤٧ • وأرسل والي مصر داود باشا قوة أخضعت عدن في أوائل سنة ٩٥٥/ أوائل سنة ١٥٤٨ • وأصبح ازدمر والياً على اليمن • وقد ثار عليه الامام مطهر ابن شرف الدين فأرسل والي مصر داود باشا حملة في ٩٥٨/١٥٥١ للقضاء عليه ولكن قائد الحملة مصطفى النشار هادن مطهر بعد أن كاد ازدمر يقضي عليه • وبقي ازدمر يحكم اليمن حتى حوالي ١٥٥٥ حين استقال بسبب طمع مصطفى النشار بمنصبه • وقد أحدث في هذه الاثناء محمل خاص للحاج اليمني مثل محمل الحاج الشامي ومحمل الحاج المصري[1] • ووصل ازدمر الى استانبول فكلفه السلطان سليمان بفتح الحبشة فجاء الى مصر حيث جمع فيها جيشاً واحتل النوبا السفلى ، الواقعة بين الشلالين الاول والثالث وكانت تسمى بربرستان ، وقد استفاد من الصراع بين القوى المحلية لتحقيق هدفه • وتقدم بعد ذلك باتجاه ساحل البحر الاحمر ليقيم فيه قاعدة ضد البرتغاليين من ناحية والاحباش من ناحية أخرى ، فاحتل منطقة حبش Habesh ، ولاتعني هذه الكلمة بلاد الحبشة الرئيسية بل المنطقة الساحلية على البحر الاحمر التي تضم مينائي سواكن ومصوع المشهورين • وأصبحت الحبش ولاية يحكمها حاكم عثماني برتبة بيلربيي ، ومن هنا تسميتها بيلربية أو بكلربكية (نسبة الى بك) ، وعين عليها ازدمر • وبعد وفاته في ٩٦٧/١٥٥٩ - ١٥٦٠ خلفه ابنه في حكمها[2] • بالاضافة الى الفائدة الستراتيجية التي حصل عليها العثمانيون من فتوحاتهم الافريقية هذه يبدو أنهم استفادوا أيضا من تجارة الذهب

---

١ - المصدر السابق ، ١١٦ - ١٤٧ ١٥١ - ١٥٢

٢ - انظر حول ذلك : المصدر السابق ، ١٤٧ - ١٥٠ ؛ انظر أيضا :

Holt, « The Beylicate », 217

P.M. Holt, A Modern History of the Sudan, London, 1961, pp. 23-25.

الافريقي ، وتمكنوا من المساهمة بتجارة التوابل مـــع الشرق الاقصى لسيطرتهم الآن على موانىء أفريقية[1] •

وعادت أمور اليمن للاضطراب في هــذه الاثناء بسبب انهيار قيمة الدينار الذهبي في اليمن • فازدادت الاسعار وارتفع مستوى المعيشة تبعاً لذلك وتأثر العساكر بهذا الوضع لان ولاية اليمن كانت من نوع ساليانلي (Saliyaneli) ، أي ان موظفيها يتقاضــون رواتب[2] • ويـذكر صاحب البرق اليماني[3] بأن انهيار قيمة النقد كان سبباً في خراب العسكر وفقرهم فشرعوا في ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، كما حدث في مصر وبلاد الشـام بعد قليل لنفس الاسباب[4] • ولجأ بعض العساكر الى الامام مطهر الذي استغل ذلك للثورة على الحكم العثماني • وتجمعت القبائل اليمنية من حوله فعمد العثمانيون الى تقسيم اليمن الى قسمين يحكم كلا منهما حاكم برتبة بيلربيي • فجعلت منطقة التهايم حيث المـدن والغنى قسماً وجعلت صنعاء والجبال حيث الثورة والقتال قسماً آخر ، والهدف من ذلك احكام الطوق على الثائرين • ولكن حدث نقيض ذلك اذ ان الانقسام سبب اختلافاً بين حاكمي القسمين وأصبحت العساكر فرقتين•واستفاد من ذلك الامام مطهر الذي حاول كسب تأييد فريق أو آخر • وازدادت الثورة الزيدية حدة اثر وفاة السلطان سليمان في ١٨ صفر ٩٧٤/٤ ايلول١٥٦٦ واعلان الخطبة لابنه سليم الثاني في تعز في أول جمعة من رجب ٩٧٤ ، وكانت هــذه مناسبة لاعلان الزيدية خروجهم عــلى الطاعة السلطانية • واحتل مطهر

---

١ ـ انظر :

F. Braudel, La Mediterannée et le Monde méditerranéen à **l'époque de Philippe II, Paris, 1949, pp. 364, 423, 514**

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Braudel

٢ ـ انظر Gibb and Bowen, I.i. 148n. 3

٣ ـ انظر قطب الدين محمد المكي ، ١٦٠ ٢٠١ ٢٤٠

٤ ـ انظر الفصلين الثامن والتاسع •

صنعاء في ١٣ صفر ١٩/٩٧٥ آب ١٥٦٧ واستولت قواته على مناطق أخرى بما فيها عدن• وقد كلف السلطان سليم الثاني والي مصر سنان باشا بالتوجه الى اليمن لاعادة السلطة العثمانية اليها • فغادر مصر في ٤ شوال ٢٢/٩٧٦ آذار ١٥٦٩ واصطحب معه جماعة من أكابر الصناجق فيهـا مثل حمزة بك وماماي بك • وكان عـدد الصناجق الـذين رافقوه أربعا وعشرين صنجقاً • وقضى سنان باشا على الثورة في اليمن ، واستعاد المناطق التي احتلها الزيديون • وبعد أن وطد السلطة العثمانية فيها عاد سنان باشا من اليمن الى جدة في شوال ٩٧٨/آذار ١٥٧١ ، ثم عين حاكماً على مصر وأعطي بعد ذلك منصب الصدارة العظمى • وقد وصف قطب الدين محمد المكي انتصار سنان باشا على الثائرين في اليمن بأنه الفتح الثاني العثماني لليمن[١] • وكان ذلك الحدث سبب تأليف كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني وقد كلفه سنان باشا بكتابته[٢] •

٣ ـ برزت في هذه الفترة جماعة من اصحاب الرتب يسمون صناجق (مفردها صنجق) • وكان اشهر هؤلاء ، كما يبـــدو ، الامير حمزة بك والامير ماماي بك • وقد اتهم هذان بتدبير مقتل والي مصر محمود باشا في ٢ كانون الاول ١٥٦٧[٣] ، كما اشتركا مع عدد آخر من الصناجق في حملة سنان باشا على اليمن[٢] • ولم يكن هذا اول ظهور للصناجق في اليمن اذ ان هؤلاء لعبوا دوراً هاماً قبل ذلك[٤] • ويبدو أن أصلهم من مصر وانتقلوا الى اليمن ضمن القوات العثمانية التي ارسلت اليه • وبلغ من ازديـاد اهميـة الصناجق في مصر ان القيت عليهم وعلى الامراء ، ربما أمراء المماليك[٥] ،

---

١ ـ الفتح الاول كان في سنة ١٥٣٩/٩٤٥ •

٢ انظر : قطب الدين محمد المكي ، ١٤ـ١٦ ، ١٥١ـ٦٠٣ ؛ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٥ آ ، الكواكب السائرة ، ١٩ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٣ ب ؛ أحمد شلبي ، ٦ ب ؛ الاسحاقي ، ١٣٧ ؛ علي ابن حسن الشنمالي ، ١١٥ آ

٣ ـ انظر ص ١٦٧

٤ ـ انظر : قطب الدين محمد المكي ، ١٦١ ـ ١٦٢

٥ ـ Shaw, Ottoman Egypt, 78

مسؤولية حفظ النظام فيها اثر مقتل الوالي محمود باشا[١] • ولم يكن ظهور الصناجق على نطاق ضيق نسبياً في هذه الفترة الا مقدمة لشهرتهم المتزايدة خاصة في القرن التالي حين احتكر الصناجق امارة الخزنة والدفترداريه والقائم مقامية وامارة الحاج وقيادة الحملات والكشوفيات ، وبرزوا بصورة خاصة في طائفتي الفقارية والقاسمية • ولما كانت شهرتهم قد بدأت في هذه الفترة التي نحن بصدد دراستها فسنتعرف هنا على هويتهم وأساس قوتهم ومميزات نظامهم •

اختلف مدلول الصنجق بك في مصر (وفي اليمن حيث استخدم التعبير كما في مصر) عنه في أغلب الامبراطورية العثمانية حيث كان الصنجق بك حاكم منطقة ادارية أطلق عليها تعبير صنجق[٢] • وكان يطلق على حاكم مثل هذه المنطقة الادارية في مصر لقب كاشف وتسمى المنطقة التي يحكمها كشوفية • وهذه تعابير استخدمت في السلطنة المملوكية في مصر بنفس المعنى واستمرت في العهد العثماني • اما تعبير الصنجق بك في مصر فكان يدل على رتبة وليس على وظيفة معينة ، ويشار الى حامل رتبة صنجق بلقب بك • واذا عين شخص من رتبة صنجق بك حاكماً لاقليم ما فانه كان يحكم هذا الاقليم بصفته كاشفاً ، ولم يكن جميع الكشاف يحملون رتبة صنجق بك • ويضاف الى هذا الاختلاف في مفهوم الصنجق بك في مصر عن غيرها أن الصنجق بك في مصر لم يمنح اقطاعاً بل منح مرتباً سنوياً (Saliyane) كما نص على ذلك القانون نامه في ٩٣١/١٥٢٤ ــ ١٥٢٥ • وكثيراً ما استخدم عبد الرحمن الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في التراجم والاخبار تعبير «تقلّد الامارة والصنجقية » ، اي ان احد الاشخاص ارتقى الى رتبة بك ولقب بالامير[٣] •

---

١ ــ محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٤ ب ، الكواكب السائرة ، ١٨ ب •
٢ ــ انظر ص ٧٩ •
٣ ــ انظر :

Shaw, Ottoman Egypt, 82 ; Holt, « The Beylicate ». 219 - 221 ; Egypt and the Fertile Crescent, 73.

وقد ذكر حسين افندي ، الموظف في دائرة الخزينة في مصر ابان حملة نابليون بونابرت ، في أحد أجوبته على الاسئلة التي طرحها عليه استيف Estève ، مدير المالية الفرنسي في مصر ، في اول القرن التاسع عشر ان السلطان سليم الاول أوجد في مصر أربعاً وعشرين صنجق طبلخانة (كانت ترافق كل صنجق من هؤلاء فرقة حاملي الطبول)[1] • ورغم انه ليس هناك ما يؤيد ان عدد الصناجق كان بهذا المقدار او بقي على ذلك ، يمكن القول ان التسمية « صنجق بك » قد بدأت في عهد السلطان سليم الاول • ويبدو ان اصل الرتبة يعود الى العهد المملوكي بدليل انها لم توجد بهـــذا المعنى في أغلب أنحاء الامبراطورية العثمانية • ويذكر البروفســور Holt ان هناك عدة دلائل تشير الى ان نظام الصنجقية كان استمراراً لنظام مملوكي بدليل ان العلاقة التي وجدت في العصــر العثماني بين الصنجقية وطائفـــة المتفرقة ، التي عين كثير من افرادهــا صناجق والتي كانت امتــداداً لطبقــة الخاصاكية المملوكية ، تشبه علاقة الامراء الكبار بالخاصاكية في عهد السلطنة المملوكية حين كان غالبية الامراء الكبار يعينون من بين أفراد الخاصاكية • كما ان المناصب التي عين لها الصناجق في العهد العثماني كانت تشبه المناصب التي عين لها الامراء الكبار في السلطنة المملوكية مع اختلاف في التسمية • وان ذكر الصنجقية في القانون نامه في ٩٣١ هـ يدل على انها وجدت قبلا[2] •

ولم يكن نظام الصنجقية مقتصراً على المماليك اذ ظهر بين الصناجق أفراد من أصل رومي أو من أولاد الناس ، أي أبناء المماليك ، ولكن بازدياد نفوذ المماليك في مصر ، وخاصة منذ القرن السابع عشر ، بدأوا يحتكرون الصنجقية حتى كادت تقتصر عليهم • وبازدياد نفــوذ المماليك اصبحــوا يحتكرون أيضاً معظم الالتزام ، بالاضافة الى الوظائف الكبرى [3] ، وانعكست شهرة المماليك على نظام الصنجقية فازداد شأنه ، ولم يعد الصنجق بك يكتفي

١ ـ انظر : Shaw, Ottoman Egypt, 36

٢ ـ انظر : Holt, « The Beylicate », 223-225

٣ ـ انظر : Shaw, Ottoman Egypt, 82.

بمرتبه فقط بل اضاف اليه مورد الوظائف الاخرى التي شغلها • وكما ان نظام الصنجقية قد ازدادت اهميته تبعاً لازدياد نفوذ المماليك فيه فان انحطاط نفوذ المماليك سبَّب بالمقابل انحطاطاً في قيمة الصنجقية ، كما سنرى في أكثر من مناسبة في القرنين السابع والثامن عشر •

القسم الثالث

بلاد الشام ومصر في فترة ضعف الدولة العثمانية

من الربع الاخير للقرن السادس عشر الى الربع الاول من القرن الثامن عشر

تمهيـد

الفصل الثامن :

بلاد الشام في فترة ضعف الدولة العثمانيـة

الفصل التاسع :

ولايـة مصر في فترة ضعف الدولة العثمانيـة

تمهيد

رأينا فيما سبق[1] كيف أن توقف التوسع العثماني في مختلف الجهات في الربع الأخير من القرن السادس عشر لاسباب عسكرية وستراتيجية وجغرافية قد انعكس أثره على تطور الدولة ككل ، لاسيما وأن الدولة العثمانية قد ازدهرت على الفتح ، وخاصة الغزو ضد أعداء الدين في أوروبا والى حد ما في فارس . وقد ظهر ضعف الدولة في شخصيات السلاطين أنفسهم فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش وفي الادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر الخاصة ومؤامراته . ونتج عن التخلي عن حصر السلطنة بابن السلطان الحاكم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ،والسماح لاكبر أفراد الاسرةالعثمانية الحاكمة بتولي السلطنة ان ازدادت المكائد ضد السلاطين وضعفت نوعية المرشحين نظراً لاهتمام السلطان الحاكم بابنه أكثر من عنايته باخوته أو أقربائه . وباستثناء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) ، الذي أظهر مقدرة كبرى ازاء الاخطار المهددة للدولة وخاصة في الجبهة الفارسية ،فلم يظهر في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني وحوالي نهاية القرن الثامن عشر أي سلطان قوي . ونتيجة لتقلص نفوذ السلطان في الحياة العامة انتقل زمام المبادرة الى الصدر الاعظم فأصبح له مقر خاص به في حوالي منتصف القرن السابع عشر عرف باسم الباب العالي Sublime Porte[2] . وبلغ من شهرة هذا المكان وصاحبه فيما بعد أن شاع خطأً أن الباب العالي هو مقر السلطان وأن أوامر

---

١ – انظر ص ٩١ – ٩٣

٢ – انظر ص ٦٢ .

الباب العالي تعني الأوامر التي يصدرها السلطان • ووجه الخطأ أن اسم السلطان بقي محترماً لدى الشعب لكونه زعيم المسلمين ، ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد الصدر الاعظم أو منافسيه • واشتهر من الصدور العظام في الفترة التي يعالجها هذا الكتاب أفراد من أسرة كوبريلي Koprülü الذين احتكروا الصدارة العظمى في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وأعادوا الى الدولة العثمانية بعض هيبتها •

ونظراً لانقطاع السلاطين الى حياة القصر الخاصة ازداد شأن موظفي القصر وعلى رأسهم الكزلار آغا[1] فأخذ ينافس الصدر الأعظم على السلطة • وتوقف على نتيجة الصراع بين هذين القطبين مصير كثير من حكام الولايات الذين اعتمدوا على دعم أحد هذين الموظفين دون الآخر •

- ومن مظاهر ضعف الدولة ازدياد نفوذ الانكشارية بعد توقف الفتوحات وتناقص السلطة الفعلية للسلاطين ،ففسد نظامهم وطمع المسلمون الاحرار بالتجند في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم•وأهملت الدفشرمة بالتدريج حتى بطلت في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وبذلك انقطع المورد الذي كان يأتي بشبان البلقان الأشداء فيدربون ويصبحون اما انكشارية أو اداريين كباراً • وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين الى صفوفهم • ففي استانبول كان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني الذي عزلوه وقتلوه في ١٦٢٢ • ومارسوا كثيراً من التعسف في الولايات بشكل أرهق أهلها لما ابتزوه منهم من مال •

وكان قد نتج عن اعتماد الدولة على الانكشارية منذ عهد فاتح القسطنطينية السلطان محمد الثاني أن أهمل الجند الاقطاعي[2]

١ انظر ص ٦٤ •

٢ انظر ص ٦٨ ـ ٧٢ •

وبالتالي نظام الاقطاع • وكان تأثير ذلك حاسماً بالنسبة للحياة الاقتصادية في الدولة العثمانية • فالجندي الاقطاعي لم يعد قادراً على مجابهة الجندي الاوربي الاحسن تدريباً • ولكن وجوده ، بالنسبة للاستقرار وحسن الانتاج في الريف ، غدا أمراً ضرورياً• وهكذا فان ضعف الجندي الاقطاعي ، الذي كانت سلطته في الريف مستمدة من سلطته العسكرية ، أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة استطاعت أن تسيطر على الريف وتستثمره لصالحها • وكانت تتصرف بالارض اما بأخذها كاقطاع، وهذا أصبح نادراً ، أو بالتزام ضرائبها • وقد شاع نظام الالتزام في أراضي الدولة بعد انحطاط الاقطاعات وأصحابها • ورافق ذلك كثير من التلاعب بأموال الدولة وظهرت قوى محلية ثائرة تستمد سلطتها من التزام الضرائب • وأقفر الريف بالتدريج واندثر كثير من القرى بسبب هجرة أصحابها منها •

وكان من توقف فتوحات الدولةوبالتالي انقطاع موارد الفتح أن زاد ارتباك الاقتصاد العثماني • فقد تزايد عدد الجنود الانكشاريين والموظفين الذين يتقاضون المرتبات ، بعد أن تضاءل الاعتماد على الجنود والموظفين الاقطاعيين ، بينما تناقصت واردات الدولة • ورافق التلاعب في نظام الالتزام فساد كبار الموظفينالذين لم يعودوا يعنون من الدفشرمة ، فكثرت الرشوة والاستغلال بينهم لان بقاءهم في الوظيفة كان يعتمد عادة على بقاء الشخصية التي تدعمهم في استانبول قوية وراضية عنهم بدفع الرشاوى لها • ولهذا استغل الولاة وكبار الموظفين مناصبهم للاثراء ولارضاء حماتهم • وكان الصراع على النفوذ في استانبول والمساومة على شراء الوظائف يقرران عادة بقاء الموظف في منصبه • ومن هنا كثرة تغيير الولاة في الفترة التي نعالجها في هذا القسم • وتأثر اقتصاد الدولة العثمانية أيضا بنقص واردات الضرائب التي

كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في أراضيها ، اذ انه بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أصبح بعض هذه البضائع يصدّر مباشرة الى أوروبا عبر هذا الطريق وأحياناً يعاد تصديرها الى الدولة العثمانية. ورغم أن قسماً كبيراً من بضائع الشرق الاقصى بقي يمر ، في القرن السادس عشر ، عبر موانىء البحر الاحمر والبصرة الا ان هذا تناقص بمرور الزمن وبازدياد قوة الامبراطوريات الغربية في الشرق الاقصى . وخسرت الدولة العثمانية من جراء ذلك موارد مالية كبيرة . ونتج عن العوامل السابقة ضغط على النقد العثماني ، ولم تستطع موارد الدولة من المعادن سد ازدياد الحاجة للنقد . وصدف في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والازمة النقدية العثمانية في أوجها ، أن تدفقت الفضة والذهب الى بلاد البحر الابيض المتوسط من العالم الجديد ـ أمريكا ـ فارتبك النقد العثماني تبعاً لذلك وانهارت قيمة وحدته الفضية وهي الاقجة (تسمى أيضا أسبر) ، وارتفع سعر الذهب وقل وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة . ولم تجد محاولة الدولة العثمانية اصدار وحدة نقد فضية ناملة في ١٦٢٠ ، هي البارة ، في القضاء على التضخم النقدي وغلاء أسعار المعيشة . وفشلت كذلك محاولة اصدار عملة جديدة ، هي القرش ، في الربع الأخير من القرن السابع عشر . وكان من نتيجة ذلك أن عمت الرشوة في الدولة للتعويض عن انهيار النقد وغلاء المعيشة[١] . وسنرى في بحثنا لولاية مصر في الفترة التالية ثورات محلية قام بها عسكريون أصحاب مرتبات بسبب انهيار قيمة النقد وغلاء المعيشة . وكانت هذه الاسباب من عوامل ضعف

---

١ ـ انظر :

Lewis, Emergence, 27-33 ; Braudel, 391-394, 417-420 ; Gibb and Bown, I.ii. 51 ff.

وتمرد العساكر العثمانيين في اليمن في النصف الثاني من القرن السادس عشر •

واستفاد العثمانيون في عهد السلطان مراد الرابع من انشغال أعدائهم حكام النمسا في حروب الثلاثين عاماً في أوروبا (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) فالتفتوا لقتال الصفويين الذين بلغوا درجة كبيرة من القوة في عهد الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) واحتلوا بغداد في ١٦٢٣ • ولم يتمكن العثمانيون من اعادة بغداد الى سلطتهم حتى سنة ١٦٣٨ • وكان السلطان مراد الرابع قد قضى في هذه الاثناء على الامير فخر الدين المعني الثاني الذي تزايد نفوذه الى درجة كبيرة وهدد السلطة العثمانية في بلاد الشام[1] • وانحسر بعد ذلك الخطر الصفوي عن العراق الى أن قضى الافغان السنة على نفوذ السلالة الصفوية في سنة ١٧٢٢ • ولكن أعداء العثمانيين في الجبهة الاوربية ما لبثوا أن استعادوا نشاطهم في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، فصدوا للمرة الثانية هجوم العثمانيين على فينا في ١٦٨٣ • وكانت الدولة العثمانية آنذاك في فترة قوة في عهد وزرائها العظام من آل كوبريلي • وأعقب ذلك انتصار النمساويين وحلفائهم على العثمانيين في معركة موهاج الثانية في ١٦٨٧ وفي زنتا في ١٦٩٧ • ووقع العثمانيون في ١٦٩٩ معاهدة صلح كارلوفيتز Carlowitz مع آل هابسبورغ حكام النمسا وتخلوا لهم ، بموجب هذه المعاهدة ، عن هنغاريا التي كانت خاضعة منذ زمن طويل للعثمانيين • وهذه هي أول مرة يوقع فيها العثمانيون معاهدة كمنهزمين • وكان ذلك بداية التخلي التدريجي

---

١ ـ انظر الفصل التالي •

عن المقاطعات المفتتحة • وفي عام ١٧١٨ تخلت الدولة العثمانية عن مناطق أخرى لروسيا بموجب معاهدة باساروفيتز[١] Passarovitz

وقد انعكس ضعف الدولة بشكل عام على ادارتها في الولايات • وسنرى في الأبحاث التالية ردود الفعل المحلية تجاه قوة الدولة أو ضعفها • ففي فترات القوة في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي قضي على أغلب الفتن المحلية التي نشأت بسبب ضعف الدولة ، ووطد العثمانيون هيبتهم، ثم ما لبثوا أن فقدوها في فترات الضعف التي أعقبت ذلك •

---

١ ـ أنظر حول ضعف الدولة بصورة عامة :

Lewis, Emergence, 26 - 37 ; Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 61 - 65, 134 - 143 ; Gibb and Bowen, I. i. 173 ff ; Creasy, 224 - 249.

الفصل الثامن

بلاد الشام في فترة ضعف الدولة العثمانية

من الربع الاخير للقرن السادس عشر الى الربع الاول من القرن الثامن عشر

يمكننا اعتبار سنة ١٦٦٠ نقطة تحول في صراع القوى المختلفة على النفوذ في كل من بلاد الشام ومصر • وكان هذا التحول نتيجة تطورات محلية وأحداث هامة جرت في استانبول • وسنستعرض خلال بحثنا أسباب هذه التطورات واثر أحداث استانبول عليها •

بلاد الشام حتى سنة ١٦٦٠

سنبحث أولا في التطورات التي حدثت في دمشق وسنعالج بعد ذلك التطورات التي جرت في المناطق الاخرى من بلاد الشام واثر كل منها على الأخرى •

التطورات التي حدثت في دمشق • — لم يحدث في هذه الفترة أي تبدل في هوية الولاة العثمانين والقضاة الحنفين في دمشق فجميعهم تقريباً كانوا من أصل رومي ، وبينما عين القضاة عادة لسنة واحدة عين الولاة في دمشق لمدة أكثر من ذلك ولكن ليس بأكثر من خمس سنوات ، وكانت مثل هذه الحالات نادرة • أما بالنسبة للمفتين في دمشق فكانوا ،أشبه بالفترة السابقة ، يعينون من بين أناس من أصل رومي وأصل محلي • وقد ازداد في هذه الفترة عدد المفتين الذين هم من أصل محلي ، وظهر بينهم اثنان من أسرة العمادي الدمشقية • وعين في الفترة التالية أفراد آخرون من هذه الاسرة كمفتين[1] •

---

١ — انظر : المرادي ، عرف البشام ، ١٤ آ — ٨٣ آ ؛ رسالة ، ٣٠ ب — ٣٢ آ •

واتصف حكم الولاة في هذه الفترة بالقوة أو بالضعف حسب قوة هؤلاء الولاة والحالات التي عرضت لهم وبصورة رئيسية حسب نشاط الادارة في استانبول • ولعل أعظم تطور حدث في هذه الفترة في دمشق هو تحول الجيش الانكشاري فيها من جيش كان أكثر أفراده من أصل رومي الى جيش أصبح أكثر أفراده من أصل محلي أو من أعراب مقيمين في دمشق ولكن ليس بالضرورة ، في هذه الفترة ، من أصل دمشقي • وسنرى في الفترات التالية كيف سيطر الدمشقيون بالتدريج على الجيش الانكشاري في دمشق •

سبق أن ذكرنا[١] أن السلطان العثماني وجه في تموز ١٥٧٧ فرماناً الى والي الشام يأمره فيه بأن يمنع غير الاروام من الانتساب الى الجيش الانكشاري في دمشق • ولم يكن لهذا الفرمان تأثير فعلي فكثر عدد غير الاروام بين الانكشارية وازدادت ، تبعاً لذلك ، علاقة الانكشارية مع السكان المحليين وترابطت مصالحهم ايجابياً وسلبياً • ولم تكن ولاية الشام المجال الوحيد لنشاط الانكشارية المتنفذين • فقد مدوا دائرة نفوذهم في أواخر القرن السادس عشر ، الى ولاية حلب حيث كانت تذهب طائفة منهم كل سنة للخدمة ، وأحياناً لفرض خدمتهم ، في تحصيل أموال الميري من قرى الولاية • وقد استغل انكشارية دمشق دعوة الدولة لهم لقتال الثائرين في شمالي حلب ، في هذه الفترة ، لتوطيد نفوذهم هناك • ومارسوا كثيراً من الظلم وابتزاز الاموال حتى ضج الناس منهم ، واضطر ولاة حلب لقتالهم واخراجهم من الولاية بالقوة بمساعدة علي باشا جانبلاط قريب حسين باشا جانبلاط حاكم كلس ، ومن هنا العداء بين علي باشا جانبلاط والانكشارية • وقد اشتهر بين انكشارية دمشق هؤلاء خداوردي ، آق

---

١ ـ انظر ص ١٥٤ •

يناق ،قره‌يناق وحمزة الكردي الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا غرباء بالاصل عن دمشق[1] .

ويفسر تمرد انكشارية دمشق في هذه الفترة بعوامل مختلفة . ويأتي في مقدمة هذه العوامل اختلال انظمة تجنيد وتدريب وانضباط الانكشارية لاسباب عامة في الدولة[2] . وكان انفتاح انكشارية دمشق على غير الاروام مظهراً لهذا الانحطاط العام وعاملا في ازدياد تفشي الفساد بين صفوفهم . ومن الطبيعي أن يتجلى فساد الانكشارية في ممارستهم ابتزاز الأموال بسبب قدرتهم على ذلك . ولكن هناك أسباب أعمق جعلتهم يلجأون ، في هذه الفترة بالذات ، الى محاولة اغناء أنفسهم . فقد سبقت الاشارة[3] الى أن الدولة العثمانية كانت تعاني اضطرابا في الوضع الاقتصادي مرده ازدياد حاجتها للنقد ، وعدم كفاية مواردها لسد ذلك ، وتعرضها لتدفق الفضة من العالم الجديد فانهارت ، بنتيجة ذلك ، قيمة العملة وارتفعت أسعار الحاجيات ، وقاسى كثيراً من ذلك أصحاب المرتبات ومنهم الجنود الذين لم تكن لهم اقطاعات . وقد رأينا اثر ذلك على افقار الجنود العثمانيين في اليمن وعدم صلاحهم ، بالتالي ، للقتال[4] . وسنعالج في الفصل التالي اثر انهيار قيمة النقد على ثورات العساكر التي حدثت في هذه الفترة في ولاية مصر . ويبدو أن هذه الازمة الاقتصادية كانت مسؤولة ، بجانب عوامل طبيعية كالقحط والطاعون ، عن غلاء الحبوب في بلاد الشام فارتفعت أسعار الخبز الى حد أدى الى استغراب المؤرخ المعاصر[5] شرف الدين موسى ، وازدحم الناس على الافران في دمشق ، ولم تنفع جهود الدولة في استيراد القمح من مصر وقبرص

---

١ ـ انظر : المحبي ، ج ٢ ، ٨٥ ، ١٢٩ ، ج ٤ ، ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ، انظر أيضا : ج ٤ ، ٢٩٥ـ٢٩٦ الغزي ، لطف السمر ، ١٩٥ ب ـ ١٩٦ آ ، ٢٠٨ آ ، ٢١٣ ب ؛ البوريني ، ج ١ ، ٣٢٠ ؛ ج ٢ ، ١٥٥ ـ ١٦١ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ ؛ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، حلب ١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ ؛ انظر : ج ٣ ، ٢٦٦ ـ ٢٧١ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : كامل الغزي .

٢ ـ انظر ص ٧٤ .

٣ ـ انظر ص ١٨٢ .

٤ ـ انظر ص ١٧٢ .

٥ ـ انظر حول الوضع الاقتصادي في دمشق آنذاك : شرف الدين موسى ، ٣٣٥ آ ، ٣٣٥ب ، ٣٣٨ آ ، ٣٣٩ آ ، ٣٤٠ آ ٣٤٢ آ ـ ٣٤٢ ب ، ٣٨٥ ب ، ٣٨٨ .

وطرحه في الاسواق اذ سرعان ما ارتفعت أسعاره • وكان جشع التجار وأصحاب الافران مسؤولا الى حد ما عن تفاقم الازمة ، ولكن جذورها كانت أعمق من ذلك بدليل أنه لم يقض عليها بالقضاء على جشع التجار • وزاد من حدة الازمة في دمشق وجود عملة نقدية خاصة بها تصك فيها[1] ، وقد اختلفت قيمتها بالنسبة لقيمة النقد السلطاني في استانبول • ولم يدرك الشعب في دمشق الاسباب العميقة للازمة فظنوا أن المسؤول عن ذلك هو تهاون القضاة الذين كانوا يقومون عادة بتطبيق قوانين الشريعة في عدم التلاعب بالاسعار ، وأحياناً بدور المحتسب ، فهاجموهم واشتكوا عليهم ،وقد حدث مثل ذلك في مناسبات أخرى • ويبدو أن الانكشارية قد اندفعوا بفعل هذه الازمة الاقتصادية ، بالاضافة الى الاسباب الاخرى ، الى ابتزاز أموال الفلاحين في الارياف لسهولة ذلك • واذا كان ولاة حلب قد حدوا من تسلط انكشارية دمشق بالقوة فان هذا لم يقض على استفحال الفوضى بين الانكشارية في دمشق •

وقد برز بين زعماء الانكشارية في دمشق في النصف الاول من القرن السابع عشر أفراد من أسرة حسن التركماني الذين شكلوا مع أتباعهم حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق[2] • وبرز أيضاً علي ابن الارناؤوط الذي خلفه بعد موته في ١٠٣٥/١٦٢٥ ابناه خداوردي وعلي[3] • وقد لعب كيوان ، وكان سابقاً مملوكاً لدى رضوان حاكم غزة ، دوراً هاماً في الجيش الانكشاري في دمشق في هذه الفترة • وكان بسبب ما بلغه من

---

١ ـ انظر حول وجود عملة خاصة تصك في دمشق :

J. De. Thévenot, Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique, 5 Vols., Amsterdam, 1727, see Vol. II, 688.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Thévenot

انظر أيضا كتابنا : The Province of Damascus, 19-20.

٢ ـ المحبي ، ج ٣ ، ٤٢٧ ؛ محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، أربعة أجزاء ، بولاق ١٣٠١ (صدرت طبعة جديدة منه في بغداد سنة ١٩٦٦) ، انظر : ج ٢ ، ٦٣: سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : سلك الدرر ؛ انظر ايضا : البوريني ، ج ٢ ، ١٥٦ ـ ١٨٥ •

٣ ـ المحبي ، ج ٣ ، ١٥٦ •

سلطة انه اذا انتسب اليه شخص عرف هذا الشخص بابن كيوان[1] . ونستدل من أسماء هؤلاء الانكشارية البارزين انهم من أصل غير دمشقي . ورغم أن بقاءهم في دمشق وانتسابهم اليها ، وخاصة في الجيلين الثاني والثالث ، قد قرّب ما بينهم وبين السكان المحليين الا أنهم بقوا يشكلون مجموعات متميزة في الجيش تتوارث السلطة وتتمتع بالنفوذ المحلي وتعارض في دخول غير أتباعها الى طائفة الانكشارية ، وبذلك تناقص خاصة عدد الاروام بين الانكشارية . وانعكست سلطة هؤلاء الانكشارية في الجيش على نفوذهم في دمشق حتى انهم أصبحوا يعرفون بأكابر وأعيان دمشق .

وكانت سلطة ولاة الشام في الربع الاول من القرن السابع عشر ، قبل تولي مراد الرابع السلطنة ، تتميز بالضعف أو بالقوة بحسب الظروف. وقد تمكن الثائران علي باشا جانبلاط وفخر الدين المعني من تحديهم في ساحة المعركة[2] . وكان من نتيجة ضعف الولاة أن قويت شوكة الانكشارية في دمشق . ولم يهتموا بعد ذلك ، بسبب ضعف انضباطهم ، بالتفوق في الحملات التي اشركهم فيها ولاة الشام . ففي ١٠١٥/١٦٠٦ مثلا هرب الانكشارية من القتال ضد الثائر علي باشا جانبلاط [3] . وكان سجلهم في الحملات ضد المعنيين مخزياً[4] .

وفي عهد السلطان مراد الرابع ازداد نفوذ الانكشارية في دمشق ، وازدادت في الوقت ذاته سلطة الولاة بسبب نشاط الادارة آنئذ في استانبول . ففي سنة ١٠٣٣/١٦٢٣ - ١٦٢٤ قتل والي الشام ابن اعجفران وهو من كبار الانكشارية في دمشق ، وفرض الامن في المدينة[5] . وقتل أيضاً كيوان أحد زعماء انكشارية دمشق وذلك في ٢٣ محرم ١٠٣٣/١٦ تشرين الثاني ١٦٢٣ على يد حليفه السابق فخر الدين

---

١ - المصدر السابق ، ج ١ ، ٣٠ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ آ - ٢٠٨ ب .
٢ - انظر ص ٢٠٢
٣ - المحبي ، ج ٣ ، ١٣٧ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٧ .
٤ - شدياق ، ج ١ ، ٥٤ ، ٢٩٧ ؛ ج ٣ ، ٢٦٧ .
٥ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٣١ .

المعني الثاني[١] • وفي سنة ١٠٣٨/١٦٢٨ - ١٦٢٩ قضى والي الشام على العناصر المشاغبة في المدينة وانعدمت اللصوص في زمنه[٢] • وكان بعض الظلمة يجلسون في قرية الكسوة ويفرضون المال على التجار المرافقين للحاج فأصدر السلطان أمراً في ١٠٤٣/١٦٣٣ بازالة هذه المظالم[٣] • وقد ازدادت سلطة ولاة الشام بعد القضاء على الامير فخر الدين المعني الثاني في ١٦٣٥[٤] • ففي سنة ١٠٤٦/١٦٣٦ - ١٦٣٧ قتل والي الشام أحد أعيان الانكشارية في دمشق ويسمى ابن الصباغ • وفي سنة ١٠٤٨/١٦٣٨ - ١٦٣٩ أرهب والي الشام اللصوص في المدينة[٥] • وقد قتل والي الشام في محرم ١٠٥٢/نيسان ١٦٤٢ علي بن الارناؤوط وهو من كبار انكشارية دمشق[٦] •

اذا نظرنا الى هذه الحوادث متفرقة ولم نضعها ضمن أبعادها التاريخية لأمكن القول ان مثل هذه الحوادث تبدو طبيعية • ولكن اذا نظرنا الى النفوذ الذي حازه المقتولون سواء في الجيش الانكشاري أو لدى الشعب في دمشق ، واذا وضعنا هذه الحوادث في اطارها التاريخي وربطناها بزيادة نفوذ الانكشارية بصورة عامة وبالخطوات التي اتخذت ضدهم فيما بعد ، لرأينا أن هذه الحوادث تشكل جزءاً من الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الانكشارية • وقد زادت هذه الحوادث في العداء بين الفريقين • ففي عام ١٠٥٧/١٦٤٧ - ١٦٤٨ حدث قتال بين الانكشارية وأتباع المتسلّم في دمشق • ويظهر اثر هذا العداء في الحملة التي قام بها مرتضى باشا والي الشام في العام التالي على بلاد صفد • وقد حدث نزاع أثناء الحملة بين انكشارية دمشق وجنود الوالي أدى الى القتال بين الفريقين ورجوع الحملة الى دمشق • وقد ازداد تأزم العلاقات بين الطرفين في الحملة التي شنها والي الشام في ١٠٥٩/١٦٤٩ - ١٦٥٠ ضد دروز

---

١ - المحبي ، ج ٣ ، ٢٩٩ - ٣٠٢ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ١٠٧ ؛ كرد علي ، ج ٢ ٢٥٩ ، الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٩ ب •
٢ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٣١ •
٣ - انظر المصدر السابق ، ٣٢ •
٤ - انظر ص ٢١١ ٢١٢ •
٥ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٣٣ •
٦ - المحبي ، ج ٣ ، ١٥٦ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٣٣ يذكر مقتله في أحداث سنة ١٠٥١ •

الشوف واصطحب فيها الانكشارية • ولم يصب هؤلاء بأي أذى في القتال الذي هزم فيه الوالي وجنوده ، ربما بسبب تجنب الانكشارية الاشتراك الفعلي في القتال • وقد حقد الوالي على الانكشارية نتيجة لذلك[1] • وحدث في نفس السنة أن قتل جماعة الوالي رجلا من الانكشارية في دمشق فعمت الفوضى فيها وأغلقت أسواقها[2] • وفي سنة ١٠٦١/١٦٥٠ - ١٦٥١ حدث طاعون في دمشق أودى بحياة خمسمائة من أفراد الانكشارية مما أضعفهم • ولكن يبدو أن هذه المصيبة جعلت الانكشارية أكثر حرصاً للابقاء على نفوذهم فاصطدموا في السنة ذاتها مع جماعة الوالي • وتعاظم نفوذهم بعد ذلك حتى انهم وصفوا في سنة ١٠٦٣/١٦٥٢ - ١٦٥٣ بأنهم يحكمون دمشق • وبالفعل تمكن الانكشارية في هذه السنة من طرد الوالي من دمشق بعد أن هددوه بأن وجهوا مدافع القلعة على السرايا التي كان يقيم فيها • وفي سنة ١٠٦٥/١٦٥٤ - ١٦٥٥ نهب الانكشارية بيت الصوباشي (مدير الشرطة) وبيت أحد أتباع الوالي[3] •

ومن أسباب ضعف الولاة في هذه الفترة وزيادة تسلط الانكشارية رغم البطش الذي حل سابقاً بأفرادهم ، ضعف السلطة المركزية العثمانية اثر وفاة السلطان مراد الرابع في ١٦٤٠ • كما أن الفترة التي تلت القضاء على فخر الدين المعني الثاني لم تظهر فيها تحديات قوية ، من قبل الامراء المجاورين ، على غرار تحديات فخر الدين ، لسلطة ولاة الشام ، مما جعل مختلف القوى في دمشق تتلهى بخلافاتها الداخلية ، وأفسح المجال للانكشارية ليثأروا لقتل زعمائهم • ولا أدل على ازدياد نفوذ الانكشارية آنذاك من تعيين الدولة بعض أفرادهم أمراء للحاج الشامي ، اذ انه بعد قضاء فخر الدين على نفوذ الامراء المحليين الذين كانوا يعينون أمراء للحاج منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر[4] ، ضعف هؤلاء الامراء وأصبح الانكشارية ، بازدياد سلطتهم ، يعينون أمراء للحاج للمحافظة عليه •

---

١ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٣ - ٣٧ •

٢ - ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We (II) 418 ، انظر : ورقة ، ١٤ آ •

٣ المصدر السابق ، ١٤ آ ١٤ ب •

٤ - انظر ص ١٥٧ •

وشهدت الادارة المركزيـة العثمانيـة فترة قوة ونشاط في النصف الثاني من القرن السابع عشر حين عين عـدد من أفراد أسـرة كوبريلي Koprülü صدوراً عظاماً • وكان أول من شغل منصب الصدر الاعظم من هـــذه الاسرة محمد باشا كوبريلي وذلـك في الفترة بين ١٦٥٦ – ١٦٦٢[١] • وقد انعكست قوة الادارة المركزية على الادارة في الولايات ، وشددت الدولة العثمانية ، تبعاً لذلك ، قبضتها على انكشارية دمشق • وفي عام ١٠٦٧/١٦٥٦ – ١٦٥٧ عين مرتضى باشا عـلى دمشق للمرة الثانية وكان قد تخاصم سابقاً ، في سنة ١٠٥٨/١٦٤٨ – ١٦٤٩ م مع انكشارية دمشق في الحملة على بلاد صفد • فخاف انكشارية دمشق الآن من أن يبطش بهم لاسيما وانه كان يرافقه عدد كبير ، يقدّر بألف وخمسمائة ،من الجنود البشناق (نسبة الى بوسنة) • وبدأ أحد كبار الانكشارية آنذاك ويدعى عبد اسلام المرعشي[٢] بتأليب الدمشقيين ضد مرتضى باشا الذي ما ان وصل الى القطيفة حتى خرج اليه الانكشارية وحلفاؤهم ومنعوه من دخول دمشـــق ، فعاد الى استانبول ، وطرد متسلمه من دمشـــق • وعين السلطان محمد باشا (يذكر أحياناً أحمد باشا) بن الطيار خلفاً له[٣] • وكان هذا ظفراً كبيراً للانكشارية وزاد من نفوذهم لاسيما وأن السلطان قبل بالامر الواقع • وقد حدث في هذه السنة أن السلطان محمد الرابـع أرســل يطلب فرقاً من الجنـود من بعض الولايات ، ومن بينهـا الشـام وحلب ، للاشتراك في القتال في روميلية • وعين والي حلب حسن باشـا قائداً عاماً (صاري عسكر) على جنود الشام وحلب ، وانضم اليه والي دمشق ابن الطيار والانكشارية • وقد استغل حسن باشا منصبه والقوات التي تجمعت لديه فأعلن العصيان وطالب السلطان بقتل محمد باشا كوبريلي الصدر الاعظم ، وكان ذلك بداعي الحســد كما ذُكر • وأيد ابن الطيار

---

١ ـ انظر ترجمته : المحبي ، ج ٤ ، ٣٠٩ ـ ٣١١ •

٢ ـ تدل نسبته الى مرعش ، حيث ولد ، انه ليس دمشقي الاصل ، ويصفه المحبي ، ج ٢ ، ٤١٧ ، بأنه نزيل دمشق •

٣ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤١٨ ؛ ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We (II) 418 ورقة ١٤ ب •

وانكشارية دمشق حسن باشا في عصيانه • وقد أرسل السلطان يأمر بالغاء الحملة ورجوع الجنود الذين وضعوا تحت امرة حسن باشا الى بلادهم ، ولكن حسن باشا قتل رسول السلطان ، وأعلن الثورة • فعين السلطان والي بغداد وغيره من الولاة والقوات لقتال حسن باشا الا انه هزمهم ، وكسر أيضا قوات أخرى أرسلها السلطان • وبدأ الجنود ينفضون بعد ذلك من حول حسن باشا ، فعاد عسكر الشام الى بلدهم ، وأعطى والي حلب الجديد الامان لحسن باشا ، وكان اذ ذاك في مرعش ، فدخل حلب ولكن واليها فتك به وبجماعته في ٢٤ جمادى الاول ١٠٦٩/١٧ شباط ١٦٥٩ ، وتقفى بعد ذلك اثر اتباعه • وهكذا انتهت هذه الثورة التي عرفت بقضية الحسنلية (نسبة الى حسن باشا) • وقد عزل محمد باشا بن الطيار عن ولاية الشام نتيجة لتأييده لحسن باشا ، وقتل بعد ذلك • وأمر السلطان بقتل المتسلّم الذي أقامه ابن الطيار في دمشق ، وعين والياً عليها في ١٠٦٩/١٦٥٩ عبد القادر باشا (يذكر أيضا قدري باشا) فقتل في ٢٧ رمضان ١٠٦٩/١٨ تموز ١٦٥٩ عدداً من كبار انكشارية دمشق الذين أيدوا حسن باشا ، وكان من بينهم عبد السلام المرعشي وعبد الباقي اليازجي ومحمد التركماني • وأرسل السلطان الى دمشق قوة من الجنود القابي قول[1] تقدر بالفي جندي فأزاحت الانكشارية عن مهماتهم في المحافظة على القلعة وأبواب المدينة والاسوار وتولتها هي[2] • وأصبحت مهمة الانكشارية المحافظة على القلاع في طريق الحاج ، ولكن أغلبهم لم ينفذوا ذلك بالواقع ، واستمروا يقيمون في دمشق • وقد خشي السلطان أثناء ثورة حسن باشا أن ينضم اليه

---

١ ـ انظر ص ٧٢

٢ ـ انظر حول هذه الاحداث : ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We (II) 418 ، الاوراق ١٤ ب ـ ١٥ ب ؛ انظر أيضا : ابن جمعة ، قطعة من تاريخ ، ١ آ ـ ١ ب ؛ المحبي ، ج ٢ ، ٧٨ ـ ٧٩ ، ٤١٨ ، ج ٤ ، ٣١١ (يذكر المحبي أن عدد القابي قول الذين أرسلوا الى دمشق كان نحو ثلاثمائة جندي • وقد اعتمدنا رقم الالفي جندي الذي ذكره ابن جمعة لأنه لايعقل أن حملة تأديبية ترسلها الدولة ضد انكشارية أقوياء تكون بحدود ثلاثمائة جندي ، لاسيما وأن الانكشارية سبق أن طردوا مرتضى باشا وكان معه من الجنود حوالي الف وخمسمائة جندي) ؛ انظر أيضا : الطباخ ، ج ٣ ، ٢٦٨ ـ ٢٧١ •

الصفويون ، أعداء العثمانيين[1] ، ويهددوا السلطنة العثمانية ، وهذا ما دعاه للعمل بحزم والبطش بالثائرين •

وهكذا أصبح في دمشق طائفتان من الانكشارية : طائفة القابي قول ومركزهم القلعة ، وطائفة الانكشارية المحليـة الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد باليرلية بسبب أن أفرادهم كانوا من دمشق أو يسكنون فيهـا • ويجب التنبيه هنـا الى أن مقتل كثير من أفراد الانكشـارية البارزين في السنوات الماضية الذين كانوا من أصل غير دمشقي قد أفسح المجال الآن للدمشقيين للانتساب الى الانكشارية والارتقاء الى أعلى المراتب • وسنرى في دراسة الفترات التالية كيف أن الانكشارية اليرليـة أصبحوا يعتبرون بالواقع فرقة عسكرية دمشقية تدافع عن مصالح الدمشقيين بسبب ارتباط مصالح أفرادها معهم •

ويجدر أن نذكر هنـا أن آغا الجنود القابي قول الذين أرسلوا الى دمشق واسمه علي آغا الدفتردار قد كوفىء بتعيينه والياً على ولاية صيدا التي أنشئت في ١٦٦٠ وتألفت من صنجقي صيـدا مـع بيروت وصـفد اللذين سلخا من ولاية الشام[2] • ولاندري بالتأكيد فيما اذا كانت هذه الولاية قد أنشئت خصيصاً لتعطى كمكافأة لعلي آغا الدفتردار • الا أن هناك أسباباً أخرى أدت الى تأسيس هذه الولاية منها الحد من سلطة ولاة الشام خوفاً من اتساع نفوذهم ـ ومثال الثائر حسن باشا لايزال في الاذهان ـ لاسيما وأن سلطة الادارة المركزية في استانبول كانت قوية في هذه الفترة في عهد آل كوبريلي • كما أن تطور الاحداث في دمشق ، عـلى الشكل الذي رأينا ، اقتضى اهتماماً أكبر من الولاة بشؤون دمشق الداخلية • ويفسر تأسيس ولاية صيدا ، من ناحية أخرى ، بحرص الدولة العثمانية عـلى

---

١ ـ انظر :

P. Ricaut (Rycaut), Histoire de l'Empire Ottoman, 6 Vols., The Hague, 1709, see Vol. II, 260 - 265.

٢ ـ انظر حـول محاولة سابقة ، في الربـع الاول من القرن السابع عشر ، لتشكيل هـذه الولاية ، كتابنا : The Province of Damascus, pp. 2 - 3.

مراقبة امراء جبل لبنان بعد ثورةفخر الدين المعني الثاني • فما هي التطورات التي حدثت في جبل لبنان وفي المناطق المجاورة خلال هذه الفترة ؟

التطورات خارج دمشق • ـ حدثت في الربع الاخير من القرن السادس عشر عدة تطورات في منطقة جبل لبنان أدت الى شهرة فخر الدين المعني الثاني وتسلطه واخضاعه الامراء المحليين الواحد تلو الآخر • وادى توسعه بالنهاية الى اصطدامه بولاة الشام • وقد سبقت الاشارة[1] الى أنه كان يوجد في بلاد الشام في هذه الفترة عدد من الامراء المحليين الذين عين بعضهم حكاماً على الصناجق المختلفة ، وكانت قوتهم تقوم على أسس قبلية أو مذهبية أو اقطاعية • وقد اعترف العثمانيون بهؤلاء الامراء المختلفين وعينوا بعضهم حكاماً محليين لاسباب مختلفة • ولما كان هؤلاء الامراء قد أثبتوا وجودهم وسلطتهم محلياً وكان القضاء عليهم سيكلف الدولة ، وهي في بداية فترة الضعف ، كثيراً من الجهد ، لذلك عمدت الى الاعتراف بهم وشراء خضوعهم بتعيينهم حكاماً محليين • ويفيد ذلك في أن الدولة ضمنت الى حد كبير دفعهم للضرائب المستحقة عن مقاطعاتهم عوضاً عن أن تتركها تحت رحمة سلطتهم كثائرين • وأفادت الدولة أيضا من هؤلاء الامراء بأن عينت بعضهم أمراء للحاج لانهم أصحاب سلطة بين البدو • وكانت الدولة من ناحية أخرى تضمن بقاء سلطتها عليهم بضرب أمير بآخر أو فئة بأخرى • ولكن طموح الامير فخر الدين المعني الثاني حطم التوازن بين الامراء المحليين • وقد وازن المعنين في الشوف أمراء آل عساف التركمان وآل سيفا الاكراد في منطقة طرابلس ولبنان الشمالي • وكانت هاتان الاسرتان توازن الواحدة منهما الاخرى • وقد أحرز الامير منصور عساف سلطة واسعة في منطقة طرابلس ومد نفوذه حتى حدود اللاذقية وحماة ، واعترف به العثمانيون أميراً على هذه المنطقة في سنة ١٥٧٢ الى جانب الوالي العثماني في طرابلس • وقد بنى سرايا وجامعاً في بيروت ، وخضعت له البلاد التي حكمها • الا أن العثمانيين ، الذين شجعوه في البدء ، خشوا اتساع سلطته

---

١ ـ انظر ص ١٦٢ ـ ١٦٥ •

الآن فعينوا منافسه يوسف سيفا والياً على طرابلس في سنة ١٥٧٩ • وتوفي الامير منصور عساف في ١٥٨٠ فخلفه ابنه محمد وكان هذا آخر أمراء آل عساف ، وقد قتل في سنة ١٥٩٠ من قبل يوسف باشا سيفا ، وأصبحت السلطة في شمال لبنان بعد ذلك بيد آل سيفا[١] •

وحدث في سنة ١٥٨٤ أن هوجمت خزنة مصر[٢] ، وهي في طريقها الى استانبول ، في منطقة عكّار بلبنان • وقد اتهم الامير قرقماس المعني ،والد فخر الدين المعني الثاني ، بالتخطيط للهجوم ؛ وكان يدس عليه منافسه يوسف باشا سيفا • وأرسل العثمانيون حملة لمعاقبة المعتدين على الخزنة فهرب الامير قرقماس وتوفي في السنة ذاتها وهو مختبىء ، ولجأت زوجته بابنيه فخر الدين ، الذي خلفه في الامارة ، ويونس الى آل الخازن الموارنة في منطقة كسروان ، وأقامت لديهم ست سنوات • وعاد الاميران المعنيان بعد ذلك الى بلاد الشوف ، وتعهدهما بالحماية خالهما الامير سيف الدين التنوخي • ويفسر عطف فخر الدين على الموارنة فيما بعد بايوائهموحمايتهم له في هذه الفترة ، وقد عين أحد أفراد آل الخازن مستشاراً لديه • وتمكن الامير فخر الدين المعني الثاني ، بمساعدة اتباعه من القيسية ، من التغلب على تآمر اليمنية عليه بعد عودته • وجعل همه الآن الانتقام من عدوه يوسف باشا سيفا ، ومما زاد في العداء بينهما أن يوسف باشا كان يمنياً[٣] •

كان هدف فخر الدين اثر تسلمه الامارة في بلاد الشوف أن يمد سلطته على لبنان الشمالي ، منطقة نفوذ آل سيفا ، وعلى البقاع في الشرق، منطقة نفوذ آل فريخ وهم أسرة من أصل بدوي وطدت سلطتها في البقاع بعد القضاء على آل الحنش • وكان فخر الدين يحرص في هذه الاثناء على كسب عطف العثمانيين بالهدايا وبتقديم مال الميري بدون تأخير • ولكنه لم يستطع القضاء على يوسف باشا سيفا والي طرابلس بسهولة • وبعد أن

---

١ انظر : شدياق ، ج ٢ ، ٥ ـ ٦ ؛ شرف الدين موسى ، ٣٨٣ ؛ Lammens, II, 71, 72.

٢ ـ انظر ص ١٤٧

٣ ـ انظر حول هذه الاحداث : المعلوف ، تاريخ الامير فخر الدين ، ٤٦ ـ ٦١ ؛ شدياق ، ج ١ ، ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ج ٢ ، ٦ •

تغلب فخر الدين عليه في معركة عند نهر الكلب في سنة ١٥٩٨ وضم الى سلطته بيروت ، عاد يوسف سيفا فاسترجعها ، واستمرت المنازعات بينهما عدة سنوات • وأخيراً قضى فخر الدين على آل سيفا في سنة ١٦٢٧ • وكان آل سيفا طوال هذه الفترة شوكة في جنب فخر الدين ، وحدوا من توسعه في الشمال ، ولكن بقيت له حرية التوسع في الشرق وفي الجنوب •

وكانت سياسة فخر الدين أكثر نجاحاً في البقاع • فحاكم هذه المنطقة منصور بن فريخ قد ازدادت سلطته الى حد أخاف العثمانيين وخاصة ولاة الشام • وكان منصور ابن فريخ قد مد سلطته على صناجق صفد وعجلون ونابلس ، واعترف العثمانيون به أميراً عليها وملتزماً لاموالها الاميرية بعد أن وطد الامن فيها • كما أنه اشترك في الحملة التأديبية ضد المعنيين وغيرهم الذين اتهموا بالهجوم على خزنة مصر في سنة ١٥٨٤ • وفي سنة ١٥٨٩/٩٩٨ ـ ١٥٩٠ عين الامير منصور ابن فريخ أميراً على الحاج الشامي ، واستمر في امارة الحاج في العام التالي • وقد عين الامير منصور ابن فريخ أبناءه وأتباعه حكاماً على الصناجق التي اعترف بسلطته عليها • وكان من ازدياد نفوذه وغناه انه بنى عدة أبنية عظيمة في البقاع ، كما انه بنى داراً كبرى في حي الدرويشية في دمشق ، جنوبي سراية الباشا ، وخصها بالبذخ الكثير • ويبدو أنه بناها لتكون مقراً له كأمير للحاج الشامي ، ويدل هذا على طموحه للاحتفاظ بهذا المنصب • وقد وجد ولاة الشام في منصور ابن فريخ منافساً كبيراً لسلطتهم فحاولوا التخلص منه • وبدأت نقمتهم عليه حين سجن والي الشام محمد باشا بن سنان باشا في ١٩ صفر ١٧/٩٩٩ كانون الاول ١٥٩٠ الامير قرقماس ابن الامير منصور بن فريخ اثر دخوله مع أبيه الى دمشق على رأس قافلة الحاج • ورغم انه أفرج عن قرقماس في ١٦ ربيع الاول ٢١/٩٩٩ كانون الثاني ، فقد جرت في ٢٥ محرم ١٢/١٠٠٠ تشرين الثاني ١٥٩١ محاولة أخرى ، بأمر من السلطان ، للقبض على قرقماس ومصادرة أموال منصور بن فريخ الذي كان آنذاك في الحجاز أميراً على الحاج الشامي • وما أن علم منصور بن فريخ بالقاء

القبض على ابنه حتى ترك امارة الحاج وهرب من البلقاء ، وهي منزل في طريق الحاج • وقد استفاد من نقمة العثمانيين على منصور حاكم صنجق عجلون الامير أحمد ابن الامير قانصوه بن مساعدة الذي خلف أباه في حكم عجلون في ١٨ محرم ١٩/١٠٠٠ تشرين الاول ١٥٩١ • وكان الامير قانصوه قد شغل منصب أمير الحاج لعدة سنوات قبل منصور بن فريخ[١] ، وسبق أن اشتكى للدولة من ازدياد سلطة منصور • وأخيراً تمكن والي الشام من قتل منصور ابن فريخ في ١٣ ربيع الاول ٧/١٠٠٢ كانون الاول ١٥٩٣ ، واشترك الامير فخر الدين المعني بقواته مع والي الشام في تتبع بقية أفراد أسرة منصور ، وقضي على مقاومتهم في العام التالي[٢] •

استفاد فخر الدين المعني من القضاء على آل فريخ فمد سلطته على البقاع حتى صفد ، وكان العثمانيون راضين عنه بسبب طاعته وتأديته مال الميري • وقد استفاد فخر الدين اقتصادياً من سيطرته على البقاع الغني ، كما زاد ذلك من نفوذه في جبل لبنان فخضع له آل الحرفوش ، الامراء المحليون في منطقة بعلبك ، والشهابيون أمراء وادي التيم ، وتحمل فخر الدين مسؤولية الدفاع عن هاتين الاسرتين تجاه ولاة الشام[٣] • ولكن زوال آل فريخ الذين كانوا يشكلون قوة عازلة بين ولاة الشام وفخر الدين ، وامتداد نفوذ هذا الاخير على البقاع ،الخاضع مباشرة لهؤلاء الولاة، زاد من الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين ، لاسيما وأن المنطقة التي أصبح يسيطر عليها فخر الدين كانت تمر فيها الطرق التجارية التي تربط بين دمشق والساحل وبين دمشق وفلسطين ،وتتحكم في سلامة قافلة الحاج • وبدأت بذلك المشاحنات بين فخر الدين وبين ولاة الشام • ولمواجهة خطر الولاة أقام فخر الدين عيوناً ، أي وكلاء ، له في استانبول لرعاية مصالحه فيها • كما أنه جند ،

---

١ ـ انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ ـ ٢٠٢ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٨٦ ؛ انظر ص ١٥٧ •

٢ ـ انظر حول هذه الاحداث : شرف الدين موسى ، ٣٣٧ ب ـ ٣٣٨ آ ، ٣٩٠ ب ـ ٣٩١ آ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ ، ٢١١ آ ، ٢١٢ آ ـ ٢١٢ ب ؛ المحبي ، ج ٤ ، ٤٢٦ـ٤٢٨؛ كرد علي ، ج ٢ ، ٢٤١ •

٣ ـ انظر : شدياق ، ج ١ ، ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ المعلوف ، تاريخ فخر الدين ، ٦٦ •

بالاضافة الى أتباعه من الدروز والقيسية ، جيشاً خاصاً سمي أفراده بالسكبان[١] • وحصن القلاع في منطقته وقام باتصالات مع آل مديتشي ، حكام توسكانيافي ايطاليا ، للحصول على المساعدة العسكرية والفنية ولتنشيط تجارة بلاده معهم وخاصة تجارة الحرير التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف[٢] • وكان فخر الدين يتمتع بتأييد كيوان ، أحد كبار الانكشارية في دمشق ، والذي كان فيما سبق من مماليك الامير رضوان حاكم غزة[٣] •

وقد استفاد من انشغال فخر الدين بتقوية نفسه ، لمواجهة ولاة الشام وأعدائه آل سيفا في لبنان ، عدد من الامراء المحليين في فلسطين فتنفسوا الصعداء اثر القضاء على آل فريخ الذين وسعوا نفوذهم على حسابهم • وأشهر هؤلاء الامراء أحمد بن رضوان حاكم غزة الذي توفي سنة ١٠١٥/١٦٠٦ ـ ١٦٠٧[٤] ، وأحمد بن قانصوه أمير بلاد عجلون والكرك[٥] ، وطراباي حاكم اللجون الذي خلفه بعد وفاته في ١٠١٠/١٦٠١ ـ ١٦٠٢ ابنه أحمد ، وكانت حيفا تابعة له أيضاً[٦] ، والامير فروخ بن عبد الله حاكم نابلس والقدس والذي كان بالاصل من مماليك الامير بهرام شقيق الامير رضوان حاكم غزة سابقاً[٧] • وكانت امارة الحاج الشامي تنتقل من أمير الى آخر من هؤلاء الامراء المحليين حسب قوتهم ورضى الدولة عنهم • وتعرض هؤلاء الامراء لضغط فخر الدين وقتاله لهم نظراً لازدياد قوته ونفوذه • وكان ضغطه يخف عنهم حين ينشغل بالقتال مع الولاة العثمانيين ، كما

---

١ ـ انظر ص ٧٦ •

٢ ـ انظر :

Adel Ismail, Histoire du Liban du XVIIe Siècle à Nos Jours, Vol. I : Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1623), Paris, 1955, pp. 77-78.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Ismail

٣ ـ المحبي ، ج ٣ ، ٢٩٩ ـ ٣٠٢ ؛ انظر ص ١٨٩ •

٤ ـ المحبي ، ج ١ ، ١٨٧ ـ ١٨٩ ، ج ٣ ، ٢٩٩ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٩١ ـ ١٩٢ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ •

٥ انظر ص ١٦٣ •

٦ ـ المحبي ، ج ١ ، ٢٢١ ؛ البوريني ج ٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ •

٧ ـ المحبي ، ج ٣ ، ٢٧١ ، انظر أيضا ج ٢ ، ٤١٧ ؛ البوريني ، ج ١ ، ٢٠٢ ، ج ٢ ، ٢٨٩ ؛ انظر ص ١٦٤ •

حدث مثلاً حين تحالف في أوائل القرن السابع عشر مع علي باشا جانبلاط الذي ثار في ولاية حلب •

ظهرت في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر عدة اضطرابات أثارها متمردون محليون شمالي حلب • وليس حدوث هذه الاضطرابات في هـذه المنطقة والفترة بالذات بالأمر الغريب • فقد كانت تسكن منطقة الحدود بين سورية والاناضول أقوام وأقليات مختلفة يعود أصل بعضها الى الفترة حين كانت هذه المنطقة تعج بالثغور • وقد ساعدت جغرافية المنطقة الجبلية على حماية هذه الاقوام وتشجيع غيرها على اللجوء اليها ، وكانت أقوام هذه المنطقة تستغل فرصة ضعف السلطة المركزية ، التي تشرف عليها ، لتثور • وكثيراً ما وجد فيها المغامرون الطامعون بالسلطة مرتعاً خصباً لاعـلان عصيانهم • وكانت الدولـة العثمانية تعاني ضعفاً في سلطتها في هذه الفترة بسبب انشغالها ، من ناحيـة ، في حرب خاسرة في الجبهتين الصفوية والاوربية[1] ، وقـد استغل الثائرون هذا الوضع • وتجلى ضعف الدولة بازدياد نفوذ انكشارية دمشق في ولاية حلب بالذات ، وبثورة العساكر في ولاية مصر في الفترة نفسها[2] • وكما أن جغرافيـة المنطقـة شجعت قيـام الثائرين فانها ، من جهـة أخرى ، سـاعدت في القضاء عليهم ، ذلـك أن وقوع منطقة حلب عـلى الطريق الرئيسية التي سلكتها الجيوش العثمانية الى الجبهة الفارسـية جعلها في متناول السـلطة العثمانية ، مما ساعد في القضاء على الثائرين ، ولهذا كان عهدهم قصيراً •

واشتهر بين الثائرين في هذه الفترة حسين باشا الذي ثار على الدولة في بلاد كرمان وكان سابقاً والياً على الحبش ، وعبد الحليم اليازجي الذي اعتمد على جيش من السكبان وتحصن في قلعة الرها ، وأخوه حسن • وكانت تستخدم عساكر حلب ودمشق في قتال هؤلاء الثائرين الذين كثيراً ما كانوا يتحالفون لمقاومة الحملات العثمانية ضدهم[3] • وكان هذا من

---

١ ـ انظر : Creasy, 232 - 239

٢ ـ انظر الفصل التاسع •

٣ ـ انظر حول ذلك ؛ المحبي ، جـ ١ ، ٢٨٦ ، جـ ٢ ، ٤٣ ، ٣٢٢ ـ ٣٢٤ ؛ البوريني ، جـ١ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٨ ، جـ ٢ ، ١٤٥ ـ ١٦١ ، ٢٥٩ ـ ٢٧٠ •

الاسباب التي جعلت عساكر دمشق تمد نفوذها الى ولاية حلب •

وظهر في مطلع القرن السادس عشر في منطقة حلب أفراد ثائرون من أسرة جانبلاط • وكانت هذه الاسرة كردية الاصل تنتسب الى جان بولاد (وتعني النفس الفولاذية) ، الذي حوّر اسمه الى جانبلاط • وقد اشتهر من هذه الاسرة حسين باشا بن جانبلاط [1] الذي عين في أول أمره حاكماً على كلس • وفي سنة ١٥٩٩ ، حين كان محمد باشا ، ابن الوزير المشهور سنان باشا ، يقاتل حسين باشا ، والي الحبش سابقاً ، في منطقة حلب ، استنجد بحاكم كلس حسين باشا جانبلاط • وحين ازداد ، في هذه الاثناء ، تمرد العساكر الدمشقيين في ولاية حلب استنجد واليها نصوح باشا في سنة ١٦٠٠ بحسين باشا جانبلاط لطردهم ، فأنجده بابن أخيه علي باشا جانبلاط الذي فتك بهم بشدة • ومن هنا أصل العداء بين آل جانبلاط وعساكر دمشق • وقد حاول نصوح باشا بعد ذلك ، أن يتخلص من جاره وحليفه حسين باشا جانبلاط الذي كان نفوذه يتزايد باضطراد ، فعلم هذا بما كان يدبر له ونهض لقتال نصوح باشا فحاصره في حلب وأخرجه منها بالقوة • وفي سنة ١٦٠١ عين حسين باشا جانبلاط والياً على حلب • وكان يعتمد في توطيد سلطته على جنده من السكبان ، وعلى دعم بعض أصحاب النفوذ في استانبول مثل سنان باشا الذي أرسله السلطان لقتال قوات الشاه عباس الاول الصفوي • ولكن العلاقات ساءت الآن بين سنان باشا وحسين باشا بسبب تقاعس هذا الاخير عن نصرة الاول أثناء قتاله مع الصفويين فهزم سنان باشا في ٢٦ جمادى الثاني ١٠١٤/٨ تشرين الثاني ١٦٠٥ ، وحين عاد من حملته الفاشلة قتل حسين باشا جانبلاط في أواخر ١٦٠٥ [2] •

وثار علي بن أحمد بن جانبلاط لمقتل عمه ، وأخذ ولاية حلب عنوة ، وجمع جيشاً كبيراً من السكبان ، وامتنع عن دفع أموال الميري • وقد تطوّع يوسف باشا سيفا ، حاكم عكّار وبلاد طرابلس ،

---

١ ـ انظر ترجمته في المحبي ، ج ٢ ، ٨٤ ـ ٨٧ •

٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ، ٨٦ ـ ٨٧ ، ج ٣ ، ١٨٦ ؛ شدياق ، ج ١ ، ١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ طباخ ، ج ٣ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٩ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٢٧١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٩٥ب •

لدى السلطان العثماني أحمد الاول لقتال علي باشا جانبلاط •
وكان يوسف باشا سيفا يحاول في تلك الاثناء ، بعد قضائه على آل عساف واتساع نفوذه ، أن يوطد سلطته بموافقة السلطان ، لاسيما وأن فخر الدين المعني الثاني ، منافسه في جبل لبنان ، كان هو الآخر يزداد نفوذاً • وقد عين السلطان العثماني يوسف باشا سيفا أميراً على عساكر الشام ، فبدأ يجمع قواته في حماة حيث تحارب مع علي باشا جانبلاط وذلك في ١٦ ربيع الاول ١٠١٥/٢٤ تموز ١٦٠٦ • وقد هزم يوسف باشا وفر بحراً الى حيفا التي كان يحكمها الامير أحمد طراباي ،وتحصن مملوكه يوسف في قلعة طرابلس وعمه محمود في حصن الاكراد • وازداد نفوذ علي باشا اثر ذلك فأرسل الى الامير فخر الدين المعني يطلب التحالف معه ، وتم ذلك بوساطة كيوان أحد كبار انكشارية دمشق وصديق فخر الدين • واجتمع الحليفان عند نبع العاصي ثم سارا لاحتلال طرابلس ومحاصرة دمشق التي لجأ اليها يوسف باشا سيفا الذي كان يجمع القوات العثمانية من جديد • واحتلت قوات علي باشا مدينة طرابلس باستثناء القلعة ثم توجه الحليفان نحو البقاع فمرا ببعلبك ونصبا عليها يونس الحرفوش الذي عارضا به الفرع الحرفوشي الآخر الذي يتزعمه موسى الحرفوش المؤيد ليوسف باشا سيفا •
وكان يؤيد الامير فخر الدين وعلي باشا أحمد شهاب حاكم وادي التيم •
وقد وصلت قواتهم الى منطقة العراد قرب دمشق فخرجت العساكر الشامية لقتالهم، وتخلف ابن سيفا متظاهراً بمرضه • ودبت الخيانة في صفوف العساكر الشامية فهزموا في القتال الذي جرى في العراد في ٢٧ جمادى الاول ١٠١٥/٣٠ ايلول ١٦٠٦ ، وهرب بعضهم الى قلعة المزيريب ، ولجأ آخرون الى دمشق • وقد اعتصم أهل دمشق ضمن أسوار المدينة ، وتقدم علي باشا وفخر الدين بقواتهما فأقاما بالمزة ووقع النهب من قبل عساكرهما في أطراف دمشق ، وأصاب ذلك خاصة مناطق الصالحية وقبر عاتكة والشويكة وباب مصلى والقبيبات • وكان يوسف سيفا قد هرب من دمشق ولم يمكنه أهلها من ذلك الا بعد أن دفع لهم مئة الف قرش • ثم خرج بعض أعيان دمشق للتفاوض مع علي باشا وفخر الدين وذكروا لهما هرب يوسف باشا

وبرفقته موسى بن الحرفوش وانهما قصدا حصن الاكراد حيث الامير محمود بن سيفا • وقد ذكر علي باشا ، أثناء المفاوضة ، انه لولا لجوء عدوه يوسف باشا سيفا الى دمشق لما قصد اليها • وبالفعل ارتد عنها[١] حين علم بهربه وبعد أن دفع له الدمشقيون المئة الف قرش التي أخذوها من ابن سيفا • وبموجب هذه المصالحة تقرر اعطاء عشرين الف قرش الى فخر الدين اقتطع منها مبلغ اثني عشر الف قرش لقاء ما تأخر عليه من مال الميري في منطقة بعلبك ودفع اليه ثمانية آلاف قرش أخذت ، كما يقول نجم الدين الغزي[٢] ، من مال كان مودعاً في قلعة دمشق لبعض الناس • ثم افترق الحليفان اثر هذا الانسحاب فتوجه فخر الدين الى بلاده وسار علي باشا لحصار حصن الاكراد • وأخيراً تم الصلح بينه وبين يوسف باشا سيفا ، وتصاهرت الاسرتان ، وعاد علي باشا الى حلب[٣] •

نتساءل هنا لماذا تراجع علي باشا عن احتلال دمشق بعد أن هزم قواتها وأقام في أطرافها ، في المزة ، وعاثت عساكره في ضواحيها ؟ لاشك أن تفسير ارتداده عنها بخروج عدوه ابن سيفا منها لاينفذ الى الاسباب العميقة الكامنة وراء ذلك • فلم تكن دمشق آنذاك لتثبت أمام قوته وقوة حلفائه ، وبشهادة المؤرخ المعاصر البوريني « لو أرادها (أي دمشق) لاوصل نفسه مرادها ، لانها ما كانت تحمل الحصار يوماً واحداً لقلة ما فيها من زاد»[٤] • ان عدم احتلال دمشق من قبل علي باشا ، وهو صاحب الكلمة العليا بين

---

١ ـ يذكر ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٢٨ ان محمد (كذا !) باشا ابن جنبلاط تولى دمشق سنة ١٠١٤ واستقام بها في سنة ١٠١٥ • وهذا غير صحيح لأن المؤرخ المعاصر البوريني، الذي نقل عنه المحبي وغيره ، لايذكر ذلك • ولايؤيد قول ابن جمعة هذا أي مصدر متوفر آخر •

٢ ـ انظر : لطف السمر ، ١٨٢ ب •

٣ ـ انظر حول هذه الاحداث : البوريني ، ج ٢ ٢٧١ ـ ٢٨١ ؛ مخطوط فيينا للبوريني ، ١٤٩ ب ـ ١٥٢ آ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٢٨٧ ، ج ٣ ، ١٣٥ ـ ١٣٨ ، ٣٠١ ـ ٣٠٢ ؛ الغزي لطف السمر ، ١٧٣ آ ، ١٨٢ آ ـ ١٨٣ آ ، ١٨٧ ب ، ٢١٢ ب ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢٣٠ ـ ٢٣٦ ؛ شدياق ، ج ١ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ ؛ المعلوف ، تاريخ فخر الدين ، ٨٠ ـ ٨٥؛ أحمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ١٩٣٦ ، ص ٥ـ٦ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الصفدي•

٤ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢٨١ •

حلفائه ، يعتبر نقطة تحول في موقفه السياسي • لا شك أن فتح دمشق ستكون له مضاعفات هامة في الدولة العثمانية وسيثير السلطان نظراً لما تتمتع به دمشق من أهمية دينية ، لكونها مركز تجمع الحجاج ، وأهمية تاريخية• كما أن احتلال علي باشا لدمشق سيبعده عن مركز قوته في منطقة كلس ـ اعزاز ـ حلب • وفي الحقيقة فان علي باشا عرض الصلح مرتين على سلطات دمشق : الاولى حين كان في أطراف حمص بعد هزيمته لابن سيفا في حماة ، وقد توسط في أمر الصلح الامير موسى الحرفوش ، أمير بعلبك ، وعرض شروط علي باشا على والي دمشق وتتلخص باعطاء حوران للشيخ عمر شيخ بدو المفارجة ، واعطاء البقاع لابن الفريخ منصور بن بكري[1]، وارجاع كيوان ، كبير الانكشارية الى دمشق[2] • وقد رفضت هذه الشروط، ولا ندري هل كان تحقيقها سيخدم مصلحة علي باشا أو مصلحة حليفه فخر الدين • والثانية حين عرض الصلح على عساكر دمشق قبل اصطدامه بهم في أرض العراد ، ولكن بعض الغلاة منهم اضطروه للقتال[3] • ومن الاسباب الاخرى التي يبدو أنها استمالت علي باشا للانسحاب تشكل غالبية قواته من السكبان المرتزقة الذين كان هدفهم الرئيسي النهب والسلب • واذا كانوا يصلحون للغزو ، الذي يتفق مع أهدافهم ، فلن يفيدوا كثيراً في تدعيم حكم علي باشا في مدينة كدمشق التي روع سكانها من تعدياتهم في أطرافها • ويبدو أيضا أن علي باشا لم يعد متحمساً لتحالفه مع فخر الدين بدليل انهما افترقا في البقاع بعد ارتدادهما عن دمشق • وربما أن فخر الدين ، وهو صاحب امارة متوارثة ، قد خشي من تمادي علي باشا في مقاومة قوات السلطان وأراد تحاشي تهمة الثورة معه ؟ وربما أن فخر الدين قد خشي ازدياد قوة علي باشا ، في منطقة قريبة منه ، واعتبر ذلك تهديداً له ، لاسيما انه اذا نجح علي باشا في تسلم حكم ولاية الشام فسيكون فخر الدين تابعاً له بصفته أمير الشوف والبقاع وبلاد صفد التي

---

١ ـ يبدو أنه من سلالة الامير منصور ابن فريخ الذي قتل في سنة ١٠٠٢ ، انظر ص ١٩٨ •
٢ ـ انظر : البوريني ، مخطوط فيينا ، ١٥٠ ب ـ ١٥١ آ •
٣ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢٧٥ ؛ المحبي ، ج ٣ ، ١٣٦ •

كانت تتبع ولاة الشام • ولعل أهم سبب جعل علي باشا يقرر الانسحاب هو عدم رغبته الاشتراك في مغامرات بعيدة عن مركز قوته ، في منطقة حلب، الذي كان مهدداً آنذاك بقوات السلطان • وربما يفسر هذا الامر تصالحه فيما بعد مع يوسف باشا سيفا ومصاهرته معه لحماية حدوده من الجنوب• وقد زاد هذا الاتفاق من نفوذ يوسف باشا لانه يعتبر تحولا في سياسة علي باشا تجاه فخر الدين المعني • وتقاسم النفوذ في بلاد الشام كل من علي باشا الذي عاد الى حكم حلب وامتدت سلطته حتى حمص ، ويوسف باشا الذي امتدت سلطته على حمص والمنطقة في جنوبها وغربها ، ولكنه كان عملياً تحت نفوذ علي باشا • ودام الامر كذلك مدة سنتين الى أن فرغت الدولة العثمانية من حروبها في المجر ووقعت مع النمسا معاهدة صلح في سيتفاتوروك (Sitvatorok) في ١١ تشرين الثاني ١٦٠٦[١] ، فجهزت جيشاً بقيادة الصدر الاعظم مراد باشا للقضاء على علي باشا جانبلاط وعلى ثائرين آخرين أقل شأناً في منطقة حلب ـ سيواس • وبعد أن تغلبت القوات العثمانية على الثائرين الصغار اصطدمت بقوات علي باشا في ٢٧ جمادى الثاني ١٠١٦/١٩ تشرين الاول ١٦٠٧ في منطقة مرعش فهزم علي باشا رغم النجدات من السكبان التي أخذها من ابن سيفا وفخر الدين• وقد تفوق مراد باشا لاستخدامه المدافع واحكامه الخطط الحربية • وتمكن علي باشا من الفرار ودخل مراد باشا حلب • وقد قضى والي الشام سليمان باشا (ويلقب كجك سليمان) على قوات هؤلاء الثائرين من السكبان الذين هربوا باتجاه الشام وروعوا سكانها •

أدت هزيمة علي باشا الى اضطراب ميزان القوى في بلاد الشام • فقد هب عساكر دمشق لنجدة مراد باشا ، بينما تباطأ فخر الدين ويوسف باشا سيفا في تلبية مساعدته • وحين تيقنا من هزيمة علي باشا قدما الى مراد باشا المساعدة والهدايا • واكتفى أحمد بن قانصوه حاكم عجلون والكرك ، وأحمد بن طراباي حاكم اللجون ، وفريدون بك حاكم نابلس وأمير الحاج آنذاك ، وفروخ حاكم القدس ،وابراهيم بن طالو حاكم تدمر بتقديم

١ ـ انظر : Creasy, 239

الاعذار أو الهدايا للتهرب من ارسال نجدات عسكرية الى مراد باشا • وقد حاول علي باشا جانبلاط الانضمام الى بعض الثائرين في الاناضول ولكنه لم يوفق فذهب الى استانبول حيث قبل السلطان طاعته ، وعينه حاكماً في روميلية ، ثم قتل بأمر السلطان في حوالي ١٠٢٠/١٦١١/١٦١٢[١] • وقد زال نفوذ الاسرة الجنبلاطية في منطقة حلب اثر ذلك ، ولجأ بعض أفرادها في ١٦٣٠ الى حكام الشوف المعنيين ، نظراً لما كان بين الاسرتين من الصداقة القديمة ، ودخلوا في خدمتهم[٢] • وبعد قرن من ذلك لمع اسم الجنبلاطيين في بلاد الشوف واستفادوا من ضعف الامراء الشهابيين حكام جبل لبنان بعد المعنيين •

وبعد القضاء على الثائرين وزعيمهم علي باشا جانبلاط في منطقة حلب انتقل مركز ثقل الاحداث الى بلاد الشام حيث الثائر الآخر الامير فخرالدين المعني الثاني • ويختلف فخر الدين عن علي باشا والثائرين الآخرين في الشمال بأنه ينتسب الى أسرة أمراء في جبل لبنان اعترف العثمانيون بسلطتهم وبوضعهم الخاص ضمن الامبراطورية ، كما أن بعد منطقة فخر الدين ، وانعزالها نسبياً ، وطبيعة أرضها ، بالاضافة الى تاريخها ساعدت على استمرار الامراء المحليين فيها • أما منطقة حلب التي ثار فيها علي باشا جانبلاط والتي كانت من ناحية تعدد الاقوام فيها ومن ناحية جغرافيتها تشجع ظهور الثائرين في فترة ضعف الدولة أو انشغالها ، فان وقوعها علـى مقربة من مركز السلطنة العثمانية وعلى الطريق الرئيسية المؤدية الى الجبهة الشرقية والتي كثر اجتياز الجيوش العثمانية لها لقتال الصفويين وخلفائهم الافغانيين كان سبباً هاماً في القضاء على الثائرين • ولم تكن الدولة العثمانية لتتسامح مع الثائرين في منطقة حلب خوفاً من اضعاف جبهتها ضد الصفويين ولكي لاتترك مجالا لهؤلاء لاستغلال الوضع وتأييد الثائرين •

---

١ ـ انظر : المحبي ، ج ١ ، ٢٨٧ ، ج ٢ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ج ٣ ، ١٣٨ ـ ١٤٠ ، ج ٤ ، ٣٥٧ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٢٣١ ـ ٢٣٤ ، ٢٨٢ ـ ٢٩٦ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٧٤ آ ، ٢٠٠ ب ، ٢٠٧ آ ، ٢١١ آ ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢٣٦ ـ ٢٣٩ •

٢ ـ شدياق ، ج ١ ، ١٥٠ ـ ١٥١ •

وتحولت الدولة العثمانية بعد صلحها مع النمسا في ١٦٠٦ والقضاء على قوات علي باشا جانبلاط في ١٦٠٧ الى مقاومة فخر الدين المعني الذي كان قد مد سلطته على البقاع وصفد وبيروت وصيدا وتحالف مع علي باشا. فكلفت ولاة دمشق بالتصدي له خوفاً من ازدياد سلطته وتهديده لطريق الحاج وطريق التجارة مع مصر وطعنه العثمانيين من الخلف وهم منشغلون في حربهم مع الصفويين . وقد حدث في هذه الاثناء أن عين لولاية الشام في سنة ١٦٠٩ أحمد باشا الحافظ وبقي يحكمها حتى ١٦١٤ ، وجعل همه مقاومة فخر الدين الذي شكل ، بازدياد نفوذه ، خطراً على سلطته .وقد بدأ باثارة الامراء المحليين المعادين لفخر الدين ضـده فشجع بني سيفا حكام طرابلس ، وأثار الاضطرابات على فخر الدين في منطقة البقاع ـ عجلون الخاضعة لسيطرته ونفوذه . وحاول أحمد باشا الحافظ القضاء على الامير يونس الحرفوش حاكم بعلبك والامير أحمد شهاب حاكم وادي التيم ، وهما من حلفاء فخر الدين ، الا أن ارسال فخر الدين النجدة لهما أرهب أحمد باشا . وفي سنة ١٦١١ عين نصوح باشا ، وهو عدو لفخر الدين ، صدراً أعظم في استانبول فحاول الحد من نفوذ فخر الدين ، ودعم أحمد باشا الحافظ في محاولته تحقيق ذلك . وأخذ أحمد باشا في سنة ١٦١٢ يثير المشاكل على فخر الدين ،فطرد الامير حمدان بن أحمد بن قانصوه ،حاكم عجلون والكرك المؤيد لفخر الدين وأقام مكانه الامير فروخ بن عبد الله الذي عين بالاضافة الى ذلك حاكماً على نابلس وأميراً للحاج الشامي . كما انه طرد الشيخ عمر ، شيخ عرب المفارجة من بلاد حوران ، وأقام الشيخ رشيد ، شيخ عرب السردية[1] ، مكانه على حوران . وقـد لجأ الامراء المطرودون الى فخر الدين يطلبون مساعدته فأرسل معهم جنداً بقيادة ابنه الامير علي فطردوا الامير فروخ وعرب السردية ، واستعادوا مناطقهم في سنة

---

١ ـ كانت منازل بدو السردية تمتد في أوائل القرن السابع عشر من البلقاء الى العلا ، انظر : البوريني ، مخطوط فيينا ، ١٠١ ب (هذه المعلومات عن السردية محذوفة ، مع ترجمة صالح الصفدي التي ترد فيها ، من كتاب البوريني ، الجزء الثاني ، الذي نشره المنجد ، انظر : البوريني ، ج ٢ ، ٢٥٦) .

١٦١٣ • واشتكى أحمد باشا الحافظ الى استانبول من عمل فخر الدين فأرسلت اليه الاوامر بالزحف عليه • وانضم الى أحمد باشا كل من الامير فروخ ، وأحمد بك طراباي حاكم منطقة اللجون وحسين بن يوسف باشا سيفا ، وأنجده السلطان بقوات من حلب والاناضول • وحين رأى فخر الدين قوة والي الشام ، وشدة حصاره لقلعة شقيف التي حصنها فخر الدين ، وارساله قوات أخرى ضد الشوف خشي القضاء على امارته من أساسها فهرب في ايلول ١٦١٣ الى ايطاليا وبقي مدة خمس سنوات عند أصدقائه آل مديتشي حكام توسكانيا الذين كانت تربطهم بفخر الدين معاهدات تجارية • وخلفه ابنه علي في امارة الشوف ، وكان يساعده عمه الامير يونس المعني • وقد عاد أحمد باشا الحافظ مع قواته الى دمشق بعد أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين ،وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال[١] •

ولم ينقطع العثمانيون عن محاولاتهم لاضعاف قوة المعنيين بعد هرب فخر الدين • وكان هدفهم هدم قلعتي شقيف وبانياس اللتين تحصنت فيهما قوات المعنيين والسكبان المستخدمين لديهم • واذا تحقق ذلك فمن شأنه أن يقضي على مراكز المقاومة والحصار المعنية • وقد حضرت الى دمشق قوة عثمانية بقيادة مؤمن باشا حاكم قونية ، وذلك في ١٥ رجب ١٠٢٣/٢١ آب ١٦١٤ ، لمساعدة أحمد باشا الحافظ في احتلال القلعتين والقضاء على المعنيين بعد أن أشيع أن فخر الدين قد عاد من ايطاليا • وقامت القوات العثمانية بحملة على بلاد الشوف أحرقت خلالها كثيراً من القرى ، وكان حسين باشا بن يوسف باشا سيفا يساعد العثمانيين في قتال المعنيين • وقد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام في ١٦١٤ قبل أن يتم له تحقيق هدفه في احتلال قلعتي شقيف وبانياس • وتعايش ولاة الشام من بعده مع ابن فخر الدين الذي قبل بدفع مال الميري لهم[٢] • وقد صدرت أوامر من استانبول في

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : البوريني ، ج ١ ، ٢٠١ ـ ٢١٠ ؛ المعلوف ، تاريخ فخرالدين، ٩٠ ـ ١١٠ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٢ ، ج ٣ ، ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ؛ شدياق ، ج ١ ، ٢٩٤ ـ ٣٠٧ ؛ الصفدي ، ٦ ـ ٢٥ ، ٢٠٨ ـ ٢٤١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ب•

٢ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢١١ ـ ٢١٣ ؛ معلوف ، تاريخ فخر الدين ، ١٦٦ ـ ١٧٦ ؛ شدياق، ج ١ ، ٣٠٧ ـ ٣١٨ ؛ الصفدي ، ٢٥ ـ ٣١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ ب •

١٦١٤ بانشاء ولاية في صيدا تتألف من صنجقي صفد وصيدا مع بيروت لاحكام الطوق على المعنيين ، ولكن ليس هناك من دليل على ايجاد هـذه الولاية بالفعل في ١٦١٤ أو على استمرارها في السنوات التالية . ولاتظهر ولاية صيدا بشكل ثابت حتى سنة ١٦٦٠[١]

خف العداء في استانبول ضد فخر الدين ، أثناء غيابه في ايطاليا ، وذلك بعد عزل نصوح باشا عن الصدارة العظمى ، وبسبب انشغال الدولة العثمانية بالقتال مع الصفويين . وبوساطة كيوان الانكشاري والامير يونس الحرفوش ، أمير البقاع ، لدى السلطات العثمانية عاد فخر الدين الى جبل لبنان في سنة ١٦١٨ . وبدأ اثر ذلك بتوطيد سلطته من جديد . فاهتم بتطوير اقتصاديات بلاده ، وخاصة الزراعة ، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا ، الخاضعتين له ، لتمويل جيشـه . وكان الفرنسيون يتمتعون بامتيازات (Capitulations) ، شملت العلاقات التجارية ، في الدولة العثمانية منذ ١٥٣٦ ؛ وحصل الهولنديون على امتيازات مشابهة من الدولة العثمانية في ١٦١٢ . وقد سمح فخر الدين للفرنسيين وللبنادقة ، الذين كانوا يتاجرون تحت علم فرانسا ، بافتتاح مراكز تجارية وقنصليات في صيدا . أما الانكليز فقد انحصر اهتمامهم في هذه الفترة بالتجارة في منطقة حلب ، واستخدموا ميناء الاسكندرونة لنقل بضائعهم ؛ وكانوا يستوردون الحرير من بلاد فارس ويصدرون اليهـا ، والى سـورية ، المنسوجات الانكليزية . وقد أسسوا في ١٥٨١ شركة بلاد المشرق (Levant Company) التي تركز نشاطها في بلاد الشام الشمالية[٢] .

وبدأ فخر الدين من جديد يمد نفوذه على المناطق المجاورة للشوف

---

١ ـ انظر مناقشة ذلك في كتابنا : The Province of Damascus, pp. 2 - 3

٢ ـ انظر :

Ibid. , p. 75 ; Alfred C. Wood, A History of the Levant Company, London, 1935, p. 11.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Wood

انظر أيضا :

P. Masson, Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII^e Siècle, Paris, 1896, pp. 371 - 396.

فاصطدم بيوسف باشا سيفا ، والي طرابلس ، الذي قبل ، أخيراً ،الخضوع لسلطة فخر الدين وتقديم المال اليه ، وبذلك مد فخر الدين نفوذه شمالا حتى حدود انطاكية • وتوسع فخر الدين أيضاً في جنوبي الشوف وشرقه ، وفرض سلطته من جديد على مناطق صفد ونابلس وعجلون • ولكنه اصطدم الآن بأمير البقاع ، يونس الحرفوش ، الذي خشي توسعه بعد أن كان حليفاً له ؛ فهزمه فخر الدين في معركة جرت في البقاع في سنة ١٦٢٢ ، واستولى ، اثر ذلك ، على مركز قب الياس الستراتيجي الذي يسيطر على طريق دمشق ـ بيروت • وقد أثار يونس الحرفوش والي الشام ، مصطفى باشا ، ضد فخر الدين فشنا حملة عليه ، ولكنهما هزما في موقعة عنجر في ١٦٢٣ ، وأسر فخر الدين مصطفى باشا ثم أطلق سراحه ، وبذلك بلغ نفوذه الذروة • واصطدم فخر الدين ، أثناء توسعه في فلسطين ، بآل طراباي ، حكام منطقة اللجون ، فتغلب عليهم ؛ كما خضع لنفوذه آل فروخ • وأعطى الامير فخر الدين حكم صنجق صفد لابنه علي ، وصنجق عجلون لابنه حسن ، وصنجق نابلس لابنه مصطفى[1]•

وبعد أن وطد فخر الدين سلطته في هذه المنطقة الواسعة وجد العثمانيون انه يصعب عليهم اخضاعه بسبب انشغالهم ، آنداك ، في قتال الصفويين • ولذلك اعترف السلطان مراد الرابع سلطة فخر الدين ومنحه في ١٦٢٤ فرماناً ولاه بموجبه على بلاد عربستان من حدود حلب الى حدود العريش ، شريطة أن يقدم فخر الدين مال الميري لخزينة الدولة ، وأن يحافظ على الامن في منطقته • ويقصد بمنطقة عربستان هنا ، كما يرجح ، المناطق الواقعة خارج المدن ، التي كان يقطنها العرب أي البدو في مفهوم ذلك الزمن • ورغم ما عرف عن السلطان مراد الرابع من القوة والبأس فقد اضطر ، في أول عهده ، لهذه المصالحة مع فخر الدين ليتفرغ لقتال الصفويين •

---

١ ـ شدياق ، ج ١ ، ٣١٨ ـ ٣٧٢ ؛ المعلوف ، تاريخ فخر الدين ، ١٦٨ ـ ١٨٨ ؛ الصفدي، ٦٩ ـ ٢٠٦ ؛ المحبي ، ج ٣ ، ٢٦٧ ، ج ٤ ، ٢٩٥ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٠ ب ، ٢٠٦ ب •

وبدأ فخر الدين يعزز الدفاع عن بلاده ، فبنى حصناً في المنطقة بين حلب وانطاكية ، وحصناً آخر في قب الياس في البقاع ، وآخر في بانياس في الجنوب ، وله حصن في تدمر لايزال يعرف باسمه . وكان هدفه من ذلك حماية منطقته من تحول العثمانيين ضده . وقد ازدادت ثقة فخر الدين بقوته فاتخذ لنفسه لقب سلطان البر . وعارض في ١٠٤١/١٦٣١ ـ ١٦٣٢ اقامة الجنود السباهية العثمانيين في المناطق الخاضعة لنفوذه ، وكانوا آنذاك يقضون فصل الشتاء في بلاد الشام موزعين على مناطقها بناء على أوامر السلطان مراد الرابع . ويبدو أن السلطان قد خشي ، في الوقت الذي كان منشغلا فيه بقتال الصفويين[١] ، ان يتشجع فخر الدين على الثورة بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والتحدي . ولهذا عين أحد الوزراء المشهورين ويسمى أحمد باشا (المعروف بلقب كجك أحمد) ، على ولاية الشام ، وأمره بقتال فخر الدين ، ووضع تحت تصرفه قوات كثيرة ، من جملتها قوات من مصر[٢] ؛ كما حاصر الاسطول العثماني فخر الدين من البحر . وكان فخر الدين قد عطل الموانيء في المدة الاخيرة لكي يمنع وصول الاسطول العثماني اليها ، وبقيت معطلة فيما بعد حتى أواخر القرن السابع عشر[٣] .

انتصر كجك أحمد باشا على الامير علي بن فخر الدين في البقاع في سنة ١٦٣٤ وفتك بغالبية قواته ، وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لفخر الدين

---

١ ـ انظر : المحبي ، ج ٤ ، ٣٣٦ ٣٣٩ .

٢ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٤٨ ب .

٣ ـ انظر :

(Abbé) Giovanni Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine, translated from Italian, 3 Vols. , London, 1791 - 2, see Vol. II, pp. 87 - 88 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Mariti :

انظر أيضا :

C. F. Chasseboeuf, Comte de Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, ed. Jean Gaulmier, Paris, The Hague, 1959, p. 298 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Volney

الذي ارتكب خطأ توزيع القسم الاكبر من قواته على القلاع المبعثرة التي أخذت الآن تنهار الواحدة بعد الاخرى • وحوصر فخر الدين في قلعة جزين ، وعندما رأى عقم المقاومة استسلم الى كجك أحمد باشا فاقتيد الى دمشق وأرسل منها الى استانبول حيث قتل في ١٦٣٥[١] •

لم تكن نهاية فخر الدين نهايـة حكم المعنيين في جبل لبنان اذ بقي هؤلاء يحكمون حتى ١٦٩٧ • ولكن مما لا شك فيه أن القضاء على فخر الدين قد أضعف أسرته كثيراً ، وأضعف بالتالي امارة جبل لبنان • وأهم مايذكر عن حكم فخر الدين استغلاله ثروات بلاده في سبيل اقامة جيش قوي وامارة موطدة ، وتسامحه تجاه المذاهب المختلفة ، وخاصة الموارنـة الذين لجأ اليهم اثر وفاة أبيه ، في الفترة بين ١٥٨٤ ــ ١٥٩١[٢] • ونتيجة لسياسة التسامح هذه حدث اختلاط بين السكان فانتقل كثير من الموارنـة الى جبل لبنان الجنوبي • وأدى هذا ، بصورة غير مباشرة ، في أواسط القرن التاسع عشر الى الاضطرابات المعروفة في جبـل لبنان التي بدأت بالاصل بثورات الفلاحين ، من مختلف المذاهب ، ضد الاقطاعيين الذين كان أغلبهم مـن الدروز في لبنان الجنوبي • ولكن وجـد ، في الداخل والخارج ، من استغل هـذه الثورات وحرفها عن غرضها في التحرر من الاقطاع • وكان أيضا من نتائج تسامح فخر الدين وصداقته مع آل مديتشي أن تشجعت الارساليات التبشيرية على توسيع أعمالها في جبل لبنان •

وقد أدى القضاء على فخر الدين الى حدوث شبه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين ، ولم يستطع أي أمير محلي أن يملأ هذا الفراغ الى أن سيطر ظاهر العمر في القرن الثامن عشر على فلسطين وطغى بنفوذه على

---

١ ــ انظر : شدياق ج ١ ، ٣٦٣ ــ ٣٧٢ ؛ المعلوف ، تاريخ فخر الدين ، ١٨٨ ــ ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٣٠٢ ؛ الصفدي ، ٢٤٢ ــ ٢٨٩ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٣٨٥ ــ ٣٨٨ ، ج ٣ ، ٢٦٧ ــ ٢٦٨ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٣٢ ؛ انظر أيضا :

Ismail, pp. 8 - 9, 57 - 165 .

٢ ــ انظر :

أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين • وفي هذه الأثناء تمتع ولاة الشام بكثير من النفوذ في هذه المناطق ، وشاركهم في ذلك ، بعد سنة ١٦٦٠ ، ولاة صيدا • ومن المهم أن نلاحظ أن فخر الدين قد أضعف ، أثناء حكمه ، الامراء المحليين من آل فريخ وآل فروخ وآل طراباي وأبناء قانصوه الغزاوي وغيرهم • وحين قضي عليه كانت هذه الاسر الحاكمة اما قد تلاشت على يديه أو انها في طريق الانحلال بتأثيره • واذا دام نفوذ بعضها لفترة بعد ذلك فمرده الى القضاء على فخر الدين • وقد اثر الصراع على النفوذ بين الامراء المحليين بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين ولاة الشام على تعيين أمراء الحاج وتنوع هوياتهم • وقد سبق القول[١] الى أن هؤلاء الامراء المحليين كانوا يعينون منذ الربع الاخير للقرن السادس عشر أمراء على الحاج[٢] نظراً لتمكنهم من توطيد سلطتهم ولقدرتهم على تأمين سلامة الحاج من البدو • وكانوا ينفقون من أموال الميري التي يجمعونها من مناطقهم ، بصفتهم ملتزمين ، على الحاج وعلى تمويل الجردة[٣] التي كانت تخرج لملاقاة الحاج والتي كانوا يعينون ، في هذه الفترة ، أمراء عليها[٤] •

وبعد ضعف الامراء المحليين والقضاء على فخر الدين دخل الى ساحة المنافسة على امارة الحاج انكشارية دمشق الذين كانوا في ذلك الوقت طائفة متنفذة • ويتفق هذا مع الخط العام آنذاك في ملء الفراغ السياسي في بلاد

---

١ ـ انظر ص ١٦٣ •

٢ ـ انظر أيضا : الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ ؛ المحبي ، ج ١ ، ١٨٧ ـ ١٨٩ ، ج ٢ ، ٤١٧ ، ج ٣ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ج ٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، مخطوط فيينا ، ١٢٣ ب •

٣ ـ الجردة بالاصل المؤونة التي كانت تحمل الى الحجاج من دمشق أثناء عودتهم • وحين بدأ البدو يهاجمون الجردة اضطر المسؤولون الى حمايتها ، وبالتدريج أطلق تعبير جردة على القافلة التي كانت تخرج من دمشق لتموين وحماية الحجاج العائدين ؛ انظر تفاصيل أخرى عن الجردة في كتابنا : The Province of Damascus, pp. 65-68

٤ ـ انظر : حيدر أحمد شهاب ، تاريخ الامير حيدر أحمد الشهابي ، نشره نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ، انظر ص ٦٥١ ، ٦٧٧ ـ ٦٧٩ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٩٨ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : شهاب ، نشر مغبغب ؛ البوريني ، ج ١ ، ٢٠٥ ؛ المحبي ، ج ١ ، ١٨ •

الشام من قبل السلطات المتنفذة في دمشق مثل الولاة وزعماء الانكشارية الذين كانوا ، بدورهم ، يتصارعون مع الولاة على النفوذ[1] • ورغم أن أفراداً من انكشارية دمشق عينوا الآن أمراء للحاج الا أن بقايا الامراء المحليين ، الذين احتفظوا ببعض السلطة اثر القضاء على فخر الدين ، استمروا يعينون، بشكل متقطع ومتناقص ، أمراء للحاج • ويعكس هذا المصاعب التي لاقاها الانكشارية (الذين عرفوا بعد ذلك باليرلية) في توطيد نفوذهم • وقد شغل امارة الحاج في أغلب الفترة بين ١٠٣١/١٦٢١ و ١٠٤٨/١٦٣٩ محمد ابن فروخ حاكم القدس ونابلس[2] • وفي ١٠٥١/١٦٤١ – ١٦٤٢ عين علي ابن الارناؤوط ، وهو من كبار انكشارية دمشق ، أميراً على الحاج[3] • وقد عين لامارة الحاج ، ولامارة نابلس في الوقت ذاته ، في ١٠٥٣/١٦٤٣–١٦٤٤، الامير حسين بن الامير حسن الغزاوي حاكم غزة آنذاك • ثم أصبح الامير حسين حاكماً على غزة ، اثر وفاة أبيه ، وأعطي حكومة القدس فولى عليها وعلى غزة ابنه ابراهيـم ، واكتفى بحكم نابلس وامارة الحاج التي شغلها سنتين أخريين • وقد اتهم باهمال حماية الحجاج وقتل في ١٠٧٣/١٦٦٢–١٦٦٣[4] • وكان قد عين لامارة الحاج في سنتي ١٠٥٩/١٦٤٩ – ١٦٥٠ و ١٠٦٠/١٦٥٠ أحد كبار انكشارية دمشق ويسمى سنان ، وهو من أصل رومي، وأعطي بهذه المناسبة حكم نابلس[5] • وعين بعد قليل زعيم انكشاري آخر من دمشق ويسمى مصطفى الطرزي أميراً على الحاج وأعطي أيضا حكم اللجون و القدس[6] •

---

١ انظر ص ١٨٩ – ١٩١ •

٢ – انظر : المحبي ، ج ٤ ، ١٠٨ ؛ عبد الغني النابلسي ، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج ، في انكلترا ، برقم Qq 300 انظر ورقة ٧ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الحقيقة والمجاز •

٣ – المحبي ، ج ٣ ، ١٥٦ •

٤ – المصدر السابق ، ج ٢ ، ٨٨ •

٥ – المصـدر السـابق ، ج ٢ ، ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ ابن جمعـة ، مخطوط برلين ، رقـم 9785. We (II) 125 ، ورقة ١٤ آ •

٦ – محمد خليل المرادي ، مطمح الواحد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 ، انظر ورقة ١٩١ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : مطمح الواحد •

واستمر الامر بعد ذلك في تعيين أفراد من الامراء المحليين ، بشكل متناقص، ومن الانكشارية أمراء على الحاج • وبازدياد ضعف الانكشارية ، بعد ١٦٦٠ ، عين موظفون عثمانيون ، من الروم ، أمراء على الحاج • وكان واحدهم يعطى عادة ، مثل الانكشارية ، حكم صنجق أو أكثر في فلسطين بمناسبة تعيينه لمنصب امارة الحاج • والهدف من ذلك ، كما يبدو ، تأمين مورد ومكان لامراء الحاج هؤلاء ، وتمكين الدولة من جمع مال الميري من أنحاء ولاية الشام للانفاق منه على الحاج • ويعكس أيضا تعيينهم حكاماً على هذه الصناجق محاولة الدولة ملء الفراغ الذي تركه ضعف أو تلاشي الامراء المحليين • وسنرى أهمية ونتيجة ذلك حين معالجتنا للفترة التالية•

واعترف العثمانيون ، بعد القضاء على فخر الدين ، بالامير علي علم الدين ، من الحزب اليمني ، أميراً على الشوف ، وبالتالي على جبل لبنان • وكان علي هذا قد ساعد العثمانيين ضد عدوه فخر الدين الذي تزعم الحزب القيسي • ولكن الامير ملحماً المعني ، الذي خلف عمه فخر الدين ، لجأ الى الشهابيين في وادي التيم فساعدوه مع القيسية الذين تكتلوا الآن لطرد اليمنية ، واسترجع مركزه أميراً على الشوف وعلى جبل لبنان في سنة ١٦٣٥ • واستمر العثمانيون يؤيدون آل علم الدين زعماء اليمنية ضد المعنيين لاضعافهم • وبقيت المشاحنات قائمة طوال القرن السابع عشر بين المعنيين الذين أيدهم الشهابيون الاقوياء في وادي التيم وبين آل علم الدين الذين أيدهم ولاة دمشق • ومما تجدر الاشارة اليه أن السلطة التي بلغها فخر الدين قد زادت من أهمية منصب أمير الشوف• ولكن خلفاء فخر الدين المباشرين لم يستطيعوا ، نظراً للظروف المحيطة بهم ، بلوغ نفس المستوى في النفوذ الى أن رقي امارة جبل لبنان الامير بشير الشهابي الثاني الذي حكم من ١٧٨٨ الى ١٨٤١ • وفي غياب الامير القوي استفحلت المنازعات القيسية ــ اليمنية بسبب تكتل القيسية للاحتفاظ بالسلطة ضد اليمنية المتربصين وحلفائهم العثمانيين • ولم يكن حزبا القيسية واليمنية مقتصرين على اتباع مذهب واحد بل نجد كلا منهما يضم أتباعاً من مذاهب مختلفة • وما تعاون الشهابيين

السنة مع المعنيين الدروز ، وتعاون هؤلاء الاخيرين مع آل الخازن الموارنة الا مظهراً من مظاهر تعاون القيسية ضد عدو مشترك •

وردت في ١٠٧١/١٦٦٠ شكايات الى الدولة العثمانية بأن الشهابيين قد هددوا الطرق وأظهروا العصيان • وذكر أيضا أن مرتضى باشا الذي عين والياً على دمشق في ١٠٦٧/١٦٥٦ - ١٦٥٧ ومنعه الانكشارية من الدخول اليها كما رأينا[١] ، قد اشتكى الى السلطان بأن الشهابيين تعاونوا مع الدمشقيين وعارضوا دخوله الى دمشق • وكان الصدر الاعظم محمد باشا كوبريلي مهتماً في هذه الاثناء بالقضاء على الفتن في الدولة العثمانية • وبعد أن قضى على تمرد حسن باشا في حلب وعلى تمرد انكشارية دمشق ، عين ابنه أحمد باشا كوبريلي والياً على دمشق في ١٦٦٠ وأمره باخضاع الشهابيين وحلفائهم المعنيين ، ففعل ذلك وطرد أمراء الأسرتين بمساعدة آل علم الدين وآل طراباي ، وعاد آل علم الدين الى حكم جبل لبنان • وأنشئت ولاية صيدا في هذه الاثناء لتشديد الرقابة على الجبل بالاضافة الى أسباب أخرى[٢] • ولم يبق آل علم الدين في حكم جبل لبنان فترة طويلة• وفي عام ١٦٦٦ تغلب عليهم الامير المعني أحمد بن ملحم بمساعدة القيسية ، ففر آل علم الدين الى دمشق ، وعاد الامير أحمد الى امارة الشوف وجبل لبنان ، وبقي في منصبه حتى موته في ١٦٩٧ ، وقد أعلن الولاء للدولة العثمانية وقدم لها مال الميري بانتظام[٣] •

بلاد الشام من ١٦٦٠ الى الربع الاول من القرن الثامن عشر

سنبحث في هذه الفترة التطورات التي حدثت في دمشق واثر انتقال امارة الحاج اليها • كما سندرس الاحداث التي جرت في جبل لبنان واثر انتقال الامارة فيه من المعنيين الى الشهابيين ،وسنعالج كذلك أوضاع وظروف

---

١ - انظر ص ١٩٢ •

٢ - انظر ص ١٩٤ •

٣ - انظر : معلوف ، تاريخ فخر الدين ، ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ شدياق ، ج ١ ، ٣٧٢ - ٣٨١ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٣٥٣ ، ج ٤ ، ٤٠٨ - ٤٠٩ •

بلاد الشام التي أتاحت لآل العظم الوصول الى الحكم ولظاهر العمر توطيد سلطته في منطقة صفد •

التطورات التي حدثت في دمشق • ـ استمر الولاة في هـذه الفترة يعينون من أصل رومي ، وكانوا عادة يبقون في مناصبهم مدة سنة أو سنتين خلافاً لما كان يحدث في القرن السادس عشر • وتعكس هذه الظاهرة ، من ناحية ، وجود كثرة من المرشحين لوظيفة والي الشام ، وتظهر ، من ناحية أخرى ، نفوذ المعينين لهذه الوظيفة وقوة وكلائهم في استانبول • ولكن وجد اتجاه ، في أواخر هذه الفترة ، نحو اطالة حكم ولاة الشام بسبب توليهم امارة الحاج • وكان الوالي يبقى في منصبه طالما أنه يحافظ على سلامة الحاج • الا أن اعتبارات أخرى مثل خوف السلطان من ازدياد سلطة هؤلاء الولاة ، اذا استمروا في مناصبهم مدة طويلة ، جعلته يعزلهم •

اما بشأن القضاة الحنفيين في دمشق فكانوا ، كما في الفترات السابقة ، من أصل رومي • الا أنه اعتباراً من سنة **١١١٤/١٧٠٢ ـ ١٧٠٣** أصبحوا يعينون لمنصبهم لمدة سنة كاملة ولا يعاد أو يجدد تعيينهم بعد ذلك • ويرجح ان سبب ذلك وجود عـدد كبير من المرشحين لوظيفة القاضي الحنفي في دمشق • ولكن على عكس القضاة الحنفيين وخلافاً للفترات السابقة أصبح المفتون في دمشق يعينون الآن من أصل محلي[1] •

حدث في هذه الفترة اضطراب في توازن القوى في دمشق • فبعد قدوم فرقة القابي قول عززت سلطة الوالي وضعفت بالتالي سلطة الانكشارية اليرلية • وتجب الاشارة هنا الى أن الانكشارية المحلية كانوا يسمون ، من قبل المؤرخين المحليين ، اما انكشارية أو ينكجرية أو يرلية أو الينكجرية اليرلية ، بينما كان يدعى القابي قول تقريباً دائماً بهذا التعبير ، وفي بعض الاحيان يشار اليهم ، على سبيل الاختصار ، باسم القول • وكان لكل طائفة من هاتين الطائفتين آغا يعين من استانبول • ولما كان القابي قول متمركزين في القلعة سموا دولة القلعة ، بينما سمي الانكشارية اليرلية ، الذين أصبحوا

١ ـ انظر حول ذلك : رسالة ، ٢١ ـ ٢٤ ب ، ٣١ آ ـ ٣٢ آ ؛ انظر ص ١٨٥ •

يقيمون في أحياء دمشق وخاصة منها الميدان وسوق ساروجة ، دولة دمشق. وكان اليرلية يكلفون بحراسة القلاع على طريق الحاج ، الا أنهم أهملوا ذلك بسبب تفضيلهم البقاء في دمشق وممارسة السلطة فيها .

وقد ضعفت سلطة اليرلية بعد أن قضي على زعمائهم المتنفذين وبعد اقامة القابي قول في دمشق . وحصلت حوادث أخرى أبقتهم ضعفاء لفترة من الزمن . ففي سنة ١٠٨١/١٦٧٠ - ١٦٧١ قتل أحد زعمائهم ، المسمى موسى التركماني بمن قبل البدو ، أثناء توليه امارة الحاج. وكان قد انتشر في السنة السابقة وباء في دمشق قضى على كثيرين ، وقدر عدد الموتى في يوم واحد بالف شخص ، وكان من ذلك أن خفت حدة المنافسات السياسية اثر هذه المصيبة[١] . وفي سنة ١٠٨٩/١٦٧٨ - ١٦٧٩ أرسلت فرقة من يرلية دمشق لتقيم في قلعة الكرك لتأمين سلامة الحاج[٢] . ورغم انه يصعب القول فيما اذا كان ارسال هذه الفرقة قد قصد به اضعاف اليرلية في دمشق ، فمن الواضح أن غياب هذه الفرقة عن دمشق أضعف نفوذ اليرلية فيها . وفي مناسبتين : في ١٠٨١/١٦٧٠ - ١٦٧١ وفي ١٠٩٣/١٦٨٢ اسهم اليرلية في الحملات التي أرسلت الى الجبهة الاوربية[٣] . ويدل هذا على استكانتهم وانصياعهم للأوامر .

ويبدو أن الازمات التي تعرض لها اليرلية في الفترة الاخيرة ،وضعفهم بعد النفوذ الذي مارسوه ، جعلهم أكثر حرصاً للحفاظ على مابقي لهم من سلطة . ففي عام ١٠٩٩/١٦٨٧ - ١٦٨٨ أظهر والي الشام حمزة باشا كثيراً من التسلط والطغيان في دمشق ، واعتدى اتباعه على الدمشقيين فثار « أبناء دمشق » ، على حد تعبير ابن جمعة[٤] ، وقتلوا أتباعه وأهانوهم . وأشار المحبي[٥] الى الذين عارضوا حمزة باشا وثاروا عليه بأنهم الجند

١ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٠ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦٣ .
٢ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٣ .
٣ - المصدر السابق ، ٤٤ ؛ المحبي ، ج ٢ ، ١٢٤ - ١٢٥ .
٤ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٥ - ٤٦ .
٥ - المحبي ، ج ٤ ، ٣٣١ - ٣٣٢ .

الشامي • ومن الممكن أن بعض الدمشقيين قد ساعدوا الجند الشامي في الثورة، نظراً للمصالح المشتركة التي تجمع بينهم • ويتبين من تعبيري « أبناء دمشق » و « الجند الشامي » ، اللذين استخدمهما المؤرخان الدمشقيان للدلالة على الذين ثاروا ، انهما يشيران الى أفراد اليرلية الذين أصبحوا مندمجين مع الدمشقيين • وفي عام ١١٠٠/١٦٨٨ - ١٦٨٩ قتل القابي قول صالح آغا ابن صدقة أحد أعيان اليرلية • وكان هذا الحادث بداية محاولة جديدة للقضاء على زعماء اليرلية ، ويظهر ، في الوقت ذاته ، الصراع الشديد على النفوذ بين اليرلية والقابي قول • وقد قتل في عام ١١٠٣/١٦٩١ - ١٦٩٢ تسعة من زعماء اليرلية من قبل والي دمشق بناء على أوامر السلطان • ويبدو أن هذا كان رداً على ثورة اليرلية ، قبل قليل ، ضد حمزة باشا • وكان من بين الذين قتلوا خليل آغا بن طالو وسليمان آغا بن الترجمان وموسى آغا بن الترجمان ومحمد آغا بن صدقة ومصطفى اغا الكيواني • وهرب آخرون الى الامير أحمد المعني في الشوف[1] • ولما كان هؤلاء الأفراد بارزين في طائفة اليرلية وفي دمشق فقد وصفهم المؤرخون المحليون بأنهم أغوات الوجاق[2] ، وأعيان دمشق ، وأكابر دمشق ، وكبار دولة دمشق • واذا ما قورنت هذه الاسماء مع أسماء كبار الانكشارية في مطلع القرن السابع عشر أمثال آق يناق وقره يناق وحمزة الكردي وخداوردي لتبين لنا كيف أن الدمشقيين بدأوا يتسربون الى طائفة الانكشارية ويحتلون المناصب العليا فيها ، وخاصة بعد سنة ١٦٥٩ حين قضي على كثير من زعماء الانكشارية الذين لم يكونوا من أصل دمشقي •

---

١ - انظر : ابن جمعة ، ٤٦ - ٤٨ ، قطعة من تاريخ ، ٥ آ ؛ محمد بن كنان الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، أرقامهما : 9480. We. (II) 1115, 9479. We (II) 1114 انظر الجزء الاول : ١٤ ب - ١٧ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الحوادث اليومية ، انظر أيضا : سليمان الظاهر ، « صفحة من التاريخ الشامي » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٧ (١٩٤٢) ، ص ٤٤٨ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : سليمان الظاهر ؛ انظر أيضا كرد علي ، ج ٢ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ •

٢ - تكتب بالتركية Ocak ، وتعني بالاصل الموقد ، ثم أطلقت على فرق الانكشارية •

وكان من نتيجة حملة القمع الموجهة ضد اليرلية أن ضعف نفوذهم الآن في دمشق ، واستمر ذلك عدة سنوات • ونظراً لان اليرلية الدمشقيين كثيراً ما قاوموا محاولات الولاة لفرض المظالم على الاهلين ، فقد قاسى الآن سكان دمشق من ظلم الولاة نتيجة لضعف اليرلية • ومع ذلك فلم يعدم الدمشقيون من يدافع عنهم اذ يبرز العلماء ليملأوا الفراغ السياسي الذي تركه ضعف اليرلية وليدافعوا عن الاهلين ضد مظالم الولاة والقابي قول • ففي سنة ١١٠٧/١٦٩٥ - ١٦٩٦ عارض علماء دمشق ظلم الوالي عثمان باشا السلحدار فاشتكى ضدهم الى استانبول ، وكانت النتيجة أن نفي بعض العلماء لفترة من الزمن ، الى طرابلس والى قلعة القسطل ، وكان من بينهم نقيب الاشراف عبد الكريم بن حمزة وخطيب الجامع الاموي سليمان المحاسني والشيخ عثمان القطان • ثم جاء الامر بالعفو عنهم بعد فترة قصيرة[١] • وفي ٢٠ ذي الحجة ٢٥/١١١٨ آذار ١٧٠٧ نفي فريق آخر من علماء دمشق الى قلعة صيدا ، وكان من بينهم أسعد أفندي البكري وعبد الرحمن أفندي القاري وسليمان المحاسني وذلك لانهم قاوموا محاولة الباشا في فرض المال على الدمشقيين[٢] • وحين عفا السلطان عنهم بعد قليل تأيد موقفهم في مقاومة الظلم •

واعتمد الولاة في سياسة العنف التي اتبعوها على دعم جنودهم الخاصين وعلى قوة القابي قول الذين أيدوهم ضد اليرلية والدمشقيين • وفي سنة ١١١٨/١٧٠٦ - ١٧٠٧ وصلت فرق اضافية من القابي قول الى دمشق مما زاد في نفوذ أفراد هذه الطائفة ، وجعلهم يصطدمون باليرلية في العام التالي ، ويقتلون منهم عشرة انفار • ورغم أن اليرلية ردوا على ذلك بمحاصرة القلعة وأخذوا ثمن دم المقتولين[٣] فقد أرهبهم القابي قول ،

---

١ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٩ ؛ سليمان الظاهر ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٦٧ •

٢ - ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٦٧ آ ، ٦٨ آ ؛ سليمان الظاهر ، ٤٤٩ ؛ المرادي، سلك الدرر ، ج ١ ، ٢٢٤ •

٣ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٥٢ ، قطعة من تاريخ ، ٦ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٦٧ ب •

وغاب اليرلية عن المسرح السياسي بضع سنوات • وحظي بالاهتمام ، في هذه الاثناء ، والي الشام ، نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام مدة ست سنوات تقريباً ، بين ١١٢٠/١٧٠٨ - ١٧٠٩ و ١١٢٦/١٧١٤ - ١٧١٥ • وقد أظهر كثيراً من السلطة داخل دمشق وخارجها ، وأمن بصورة خاصة سلامة قافلة الحاج الشامي التي أعطي امارتها بجانب وظيفته كوال للشام• وسنبحث في الصفحات التالية التطورات التي أدت الى انتقال امارة الحاج الى دمشق • وقد ترتب على ذلك ابقاء والي الشام في منصبه ما دام يؤمن سلامة الحاج • وكان نصوح باشا أول ولاة الشام في القرن الثامن عشر الذين حكموا لفترة طويلة نسبياً • وهذا أمر لم تشهده هذه الولاية في القرن السابع عشر حين لم يكن ولاة الشام أمراء الحاج بشكل مستمر • وقد حكم دمشق بعد نصوح باشا ولاة شغلوا مناصبهم لفترات أطول وذلك لتأمينهم سلامة الحاج ولاسباب أخرى خاصة بهم سنعالجها في حينه • والجدير بالملاحظة أن السلطان أوعز بقتل نصوح باشا ، وقد تم ذلك في سنة ١١٢٦/١٧١٤ ، رغم تأمينه سلامة الحاج[١] • ويفسر قتل نصوح باشا بخوف السلطان من ازدياد قوته • وسنرى أمثلة أخرى في الفترات التالية عن مصير مماثل لولاة مشهورين في دمشق أمنوا سلامة الحاج وقتلوا مع ذلك لاسباب متعددة ، وأبرز مثال هو أسعد باشا العظم •

زاد نصوح باشا من هيبة منصب والي الشام بسبب أعمال البطش والارهاب التي قام بها أثناء ولايته • وقد حاول خلفاؤه ، بنسب متفاوتة ، الاستمرار في سياسة القوة هذه فاصطدموا بأغلب قوى دمشق • وقد فرض والي الشام ، بأمر من السلطان ، في النصف الاول من ١١٢٨/النصف الاول من ١٧١٦ ضرائب مجحفة على الدمشقيين ، وكان نصوح باشا قد امتنع عن فرضها • فثار الاهلون وابتهلوا الى القاضي للتوسط برفعها ، وهاجمت جماعة من القابي قول سرايا الوالي للاحتجاج على الضرائب فقتل أحد أفرادها ، ولم

---

١ ـ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٥٢ ـ ٥٥ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٧٧ آ ـ ١١٤ آ •

يتبدل شيء[١] . ومما يلفت النظر في هذه الحادثة ثورة القابي قول على فرض الضرائب . لقد مضى الآن على وجود القابي قول في دمشق أكثر من نصف قرن فأصبحت لهم مصالح فيها . ورغم تمركزهم في القلعة فقد بدأوا يمتزجون بالدمشقيين بالتدريج ، شأن الانكشارية في أول عهدهم . وعوضاً من أن يقرّب هذا بينهم وبين اليرلية ، كما يمكن أن يظن ، نجد أن العداء قد ازداد بين الفريقين لان اليرلية وجدوا في توسع نفوذ ومصالح القابي قول في دمشق خطراً على مصالحهم وعلى نفوذهم . وهكذا أضيفت المنافسة على المصالح الى الصراع على النفوذ بين الفريقين ، وهـذا مايفسر الصراع الدامي بينهما في بلاد الشـام في القرن الثامن عشر . واستفاد من ذلك الوالي الذي حاول ،بجنوده المرتزقة ، ضرب فريق بآخر لاضعافهما. وقد قتل والي الشام ، عبد الله باشا كوبريلي ، في ١١٢٩/١٧١٦ – ١٧١٧ جماعـة من اليرلية لمحاولتهم اثارة فتنة في دمشـق ، وأراد أن يطلب من السلطان اخراج جميع اليرلية من دمشق[٢] . ومع ذلك اصطدم اليرلية بالقابي قول في ٦ ذي الحجة ١١٣٠/٣١ تشرين الاول ١٧١٨[٣] . وفي أوائل ١١٣٢/أوائل ١٧٢٠ اشتبك القابي قول مع والي الشام ، عثمان باشا أبي طوق ، وأطلقوا عليه المدافع من القلعة ، ثم سكنت الفتنة[٤] . وقد حكم عثمان باشـا أبو طوق ولاية الشـام مرتين : الاولى بين ١٧١٩ و ١٧٢١ والثانية بين ١٧٢٣ و ١٧٢٥ . وكان ابنه ، أثناء ولايته الثانية ، يحكم ولاية صيدا . وقام أبو طوق بكثير من المظالم وابتزاز المال في دمشق معتمداً على دعم السلطان والصدر الاعظم في استانبول . والتف من حوله جماعة من العوانية[٥] مارسوا الظلم وابتزاز المال من الاهلين . وقد اعتقل أبو طوق

---

١ – ابن جمعة ، نشر منجد ، ٥٦ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٣٨ آ .

٢ – ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٤٨ ب .

٣ – المصدر السابق ، ١٥٩ ب ، ١٦٠ آ .

٤ – المصدر السابق ، ١٦٩ آ .

٥ الكلمة جمع عواني وأصبحت تطلق عـلى الاشخاص الذين يساعدون أصحاب النفوذ في أعمال الاساءة وابتزاز المال . وعرف المال الذي يجمع عن هذا الطريق باسم مال العوان؛ للتوسع في معنى الكلمة واشتقاقاتها ، انظر كتابنا :
The Province of Damascus, p. 79 n. 1.

عدداً من الاشخاص حاولوا منعه من الظلم ، وكان من بينهم أفراد من آل تغلب أصحاب الطريقة الشيبانية الصوفية[1] ، مما أثار الرأي العام الديني. ولم يتمكن القاضي الحنفي الرومي من عمل شيء لايقاف أبي طوق عند حده ، كما لم تجد محاولة ارسال وفد يمثل القطاعات المتنفذة في دمشق الى استانبول للاحتجاج ، ولذلك هب المفتي الحنفي محمد خليل البكري الصديقي لنجدة المظلومين ، وقادهم في ثورة ضد أبي طوق في النصف الثاني من ربيع الثاني ١١٣٧/النصف الاول من كانون الثاني ١٧٢٥ . وقتل الثائرون بعض العوانية من أتباع أبي طوق ، الذي كان آنذاك عند ابنه حاكم صيدا . ولم يستطع السلطان تجاهل نقمة الدمشقيين على واليهم، فعزله ، وعين اسماعيل باشا العظم مكانه في أوائل آذار ١٧٢٥[2] . وكان اسماعيل باشا أول وال من آل العظم يعين على دمشق ، وتلاه ولاة آخرون

---

١ ـ تسمى الطريقة الشيبانية أحياناً بالطريقة اليونسية ، انظر مقال Tarika في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى .

٢ ـ انظر حول هذه الاحداث : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٦٢ آ ـ ١٦٥ ب ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٥٩ ـ ٦٢ ؛ عبد الرحمن الموصلي ، كتاب مجموع فيه ديوان المرحوم الشيخ عبد الرحمن الموصلي وبهجة جده الشيخ ناصر الدين الموصلي وديوان المرحوم منجك باشا وغيره وفوائد ، مخطوط في مجموعة برلين برقم 9482. We (II) 1748 انظر الورقة ٥٥ آ ـ ٥٥ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الموصلي ؛ انظر أيضا تقارير القنصل الفرنسي في صيدا ، عن تلك الفترة ، الموجودة في دار الارشيف في باريس مصنفة في قسم الشؤون الخارجية Affaires Etrangères (رمزها A. E.) . والتقارير القنصلية بصورة عامة مصنفة في تلك الدار تحت رمز B 1 ويشير الرقم الذي يتلو هذا الرمز الى المجلد . وسنذكر بعد ذلك مباشرة اسم المكان الذي أرسل منه التقرير ، فقد يكون صادراً عن قنصلية صيدا أو حلب أو القاهرة أو استانبول . ويتلو ذلك تاريخ التقرير ، وسنرمز اليه بثلاثة مجموعات عددية يشير أولها الى تاريخ اليوم وثانيها الى الشهر وثالثها الى السنة . وسنتبع نفس الطريقة بالنسبة للتقارير من الارشيف الانكليزي . وتوجد تقارير القنصليات الانكليزية في دائرة الارشيف في لندن وتسمى Public Record Office (رمزها PRO) وهي مصنفة تحت اسم State Papers اي أوراق الدولة (رمزها S. P.) . انظر حول الاحداث التي يشير اليها هذا الهامش الوثائق التالية : A. E. Bl 1021 : Seyde, 21. 10. 1721, 25. 1. 1725.

للحصول على دراسة مفصلة عن أحداث هذه السنوات يراجع كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 77 - 85.

من نفس الاسرة في دمشق وغيرها • وكان ظهور آل العظم كولاة في هذه الفترة جزءاً من ظاهرة هامة عمت كثيراً من الولايات العربية وغيرها في القرن الثامن عشر حين تسلم الحكم ولاة من أصل محلي برضى السلطة المركزية العثمانية أو رغماً عنها • وسندرس في مطلع القسم الاخير من هذا الكتاب أسباب هذه الظاهرة وأبعادها وأهميتها في العلاقة بين الحاكم والمحكومين •

وقد شهدت بلاد الشام في هذه الاثناء تطوراً هاماً يتعلق بانتقال امارة الحاج الى دمشق وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ ١١٢٠/١٧٠٨ - ١٧٠٩ وحتى ، على الاقل ، نهاية الفترة التي يعالجها هذا الكتاب أي نهاية القرن الثامن عشر • فما هي الاحداث المختلفة التي أدت الى هذا التطور وماهي نتائج انتقال امارة الحاج الى ولاة الشام ؟

ذكرنا فيما سبق[1] التطورات التي أدت الى تناقض تعيين الامراء المحليين في ولاية الشام أمراء للحاج والى تزايد تعيين انكشارية دمشق في هـذا المنصب • ونظراً لضعف نفوذ هؤلاء الانكشارية بعد ١٦٦٠ أصبح يعين موظفون عثمانيون ،الى جانب بقايا الامراء المحليين وزعماء الانكشارية، لامارة الحاج • والازداد تعيين هؤلاءالموظفين بالتدريج بسبب تزايد ضعف العنصرين الآخرين • ففي سنة ١٠٧٦/١٦٦٥ - ١٦٦٦ عين الامير عساف ابن فروخ أميراً للحاج ، وكان آخر أفراد هذه الاسرة الذين عينوا لهذا المنصب ، وقد شغل امارة الحاج لآخر مرة في سنة ١٠٧٩/١٦٦٩[2] • وعـين في منصب أمـير الحاج في سنتي ١٠٨٠/١٦٧٠ و ١٠٨١/١٦٧١ موسى التركماني وهو أحد الانكشارية اليرلية البارزين في دمشق ، وأعطي بهذه المناسبة منصب حاكم عجلون • وقد قتل في امارته الثانية على يد ابن

---

١ - انظر ص ٢١٣ ٢١٤ •

٢ - المحبي ، ج ١ ، ٤٤٢ ، ج ٤ ، ١١٠ ؛ اسماعيل المحاسني ، له كناش نشر بعض أجزائه الدكتور صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري » ، في مجلة معهد المخطوطات المصورة ، القاهرة ، مجلد ٦ (١٩٦٠) ، انظر ص ٨٠ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : اسماعيل المحاسني •

رشيد ، شيخ بدو حوران ، الذي هاجم قافلة الحاج[1] . وأثار هــذا الاعتداء على الحاج في حوران القريبة من دمشق اهتمام السلطات العثمانية فعنيت في العام التالي ، ١٠٨٢ ، أحد موظفيها ويسمى هرموش باشا أميراً للحاج ، ورافقه الى الحجاز والي الشام صاري حسين باشا لتأمين سلامة الحاج ، من ناحية ، ولاعادة شريف مكة المعزول الى منصبه ، من ناحية أخرى[2] . ويبدو[3] أن قره محمدباشا ،والي الشام في عام ١٠٨٣/١٦٧٢-١٦٧٣ ،قد رافق الحاج في هذه السنة .وكان أمير الحاج سنة ١٠٨٤/١٦٧٣ - ١٦٧٤ موظف عثماني يدعى قنقجي علي باشا ، وقد هاجم البدو الحاج في تلك السنة[4] . وفي سنة ١٠٨٥/١٦٧٤ - ١٦٧٥ كان أمير الحاج موسى باشا حاكم غزة[5] . وعين لامارة الحاج في سنة ١٠٨٧/١٦٧٦-١٦٧٧ أحمد باشا طرزي حاكم القدس واللجون[6] . وكان أمير الحاج في سنة

---

١ ـ المحبي ، ج ٣ ، ٤٢٨ ، ج ٤ ، ٤٣٤ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦٣ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٠ .

٢ ـ المحبي ، ج ١ ، ٢٤٤ ، ج ٢ ، ١٢٤ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤١ .

٣ ـ يذكر ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٤١ ، ان قره محمد باشا « حج بالركب الشامي » ، وهذا تعبير مبهم نوعاً ما ، ويرتبك ابن جمعة ، أو ربما ناسخو مخطوطه ، في استعماله . ويذكر ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤١ ، في أحداث سنة ١٠٨٢/١٦٧١ ـ ١٦٧٢ ان صاري حسين باشا « حج بالركب الشامي ... وكان أمير الركب هرموش باشا » ، وهذا يعني أن صاري حسين باشا قد رافق الحاج ، لان تعبير أمير الركب يعني أمير الحاج (يذكر ابن جمعة ، نشر منجد ، ص ٤١ ان قنقجي علي باشا كان أمير الركب سنة ١٠٨٤ هـ ، بينما يذكر مخطوط ابن جمعة في الظاهرية ، قطعة من تاريخ ، ٢ ب ، ان قنقجي علي باشا كان أمير الحاج تلك السنة) . ويذكر ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٥ ، ان والي الشام صالح باشا حج بالركب الشامي ١٠٩٨ ، بينما يشير اسماعيل المحاسني ، ص ٨٧ ، الى أن صالح باشا كان أمير الحاج تلك السنة . واستمر ابن جمعة ، نشر منجد ، يستخدم تعبير « حج بالركب الشامي » بالنسبة لولاة الشام حتى بعد أن أصبحوا يعينون باستمرار أمراء للحاج . وفي هــذا تناقض في استعماله لهذا التعبير ويذكر المحبي ، ج ٤ ، ٤٣٤ أن موسى التركماني « وجهت عليه امارة الحاج وحج بالركب الشامي سنتين » ، وهذا يعني أن الركب الشامي هو نفسه الحاج الشامي . وان تعبير « حج بالركب » ليس دائما دليلا قاطعا على أن الذي حج به هو أمير الركب، ولذلك تجب مقارنة المصادر مع بعضها لمعرفة من هو أمير الحاج الحقيقي .

٤ ـ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤١ ، قطعة من تاريخ ، ٢ ب ؛ اسماعيل المحاسني ، ٨٩ .

٥ ـ اسماعيل المحاسني ، ١٠٢ .

٦ ـ المصدر السابق ، ١٣٦ ؛ المرادي ، مطمح الواجد ، ١٩١ ب ؛ المحبي ، ج ١ ، ٢٢٢ .

١٠٨٨/١٦٧٧ - ١٦٧٨ خليل بن كيوان ، أحد كبار اليرلية في دمشق ، واستمر في امارة الحاج مدة أربع سنوات ثم توفي[١] • وعين لامارة الحاج في سنة ١٠٩٤/١٦٨٢ - ١٦٨٣ شخص يسمى صالح باشا[٢] • وفي سنة ١٠٩٨/١٦٨٦ - ١٦٨٧ عين لهذا المنصب أحمد باشا ابن والي الشام آنذاك ، وأعطي بهذه المناسبة حكومة القدس[٣] • وكان أمير الحاج سنة ١١٠١/ ١٦٨٩ - ١٦٩٠ حاكم غزة مرتضى باشا[٤] •

ويتبين من الامثلة المتوفرة السابقة ازدياد تعيين الموظفين العثمانيين أمراء للحاج نظراً لازدياد ضعف الامراء المحليين والانكشارية اليرلية • ونتج عن هذا التنوع في هويات أمراء الحاج عدم استقرار في علاقتهم مع البدو مما دفع هؤلاء الى مهاجمة قافلة الحاج ، خاصة وأن الموظفين العثمانيين المعينين أمراء للحاج لمدة سنة أو نحو ذلك غالباً ما امتنعوا عن دفع الصرّ ، أي المال المخصص من الدولة لشراء رضاء البدو • ونلاحظ أيضاً أن بعض المعينين لامارة الحاج عينوا في الوقت نفسه حكاماً على صنجق أو أكثر من الصناجق التابعة لولاية الشام • وهذا استمرار لتقليد سبقت الاشارة اليه والذي شاع في النصف الاول من القرن السابع عشر حين عين أغلب أمراء الحاج من حكام هذه الصناجق • واذا لم يكن المعين أميراً للحاج ، سواء من الامراء المحليين أو من الانكشارية ، حاكماً على صنجق فانه يعين لهذا المنصب حالما توكل اليه امارة الحاج • وكانت العادة آنذاك أن يأتي أمير الحاج - حاكم الصنجق مع قواته الى قبة الحاج ، الواقعة جنوبي حي الميدان خارج باب الله (سمي بذلك لانه يؤدي الى الاماكن المقدسة في

---

١ - المحبي ، ج ٢ ، ١٣٣ - ١٣٤ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٢٤٨ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٣ •

٢ - المحبي ، ج ١ ، ٤٤٨ ؛ قارن مع اسماعيل المحاسني ، ١٠٢ •

٣ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٥ ؛ اسماعيل المحاسني ، ٨٧ •

٤ - اسماعيل المحاسني ، ١٣٥ •

الحجاز والقدس) ، لتسلم قيادة قافلة الحاج[١] • واستفادت دمشق من عدم دخول أمير الحاج اليها لانها سلمت من تعديات القوات المرافقة له • وقد رأينا في الأمثلة الاخيرة ، وخاصة بعد تعيين الموظفين العثمانيين أمراء للحاج، ان كثيرين منهم لم يعينوا حكام صناجق ، ولذلك أقاموا مـــع قواتهم في دمشق ، وقاسى الدمشقيون من وجودهم • وقد حفز هـذا الامر الشيخ مراد المرادي ، جد صاحب سلك الدرر ، للطلب من السلطان ، كما يقول خليل المرادي ، « برفع امارة الحاج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحاج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها حتى أن الجد اجتمع بالمرحوم السلطان أحمد بن محمد خان في أحد رحلاته في دار المملكة قسطنطينية وذكر له ذلك فقبل منه رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع ووجهها للشريف يحي بن بركات المكي بمنصب القدس لانه كان موجوداً حينئذ في الروم بعد خلعه عن شرافة مكة المكرمة فذهب المذكور في تلك السنة أميراً للحج وارتفع عن أهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج ثم ان الشريف يحيى المذكور سها سهوة باذية بعض الحجاج وبغى العرب فلما أخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحيى عزل من ذلك وأعيدت امارة الحج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن »[٢] • وكانت امارة الشريف يحيى للحاج في سنة ١١٠٢/١٦٩٠ ـ ١٦٩١ ، وقد عزل عنها اثر مهاجمة

---

١ ـ انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٧ ب ؛ انظر أيضا :

R. A. Pococke, A Description of the East and some other countries, 2 Vols., London, 1743 - 5, see. II.i. 118 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Pococke

انظر حول موكب الحاج في دمشق وتوقفه عند قبة الحاج حيث يتسلم أمير الحاج مهمته بموجب حجة ، مؤلف محمد بن عيسى بن كنان ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، نسخة فوتوغرافيــة ، في مكتبـة مجمع اللغة العربيــة بدمشق ، مصورة عن مخطوط في دار الكتب المصرية ، برقم ٣٦ • انظر الاوراق ١٧٨ ـ ١٧٩ •

٢ ـ المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٦ ب ـ ٣٧ آ •

البدو للحاج بسبب اهماله[1] . وقد أصبحت دمشق منذ هذا التاريخ مركز أمراء الحاج ، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار اثر ذلك أمراء للحاج . ونلاحظ في الفترة بين ١١٠٢ - ١١٢٠/١٦٩٠ - ١٧٠٨ ، حين عين نصوح باشا والياً على الشام ، ان ثمانية على الاقل من ولاة الشام عينوا أمراء للحاج . وقد تزايدت هجمات البدو على الحاج في هذه الفترة نظراً لكثرة تبدل الولاة وطمع بعضهم بأخذ صرّ البدو لأنفسهم[2] . ولتأمين سلامة الحاج بدأ السلطان منذ ١١٢٠/١٧٠٨ - ١٧٠٩ يعين باستمرار ولاة الشام أمراء للحاج ، وكان الوالي يبقى في الولاية والامارة ما دام يؤمن سلامة الحاج . وأصبح المؤرخون المحليون يذكرون بمناسبة تعيين كل وال جديد للشام بانه تولى الحكم والامارة .

وقد نتج عن نقل مركز امارة الحاج الى دمشق وعن تكليف ولاة الشام بهذه الامارة باستمرار ، تطورات هامة تركت آثارها على تاريخ بلاد الشام بكاملها . وكان تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحاج ذروة تطور سياسي وتصارع على النفوذ في بلاد الشام في القرن السابع عشر . فلقد رأينا كيف أن فخر الدين المعني الثاني أضعف الامراء المحليين الذين كانوا يعينون أمراء للحاج . وبعد القضاء على فخر الدين قوي نفوذ ولاة الشام وتمكنوا من القضاء على نفوذ الانكشارية المحليين . وازدهرت سلطة هؤلاء الولاة بعد ذلك بسبب الفراغ السياسي الذي حدث في دمشق وخارجها . وأخيراً القيت عليهم مسؤولية امارة الحاج بسبب كثرة اعتداء البدو على الحاج . وكان السلطان العثماني يعاني آنذاك من انكسارات عسكرية متوالية ، ولم يستطع التغاضي عن اعتداء البدو على الحاج لان سمعته الدينية كحاكم

---

١ - انظر : ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٧ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٥٩ ب ؛ انظر ما كتبه G. Rentz تحت عنوان Barakat في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية .

٢ - انظر حول ذلك : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٨ آ - ٧٢ ب ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٤٨ - ٥٢ ، مخطوط برلين رقم 9785. We (II) 418 الاوراق ، ٢٢ آ - ٢٣آ ؛ نابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٣٥٣ آ ، ٣٧٣ ب ؛ اسماعيل المحاسني ، ٩٠ .

للحرمين الشريفين ستتأثر تبعاً لذلك . ولهذا عين أصحاب النفوذالوحيدين في بلاد الشام ، وهم ولاة الشام ، أمراء للحاج .

ونتج عن تعيين ولاة الشام في هذا المنصب تغيبهم عن دمشق لفترة طويلة . وكان الوالي أمير الحاج يغادر دمشق مع القافلة عادة في النصف الاول من شهر شوال ويعود اليها من الحجاز في حوالي النصف الاول من شهر صفر . وقد تتأخر عودته أكثر من ذلك اذا ماهدد البدو الحاج وأعاقوا سيره ، وكثيراً ماعاد الحاج ، في مثل هـــذه الحالات ، بواسطة الطريق الفرعي عبر غزة . وهكذا وجب على والي الشام ـ أمير الحاج أن يتغيب عن دمشق مع قافلة الحاج قرابة أربعة أشهر . وبالاضافة الى ذلك استلزم تعيين الوالي لهذا المنصب غيابه عن دمشق فترة أخرى . فقد القيت عليه الآن المسؤولية المباشرة للاعداد لقافلة الحاج وتمويلها بالمال اللازم . وكنا قد رأينا كيف أن أمراء الحاج من حكام صناجق ولاية الشام كانوا ينفقون على الاعداد للقافلة من واردات صناجقهم ، بالاضافة الى ماخصصه السلطان لذلك من عائدات ثابتة . واضطر ولاة الشام الآن الى الذهاب بأنفسهم لجمع الاموال الميرية من الملتزمين في ولايتهم . ويمكن القول أن والي الشام كان مسؤولا ، على أية حال ، عن جمع مال الميري من ولايته بصفته محصلا ، ولكنه لم يكن مضطراً قبل الآن أن يذهب في كل ســنة لجمع هذا المال . وكان حاكم الصنجق ـ أمـير الحاج هو الذي يتكفل آنذاك أمر ذلك . ونظراً لعـدم انشغال والي الشام مباشرة بذلك كــان يكلف أحياناً بنجدة جيوش السلطان في ميادين القتال المختلفة . وقد بدأ والي الشام الآن يخرج كل سنة ،قبل خروج قافلة الحاج بفترة من الزمن، ليجمع المال اللازم لتمويلها لانه أصبح المسؤول المباشر عن ذلك . وسمي خروجه هذا لجمع المال من الملتزمين في الولاية بالدورة[1] . وفي حــين أن تاريخ خروجه للدورة كان يتوقف على مشاغله ورغبته الخاصة ، فان

---

١ ـ للحصول على تفصيلات أكثر عن الدورة انظر كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 21 - 23

تاريخ عودته من الدورة كان يقرره تاريخ خروجه مع قافلة الحاج الى الحجاز • واضطر الوالي أحياناً الى قتال الملتزمين الاقوياء الذين رفضوا دفع مال الميري ، وتزداد عادة في هذه الحالة مدة الدورة • وبسبب انشغال الوالي في مثل هذه المهمات التي لايمكن التهاون فيها بسبب طبيعتها الدينية، فقد أعفي من الخروج مع عساكر دمشق لنجدة الدولة في حروبها الداخلية أو الخارجية كما كان الامر قبل ذلك • ولا نسمع في القرن الثامن عشر أن ولاة الشام قد قاموا بمثل أعمال النجدة هذه •

ونتج عن غياب الوالي عن دمشق أن ضعفت السلطة الحاكمة فيها ، ولم يتمكن غالبية المتسلمين ،الذين نابوا عن الولاة ، من ممارسة سلطة حازمة • واننا نجد ، في الحقيقة ، بعض المتسلمين يستغلون السلطة أو يتآمرون مع القوى الاخرى كاليرلية والقابي قول والقوات المرتزقة للاستفادة من غياب الوالي • وقد شجع هذا الوضع المنازعات المحلية والصراع على النفوذ ، وقاست دمشق من ذلك الشيء الكثير •واضطر الوالي ، بسبب حاجته الى مزيد من القوات لتأمين سلامة الحاج ،الى استئجار قوات مرتزقة اضافية كالمغاربة والدالاتية واللاوند[1] • وكثيراً ما تحالفت هذه القوات المرتزقة مع اليرلية ضد القابي قول ،أو بالعكس ؛ فاضطر الوالي الى الاعتماد على قوات أخرى ، وكان هذا مشجعاً لفوضى الجند ومثار نقمة الاهلين •

وعلى غرار التطور الذي أصاب امارة الحاج ، فان أمراء الجردة ، الذين خرجوا لتموين وحماية قافلة الحاج ، عينوا من الموظفين العثمانيين، بعد ضعف الامراء المحليين والانكشارية • وفي الوقت الذي أصبح فيه ولاة الشام أمراء للحاج ، انحصرت امارة الجردة بأحد ولاة صيدا أو طرابلس ، وفي حالات نادرة بوالي حلب • ويعود سبب كثرة اختيار ولاة صيدا وطرابلس لهذه المهمة الى قرب هاتين الولايتين من دمشق ، وبصورة أهم الى كون هؤلاء الولاة يمتون غالباً بصلة القربى الى ولاة الشام • فقد عمد السلطان ، بالحاح أحياناً من والي الشام ، الى تعيين أبناء أو أقرباء

١ ــ انظر ص ٧٥ ــ ٧٩ •

هذا الوالي حكلماً على ولايات صيدا وطرابلس • ويزداد نفوذ والي الشام تبعاً لذلك ، ويضمن السلطان ، من ناحيته ، دعم والي الشام لولاة صيدا وطرابلس اذا ما هددت سلطتهم • ومن الطبيعي أن تزداد مخاوف السلطان بسبب ازدياد سلطة ولاة الشام ، ولكن الدولة العثمانية لم تنقصها الوسائل لفرض هيبتها ، كأن تعمد الى عزل الولاة ومصادرة أموالهم ، أو الى اثارة وال ضد آخر ، كما سنرى في مناسبات مختلفة في القرن الثامن عشر • والذي يهمنا هنا أن أمير الجردة ، بعد تعيين ولاة صيدا وطرابلس لهذا المنصب ، أصبح يأتي الى دمشق بعد شهر ، على الاكثر ، من مغادرة أمير الحاج لها • وبعد أن يتم استعداداته في دمشق يغادرها في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة • وكثيراً ما قاست دمشق من القوات المرافقة له ، واضطرت أحياناً الى المساهمة في تمويل الجردة التي كانت تعين لها عادة موارد ثابتة ، وكان يفرض على دمشق ، في الحالات الاستثنائية ، مثل مهاجمة البدو للجردة ، اعداد وتمويل جردة ثانية •

ورغم هذه المصاعب التي تجشمها ولاة الشام فانهم أفادوا من امارة الحاج ببقائهم مدة أطول في مناصبهم ما داموا يؤمنون سلامة الحاج • وأفادوا أيضاً من الناحية الدينية نظراً لما تمتع به أمير الحاج من مكانة مرموقة • كما انهم كسبوا مادياً لان قافلة التجار كانت تخرج وتعود مع قافلة الحاج ، وكثيراً ما اضطر التجار الى شراء حماية أمير الحاج لهم من خطر البدو[1] • وبالاضافة الى ذلك جرت العادة أن ينال أمير الحاج حصة كبيرة من أموال الحجاج المتوفين •

التطورات التي حدثت خارج دمشق • ـ رأينا فيما سبق[2] مقدار الضعف الذي أصاب المعنيين ، وبالتالي امارة الشوف ، اثر القضاء على فخر الدين المعني الثاني وتأسيس ولاية صيدا في سنة ١٦٦٠ • ورغم أن والي صيدا كان مسؤولا مباشرة عن جبل لبنان فان المسؤولية غير المباشرة كانت في

---

١ ـ انظر حول الأهمية التجارية لقافلة الحاج في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 73 - 76

٢ ـ انظر ص ٢١٢ •

يد والي الشام الذي تمتع بنفوذ واسع في المنطقة • وفي حين أن ولاة الشام كانوا يعينون عادة من بين أصحاب رتبة وزير (علامتهم ثلاثة أطواخ) ، كان ولاة صيدا يعينون عادة من بين أصحاب رتبة بيلربيي (علامتهم طوخان) • وعدا عن ناحية التفاوت في النفوذ فقد زاد من اعتماد ولاة صيدا على ولاة الشام صلة القربى بينهم • وقد تدخل الولاة العثمانيون في شؤون جبل لبنان الداخلية وأثاروا النزاع بين القيسية واليمنية • وفي سنة ١٦٩٧ توفي الامير أحمد المعني ، أمير الشوف ، دون أن يخلف ولداً ذكراً فانقطعت بذلك السلالة المعنية • وقد اجتمع مشايخ جبل لبنان من مقاطعات الشوف والعرقوب والشحار والجرد والغرب والمتن وكسروان في السمقانية ، وانتخبوا الامير بشير بن حسين الشهابي ، أمير راشيا وابن أخت الامير أحمد المعني ، خلفاً له ، ووافق والي صيدا والسلطان على هذا الاختيار بعد فشل محاولة قام بها اليمنية من آل علم الدين لدى السلطان لاختيار شخص آخر •

ومما يسترعي الانتباه في اختيار الامير بشير الشهابي أن مشايخ جبل لبنان هم الذين اجتمعوا وقرروا ذلك ، في حين أن أول أمير معني على جبل لبنان قد عين من قبل السلطان سليم الاول • ويظهر من هذا أن مشايخ جبل لبنان كانوا أصحاب سلطة • وقد تأكدت سلطتهم وتبلورت بعد انتخابهم الامير بشير ، وازداد تأثيرهم عليه نتيجة لذلك • وحين توفي الامير بشير في ١٧٠٦ اجتمع مشايخ جبل لبنان من جديد واختاروا الامير حيدر بن موسى الشهابي خلفاً له • وكان ازدياد نفوذ المشايخ ، في الاصل ، أحد نتائج ضعف أمير الشوف ، اثر القضاء على فخر الدين المعني الثاني • ثم ما لبث ضعف الامير أن استفحل ، بسبب ازدياد نفوذ المشايخ ، وأدى ذلك الى ظهور منافسين لسلطته ؛ كما سنرى خلال دراستنا لتاريخ جبل لبنان في القسم التالي •

ونلاحظ في طريقة اختيار الامير بشير أن القاسم المشترك الذي جمع بين المشايخ الذين اختاروه هو كونهم قيسية ، رغم أنهم ضموا ممثلين عن

مختلف المذاهب . ومما يؤكد قوة التعاطف القيسي انه طغى على الاختلافات المذهبية فاختير الشهابيون السنة خلفاء للمعنيين الدروز . وطبيعي أن صلة القربى بين الاسرتين قد ساعدت على ذلك ، ولكن التكتل القيسي كان ضرورة لهم آنذاك لتوطيد سلطتهم ضد اليمنيين المتربصين من آل علم الدين . وقد أصبح الصراع بين القسية واليمنة أكثر حدة بعد هذا التكتل وبلغ أوجه ، وبالفعل نهايته ، في ١٧١١ حين اشتبك القيسية واليمنية في قتال دام في موقعة عين دارة . وكان يؤيد اليمنية كل من والي الشام ووالي صيدا في محاولة منهما لاضعاف الامير الشهابي . ولكن القيسية داهموا اليمنية قبل تلقيهم مساعدة هذين الواليين وقتلوا معظمهم وأبادوا أكثر زعماء آل علم الدين . ومن سلم من اليمنية لجأ الى جبل حوران الذي أصبح يعرف بجبل الدروز . وكان تعبير جبل الدروز يطلق بالاساس على جبل لبنان ، ويستعمل أحياناً كبديل له . وهكذا ساد القيسية في جبل لبنان . ولما كان أغلب اليمنية يتألفون من الدروز ، وخاصة آل علم الدين ، فان قتل بعضهم وهرب البعض الآخر كان يعني اضعاف العنصر الدرزي في بلاد الشوف . ومن نتائج موقعة عين دارة اعادة النظر في التقسيمات الإقطاعية في جبل لبنان لاملاء الشواغر في الاقطاعات التي حدثت اثر مقتل الامراء اليمنيين ولمكافأة المؤيدين للامير الشهابي . وقد رفع الامير حيدر من شأن الاسر التي دعمته فمنح رؤساءها لقب شيخ (أي ملتزم أو مقاطعجي يجمع الاموال الميرية في منطقته) في المقاطعات التي كانوا يسكنونها ، وخاطبهم بلقب الأخ العزيز . كما انه أبقى مشايخ الاسر الأخرى التي أيدته كملتزمين . واشتهر بنتيجة ذلك آل الخازن وآل حبيش وآل الدحداح من الموارنة القيسيين ، وآل العماد وآل جنبلاط وآل أبي نكد وآل عبد وآل تلحوق وآل عبد الملك من الدروز القيسيين . وكانت كل أسرة من هذه الاسر مسؤولة عن ادارة المقاطعة التي أعطيت لها وعن جمع عائدات الميري منها واعطائها للامير الشهابي الذي يقدمها بدوره الى والي صيدا المسؤول عن جبل لبنان . وخص الامير الشهابي آل أبي

اللمع بلقب أمراء في منطقة المتن وتزوج منهم[1] • ونتج عن رفع شأن هذه الأسر ومخاطبة الامير الشهابي لرؤسائها بلقب الأخ العزيز ان توطدت سلطة هؤلاء الرؤساء فعارضوا الامير الشهابي في المستقبل • ونلاحظ أيضا أن زوال اليمنية كقوة سياسية في جبل لبنان أزال الخطر الذي كان يوحد بين القيسية • وكان من ذلك أن انقسم القيسية فيما بعد على أنفسهم ، وتجمعوا حول حزبي الجنبلاطية واليزبكية في أواسط القرن الثامن عشر •

والى جانب الأمراء الشهابيين في جبل لبنان ، اشتهر المتاولة ، وهم من الشيعة الاثني عشرية ، في جبل عامل منذ مطلع القرن الثامن عشر ، وبدأوا يظهرون في الأخبار بشكل متزايد • وكانت منطقتهم تتألف من بلاد بشارة حيث اشتهر بنو الصغير ، واقليم الشمار والتفاح حيث برز بنو منكر ، واقليم الشقيف حيث سيطر بنو معن • وكان المتاولة من الحزب اليمني وقد اصطدموا كثيراً في هذه الفترة وما بعدها بالامراء الشهابيين القيسيين • ولايعني اشتهار المتاولة الآن أنهم لم يمارسوا نفوذاً قبل ذلك • ولكننا نسمع عن أخبارهم بصورة أكثر ابتداء من هذه الفترة وذلك لاسباب مختلفة • فبعد أن سيطر القيسية في جبل لبنان اشتد عداء اليمنية لهم ،

---

١ ـ انظر حول هذه التطورات : شدياق ، ج ١ ، ٦٧ ـ ٦٨ ، ج ٢ ، ١٥ ـ ٢٣ ؛ أحمد حيدر شهاب ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ثلاثة أجزاء ، نشر فؤاد البستاني وأسد رستم ؛ بيروت ١٩٣٣ ، انظر ج ١ ، ٢ ـ ١٦ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : لبنان ؛ انظر أيضا أحمد حيدر شهاب ، نزهة الزمان في حوادث عربستان ، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج (بانكلترا) • برقم Or. 63 (9) ، انظر الاوراق ، ١ آ ـ ٦ ب: سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : نزهة الزمان ؛ انظر أيضا : نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان ، مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس برقم Arabe 1684 ، مجهول المؤلف ،انظرالاوراق ،٣١آ ـ ٣٥ آ : سيذكر هذا المصدرباختصار كما يلي : نزهة الزمان ، مخطوط باريس ؛ حنانيا المنير ،الدر المرصوففيتاريخ الشوف ، نشرهاغناطيوس سركيس، في مجلة المشرق ، الاعداد ٤٨ ـ ٥١ (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧) ، انظر المشرق ٤٨ (١٩٥٤) ٦٧٢ ـ ٦٧٧ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : المنير ؛ انظر أيضا ، هذا تاريخ جبل الدروز ابتداء سنة ١١٠٩ هـ وغايته ١٢٢٣ هـ ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 377 (II) We .9790 ، انظر الاوراق ٣ آ ـ ٥ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : تاريخ جبل الدروز ؛ انظر الدراسة المقارنة لهذه المصادر في كتابنا : The Province of Damascus, pp. 325 - 328

ونتج عن ذلك معاداة المتاولة اليمنية لهم • وكانت بلاد المتاولة تابعة لولاة صيدا ، وكثيراً ماعهد هؤلاء الولاة الى الامراء الشهابيين في جبل لبنان بمعاقبة الثوار من المتاولة وجمع أموال الميري منهم • وقد حدث في سنة ١٧٠٠ أن ثار الامير المتوالي مشرف الصغير على والي صيدا فكلف الوالي الامير بشير الشهابي بقتاله وأعطاه مقابل ذلك حكم صفد ومقاطعات المتاولة• وعين الامير بشير ابن أخيه الامير منصور حاكماً على صفد ، وجعل من تحت يده عمر الزيداني ملتزماً•وكان عمر سنياً قيسياً وهو والد ظاهر العمر المشهور[١] • وقد أفاد الامير الشهابي من اطلاق والي صيدا يده في بلاد المتاولة حيث الامراء ضعفاء نسبياً مما أمن للامير الشهابي نصراً رخيصاً ولذلك نجد الامراء الشهابيين يكثرون من غزو بلاد المتاولة حتى لأتفه الاسباب وسواء بتكليف من ولاة صيدا أو بدونه • وتفسير ذلك ان الامراء الشهابيين ، ومن قبلهم الامراء المعنيين ،قد ضعفت سلطتهم كثيراً بعد القضاء على فخر الدين ، وبدأ ولاة الشام واليمنيون يعارضونهم بشدة • وبزوال نفوذ اليمنيين بعد موقعة عين دارة ازدادت سلطة مشايخ الاسر في جبل لبنان وحد ذلك من سلطة الامير الشهابي • ولهذا كان الامير الشهابي بحاجة الى زيادة نفوذه ، ووجد مجال ذلك ميسوراً نسبياً بحملاته ضد المتاولة • وأفادت مثل هذه الحملات بتكتيل مشايخ الاسر القيسية من وراء الامير الشهابي ورأب الصدوع بينهم تجاه العدو التقليدي المشترك ، المتاولة • وهناك سبب آخر دعا الى تدخل الشهابيين بأمور المتاولة ، وبالتالي الى اشتهار المتاولة في القرن الثامن عشر وزيادة سلطتهم ، وهو الازدهار الاقتصادي في منطقة جبل عامل في هذه الفترة • فقط نشط التجار الفرنسيون في القرن الثامن عشر في سورية الجنوبية وشجعوا التجارة ، وازدهرت بالتالي الحياة الاقتصادية فيها • وتصلح بلاد المتاولة لزراعة التبغ ، وقد اهتم السكان بهذه الزراعة ، لاسيما بعد أن وجدوا سوقاً لحاصلاتها لدى الفرنسيين • وكان هذا الانتعاش الاقتصادي في بلاد

---

١ - شدياق ، ج ٢ ، ١٦ - ٢٨ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٥ - ٦ •

المتاولة من أسباب تدعيم سلطة الامراء المحليين فيها ونشوء المنافسة بينهم ودخولهم في منازعات مع ولاة صيدا حول أموال الميري • وطمع الشهابيون بالاستيلاء على موارد المتاولة ، وكان هذا سبباً في حملاتهم عليهم[١] •

وقد طمع الزيادنة أيضا بموارد المتاولة ، واستخدموا بلادهم كمنطقة نفوذ لهم • وينتسب الزيادنة الى عمر الزيداني • وقد اختلفت المصادر حول أصلهم ، فمن قائل انهم أسرة بدوية ، ومن قائل ان أصلهم من الاشراف• وقد رأينا كيف ان الامير بشهير الشهابي عين في سنة ١٧٠٠ عمر الزيداني ملتزماً في منطقة صفد ، وجعله تحت امرة الامير منصور الشهابي • وحين توفي الامير منصور في ١٧٠٢ خلفه عمر الزيداني في حكم صفد • واستمر في ذلك حتى بعد أن استعاد والي صيدا في ١٧٠٦ المسؤولية المباشرة لحكم صفد وبلاد المتاولة من أمير الشوف الشهابي • وبعد وفاة عمر الزيداني اشتهر ظاهر العمر ، من بين جميع اخوته ، كملتزم في منطقة صفد ، وبدأ في أواخر العشرينيات من القرن الثامن عشر يوطد نفوذه في تلك المنطقة[٢]•

---

١ ـ انظر حول ذلك : حيدر شهاب ، ، لبنان ، ج ١ ، ٥ ـ ٨ ؛ شدياق ، ج ١ ، ١٦ ـ ١٨؛ انظر أيضا ما كتبه L. Massignon : تحت عنوان Mutwali في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ؛

P. Masson, Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIIIe Siècle, Paris, 1911, p. 288.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Histoire du Commerce au XVIIIe Siècle

انظر أيضا :

F. Charles - Roux, Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe Siècle, Paris, 1927, pp. 66 - 67,

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Charles - Roux

٢ انظر : شدياق ، ج ٢ ، ١٦ ـ ١٧ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦ ، ٨ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٢ آ ، ٣٣ آ ؛ عبود الصباغ ، الروض الزاهر في أخبار ظاهر ، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe, 4610 ، انظر الاوراق ، ٢ آ ـ ٣ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : عبود الصباغ ؛ ميخائيل الصباغ ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني ، نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ ، ١٥ ـ ٣٦ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ميخائيل الصباغ ؛ انظر أيضا الكناش المخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا الذي يضم عدة أوراق وكراسات تعالج تاريخ آل الصباغ ، وخاصة ابراهيم الصباغ مستشار ظاهر العمر ، وتاريخ الزيادنة وظاهر ، برقم Cod. Arab. 901

وسندرس في القسم التالي مقدار السلطة التي بلغها ظاهر وكيف أصبح المتاولة ، الذين يفصلون بينه وبين الشهابيين ، مسرحاً لنفوذه ، وكانوا يميلون اليه كلما رجحت كفته على الشهابيين • وشجع هـذا الضغط من الجانبين على المتاولة انقسامهم الى فريقين الواحد يؤيد ظاهر والآخر يؤيد الشهابيين، وتوقف مصير كل فريق على نتيجة الصراع بين ظاهر والشهابيين •

وهكذا نرى أن الامراء الشهابيين والمتاولة والزيادنة بدأوا يلعبون دوراً هاماً في توازن القوى في المنطقة ، واشتبكوا مع ولاة الشام في مناسبات متعددة رغم أن ولاة صيدا كانوا مسؤولين مباشرة عنهم • وقد تدخل ولاة الشام في شؤون هؤلاء الامراء اما لأن ولاة صيدا من أقربائهم أو بسبب اعتداء الامراء على مناطق تخضع لنفوذهم المباشر • وكثيراً ما اعتدى الشهابيون على منطقة البقاع الغنية التي تتبع ولاية الشام • كما أن ظاهر العمر مدّ نفوذه من منطقة صفد ، التابعة لولاية صيدا ، الى منطقة عكا ، التابعة لولاية الشام • وسندرس في القسم التالي علاقة هؤلاء الامراء المحليين بعضهم مع بعض ، وعلاقتهم مع السلطات العثمانية ، وخاصة ولاة الشام •

الفصل التاسع

ولاية مصر في فترة ضعف الدولة العثمانية

من الربع الاخير للقرن السادس عشر الى الربع الاول من القرن الثامن عشر

اشتهرت في مصر في هذه الفترة قوى مختلفة طبعت تاريخ الولاية بطابعها . وقد تتالى ظهورها على مسرح الاحداث بالتدريج . وكانت كل قوة تهيء ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، الساحة لظهور القوى الاخرى. ويمكننا أن نقسم هذه الفترة ، تبعاً لذلك ، الى ثلاثة أقسام : القسم الاول ويمتد من الربع الاخير للقرن السادس عشر الى سنة ١٠١٧/١٦٠٩ ، وقد تمرد في هـذه الفترة بعض العساكر في مصر ، وأثاروا اهتمام الاهالي والسلطات الحاكمة . وأتاح القضاء على هؤلاء العساكر المتمردين في سنة ١٦٠٩ المجال للصناجق والمماليك المنتسبين اليهم بالاشتهار ، ولكن هؤلاء سرعان ما انقسموا الى طائفتي الفقارية والقاسمية . وعلى هذا فان القسم الثاني يعالـج ازديـاد سلطة الصناجق ، والصراع بين طائفتي الفقاريـة والقاسمية الى ان قضي على نفوذهم بين ١٠٧١ - ١٠٧٢/١٦٦٠ - ١٦٦٢ . وقد تميّزَ القسم الاخير الذي يمتد من هذا التاريخ الى الربع الاول من القرن الثامن عشـر بظهور مزيج من القوى في مصر ، واشتهر من بينها أفراد انكشاريون وبيوتات عسكرية ، كما أن طائفتي الفقارية والقاسمية عادتا الى الظهور باطار ومضمون جديدين وكحلفاء للقوى الاخرى . وقـد استفاد مماليك مصر من صراع هذه القوى على النفوذ ومن ضعف السلطة العثمانية فتقووا بمحالفة فريق أو آخر الى أن بلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وخاصة في عهد علي بك الكبير . وسنرى

خلال دراستنا كيف انعكس واقع السلطة العثمانية بقوتها أو ضعفها ، على مجرى الاحداث في مصر •

ولاية مصر من الربع الاخير للقرن السادس عشر الى سنة ١٠٧١/١٦٠٩ • ـ

تميزت هذه الفترة من تاريخ مصر بقصر عهد الولاة اذا ما قورنت بالفترة السابقة . ولم يدم حكم أطولهم مـدة أكثر من خمس سنوات • ويفسر ذلك بالاضطرابات التي حدثت في مصر وأدت أحياناً الى عزل الولاة غير الاكفاء• كما أن كثرة المرشحين في استانبول ، في فترة ضعف الدولة ، شجعت كثرة تبديل الولاة • وقد جوبه الولاة في هـذه الفترة بثورات متكررة من قبل بعض العساكر ، وخاصة السباهية منهم ، فما هي أسباب هذه الثورات وماهي نتائجها ؟ ان التوصل الى ذلك يقتضي أولا معرفـة الفئات التي أيدت الحاكم والفئاتالتي عارضته • ويتبين من دراستنا السابقة انه كان يوجد في مصر في هذه الاثناء عدة فئات تقوم قوتها السياسية اما على أسس عسكرية أو ادارية أو قبلية أو دينية ، أو على مجرد رتب والقاب فقط • فهناك الطوائف العسكرية السبع التي تمتع بعضها مثل المستحفظان (الانكشارية) والعزب بنفوذ كبير ؛ وهناك الوالي والكشاف وأمير الحاج والدفتردار وحاكم الصعيد ؛ وهناك الصناجق أصحاب الرتب والرواتب الذين ظهروا في الفترة السابقة واشتهروا الآن ؛ وهناك القبائل البدوية التي سيطرت على بعض المناطق الريفية ، وكان أكثرها بأساً قبائل الصعيد بسبب الوضـع الجغرافي والاقتصـادي المتميز لمنطقتهم • وكانت الدولـة العثمانية قد بدأت منذ ١٥٧٦ تعين حاكماً من قبلها على الصعيد لقب بحاكم الصعيد ومركزه جرجا • وليس هناك من دليل على حدوث ثورات بدوية شديدة الآن ، كما حدث عقب الاحتلال العثماني ، ربما بسبب معرفة كل من القبائل والسلطات العثمانية حدود نفوذهم وسلطتهم بعد أكثر من نصف قرن من الحكم العثماني • ومع ذلك فقد لعب البدو دوراً ثانوياً في تأييد بعض الثائرين أو قوات الحكومة لان الثائرين كانوا غالباً يلجأون اليهم ؛

وهناك أخيراً العلماء وعلى رأسهم القاضي والمفتي ونقيب الاشراف ، وقد قاموا بدور الوساطة والمصالحة بين الفئات المتخاصمة ، والقيت عليهم المسؤولية في أوقات الازمات .

وكنا رأينا في أواخر الفترة السابقة من تاريخ مصر ، أي في بداية الربع الاخير من القرن السادس عشر[1] ، كيف ظهر كثير من الظلمة والمظالم ، واشترك في ذلك بعض الكشاف والولاة والعساكر . وفي حين أن بعض الكشاف والولاة استغلوا مناصبهم للاثراء ، ثم زال أذاهم بعزلهم واستبدالهم بآخرين ، فان العساكر المتمردين كانوا ينتسبون الى طوائف عسكرية مقيمة في مصر وتتمتع بسلطة شرعية ، وقد استغلوا هذه السلطة للتعسف وابتزاز الأموال ، وصعب على الولاة ازاء ذلك القضاء عليهم بسهولة . وقد قام العساكر بثورة دامية في ولاية أويس باشا (حكم مصر من ١٢ جمادى الثاني ٣١/٩٩٤ أيار ١٥٨٦ حتى وفاته ، كما يرجح ، في ٦ رجب ٣٠/٩٩٩ نيسان ١٥٩١) . وكان قد شغل قبل ذلك منصب قاضي ودفتردار في بلاد الزوم . ويذكر محمد البكري الصديقي أن اويس باشا كان له « التفات لعسكر مصر فقامت نفوسهم لذلك وهجموا عليه »[2] . وقد حدث هجومهم على الباشا في ٢ شوال ١٤/٩٩٧ آب ١٥٨٩، وكان اذ ذاك في الديوان ، فهرب ولكنهم اقتحموا بيته وسرقوا أنفس مافيه، وقتلوا ثلاثة من أتباعه ، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة ، أي القاضي الحنفي الرومي ،بمصر الملا أحمد الانصاري ، وقطعوا رأس باش (رئيس) الجاويشية .وفي ٤ شوال قبضوا على اثنين من القضاة وقطعوا رأسيهما في اليوم التالي. واعتدى العساكر المتمردون على الحوانيت في القاهرة ، وهاجموا بيوت الأكابر بالسلاح ، وأخذوا منهم مايريدون . وهرب بعض الاعيان ، ومن بينهم أمير الحاج المصري . وصب العساكر نقمتهم خاصة على أولاد العرب (أي السكان المحليين) من أصحاب المناصب ، فهاجموا منازلهم وأطلقوا

---

١ ـ انظر ص ١٦٨ .

٢ انظر : التحفة البهية ، ٤٧ آ .

النار عليها • وقد اجتمع قاضي القضاة والدفتردار وغيرهما من كبار الدولة في ٨ شوال/٢٠ آب ، وحذروا العساكر من عاقبة أعمالهم ، ولكن بدون جدوى • واضطر اويس باشا الى اصدار أمره الى قاضي القضاة بمنح العساكر الثائرين مايريدون ، بعد أن أخذوا ابن اويس باشا رهينة حتى ينالوا مطاليبهم • وحين تم لهم ذلك هدأت ثورتهم • فما هي مطاليبهم ؟ انها تتلخص بالسماح لهم بأخذ الطلبة (جمعها طلب) ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين ويأخذونها لأنفسهم بدون وجه شرعي • وأصبحوا يضاعفون هذه المبالغ كلما لمسوا القوة في أنفسهم• واذا كانت نقمتهم قد أنصبت على القضاة بصورة خاصة فذلك لأن هؤلاء حرصوا على تطبيق مبادىء الشريعة التي تمنع الظلم وفرض المال بدون وجه حق[1] •

ولمعالجة أسباب هذه الثورة ونتائجها يجب التعرف أولا الى هوية هؤلاء العساكر الثائرين والى نوعية مهامهم التي مكنتهم من الوصول الى هذه الدرجة من القوة • لقد كان أغلب الثائرين من العساكر السباهية (الفرسان) المتمركزين في الاقاليم ، وكانوا مزيجاً من طوائف الجنليان والتفنكجية والشراكسة[2] • ولا يعني هذا أن جميع أفراد هذه الطوائف كانوا ثائرين ، ولكن الثائرين من بينهم تمتعوا بسلطة كبيرة • كما أن أناساً ليسوا بعساكر اندسوا بينهم فيما بعد للاستفادة من ثورتهم • وقد وُصف الثائرون بأنهم من الغز ، أي من الاتراك سواء من العثمانيين أو المماليك ، وهذا مايفسر كرههم لاولاد العرب ومطالبتهم السلطات ، أثناء ثورتهم ،

---

١ ـ انظر حول ذلك هذه الاحداث : المصدر السابق ، ٤٧ آ ـ ٤٨ آ ؛ محمد البكري الصديقي، الكواكب السائرة ، ٢٠ ب ـ ٢١ آ ، ٢٦ ب ـ ٢٧ آ ؛ أحمد شلبي ، ٧ ب ـ ٨ آ ؛ علي بن حسن الشمالي ، ١١٥ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٥ آ ـ ٣٥ ب ؛ محمد البرلسي السعدي الدمياطي ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم ٨١ تاريخ ، ويوجد فلم مصور عنه برقم ٢٦ في معهد احياء المخطوطات العربية ، التابع للجامعة العربية في القاهرة ، انظر الاوراق ، ٥ ب ـ ٨ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : محمد البرلسي •

٢ ـ انظر حول هذه الطوائف ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

بمنع أولاد العرب من الانتساب الى الفرق العسكرية ومن استخدام المماليك البيض (لأن المماليك البيض هم عادة أتراك مثلهم ، بينما المماليك السود هم من أفريقية ولايمتون اليهم) ، وذلك خوفاً من مقاسمتهم لهم النفوذ والامتيازات • وكانت مهمة العساكر الثائرين مساعدة الكشاف في جمع الضرائب ، والمحافظة على القانون في الكشوفيات • وتجب الاشارة هنا الى أن أراضي مصر الاميرية ، أي السلطانية ، وزعت على ملتزمين يجبون المال ويسلمونه للدولة ، ولم تعط كاقطاعات • وقد تمكن عدد من أفراد هذه الطوائف العسكرية أن يصبحوا في عداد الملتزمين • وكان الالتزام قد نظم في دفتر خاص سمي بدفتر التربيع صدر في ٩٣٣/١٥٢٦-١٥٢٧ ، وذلك بعد صدور القانون نامه • وألغى دفتر التربيع التنظيم المملوكي القديم للأراضي المسجل في دفتر الشراكسة • ولكن الملتزمين أهملوا بالتدريج التنظيم بموجب دفتر التربيع وعادوا الى العمل بدفتر الشراكسة لانه مربح لهم ، فاختل بذلك نظام الالتزام ، وسيطر عليه أصحاب المصالح ، وظهرت تمسكات قديمة بالالتزام ، وخسرت الدولة بذلك عائدات كثيرة[1] •

ومن الاسباب الاخرى التي أدت الى تمرد العساكر انخفاض قيمة العملة الفضية في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وذلك نتيجة لحاجة الدولة الى المال لدفع رواتب الجنود والموظفين المتكاثرين ولسد النفقات المالية الأخرى • وتفاقمت الازمة بتدفق الفضة من أمريكا فانهارت قيمة النقد العثماني[2] • وقد حدث في مصر بالذات في

---

١ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢١ آ ، ٢٢ آ ، ٢٣ آ ، ٢٥ آ ، ٢٦ آ ، ٢٦ ب ، ٢٧ ب ، التحفة البهية ، ٤١ آ ، ٤٥ ب ، ٤٨ آ ، ٥٥ ب ، ٥٧ ب ـ ٥٨ آ ؛ أحمد شلبي ، ٤ آ ، ١١ آ ؛ الاسحاقي ، ١٣٦ ، ١٣٩ ؛ مخطوط باريس Arabe 1855 ، ٣١ آ ؛ محمد البرلسي ، ٣٣ ب ؛ انظر أيضا : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة ، مخطوط مجهول المؤلف ، يوجد في المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 9972 ، انظر ورقة ، ٤ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : زبدة ؛ انظر أيضاً ص ١٦٥ •

٢ ـ انظر تفاصيل أخرى عن ذلك في ص ١٨١ ـ ١٨٢ •

سنة ١٥٨٤ ان خفضت قيمة عملتها المحلية التي تسمى بارة بمقدار النصف[١]، وانخفضت ، تبعاً لذلك ، القيمة الشرائية للرواتب التي تدفع للجند وغيرهم من الموظفين . واذا كان الموظفون المدنيون قد لجأوا الى قبول الرشوة للتعويض عن ذلك ، فان الجند ، وخاصة في الولايات البعيدة عن مركز الدولة ، اما انهم انهاروا وضعفوا ازاء انخفاض قيمة رواتبهم ، كما حدث في اليمن[٢] ، أو أنهم استغلوا قوتهم العسكرية لجمع المال . وقد رأينا كيف أن انكشارية دمشق تعاطوا التجارة والربا ومدوا نفوذهم الى ولاية حلب ، حيث الغنى وفوضى الثورات في أواخر القرن السادس عشر ، وابتزوا أموال الفلاحين[٣] . وعلى غرار هؤلاء استغل الجند السباهية في مصر نفوذهم ووظائفهم في الارياف فضاعفوا جهودهم للحصول على المال ، وفرضوا الطلبة على الأهلين . وكانوا يأتون الى كاشف اقليم ما ويطلبون منه أن يكتب لهم على احدى النواحي مبلغاً من المال بحجة أن أحد الاشخاص اشتكى على شخص آخر أو على مجموعة من الاشخاص في الناحية المذكورة بمبلغ من المال ، فيضطر الكاشف ، ازاء قوتهم ، أن يكتب لهم مايريدون بالاضافة الى حق الطريق ، وربما يعني هذا خدمتهم ؛ ويأخذون المبالغ كلها لهم . وقد حدث أن بلدة بالمنوفية تخص المؤرخ محمد البكري الصديقي كان مقرراً عليها من الضرائب في السنة مائة الف نصف (أي نصف فضة ، وهذا تعبير عامي استخدم للدلالة على البارة المتداولة في مصر)[٤] ، ولكنها غرمت بالطلبة ضعف هذا المبلغ[٥] .

ان تخاذل اويس باشا أمام العساكر المتمردين زادهم نفوذاً ، لاسيما بعد أن لبى مطالبهم . وقد توفي في نيسان ١٥٩١ دون أن يضع حداً لتمردهم . ولم يلق المتمردون أية مقاومة من الواليين اللذين خلفا اويس باشا وهما :

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I.ii. 51.

٢ ـ انظر ص ١٧٢ .

٣ ـ انظر ص ١٥٤ ، ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٤ ـ انظر : Shaw, Ottoman Egypt, 1517 - 1798, p. 56 n. 169

٥ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٧ آ ، التحفة البهية ، ٥٥ب ـ ٥٦آ .

أحمد حافظ باشا الخادم (٩٩٩ ـ ١٥٩١/١٠٠٣ ـ ١٥٩٥) وقورد باشا (١٠٠٣ ـ ١٥٩٥/١٠٠٤ ـ ١٥٩٦) • والجدير بالـذكر ان سـكوت السلطان على حوادث القتل التي قام بها العساكر شجعهم بدوره على التمادي في أعمالهم وعلى زيادة تصميمهم في مقاومة من يقف في طريقهم • وقـد بلغت بهم جرأتهم في عهد الوالي التالي الشريف محمد باشا (١٠٠٤ ـ ١٥٩٦/١٠٠٦ ـ ١٥٩٨) الى حد الهجوم على القاهرة ومحاصرتهم لـه وقتلهم بعض كبار أتباعه • وكانت قد وردت الى الشريف محمد باشـا في بدايـة حكمه عـدة شكاوى تطالبه بمعاقبة اثنين من المتلاعبين بالامـوال السلطانية بمصر ، فشنقهما بعد أن ثبتت التهم عليهما[1] • ويبدو أن ظاهرة القوة هذه قد أخافت العساكر المتمردين فتشجعوا على مهاجمة الباشا • وكان عملهم هذا ، من ناحية ، تطوراً طبيعياً لازدياد نفوذهم ، ومن ناحية أخرى ، استباقاً لمحمد باشا خوفاً من محاولة البطش بهم • وقـد اجتمع العسـاكر المتمردون ، من سائر الاقاليم ، في ١ رجب ٧/١٠٠٦ شـباط ١٥٩٨ ، وهاجموا محمد باشـا ، وكان عائداً من الجيزة برفقة عدد من الامراء ومشايخ البدو والصناجق والانكشارية ، وأطلقوا عليه النار قرب القلعة ، فهرب الانكشارية وحوصر الباشا • وطلب منه العساكر أن يسلّم اليهم بعض كبـار الامراء والموظفين ، فطلب مهلة ، وقبل تحكيم الشرع بينه وبينهم • وكان ذلك محاولة منه لكسب الوقت وليتمكن من الهرب الى القلعة • وبدأ العساكر من ثمَّ بقتل من طالبوا بتسليمهم ، ونهبوا بيوتهم • وكانت نقمتهم منصبة خاصة على أولاد العرب الذين تزيوا بزي الاروام (أي أصبحوا موظفين عثمانيين وتسلموا مناصب هامة في الدولة) • وقد عزل محمد باشا بعد قليل وتمرّد العساكر على أشده •

وثار العساكر من جديد في عهد الوالي التالي الوزير خضر باشـا (١٠٠٦ ـ ١٥٩٨/١٠١٠ ـ ١٦٠١) ، الذي حاول تنظيم ماتمنحه الدولة للعلماء من القمح بعد أن فسد هذا الامر وأصبح حتى التجار يستفيدون

---

١ ـ الاسحاقي ، ١٤٣

منه . وفي ٢٠ رمضان ١٠٠٩/٢٥ آذار ١٦٠١ طلع العساكر يرافقهم قاضي القضاة عبد الوهاب أفندي الى الديوان وطلبوا من خضر باشا تسليم الامير بهرام الذي يعمل كاخيا (مساعد) عنده وبعض جماعته متهمينهم بالتلاعب بالشونة (وهذا تعبير مملوكي قديم استمر استعماله بين العامة للدلالة على عنبر المؤن السلطانية) ، وان يحكم عبد الوهاب أفندي بينهم . ثم هاجم العساكر الكاخيا وقتلوه ، كما قتلوا غيره مثل كاخيا طائفة الجاويشية ويوحنا النبلاوي كاتب الخزينة . وداروا برؤوسهم في القاهرة ثم علقوها على باب زويلة ، وذلك زيادة في التحدي وللدلالة على نفوذهم . وكان موقف الوزير خضر باشا انه أرضى العساكر بتلبية طلباتهم ، بعد أن قتلوا من أرادوا ، وسكنت الفتنة[1] . وربما كان العساكر ، مثل التجار ، يستفيدون من القمح المخصص للعلماء وان التنظيم الذي أدخله خضر باشا قد حدّ من امتيازاتهم ، وربما أن هذا التنظيم بالنسبة للعلماء جعل العساكر أكثر حرصاً على عدم التفريط بحقوقهم في الشونة التي كان يتلاعب فيها الموظفون الذين طالبوا بقتلهم . وليس بمستبعد انهم أجبروا القاضي على مرافقتهم الى الديوان أو ان هذا كان مقتنعاً بصحة دعواهم ويود احقاق العدالة . والجدير بالذكر اننا في مثل هذه الحالات لانسمع عن نتيجة الحكم الذي توصل اليه القاضي ربما لان ذلك سيضر بأحد الطرفين المتنفذين . ومع ذلك ، فالمهم في هذه الفتنة ان العساكر تمردوا وبطشوا بأعدائهم من كبار الموظفين وأتباع الباشا دون أن يحرك خضر باشا ساكناً . وان ارضاءه لهم بتلبية طلباتهم قد أيد دعواهم ، وعزز نفوذهم ، وشجعهم بالتالي على القيام بأعمال أكثر جرأة في المستقبل .

وأظهر حاكم مصر التالي الوزير علي باشا السلحدار (١٠١٠ ـ ١٠١٢/١٦٠١ ـ ١٦٠٣) سطوة بالغة اثر توليه الحكم ، فقتل بعض كشاف

---

١ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢١ ب ـ ٢٣ ب ، ٦٥ ب ، التحفة البهية ، ٤٨ آ ـ ٥١ آ ؛ أحمد شلبي ، ٨ آ ـ ٩ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٥٥ ب ـ ٥٧ آ ؛ محمد البرلسي ، ٨ ب ـ ١١ ب ، الاسحاقي ، ١٤٢ ، ١٤٣

مِصْر ومِنْهُم كَاشِفُ المُنُوفِيَّة بسبب ما قدم اليه من الشكاوى ضدهم وقد حدث في عهده غلاء شديد في أسعار المواد الغذائية وخاصة القمح بسبب قلة مياه النيل • وشرع علي باشا ، رغم ذلك ، في بيع القمح من العنبر السلطاني الى التجار الفرنجة•وحين كان يزور مقام أحمد البدوي في طنطا تعرض له العساكر وأرادوا قتله لتلاعبه بالقمح فرضخ لمطالبهم • وانتشر في هذه الاثناء طاعون شديد عم جميع أقاليم مصر وذهب ضحيته آلاف السكان • ويبدو أن علي باشا في محاولة منه للتكفير عن استغلاله السابق وخوفاً من تعرض العساكر له من جديد ، أمر ملتزم بيت المال بعدم التعرض لاموال أحد ممن يموت بالطاعون • ثم سار الى الديار الرومية مرافقاً لخزنة مصر لحمايتها من العصاة في منطقة حلب[1] ، وعين قائم مقام على مصر أحد الصناجق ويسمى بيري بك ، الذي كان يشغل آنذاك منصب أمير الحاج[2] •

ويتبين لنا من تصدي العساكر لعلي باشا انهم كانوا يدافعون عن قضية حق ويرغبون في توفير القمح لاهل مصر أولا • وسواء استغل العساكر هذه القضية الحقة للتقرب من الاهلين ولاسباغ الصفة الشرعية على تمردهم لتخفيف الكراهية لهم ، أو ان العساكر الذين عارضوا علي باشا لم يكونوا جميعهم من المتمردين بل ضموا عناصر كانت ترغب في منع الظلم ، فان العساكر ، في كلتا الحالتين ، قد وقفوا في وجه الباشا مما أضعف هيبته وزاد من نفوذهم ، وان تهديدهم للباشا الذي وقف في أول عهده ضد الظلمة من الكشاف هو تشجيع للمتمردين على تحدي السلطة القائمة•وهناك ظاهرة هامة حدثت في هذه الاثناء وهي أن القائم مقام بيري بك توفي في ١٥ شعبان ١٠١٢/١٥ كانون الثاني ١٦٠٤ ، فاجتمع الصناجق واتفقوا على توليةصنجق آخر ، وهو عثمان بك ، قائم مقام • واستمر عثمان بك قائماً بالحكم حتى

---

١ ـ انظر ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

٢ ـ انظر : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٣ ب ، ٢٤ آ ، التحفة البهية ، ٥١ آ ـ ٥١ ب ؛ أحمد شلبي ، ٩ ب ـ ١٠ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٥٧ ـ ٥٨ آ ؛ زبدة ، ٤ آ ـ ٤ ب ؛ الاسحاقي ، ١٤٣ ـ ١٤٤

جاء الوالي الجديد ابراهيم باشا . ويظهر من هذا ازدياد أهمية الصناجق في مصر ووقوفهم الى جانب السلطة العثمانية . وقد أشار الاسحاقي[1] الى الذين اختاروا عثمان بك قائم مقام ، أي الصناجق ، بأنهم الامراء وأكابر الدولة . وهذا يدل على أهميتهم الاجتماعية أيضا .

وبلغت جرأة العساكر المتمردين حداً كبيراً حين قتلوا الوالي التالي، ابراهيم باشا ،ولهذا عرف بابراهيم باشا المقتول . فقد ولي مصر في ١٤ ذي الحجة ١٠١٢/١٤ آيار ١٦٠٤ ، وكان مهتماً بازالة الطلبة والتجسس على العساكر المتمردين للقضاء عليهم ، وقد فاجأ بعضهم مرة بقصد البطش بهم فهربوا ، واشتدت العداوة بين الفريقين . ولم تكد تمضي أربعة أشهر وبضعة أيام على بدء ولايته حتى فاجأه العساكر المتمردون ، في ١ جمادى الاول ١٠١٣/٢٥ ايلول ١٦٠٤ ، وكان في جماعة من أكابر مصر بينهم عثمان بك ، القائم مقام السابق ، والدفتردار وقاضي القضاة وغيرهم من الامراء والصناجق ، بالاضافة الى عدد من طائفتي الجاويشية والمتفرقة[2] ، وذلك في شبرا من ضواحي القاهرة . وكان قد شاع نبأ تجمع العساكر لمهاجمة ابراهيم باشا ، ونصحه بعض الصناجق بمغادرة شبرا الى بولاق ، فلم يقبل. وخرج اليه بعض السباهية المتمردين فقتلوه[3] ، وقتلوا معه الامير محمد بن خسرو الذي حاول نصحهم ، وفر بقيـة جماعته . وطاف العساكر بالرأسين في القاهرة للتدليل على سلطتهم وامعاناً منهم في التحدي ، وأقاموا قاضي القضاة مصطفى أفندي قائم مقام بعد أن رفض عثمان بك ، القائم مقام السابق ، عرضهم له لقبول المنصب .

وبقي مصطفى أفنـدي قائم مقام من ٣ جمادى الاول الى ٦ رجب ١٠١٣/٢٧ ايلول الى ٢٨ تشرين الاول ١٦٠٤ حين عين على مصر الوزير محمد باشا الكرجي الخادم . وكانت لديه تعليمات من السلطان بالتفحص

---

١ ـ ص ١٤٧ .

٢ ـ انظر ص ١٤٦ .

٣ ـ انظر مايقوله الغزي ، لطف السمر ، ١٨٣ آ .

عن أصل الطلبة وملاحقة قتلة ابراهيم باشا • وقد جمع العساكر الطائفتين وآغواتهم ، وكذلك الصناجق ، في قره ميدان في القاهرة ، وطلب اليهم التفتيش عن المفسدين واحضارهم اليه • والقي القبض على كثيرين فقتلوا ، وفتك البدو ببعض من هرب • واختلفت الروايات حول مجموع من قتل من المتمردين ، فذكر محمد البكري الصديقي أن القتلى بلغوا نحو مائتين، وذكر كل من أحمد شلبي وصاحب « زبدة تاريخ ملوك مصر المحروسة » انهم كانوا حوالي ثلاثمائة • ومهما يكن ، فلم يقض على جميع العساكر المتمردين لانقصر عهد محمد باشا لم يتح له ذلك ، وقد عزل في آخر صفر ١٦/١٠١٤ تموز ١٦٠٥[1] •

واستعاد العساكر المتمردون بعض قوتهم في ولاية حسن باشا الذي عين على مصر في ٣ ربيع الاول ١٩/١٠١٤ تموز ١٦٠٥ ، وكان يشغل قبلا منصب والي اليمن • وبقي يحكم مصر حتى ٤ صفر ٣١/١٠١٦ أيـار ١٦٠٧ ، وعرف عنه مصانعته للعساكر خوفاً منهم • وقد أتاحت ليونته هذه وطول الفترة التي قضاها في حكم مصر الفرصةللعساكر المتمردين لاستعادة الثقة بأنفسهم وللقيام بثورة كبرى في عهد الوالي التالي الوزير محمد باشا•

عين محمد باشا على مصر في ٧ صفر ٣/١٠١٦ حزيران ١٦٠٧ • وكان وهو في طريقه من الاسكندرية الى القاهرة ، لاستلام منصبه ، ترد اليه الشكاوى من الاهلين ضد الظلم والطلب • ويظهر ذلك مقدار الضرر الذي لحق بالاهلين وأملهم بالباشا الجديد • وليس بمستبعد أن يكون غيره من الولاة قد تسلموا مثل هذه الشكاوى في طريقهم لاستلام منصبهم ،ولكن المؤرخين لم يذكروا ذلك ربما لان الولاة السابقين لـم ينهضوا لمستوى المسؤولية في مكافحة الفساد ، على عكس محمد باشا الذي تم على يديه القضاء على المتمردين • وربما ان قتل محمد باشا الكرجي الخادم ، قبل

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٤ آ ـ ٢٥ ب، التحفة البهية ، ٥١ ب ـ ٥٣ آ ؛ أحمد شلبي ١٠ آ ـ ١٠ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥٨ آ ـ ٥٩ آ ؛ زبـدة ، ٤ ب ؛ محمـد البرلسي ، ١١ ب ـ ١٤ آ ؛ الاسحاقي ، ١٤٧ ـ ١٤٩ •

حوالي ثلاث سنوات ، لكثير من العساكر المتمردين قد شجع الاهلين بعد ذلك على الجهر بالشكوى ضدهم • وقد عقد محمد باشا في ١٥ صفر ١٠١٦/١١ حزيران ١٦٠٧ ديواناً في القاهرة جمع فيه الصناجق وممثلين عن الجاويشية والمتفرقة وآغاوات الطوائف العسكرية الاخرى ، وندد بموقفهم السلبي من مقتل ابراهيم باشا ، وأبرز خطاً سلطانياً شريفاً بمعاقبة القتلة • وأخذ الجاويشية والمتفرقة يلقون التهم على الصناجق ووصفوهم أنهم أصل الفساد وان ظلم العساكر كان يجري بمعرفتهم ، فجرد محمد باشا عند ذلك ثلاثة عشر صنجقاً من رتبهم ورواتبهم ، ونفاهم من القاهرة• وتم اتفاق الحاضرين ، بما فيهم الصناجق الطائعون ، على التفتيش عن قتلة ابراهيم باشا وعلى ازالة الطلب ، وأرسلت الاوامر بذلك الى الارياف ، فتوقفت الطلب لفترة • ورغم هذا الخلاف الذي ظهر في الديوان بين الطوائف المختلفة ـ وأمره ليس بغريب ازاء تعدد الطوائف المجتمعة ومحاولة تقرير مسؤولية كل منها ـ فانه يتبين لنا أن الصناجق قد أصبحوا آنئذ قوة يحسب حسابها وتجابه طائفتي الجاويشية والمتفرقة مجتمعتين •

واتبع محمد باشا أوامره السابقة بالقاء القبض في أوائل جمادى الثاني ١٠١٦/أواخر ايلول ١٦٠٧ على بعض الكشاف الفاسدين مثل كاشف لمنوفية الغربية وكاشف البحيرة فقتلهم وعين آخرين عوضهم بعد أن أخذ لى هؤلاء العهود بالتزام القوانين•ولم يرق هذا التبديل للعساكر المتمردين تصدوا لكاشف الغربية الجديد لمعرفة نواياه ، فتنكر لهم ولافعالهم • هددوه بالقتل ، فهرب وغرق أثناء هربه • وكان هذا الامر من الاسباب لتي عجلت في تصميم محمد باشا على مقاتلة المتمردين • فجمع الامراء أكابر العساكر في قره ميدان ، وأهاب بالمتمردين منهم بالطاعة لله ورسوله الاجتماع تحت لواء السلطنة العثمانية لمقاومة المتمردين ، فخرج جمع بير قضى على من أثار الفتنة السابقة • ومما تجدر الاشارة اليه أن الابتهال ى العاطفة الدينية والى الولاء للسلطان في اثارة حمية الجنود كان يرافقه

وصم العدو بالقاب مشينة تستحق النقمة الدينية كوصف المتمردين السابقين مثلا بانهم خوارج •

ان أوامر محمد باشا بازالة الطلبة وفتكه بالعساكر الذين هددوا كاشف الغربية أظهر لكافة العناصر المتمردة ضرورة الدفاع عن مصالحهم ازاء هذا التحدي القوي • ولهذا اجتمع العساكر المتمردون من مختلف الاقاليم في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة ١٠١٧/النصف الاول من شباط ١٦٠٩ ، عند مقام أحمد البدوي في طنطا ، وتحالفوا على عدم رفع الطلبة وعلى قتل الامير مصطفى ، كاخيا الجاويشية ، وغيره من آكابر الصناجق ، المؤيدين للباشا ضدهم ، وعينوا من بينهم سلطاناً ووزراء ، وتقاسموا حارات القاهرة لنهبها ـ وعنصر النهب هذا حافز هام للقتال • وروع الثائرون سكان القرى التي مروا بها في طريقهم الى القاهرة • وجمع محمد باشا ، من ناحيته ، العناصر الموالية والطائعة من صناجق وجاويشية ومتفرقة وانكشارية وعزب ومرتزقة من اللاوند ، وأهاب بهم لنصرة السلطان ضد أعدائه ، وجعل قائداً عليهم مصطفى بك كاخيا الجاويشية الذي منح رتبة الصنجقية بهذه المناسبة • كما انه استنجد ببعض قبائل البدو ضد الثائرين • وخرجت هذه القوات من القاهرة ، تصحبها المدافع ، في ٩ ذي القعدة ١٠١٧/١٤ شباط ١٦٠٩ ، واصطدمت في اليوم التالي بالثائرين في الخانقاه ، في ضواحي القاهرة • وقد هزم الثائرون وقتل بعض أفرادهم ، وكان من بينهم جماعة ليسوا من العساكر ولايتقاضون أية علوفة ، أي راتب ، وقد اندسوا بينهم لاثارة الشغب وللفائدة الشخصية ؛ وأسر آخرون ، فمنهم من قتل فيما بعد في القاهرة أو على أيدي البدو ، ومنهم من نفي الى اليمن • ويعلق محمد البكري الصديقي في « الكواكب السائرة » و « التحفة البهية »[1] على هذا الانتصار بقوله : « وهو في الحقيقة الفتح الثاني لمصر في الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى » • ويدل هذا القول على مدى النفوذ الذي تمتع به الثائرون الى حد جعلهم يعينون

---

١ انظر الكواكب السائرة ، ٢٦ ب ، التحفة البهية ، ٥٥ آ •

سلطاناً من بينهم ، وعلى مدى الخوف الذي أثاروه في نفوس الاهلين ؛ كما ويدل على اعادة فرض الهيبة العثمانية كما لو أن فتحاً عثمانياً جديداً قد حدث[1] . وقد أفرد محمد البكري الصديقي مؤلفاً صغيراً لهذه الحادثة دعاه « تفريج الكربة في رفع الطلبة » ، وأشار اليه في مؤلفيه السابقين ، ولكن لايعرف مكان وجوده الآن .

وقام محمد باشا اثر الانتصار الذي حققه والغائه الطلبة باصلاحات ادارية لتلافي ظهور مثل هذه المساوىء في المستقبل . فنظم العمل بالالتزام، وفرض ضرائب منصفة على القرى ، فزادت بذلك واردات الدولة المالية . وكان الالتزام يعطى عادة لسنة واحدة يجوز تجديدها ، الا انه أصبح ، تبعاً للمساوىء التي ظهرت ، أشبه بحق ممتلك يتوارثه الاشخاص ، ومن هنا نشوء أسر اقطاعية قوية فيما بعد ذات أثر سياسي ومصالح تدافع عنها حتى أتى محمد علي باشا في أوائل القرن التاسع عشر وألغى الالتزام . ومهما يكن ، فان والي مصر الحالي محمد باشا أمر الآن باجراء تفتيش حول الالتزام . وقد أخذ الالتزام من كل من رأى صك التزامه قديماً ، أو لا قيمة قانونية له ، وأعاده الى الدولة . كما انه منع العمل بدفتر الشراكسة الملغى سابقاً ، وحصر العمل بموجب دفتر التربيع الذي وضعه العثمانيون . ولكن أصحاب المصالح عادوا ، فيما بعد ، للعمل بدفتر الشراكسة بسبب استفادتهم منه . ومن اصلاحات محمد باشا الاخرى انه عين اليوم الثامن والعشرين من كل شهر موعداً لصرف رواتب العساكر والموظفين ، ودفع الرواتب بكاملها ، وذلك لتحاشي تذمر الموظفين ،وخاصة العساكر . وقد تمكن محمد باشا من القيام بهذه الاعمال والبطش بالمتمردين بعد أن ضعفوا في ولاية محمد باشا الكرجي الخادم (١٦٠٤ ـ ١٦٠٥)

---

١ ـ استخدم مثل هذا التعبير من قبل مؤرخ اليمن قطب الدين محمد المكي بمناسبة قضاء سنان باشا على المتمردين في اليمن في الفترة بين ١٥٦٩ـ١٥٧١ ، انظر ص ٧٣ . وفي مناسبة أخرى ، ذكر المؤرخ الدمشقي الخوري ميخائيل بريك ، بمناسبة قضاء والي الشام على اليرلية المتمردين في دمشق في ١٧٥٨ بأنه فتح الشام ، انظر : ميخائيل بريك : تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ١٩٣٠ ، ص٥١:
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : بريك .

الذي قتل بعضاً منهم • كما أن طول مدة ولاية محمد باشا في مصر ، التي بلغت حوالي أربع سنوات ونصف ، قد أتاحت له الفرصة لأن ينفذ هذه الاصلاحات • وخرج محمد باشا من مصر في ١٨ جمادى الثاني ١٠٢٠/ ١٨ آب ١٦١١ ، قبل أن يعزل من منصبه ، مستنداً على النفوذ الذي حصل عليه وطامعاً بمنصب الصدارة العظمى الذي ناله فعلا بعد ذلك • وعين مكانه أحد الصناجق ، محمد بك الدفتردار ، قائم مقام الى أن ولي على مصر محمد باشا الصوفي في ٢٢ شعبان ١٠٢٠/٣٠ تشرين الاول ١٦١١[1] •

ولاية مصر من ١٠١٧/١٦٠٩ الى ١٠٧٢/١٦٦٢

تميزت ولاية مصر في هذه الفترة بظهور الصناجق كقوة سياسية كبيرة • وقد رأينا كيف قام الصناجق ببعض النشاط السياسي بالتعاون مع الولاة ضد العساكر المتمردين • ولكن بعض الصناجق كان على استعداد للعمل خارج نطاق التعاون مع الولاة ، كما حدث حين وقف عدد من الصناجق بجانب العساكر المتمردين • وكان هذا بداية استقلال الصناجق بالرأي عن الولاة واتخاذ موقف خاص بهم كقوة قائمة بذاتها • وبلغ الصناجق درجة كبيرة من النفوذ في الفترة السابقة فعين أفراد منهم في وظائف قائم مقام ودفتردار وأمير حاج وأمير خزنة وحاكم الصعيد وسردار (قائد حملة) • وبعد القضاء على العساكر المتمردين حدث بعض الفراغ السياسي فملأه الصناجق كمنافسين ، ومن ثم كأعداء ، للولاة • وليس هذا بالامر الغريب اذ ان الصناجق بعد أن اعتمدوا على الولاة في توطيد سلطتهم تخلوا عنهم الآن ليعملوا لحسابهم بالدرجة الاولى ، لاسيما بعد أن زال العدو المشترك الذي كان يجمع بين هذين الفريقين • وسنرى في هذه الفترة كيف أن الصناجق تعاونوا مع العساكر في معارضة الولاة حتى اذا ماشتد عودهم تخلوا بالتدريج عن العساكر وأصبحوا قوة قائمة بنفسها تعارض

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٥ ب ـ ٢٩ آ ، ٦٥ ب ، التحفة البهية ، ٥٣ آ ـ ٥٨ ب ؛ أحمد شلبي ، ١٠ ب ـ ١١ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٨ ب ـ ٣٩ ب ؛ محمد البرلسي ، ١٧ ب ـ ٥٥ آ ؛ الاسحاقي ، ١٤٩ ـ ١٥١ ؛ علي بن حسن الشتالي ، ١١٦ آ •

الولاة والعساكر اذا وقفوا ضدهم • وقد اتفق ظهور الصناجق وشهرتهم مع ازدياد قوة المماليك في مصر • وكان المماليك منذ القضاء على ثوراتهم في عهد اينال السيفي وجانم السيفي وأحمد باشا الخائن[٢] قد استكانوا ولكنهم ، مع ذلك ، بدأوا يطورون قوتهم بالتدريج • واستفاد المماليك في تدعيم قوتهم من استمرار الاتيان بهم الى مصر في عهد الدولة العثمانية ومن انشغال الولاة في قتال العساكر المتمردين • واذا كان بعض العساكر من المماليك من طائفة الشراكسة السباهية قد اشتركوا في التمرد السابق ـ وهذا دليل على ازدياد نفوذهم ـ فان المماليك من خارج هذه الطائفة وجدوا متنفساً لقوتهم بأن أصبحوا صناجق • وأفادت رتبة الصنجقية من انتساب المماليك الاقوياء اليها فازدادت قيمتها بازدياد قوتهم ، وكاد يصبح أغلب الصناجق في هذه الفترة من المماليك ، واذا كان المماليك الاقوياء قد رفعوا من قيمة الصنجقية بانتسابهم اليها فانهم أدخلوا اليها أيضاً انقساماتهم التقليدية ، واستفحل بين الصناجق ـ المماليك الانقسام الفقاري ـ القاسمي • واستفاد الولاة العثمانيون من ذلك فضربوا طائفة باخرى الى أن تمكنوا من القضاء على الطائفتين في ١٦٦٠ ـ ١٦٦٢ ، وانهارت اثر ذلك قيمة الصنجقية • وسنرى فيما يلي الاحداث التي أدت الى هذه التطورات •

حدث في مصر في ولاية محمد باشا الصوفي (١٠٢٠ ـ ١٠٢٤/١٦١١ ـ ١٦١٥) ان ورد اليها في ربيع الثاني ١٠٢٢/ حزيران ـ تموز ١٦١٣ عساكر من الروم يقدر عددهم بأكثر من الفي عسكري من القابي قول ، وذلك بغية نفيهم الى اليمن بأمر السلطان • وما ان علموا بمصر بأوامر نفيهم حتى تمردوا ، فأرسل الوالي محمد باشا اليهم طائفة من الصناجق لردهم الى الطاعة بدون جدوى ، فاضطر الى ارسال الجنود ضدهم وأخرجوا من مصر بالقوة • والملاحظ في هذه الفتنة أن محمد باشا أرسل الصناجق للتوسط مع القابي قول مما يدل على ازدياد نفوذ الصناجق في مصر • كما أن عدم استغلال العساكر في مصر لهذه الفتنة للثورة ، اما مستقلين أو بالتحالف

---

١ ـ انظر ص ١٣٨ ١٤٠

مع القابي قول الثائرين ، يدل على أن العناصر المتمردة التي كانت تثور في الماضي قد قضي عليها فعلا ، أو ان ما بقي منها لم يكن بقادر ، على أية حال ، على القيام بأي تمرد • وتجدر الاشارة هنا الى أن الرخاء والرخص في الاسعار ، وخاصة في الحاجيات الضرورية ، الذي حصل في ولاية محمد باشا لابد وانه أزال أي حافز للتمرد قد ينشأ بسبب الغلاء • كما أن توزيع محمد باشا للقمح والعلوفات في مصر بالمجان ، كما يبدو ، أكسبه شعبية زائدة لم يعرفها خلفه أحمد باشا •

حكم أحمد باشا مصر بين ١٠٢٤ – ١٦١٥/١٠٢٧ – ١٦١٨ وزرع الهيبة في النفوس منذ دخوله حين شنق شخصاً القى عليه حجراً بطريق الصدفة في موكب دخوله فأصابه•ثم شرع في مصادرة أموال الباشا السابق، كما جرت العادة ، ليستفيد من ذلك وليتقرب من السلطة في استانبول التي تربح من هذه المصادرة • وحدث في عهده أن خرجت أربع حملات عسكرية من مصر الى جبهات مختلفة فلم يسبب ذلك انتقاصاً لهيبة الوالي ، ولم يحدث شغب اثر ذلك ، مما يدل على قوة السلطة الحاكمة بعد البطش بالعناصر المتمردة • وظهرت هذه القوة حين بطش أحمد باشا بعشرة أشخاص ثبتت اداناتهم بجرائم مختلفة ، وحين تدخل وصادر كميات من القمح المخزون ليمنع استفحال الغلاء • وبالفعل كان الأمن مستتباً في عهد أحمد باشا • وحدث حين عزل في ١٢ صفر ١٠٢٧/٨ شباط ١٦١٨ أن قام عليه العساكر والصناجق وأخذوا ما تأخر لهم من رواتبهم[1] • والمهم هنا أن قيام العساكر والصناجق كان للمطالبة بحقوقهم وليس لمجرد التمرد، وان عملهما المشترك يعكس نفوذ الصناجق وتحديهم لسلطة الولاة ،بالاتفاق مع العساكر ، في هذه الفترة التي كانوا يبتعدون فيها بالتدريج عن الولاة لانشاء قوة مستقلة •

---

١ – انظر حول هذه الاحداث : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٩ آ – ٣٠ ب، التحفة البهية ، ٥٨ ب ، ٦١ آ أحمد شلبي ، ١١ ب – ١٢ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٤٠ آ – ٤١ آ ؛ زبدة ، ٤ ب – ٥ آ ؛ الاسحاقي ، ١٥١ ١٥٢

وتوالى على حكم مصر في الفترة بين ١٠٢٧ - ١٠٣٢/١٦١٨ - ١٦٢٣ ستة ولاة • وقد حدثت في عهد أولهم وهـو مصطفى باشـا (١ جمادى الاول ١٠٢٧ - ١٣ محرم ١٠٢٨/٢٦ نيسان - ٣١ كانون الاول ١٦١٨) فتنة من قبل بعض العساكر وكبار الموظفين الذين استغلوا لين الباشا وتحكموا بالملتزمين وعينوا من أرادوا للمناصب العليا ، وخشي الناس من العودة الى مايشبه عهد العساكر المتمردين • ولكن تدخل العساكر الموالين الى جانب الباشا وسرعة بطشهم برؤوس الفتنة ، قضى عليها قبل استفحالها ، وعزل الباشا اثر ذلك • وحدث طاعون شديد في عهد الوالي التالي ، جعفر باشا، طغت آثاره على المنازعات السياسية • وقد مارس الوالي الثالث ، مصطفى باشا (٢٧ رمضان ١٠٢٨ - ١٧ رمضان ١٠٢٩/٧ ايلول ١٦١٩ - ١٦ آب ١٦٢٠) ، كثـيراً من الظلم في مصر وخاصـة بالنسبة للتجار وأصحاب الاموال ، وكثرت العوانية في عهده ، ومع ذلك فلم تحدث ثورة ضده • ويمكن تفسير ذلك بأن آثار الطاعون قد أضعفت مقاومة السكان واستعدادهم للثورة ، كما أن الذين تعرضوا الآن لظلم الباشا كانوا من التجار وأصحاب الاموال وليسوا من العساكر الذين يمكنهم الثورة بسهولة • وكان كل ما فعله التجار وأصحاب الاموال أن أرسلوا الشكاوى الى استانبول • ويدخل هنا عامل التنافس الاجتماعي اذ أن الطبقات المتوسطة والفقيرة التي كان من الممكن أن تثور أو أن تستغل نقمتها فيما اذا تهددت مصالحها لابد وانها كانت شامتة بما حصل للطبقة الغنية ، وعلى هذا فعناصر الثـورة لم تكن مكتملة • زد على ذلك أن مصطفى باشا كان قوياً بدليل قتله لشخص متنفذ في مصر هو مصطفى باشا بقجلي دون أن يثير هذا أي اضطراب ، عـلى عكس ما توقع كثير من الناس •

وحدث في عهد الولاة الآخرين طاعون آخر ، وزيادة في مياه النيل أضرت بالزراعة ، واختلال في قيمة النقد • ونتج عن هذه الاسباب مجتمعة

غلاء شديد في أسعار المواد الغذائية طغى على المنازعات السياسية[1] •

ولابد أن نتساءل هنا عن أسباب قصر عهد هؤلاء الولاة اذا ما قورن ذلك بالفترات السابقة • يبدو أن أهم أسباب ذلك اضطراب الحالة الاقتصادية في مصر بسبب الغلاء الذي حصل ومرده اما الى سوء الاحوال الطبيعية ، أو الى انخفاض قيمة النقد وهذا مرتبط باقتصاد الدولة بكاملها • كما أن تكرر حدوث الطواعين وأثرها في زيادة الوفيات ، وبالتالي في تعطيل الفعاليات البشرية ، من شأنه ان يوجد عدم استقرار في الحالة الاقتصادية • وانعكس اضطراب الاحوال السياسية في استانبول ، في هذه الفترة ، على مجرى الاحداث في مصر ، وفي غيرها ، ونتج عن ذلك كثرة تبديل الولاة• فقد اعتلى منصب السلطنة في ٢٢ ذي القعدة ١٠٢٦/٢٢ تشرين الثاني ١٦١٧ السلطان مصطفى الاول وكان ضعيف العقل ، ثم ما لبث أن خلع بعد حكم دام حوالي ثلاثة أشهر • وكان أول سلطان عثماني خلع عن منصبه ، كما انه أول سلطان عثماني شذ في تعيينه عن القاعدة العثمانية المتبعة ، حتى ذلك الحين ، في أن يخلف الابن أباه في السلطنة • فقد كان السلطان مصطفى شقيق السلطان السابق أحمد الاول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ، وكان أيضا أول سلطان دام حكمه مثل هذه المدة القصيرة • وخلفه في السلطنة عُثمانُ الثاني ، ابن السلطان أحمد الاول ، وذلك في ٢٦ شباط ١٦١٨ ، فاستمر في الحكم حتى أيار ١٦٢٢ حين قتل في ثورة الانكشارية في استانبول• وأعيد السلطان مصطفى الاول مجدداً الى الحكم ، ولكنه عزل في ١٥ ذي القعدة ١٠٣٢/ ١٠ ايلول ١٦٢٣ ، وعين خلفاً له السلطان مراد الرابع ، ابن السلطان أحمد الاول [2] ، ودام حكمه حتى ١٦٤٠ • وبلغت الدولة العثمانية في عهده درجة كبيرة من القوة •

---

١ - انظر حول ذلك : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٣٠ ب - ٣٢ ب ، ٦٥ ب ، التحفة البهية ، ٦١ آ - ٦٥ آ ؛ أحمد شلبي ، ١٢ ب - ١٣ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٤١ آ - ٤٢ آ ؛ الاسحاقي ، ١٥٣ - ١٥٤ ؛ زبدة ، ٥ آ - ٥ ب •

٢ - انظر حول هذه الاحداث : علي بن حسن الشمالي ، ١١٠ ب - ١١١ آ ؛ Creasy, 241 - 246؛ انظر ما كتبه J. H. Kramers تحت عنواني Mustafa I, Othman II في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ؛ انظر ص ١٧٩ •

واذا كان قصر عهد الولاة لم يبلور سياستهم تجاه القوى المختلفة في مصر ، أو بالعكس ، فلا يعني ذلك ان هـــذه القوى ، وخاصة العساكر والصناجق ، قد تخلت عن نفوذها • واذا بقيت ساكنة بعض الشيء فلأن الولاة كانوا حريصين على عدم الاضرار بمصالحها • كمـا أن الكوارث الطبيعية طغت على أخبار هذه القوى ان لم تكن قد أضعفتها • ورغم أن تعدد الولاة وقصر مدتهم كان مضراً بمصالح الشعب بسبب محاولة الولاة الاثراء بأقصر مدة ، الا انه كان مربحاً للعساكر الذين كانوا يتقاضون من كل وال جديد مايسمى بمال الترقي ، أي ضريبة ارتقاء المنصب[1] •

وفي عهد مصطفى باشا الذي عين على مصر في ٢٢ رمضان ١٠٣٢/ ٢٠ تموز ١٦٢٣ ظهر الصناجق والعساكر كقوة كبرى تجابه الولاة • ففي ١٤ ذي الحجة ١٠٣٢/٩ تشرين الاول ١٦٢٣ عزل مصطفى باشا وعين علي باشا خلفاً له ، فلم يقبل العساكر والصناجق ذلك ، وأبقوا مصطفى باشا ، وكتبوا محاضر وقع عليها كبار العلماء وأرسلوها الى السلطان للموافقة على عملهم ، فقبل السلطان ذلك ، واستمر مصطفى باشا يحكم مصر حتى عزل عنها في ١٨ شعبان ١٠٣٥/١٥ أيار ١٦٢٦ • ونتساءل هنا لماذا وقف العساكر والصناجق الى جانب مصطفى باشا وتحدوا أوامر السلطان بتعيين علي باشا ؟ من أسباب ذلك أن أسعار القمح وغيره من الحبوب في مصر انخفضت عما كانت عليه بعد تعيين مصطفى باشا ، ومن شأن هذا أن يرضي السكان • ولكن الاهم من ذلك ، فيما يتعلق بالعساكر الذين اعتادوا على أخذ مال الترقي ، ان علي باشا رفض دفع هذا المال ، خلافاً لما جرت عليه العادة • وكان العساكر في احتجاجهم الى السلطان قد أظهروا خلاف ذلك، وتمسكوا بالناحية المثالية ، واحتجوا على عزل الوالي بعد فترة قصيرة لان في هذا ، على حد زعمهم ، « اجحاف على الرعية وخراب على البلاد » • ويبدو أن العساكر كانوا غير صادقين في دعواهم هذه لانهم استفادوا بالواقع من هذا التبديل ، وربما استخدموا الناحية المثالية لكسب عطف الشعب

---

١ ــ محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٢٣ ب ، التحفة البهية ، ٥٢ آ •

نحوهم ولاسترضاء السلطان بعد معارضتهم تعيين علي باشا • وكان مصطفى باشا قد أطمع العساكر بدفع مال الترقي لهم من جديد اذا دعموا استمراره في الحكم • وعكف بعد تثبيته في منصبه على اغناء نفسه للتعويض عما فقده من مال • وكان يتبع سياسة التوازن في ابتزاز الاموال • فقد صادر أموال كثير من الاغنياء ، خاصة اثر الطاعون الذي حدث في عهده ، واسترضى بالمقابل عامة الشعب لكسب دعمهم وذلك بالترفيه عنهم في بعض المناسبات • ويذكر انه احتفل بالعيد في قره ميدان بشكل لم يعرف سابقاً اذ انه أمر أصحاب الملاهي والملاعب بالعمل ليل نهار لتسلية السكان • وعمر زاوية في الرميلة ورصد لها الاوقاف وكسب بذلك عطف أصحاب الطرق الصوفية • وحين جاء أمر عزله منعه الصناجق من السفر الى أن جاء الوالي الجديد ، بيرم باشا ، الذي الزمه بدفع مبلغ من المال للخزينة لقاء ما ابتزه من الشعب • وتكرر فرض الصناجق لنفوذهم حين ورد أمر عزل بيرم باشا في ٩ محرم ١٠٣٨/٨ ايلول ١٦٢٨ ، وأجبروه على دفع مبلغ من المال للخزينة لقاء ماربحه أثناء ولايته من المتاجرة في مختلف السلع[١] •

ان كثرة ورود ذكر الصناجق مؤخراً والادوار السياسية المتلاحقة التي قاموا بها تنبيء بالدور الذي سيلعبونه بشكل متزايد في المستقبل • واذا استعرضنا موقفهم في السنوات الاخيرة وجدنا أنهم في فترة تلمس قوتهم كطائفة مستقلة عن الولاة عملوا بالاشتراك مع العساكر ، ولكنهم ظهروا أخيراً يعملون بمفردهم ، كما حدث في نهاية حكم مصطفى باشا وبيرم باشا • وبتوطيد شهرة الصناجق كطائفة بدأ يظهر بينهم أفراد اشتهر أمرهم فاستفادوا هم من ذلك وأفادوا الطائفة بمجموعها •

وحدث في ولاية محمد باشا (٩ محرم ١٠٣٨ ـ ٨ ربيع الثاني ١٠٤٠/٨ أيلول ١٦٢٨ ـ ١٤ تشرين الثاني ١٦٣٠) ان وردت أنباء عن

---

١ محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٣٣ آ ـ ٤١ ب • التحفة البهية ، ٦٥ آ ـ ٦٨ ب ؛ أحمد شلبي ، ١٣ ب ـ ١٤ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٤٢ آ ـ ٤٣ آ •

اختلال أحوال اليمن ، فعرض محمد باشا الامر على السلطان مراد الرابع وأوصى بتعيين الامير قانصوه بك ، أمير الحاج وأحد الصناجق المشهورين ، والياً على اليمن ، فوافق السلطان وأضاف اليه ولاية الحبش أيضاً . ومما يسترعي الانتباه أن تعيين قانصوه بك لهذه المهمة دليل على مكانته الشخصية. وليس بمستبعد أن محمد باشا كان يخشى نفوذ قانصوه بك وأتباعه فدبر له هذا التعيين . وقد اصطحب قانصوه بك عدداً من الصناجق الذين منحوا رتبة الصنجقية بهذه المناسبة ، وذلك بالاضافة الى العساكر الذين اكتتبوا في مصر خصيصاً للحملة ، والعساكر الذين أرسلهم السلطان من الروم . وتجدر الاشارة الى أن تعيين قانصوه بك والياً على اليمن وعلى الحبش لم يكن حادثاً فريداً اذ ان صنجقاً آخر من مصر كان يشغل ، في هذه الفترة ، منصب والي جدة[1] . كما أن القائم مقام الذي عينه قانصوه بك على الحبش كان هو الآخر صنجقاً[2] .

واصطدم الصناجق بالوالي التالي موسى باشا (٣ جمادى الثاني — ١١ ذي الحجة ١٠٤٠/٧ كانون الثاني — ١١ تموز ١٦٣١) اثر قتله لاحد أفرادهم ، وخرجوا من ذلك أشد نفوذاً وقوة . وكان موسى باشا قد قام اثر وصوله الى مصر بقتل بعض الموظفين ومصادرة أموالهم ، وكان يعتمد على أتباعه في ذلك . واحتج لديه الصناجق والعلماء على هذه الاعمال فعزاها الى مساعده (الكاخيا) وعزله في محاولة منه لاسترضاء المحتجين ، ولكنه سرعان ما عاد الى ابتزاز الاموال . ووردت في شهر شعبان ١٠٤٠/آذار — نيسان ١٦٣١ أوامر سلطانية بتوجيه عساكر من مصر الى الجبهة الصفوية فأحضر موسى باشا أحد كبار الصناجق ، ويدعى قيطاس بك ، وطلب اليه أن يكون سرداراً (قائداً) للحملة لانه ، كما ذكر موسى باشا ، « ليس في مصر من صناجقها أحد له قدرة على ذلك سوى أنت والامير قاسم بيك والامير رضوان الزلفقاري . فأما قاسم بيك فانه رجل كبير واما رضوان بيك

---

١ — محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٣٨ آ .

٢ — محمد البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٦٩ ب .

فهو أمير الحاج الشريف »[1] • فقبل قيطاس بك وجمع مال الميري لتمويل الحملة فبلغ نحو مائة كيس[2] أخذها موسى باشا ، كما انه أخذ نحو اثنين وعشرين كيساً من مال قيطاس بك ، ثم صرف النظر عن الحملة واحتفظ بالمال مما أغاظ قيطاس بك •

وحدث في ٩ ذي الحجة ١٠٤٠/٩ تموز ١٦٣١ ، يوم وقفة العيد ، ان ذهب الصناجق ، على عادتهم ، لزيارة الباشا في القلعة ، وكان بينهم قيطاس بك الذي لم يرد زيارة موسى باشا لولا الحاح رفاقه • وقد رحب به موسى باشا ، وحين هم بالانصراف انفرد به أتباع الباشا وقتلوه بحضور اثنين من الصناجق اللذين لم يستطيعا أن يفعلا شيئاً • وأمر موسى باشا ، والصناجق منشغلون بدفن قيطاس بك ، بمصادرة ماله ، فمنعه الصناجق لانه ليس عليه مال للدولة ، وأرسلوا تنبيهاً الى جميع العساكر بمقاطعة الباشا في العيد ، وقد تم ذلك مما يدل على التساند بين العساكر والصناجق • واجتمع في اليوم التالي قادة العساكر في بيت كبير الصناجق الامير قاسم بك ، وانتقلوا بعد ذلك الى منزل قاضي القضاة ، وطلبوا منه الذهاب الى الباشا والاستفهام منه فيما اذا كان قتل قيطاس بك قد تم بأمر السلطان ، كما يدعي ؟ واذا كان الامر كذلك فيجب أن يظهر أوامر السلطان ، وان كان غير ذلك فيجب تسليم القتلة • وحين فوتح الباشا بالامر ذكر ان ذلك كان بأمر السلطان ولكنه رفض اظهار الامر ، كما رفض تسليم أحد من أتباعه • ولم يخف على الصناجق كذب الباشا ولكنهم أرادوا اكساب الشرعية لعملهم • وقاموا اثر ذلك بقتل أربعة أنفار من أتباع الباشا •

---

١ ـ المصدر السابق ، ٧١ ب •

٢ ـ الكيس وحدة عثمانية في التعامل النقدي استخدم خلال القرن السابع عشر ، واختلفت قيمته النقدية حسب الزمان والمكان • ففي استانبول كان يتالف عادة من خمسمائة قرش ودعي بالكيس الرومي ، بينما كان يساوي الكيس المصري ستمائة من القروش التركية • وبقي الكيس يستخدم كوحدة نقدية حتى الغي في ١٨٦٢ أثناء فترة التنظيمات ، انظر :

S. J. Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, The Nizamname - i Misir of Cezzar Ahmad Pasha, Harvard, 1962, see p. 10 n. 4.

سنذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Ottoman Egypt in the 18th century

وفي ١١ ذي الحجة اجتمع الصناجق والعساكر في الرميلة وذهب أكابرهم الى مدرسة السلطان حسن حيث اجتمعوا بقاضي القضاة ونقيب الاشراف والمفتي • وكان أول المتكلمين علي بك الفقاري الذي تبنى أمر الدفاع عن قيطاس بك فطلب من العلماء مقابلة الباشا والاستفهام منه ،للمرة الثانية ، عن سبب القتل • واتهم المجتمعون ثمانية أشخاص من أتباع الوالي بأنهم اشتركوا في قتل قيطاس بك وطالبوا الباشا بتسليمهم ، وهددوا باقامة قائم مقام بدلا عنه اذا رفض طلباتهم • وبالفعل رفض الباشا هذه الطلبات فارتأى علي بك الفقاري مهاجمته ، ولكن الامير قاسم بك رأى الاكتفاء بتولية حسن بك ، الدفتردار السابق ، قائم مقام • وقد تم ذلك على يد نقيب الاشراف ، وأنزلوا الباشا من القلعة • وكتب الطرفان الى السلطان والصدر الاعظم بوجهات نظرهما•وكانت النتيجة ان عزل السلطان موسى باشافغادر مصر في ١٢ محرم١٠٤١/١٠ آب ١٦٣١ • واضطره الطرف المعارض الى دفع مائتي كيس لقاء مادخل عليه من مال • واستمر حسن بك قائم مقام الى أن وصل الوالي الجديد خليل باشا البستنجي • وقد ظهر في هذه القضية الصناجق والعساكر والعلماء • وكان اعتراف السلطان بعزلهم الباشا تأييداً لموقفهم ، وشجعهم على الاستمرار في معارضة الولاة[1] •

ظهور الطائفة الفقارية واصطدامها بالطائفة القاسمية • أشار موسى باشا ، كما رأينا ،الى ثلاثة من أبرز الصناجق في مصر وهم الامير قيطاس بك الذي قتل ، والامير قاسم بك المسن ، والامير رضوان بك الفقاري أمير الحاج الذي كان في الحجاز أثناء الفتنة • وظهر الى جانب هؤلاء الامير علي بك الفقاري الذي تبنى موقف العنف ازاء موسى باشا ،والامير قاسم بك ومملوكه حسين بك ، والامير حسن بك القائم مقام ، وغيرهم من الصناجق• وكان أبرز هؤلاء الامير رضوان بك الفقاري الذي شغل منصب أمير الحاج باستمرار لعدة سنوات •

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٤١ ب ٤٥ آ ، ٦٥ ب ، التحفة البهية ، ٦٩ آ ـ ٧٤ ب ؛ أحمد شلبي ، ١٤ ب ؛ مخطوط باريس ،رقم Arabe 1855 ، ٤٣ ب ـ ٤٤ آ •

وقد حدث في أواخر رمضان ١٠٤١/منتصف نيسان ١٦٣٢ ان وردت أنباء الى مصر عن قدوم عساكر متمردين من اليمن الى الحجاز وتغلبهم على الاشراف وقتلهم للصنجق الحاكم في جدة • فجهز والي مصر خليل باشا حملة كبيرة في البر والبحر بقيادة قاسم بك ، ورافقه عدد من الصناجق من بينهم علي بك الفقاري • وسافر مع الحملة رضوان بك الفقاري لأن خروج الحملة في النصف الثاني من شوال اتفق مع خروج الحاج • ونجحت الحملة في القضاء على العصاة ، وعادت الى مصر في أوائل ربيع الاول ١٠٤٢/النصف الثاني من ايلول ١٦٣٢ • وكان أول من دخل القاهرة رضوان بك الشهير بابي الشوارب فوبخه خليل باشا لانه سبق العساكر ، وهذا يعني انه لم يكن أهم شخص في الحملة ، وتلاه الامير قاسم بك والامير علي بك الفقاري في ٧ ربيع الاول ، فخلع عليهم الباشا ، وبعد ثلاثة أيام من ذلك دخل الامير رضوان بك أمير الحاج فخلع عليه الباشا زيادة عن الآخرين • وربما كان تأخر رضوان بك لفصل الحجاج عن عساكر الحملة خوفاً من أذاهم وربما سبقه الأخيرون لتمهيد الجو لدخوله ، ولكن اكرامه زيادة عن الآخرين ، بما فيهم قائد الحملة ، يدل على عظمة نفوذه •

وفي ٢ شعبان ١٠٤٤/٢١ كانون الثاني ١٦٣٥ وردت أوامر سلطانية الى مصر بتجهيز ثلاثة آلاف عسكري وتعيين اما رضوان بك الفقاري أو علي بك الفقاري سرداراً عليهم وارسالهم الى الجبهة الصفوية • ورغم ان هذا يدل على أهمية الفقاريين فقد اعتذرا عن الذهاب لان الاول كان أميراً للحاج بينما كان الثاني حاكم الصعيد • وقد عين صنجق آخر لقيادة الحملة • ونستدل من هذا أيضا ان الزعيمين الفقاريين كانا يشغلان منصبين هامين في مصر •

وبلغ رضوان بك ذروة نفوذه بتعيينه قائم مقام اثر عزل أحمد باشا في ٢٥ جمادى الاول ١٠٤٥/٦ تشرين الثاني ١٦٣٥ • وسار رضوان بك بالعدل ولم يفد أتباعه من امتيازات منصبه • وحين تسلم الوالي الجديد

حسين باشا حكم مصر في ٧ رجب ٢٧/١٠٤٥ كانون الاول ١٦٣٥ حصل منه ومن أتباعه الاذى للسكان ، وفرضوا المال عليهم ، فأغلقت أسواق مصر احتجاجاً ، وذهب أصحاب الدكاكين الى رضوان بك الفقاري وشكوا اليه حالهم ، فتكلم مع الباشا الذي امتنع وأتباعه بعد ذلك عن الاذى المباشر . ولكنه انصرف الى أنواع أخرى من الظلم فبدأ يصادر أموال المتوفين بقطع النظر عن وجود ورثة لهم ، وأجبر الناس علـى قبول قطع نقدية ناقصـة الوزن . وحين عزل حوسب عما جمع من مال بطريق الظلم . واحتجزه الصناجق ولم يتركوه يغادر مصر حتى دفع ما فرض عليه من مال[1] .

وبعد ان رأينا الدور الهام الذي لعبه رضوان بك والنفوذ الذي حصل عليه لدى الشعب ، ولما كان هو أيضا المؤسس الفعلي لطائفة الفقارية التي نافستها الطائفة القاسمية ،فيجدر التعرف هنا الى هويتهوالى أتباعه والى أسس قوته وأهميته كصنجق .

ينسب الامير رضوان بك الى ذي الفقار الذي يعتبر المؤسس الاسمي للطائفة الفقارية . ولكن ليس هناك من دليل على وجود ذي الفقار هذا . ويذكر المحبي الدمشقي صاحب « خلاصة الأثر » ان الامير رضوان بن عبد الله كرجي الاصل ، وهو من مماليك ذي الفقار أحد أمراء مصر المشهورين وانه لما مات مولاه المذكور رق حال رضوان بك ثم استغنى ونبه قدره[2] . والصحيح في كلام المحبي ان الامير رضوان كان مملوكاً بالاصل ، ويدل على ذلك أيضا اسم أبيه عبد الله ، وهذه تسمية غالباً ما استخدمت في نسبة المماليك اما لعدم معرفة اسم الأب أو كبديل لاسم غير مسلم.اما قول المحبي

---

١ ـ انظر حـول الاحـداث السابقة : محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٤٥ آ ـ ٥٢ آ ، التحفة البهية ، ٧٤ ب ـ ٨٠ آ (هنا تنتهي الحوادث السياسية في المخطوط الاخير وذلك بانتهاء ولاية خليل باشا في ٢٢ رمضان ٢/١٠٤٢ نيسان ١٦٣٣ ، ويستمر المخطوط ، مع ذلك ، في ذكر أسماء قضاة مصر حتى محرم ١٠٣٨ حين ينتهي في ورقة ٨٦ آ) ؛ أحمـد شلبي ، ١٤ ب ـ ١٦ آ ؛ مخطوط باريس ، رقـم Arabe 1855 ٤٤ آ ـ ٤٦ آ ؛ زبدة ، ٥ ب ـ ٦ ب ؛ علي بن حسن الشمالي ، ١١٢ آ ـ ١١٢ ب .

٢ ـ المحبي ، ج ٢ ، ١٦٤ ـ ١٦٦ .

بأن مولى (والاصح أستاذ)[1] رضوان هو ذو الفقار فليس هناك مايؤيده على الاطلاق ، ويشبه هـذا القول في بعده عن الصواب قول عبد الرحمن الجبرتي[2] بأن ذا الفقار وقاسم (المؤسس الاسمي لطائفة القاسميه) كانا أخوين معاصرين للسلطان سليم الاول ، وان طائفتي الفقاريـة والقاسمية تشكلتا منذ ذلك الحين ، وان الاولى تميزت بلبس الابيض ومالت الى فرقة نصف سعد والثانية بلبس الاحمر ومالت الى فرقة نصف حرام المعارضة . ودليلنا على أن كلام الجبرتي بعيد عن الحقيقة هو انه كان يكتب في الربع الاول من القرن التاسع عشر ؛ وان المؤرخين المعاصرين للسلطان سليم ، أمثال ابن اياس وابن زنبل ،الذين اطلع الجبرتي على كتاباتهم ، لايشيرون بشيء الى ذي الفقار أو قاسم هذين . ولا يشير اليهما أيضا بمثل هذا المعنى أحمد شلبي صاحب « أوضح الاشارات » الذي اعتمد الجبرتي عليه كثيراً. وبالاضافة الى ذلك فان الجبرتي نفسه يشكك في آخر كلامه عن ذي الفقار وقاسم بقوله « وقيل غير ذلك وان أصل القاسمية ينسبون الى قاسم بيك الدفتردار تابع مصطفى بيك والفقارية نسبة الى ذي الفقار بك الكبير وأول ظهور ذلك من سنة خمسين والف والله أعلم بالحقائق »[3] وهذا أيضا غير صحيح نظراً لانتساب رضوان بك وعلي بك الى ذي الفقار قبل هذا التاريخ. ويشبه قول الجبرتي في عدم صحته حول أصل الطائفتين قـول صاحب « الدرة المنصانة » الذي يعود بأصل الطائفتين الى زمن السلطان سليم الاول، فيقول « كان بعد فتح السلطان سليم أمـير الحاج زين الفقار بيك وكان الدفتردار قاسم بيك » . ولايؤيد أي مصدر معاصر للسلطان سليم وجود هذين الموظفين . ويذكر أيضا صاحب هذا المؤلف انه في زمنه ، أواسط القرن الثامن عشر ، كانت مواكب الفقاريـة تحمل شعارات تختلف عن

---

١ ـ انظر ص ١٤ .

٢ ـ انظر مؤلفه : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، أربعة أجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، انظر الجزء الاول ، ص ٢١ ـ ٢٣ .

٣ ـ المصدر السابق ، جـ ١ ، ٢٣ .

شعارات مواكب القاسمية[1] • ويذكر مصطفى القينلي في مخطوطه معلومات مشابهة لهذه[2] •

ان قضية الانقسام الى طائفتين أو فرقتين أثناء الصراع على النفوذ أمر شاع في بلاد الشام في ذلك الوقت وفي غيره من الاوقات ، وقد بدأ ذلك لدى القبائل العربيـة في الجزيرة • فالانقسام الى يمنيـة وقيسية في بلاد الشام[3] ، واتخاذ الاولى الراية الحمراء والثانية الرايـة البيضاء للتمييز بينهما عم مناطق الريف ،وحتى الاحياء ضمن المدينة[4]• واختلفت التسمية في مصر[5] فوجدت فيها فرقة نصف سعد التي عارضتها فرقة نصف حرام• وبالتدريج حـل مكان هاتين التسميتين في القرن السابع عشـر التعبيران قاسمية وفقارية[6] •

ومهما يكن فان رضوان بك الفقاري كان مملوكاً واشتهر في مصر حوالي سنة ١٦٣٠ كأمير للحاج وبقي يشغل هذا المنصب باستثناء فترات قصيرة ، حتى وفاتـه في ١٦٥٦/١٠٦٦ • ويعتبر الزعيم الفعلي ، وربما المؤسس ، لطائفة الفقارية التي تألفت نواتها من مماليكه بالاضافة الى أمراء

---

١ ـ انظر : الدرة المنصانة في وقايع الكنانة ، مخطوط مجهول المؤلف ، في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا ، برقم Cod. Arab. 399 ، انظر الاوراق ١ ب ـ ٢ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الدرة المنصانة •

٢ ـ انظر : مصطفى ابن الحاج ابراهيم المداح القينلي ، مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠ الى آخر تاريخ المجموع (أي ١١٥٢ هـ) ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، برقم Cod. Arab. 931, H. O. 38 انظر ورقة ٣ آ ؛ سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : مصطفى القينلي •

٣ ـ انظر ص ٢١٥ •

٤ ـ انظر ص ١٦١ •

٥ ـ انظر : P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, p. 80

انظر أيضاً ما كتبـه P. M. Holt تحت عنـوان Du'l - Fakariyya في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ؛

انظر أيضاً :

P. M. Holt, «Al - Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt», BSOAS, XXV. 1 (1962), pp. 38 - 51.

٦ ـ انظر مثلا : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥٠ ب •

آخرين من المماليك نال معظمهم رتبة الصنجقية • وبتزايد أهمية المماليك في مصر ، في هذه الفترة ، ازداد جلب المماليك اليها • وكان المملوك العتيق ، كما في عهد السلطنة المملوكية ، يتمتع برعاية أستاذه ويعمل في خدمته ، وأهم منصب شغله لدى الاستاذ هو منصب الخزندار ، أي المسؤول عن أموال سيده الخاصة • وكان المملوك يعين أيضا في الوظائف العسكرية أو الادارية ، وخاصة بعد نواله رتبة الصنجقية • ومن هنا نشأت تكتلات على أساس العلاقة بين الاستاذ ومماليكه ، وأصبح لهذه التكتلات أهمية سياسية ، واستفاد المماليك من نفوذ الصنجقية كما استفادت الصنجقية ، بالمقابل ، من نفوذهم •

ورافق هذا الانتعاش في قوة المماليك السياسية في مصر ظهور الكتابات ـ وغالبها لا صحة له ـ لربط هؤلاء المماليك بمماليك السلطنة المملوكية ، وأحياناً بقريش أو غيرها لاسباغ الشرعية والوجاهة عليهم وفرض قبولهم الاجتماعي والسياسي على السكان • ومن أشهر هذه الكتابات كتيب مجهول المؤلف عنوانه : « قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش »[١] • ويستدل من كلام المؤلف انه كان يتمتع برعاية الامير رضوان بك الفقاري الذي حمله على كتابة هذا النسب[٢] • والهدف من ذلك اثبات العلاقة بين الامير رضوان بك الفقاري أمير الحاج والسلاطين الشراكسة المماليك ، وبين هؤلاء وقبيلة قريش • الا ان الادلة التي يستخدمها المؤلف واهية جداً مما لا يدع مجالا للشك بأن الكاتب كان يحاول البرهنة على أفكار مسبقة لاتستند الى الواقع[٣] • ومهما يكن ، فان النقاط التي أثارها

---

١ ـ طبع في القاهرة في ١٣١٦ هـ « على ذمة محمد أفندي حافظ الجركسي الباجي » ، (اذا صح ان تعبير الباجي يعني الباشي ، المشتقة من Bash أي رأس ، فان اللقب يدل على أن الذي طبع الكتاب كان من الشراكسة المتنفذين) •

٢ ـ المصدر السابق ، ٢ ـ ٣ •

٣ ـ انظر الدراسة النقدية الهامة التي قام بها البروفسور P. M Holt لنسختين مخطوطتين عن هذا الكتيب في مقال عنوانه :

« The Exalted Lineage of Ridwan Bey », BSOAS, XXII. 2 (1959), pp. 221 - 230.

المؤلف لها مغزاها • فهو يحاول ربط رضوان بك والشراكسة بشكل عام بقريش دون غيرها ، وهذا له قيمة هامة • فرواية ابن خلدون عن أصل الشراكسة والتي كانت معروفة آنـذاك في مصر تذكر انهـم من سلالة الغساسنة • ولو كان المؤلف يبحث عن القدم التاريخي فقط لكان اكتفى برواية ابن خلدون ، ولكن الغساسنة مسيحيون يمنيون وهذا لايتفق مع منصب رضوان بك كأمير للحاج المصري ، ولهذا ربط المؤلف أصل رضوان بك بكساء[1] القرشي المسلم القيسي • ويستطرد صاحب « قهر الوجوه العابسة » فيربط نسب رضوان بك ، عن طريق قريش ، بآدم • ولعل أهم مافي هذا النسب محاولة ربط رضوان بك بالسلاطين الشراكسة مما يظهر العثمانيين كمغتصبين فيما لو قدّر لرضوان بك الاستقلال بأمور مصر • ومثل هـذا النسب ليس بالامر الغريب اذ كثيراً ما عمد الافراد والقبائل وحتى الدول ، كالدولة العثمانية[2] ، الى ربط حاضرهم الزاهر بماض تليد •

وفي الحقيقة ازداد نفوذ رضوان بك الفقاري الى درجة جعلت ولاة مصر يخشون بأسه ، وكلفه السلطان بمهمات رئيسية • وقـد ورد أمر سلطاني الى مصر في شـوال ١٠٤٧/شباط ـ آذار ١٦٣٨ بتجهيز حملة عسكرية الى جبهة فارس وبتعيين الامير رضوان الفقاري سرداراً عليها • ولكن رضوان بك رشا محمد باشا والي مصر بأربعين كيساً لقاء صرف النظر عن تعيينه سرداراً ، فتم ذلك وعين صنجق آخر مكانه • ويبدو أن رضوان بك ، وقد ثبتت شهرته ، لم يعد بحاجة الى قيادة الحملات خارج مصر ليبني من ورائها الشهرة لان في ذلك مخاطرة قد تودي لا بنفوذه فقط بل بحياته أيضا • كما ان قيادته الحملة ستبعده عن امارة الحاج التي احتكرها منذ سنوات • وما ان خرجت الحملة حتى أخذ رضوان بك يعمل عـلى

---

١ ـ يذكر مؤلف « قهر الوجوه » ، ص ١٢ ان كساء القرشي أصاب بقصبته عين شخص آخر فشكاه الى الخليفة • وخشي كساء العاقبة فسار ليلا وهرب الى أرض الروم ، وعندما سئل عنه قيل سرى كساء ، ومن هنا التسمية سراكسا أو جراكسا ، كما يزعم المؤلف في ص ١٣ •

٢ ـ انظر ص ٢٥ ـ ٢٦ •

استرداد الاربعين كيساً من الباشا ، وقد تم له ذلك ، ولكن الباشا نقم عليه. وسنحت له فرصة للانتقام من رضوان بك حين توفي الوالي المعين لولاية الحبش ،فكتب محمد باشا الى السلطان طالباً تعيين رضوان بك لولايه الحبش، وأطمع السلطان بأن ضمن له تسليم خمسمائة كيس من مال رضوان بك ، وكان يقصد بذلك مصادرة أمواله في مصر اثر تعيينه • حدث هذا ورضوان بك في الحاج ، وقد أبلغ بتعيينه لولاية الحبش وهو في المدينة المنورة ، وأمر بتسليم امارة الحاج لشخص آخر وان يسير من هناك الى الحبش • فامتثل رضوان بك للامر ظاهرياً ولكن يبدو انه أخاف الحجاج بعدم كفاءة أمير الحاج الجديد فضجوا وطالبوه بالعودة بهم الى مصر فرضي • ولكن باشا مصر أرسل له رسولا آخر استلم امارة الحاج منه بالتهديد • وعوضاً عن ذهاب رضوان بك الى الحبش اتجه الى استانبول للشكوى • وأخذ باشا مصر يبيع ممتلكاته ، وكان ذلك في حوالي شهر رجب ١٠٤٩/تشرين الاول ـ تشرين الثاني ١٦٣٩ • ومما يدل على نفوذ رضوان بك في مصر والمكانة التي تمتع بها لدى الشعب ان المؤرخ المعاصر ، محمد البكري الصديقي[1] ، وصف ما حل به بأنه شبيه بما حل بالبرامكة • وقد نقم السلطان مراد الرابع على رضوان بك لعدم قيادته الحملة الى جبهة فارس ولعدم ذهابه الى الحبش ، وأراد قتله ، ثم اكتفى بسجنه بتوسط الصدر الاعظم مصطفى باشا البستنجي ، وأخيراً عفي عنه قبل موت السلطان مراد الرابع • وعين مصطفى باشا البستنجي بعد ذلك والياً على مصر في ١٠ جمادى الثاني ١٠٥٠/٢٧ ايول ١٦٤٠ فعمل على اعادة رضوان بك اليها واعطائه امارة الحاج من جديد[2] •

وما أن شاع بمصر نبأ السماح بعودة رضوان بك اليها حتى انقسم العساكر الى فريقين : فريق عارض عودته ، وفريق قبل قرار السطان بالعفو

---

١ ـ انظر : الكواكب السائرة ، ٥٤ آ •

٢ ـ انظر : المصدر السابق ،٥٣ آـ٥٤ آ ؛ أحمد شلبي ، ١٦ آ ـ ١٧ آ ؛ مخطوط باريس ،رقم Arabe 1855 ، ٤٦ آ ـ ٤٧ آ • يذكر المصدران الاخيران المتشابهان نوعا ما رواية تختلف بعض الشي عن رواية الصديقي •

عنه وارجاعه الى مصر • وكان الامير ماماي بك ، أحد زعماء القاسمية ، يمارس بعض النفوذ على العساكر ، فاتفق مع أغاوات الطوائف على ترك أمر البت بمصير رضوان بك الى الوزير مصطفى باشا البستنجي • ويبدو أن الامير ماماي بك ، الذي برز في مصر اثر طرد رضوان بك منها ، قد حاول تأليب العساكر ضد رضوان بك ، ولكن فريقاً منهم لم يطعه ، وربما هذا ما يفسر فشل المعارضة لعودته • اما عن تفسير العلاقة بين القاسمية وبعض العساكر فتعود بصورة خاصة الى الاصل البشناقي المشترك الذي كان يجمع بين غالبية القاسمية ومؤيديهم من العساكر[1] • وقد اشتهر بعد قليل بين القاسمية أحد البشانقة ويسمى أحمد بك بشناق • والمهم هنا أن زعماء القاسمية برزوا في فترة غياب رضوان بك وحاولوا استغلال النقمة ضده ، وكانت محاولتهم ملء الفراغ الذي تركه غياب زعيم الفقارية بداية للصراع على النفوذ بينهم وبين الفقارية •

وصل الامير رضوان بك الى بولاق في ٦ رجب ١٠٥٠/٢٢ تشرين الاول ١٦٤٠ وخرج لاستقباله جمع كبير من أهالي مصر ، ويدل على ذلك قول المؤرخ المعاصر الصديقي الذي يستخدم المبالغة في مجال التعظيم اذ يقول: « وما فضل في مصر أحد الا جاء للسلام »[2] • وفي هـــذا تحد ضمني للقاسمية واشعارهم بالخطر من منافســة الفقارية • وعاد رضوان بك الى استئناف عمله كأمير للحاج ومتصرف بالاموال المخصصة لسد نفقات الحاج•

وتلا ذلك فترة هدوء بين الطائفتين امتدت حتى ولاية محمد باشا حيدر زاده في ١٠٥٦/١٦٤٦ • ويعزى هــذا الهدوء الى الطاعون الــذي حدث آنذاك في مصر والى الغلاء الذي عم البلاد ، وأيضا الى شدة الولاة ، ممـا شغل الطائفتين عن المنازعات السياسية • ولكن كانت كــل منهما في هذه الاثناء تستجمع قوتها وتوطد سلطتها • وحين حاول والي مصر مقصود باشا مضايقة الصناجق بمطالبتهم بدفع ما تأخر عليهم من مال الميري احتجوا بتأخر

---

١ ـ انظر: P. M. Holt, « The Beylicate », p. 218

٢ ـ محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٥٥ آ •

الزرع ، واجتمعوا في ١٢ رمضان ١٠٥٣/٢٤ تشرين الثاني ١٦٤٣ فعزوا طلب الباشا الى نصيحة الدفتردار ، وغيره ، وطالبوه بعزل هؤلاء ،فلبى ذلك• وكتبوا الى السلطان يعرضون مظالمهم بشأن طلب المال منهم قبل استحقاقه ، وحين حاول الباشا بعد ذلك البطش بزعماء الصناجق رد هؤلاء ، بتأييد من العساكر وقاضي القضاة ، بتعيين قائم مقام ، وأعلموا السلطان بالامر فوافق على عملهم وعزل مقصود باشا وعين والياً آخر[1] • ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه القضية اشترك فيها كافةالصناجق وأيدهم العساكر لانمصالحهم المشتركة قد هددت •

عين والي مصر محمد باشا حيدر زاده (١٠٥٦ - ١٠٥٨/١٦٤٦ - ١٦٤٨) في مطلع ولايته الامير قانصوه بك مملوك الامير قاسم (القاسمي) قائم مقام مما أثار الفقارية • وحدثت فتنة في مصر في بدايـة حكمه سببها فجور الانكشارية فرأى محمد باشا ان يعلم السلطان بها بسبب ما سبق وأبدى السلطان من حرص على معرفة أصـول الفتن في مصر • واستغل الامير قانصوه بك القاسمي المناسبة للدس على الفقارية ، فأشار على محمد باشا أن يذكر الى السلطان أن مسببي الفتنة جماعة عصاة أحضرهم رضوان بك الفقاري أمير الحاج من الحجاز للخدمة عنده وعند الفقاري الآخر علي بك حاكم الصعيد ، وأضاف الى ذلك أن هذين الأميرين هما سبب تأخير ارسال الخزنة الى استانبول بسبب مماطلتهم في دفع مال الميري•وذكر محمد باشا في العرض انه اذا أراد السلطان زوال الفساد واستيفاء مال الميري فيجب اعطاء امارة الحاج للأمير القاسمي ماماي بك وحكومة الصعيد للامير قانصوه بك القاسمي ، وما ان درى رضـوان بك بهذا حتى سارع بكتابـة عرض الى السلطان يرد التهم على الاميرين القاسميين • ويبدو أن رضوان بك كان يتمتع آنذاك بنفوذ كبير في استانبول اذ دعمه السلطان ضد زعماء القاسمية • واستدعى رضوان بك زميله علي بك من الصعيد فدخل القاهرة في ٢١

---

[1] - انظر : المصدر السابق ، ٥٤ آ - ٦٢ آ ؛ زبدة ، ٧ آ - ٨ آ ؛ أحمد شلبي ، ١٧ آ - ١٨ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٤٧ آ - ٤٨ آ ·

جمادى الاول ١٠٥٧/٢٤ حزيران ١٦٤٧ بقوات كبيرة ، ونزل الباشا من القلعة لاستقباله ،ويقول المؤرخ المعاصر الصديقي بهذه المناسبة «لم يتفق أن وزيراً نزل من القلعة الى قرا ميدان لتلقي حاكم جرجا »[1] . وفي ٢٧ جمادى الاول اجتمع العساكر والصناجق في الرميلة ، بتوجيه من الفقارية ،للتداول في أمر المال الذي دخل على ماماي بك وقانصوه بك القاسميين . وقد سجنا في القلعة ثم قتلا على يد الصوباشي (قائد الشرطة) قيطاس بك الفقاري ، وقتل كثير من أتباعهما ومن كبار الموظفين . وسيطر في القاهرة الآن كبار الفقارية وهم رضوان بك وعلي بك وقيطاس بك . وتجدر الاشارة الى أن ماماي بك وقانصوه بك كانا من أصدقاء محمد باشا حيدر زاده ، ويظهر قتلهما ان يده كانت مغلولة ، وكان يترقب الفرصة للتخلص من الفقارية .

وحاول القاسمية بث التفرقة بين محمد باشا وزعماء الفقارية ، وبين هؤلاء والعساكر . ولم يكن لمثل هذه المحاولات ان تنجح لو لم يوجد هناك تنافس على النفوذ عند الاطراف المعنية . ففي ٨ رمضان ١٠٥٧/٧ تشرين الاول ١٦٤٧ أصدر محمد باشا أمراً الى الامير علي بك الفقاري بالسفر الى جرجا ، فغادر القاهرة بعد ثلاثة أيام ، وكان هذا بتحريض أحد أتباع قانصوه بك القاسمي . واستفاد محمد باشا من ذلك لتشتيت قوة الفقارية . وكانت مغادرة علي بك لمصر مضعفة لقوة رضوان بك فيها ومشجعة لمحمد باشا لان ينفرد برضوان بك ويبطش به . وهكذا ففي اليوم التالي لسفر علي بك أقام محمد باشا حفلة دعا اليها رضوان بك فرفض لانه أحس بمؤامرة فيها ضده . وبالفعل عين محمد باشا الامير حسن بك، الذي وصف بأنه صهر النقيب ، أميراً للحاج مكان رضوان بك . واذا صح ان النقيب هنا كان يعني نقيب الاشراف فان محمد باشا أعطى امارة الحاج لا الى صنجق فحسب بل الى شخص يمكن أن يتمتع بدعم ديني أيضا . وقد شعر رضوان بك بضعف مركزه في القاهرة ، اثر مغادرة علي بك لها ، فطلب من أتباعه ومماليكه التوجه نحو الصعيد لاستئناف معارضتهم،

---

١ ـ محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٦٣ ب .

وبدأوا يتجمعون في منطقة البساتين خارج القاهرة • وفي محاولة من محمد باشا لتجريد زعماء الفقارية من مناصبهم ، وبالتالي جعلهم خارجين عن القانون لكي يجوز قتالهم ، فانه عين في ١٣ رمضان ١٠٥٧/١٢ تشرين الاول ١٦٤٧ الامير يوسف بك الدفتردار حاكماً على الصعيد ، عوضاً عن علي بك الفقاري • وأعقب ذلك بأن جمع العساكر لقتال الفقارية ، وعين الامير عبدي بك سرداراً عليهم • ويبدو أن بعض أتباع رضوان بك الفقاري في القاهرة جعلوا عبدي بك يعتذر للباشا عن قيادة الحملة ، وأبلغه ذلك في ١٤ رمضان بحضور العساكر والصناجق محتجاً « بأن العساكر لم يرضوا بقتال الامير رضوان بيك ولا الامير علي بيك وهؤلاء رفقاؤنا خصوصاً في هذا الشهر الشريف وغالب من معهما اما قريب لنا أو صهر لنا أو صاحب ونحن مسلمون وهم مسلمون وان كان مرادك قتالهم تبرز لنا خط شريف وتكون أنت السردار علينا »[1] • وليس بغريب أن تقدم مثل هذه الاعذار وان تلغى الحملة على أساسها ، ولكن المهم ان القاسمية الذين كان يتوقع أن يدعموا الحملة ضد الفقارية لم يظهر لهم أثر في ذلك مما يدل على ضعف نفوذهم بعد مقتل زعمائهم • كما ان الغاء الحملة يدل على مقدار ما كان يتمتع به الفقارية من تأييد وعطف • وبلغ هذا التأييد ذروته بوصول رسول من السلطان ، في أوج الازمة ، يحمل أوامره بأن يكون رضوان بك أميراً للحاج مدى حياته وأن يبقى علي بك حاكماً على الصعيد مدى حياته أيضا • وأذعن محمد باشا لذلك ، وعاد رضوان بك الى القاهرة في ١٩ رمضان ١٠٥٧/١٨ تشرين الاول ١٦٤٧ • وبهذا بلغ الفقارية شأواً بعيداً من النفوذ والسلطة[2] •

بقي الفقارية بدون منافسة تذكر الى أن حاول والي مصر أحمد باشا في أواخر ١٠٦٠/أواخر ١٦٥٠ الايقاع بين زعمائهم لاضعافهم • فقدحصل على أمر من استانبول بعزل رضوان بك من امارة الحاج وتعيين علي بك

---

١ – المصدر السابق ، ٦٥ آ •

٢ – المصدر السابق ، ٦٢ ب – ٦٦ آ ؛ زبدة ، ٨ آ •

الفقاري ، حاكم الصعيد ، مكانــه • واستدعي علي بك من جرجا فدخل مصر في ١٩ محرم ١٠٦١/٢٢ كانون الثاني ١٦٥١ وعين أميراً للحاج ، وقد تم كل هذا ورضوان بك غائب مع قافلة الحاج • واتبع أحمد باشا ذلك بأن عزل أتباع رضوان بك من مناصبهم • وحدث في هذه الاثناء ان ورد خبر عزل أحمد باشا عن مصر ، وذلك في ٦ صفر ١٠٦١/٢٩ كانون الثاني ١٦٥١ ، فاعتبر الاهالي هذا العزل انتقاماً من الله لرضوان بك مما زاد في شعبيته ، وأخذوا يطلقون عليه لقب الشيخ رضوان • ويبدو أن هذا الالتفاف الشعبي حول رضوان بك أشعر علي بك بضعف مركزه • وقد وقف رضوان بك موقف المصالحة من علي بك مما ساعد على ازالة الخلاف بينهما وعودة كل منهما الى منصبه ، كما كان الامر سابقاً • وكانت هذه آخر محاولة من قبل ولاة مصر للقضاء على رضوان بك[1] •

توفي علي بك الفقاري في سنة ١٠٦٣/١٦٥٢ ـ ١٦٥٣ وخلفه في حكم الصعيد مملوكه محمد بك • وفي ٢٦ جمادى الثاني ١٠٦٦/٢١ نيسان ١٦٥٦ توفي رضوان بك الفقاري أمير الحاج • وكان هذا بداية ضعف الفقارية والصناجق ككل • وقد حاول القاسمية اثر ذلك اعادة سلطتهم ، واستغل الولاة هذا النزاع الفقاري ـ القاسمي لضرب الطائفتين بعضهما ببعض • وقد ظهر بين الفقارية اثر موت علي بك ورضوان بك زعماء كثيرون تنقصهم الخبرة والتجربة وتبهرهم المناصب والنفوذ مما جعلهم يصطدمون ببعضهم • ومن الطبيعي أن يطغى النفوذ الذي حصل عليه رضوان بك على خلفائه المباشرين من الفقارية لاسيما وأن القاسمية بدأوا الآن ، يدعمهم الباشا العثماني ، بتحديهم • وعين والي مصر محمد باشا أبو النور الامير أحمد بك بشناق القاسمي (يشار اليه أيضا باسم أحمد بك بقناطر السباع نسبة الى حي

---

١ ـ انظر محمد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة ، ٦٦ ب ـ ٦٩ آ (ينتهي هذا المخطوط بشكل مفاجيء عند حوادث محرم ١٠٦٣/كانون الاول ١٦٥٢) ؛ زبدة ، ٨ ب ـ ٩ آ ؛ علي بن حسن الشمالي ، ١١٧ آ ؛ أحمد شلبي ، ١٨ آ ـ ١٩آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٤٩آ ـ ٥٠ آ •

قناطر السباع في القاهرة)[1] أميراً على الحاج خلفاً لرضوان بك . وكان أحمد بك قد عاد لتوه منتصراً من حملة في الحبش ، وزينت مصر لانتصاره ثلاثة أيام . ويبدو أن محمد باشا ، في محاولة منه لارضاء الفقارية ، عين حسن بك ، أحد أتباع رضوان بك ، سرداراً على الخزنة . واذا علمنا ان مهمة هذا السردار تقتضي مرافقة الخزانة الى استانبول تبين أن تعيينه هذا كان ابعاداً له عن مصر وبالتالي ، اضعافاً للفقارية فيها . وقد احتج الفقارية على تعيين أحمد بك بشناق أميراً على الحاج ، وطالبوا بعزله . ولما لم يستجب الباشا لطلبهم عزلوه وأقاموا يوسف بك بدرب الجماميز (نسبة الى حي درب الجماميز في القاهرة) قائم مقام ، ونفوا أحمد بشناق الى الاسكندرية ، وأقاموا حسن بك الفقاري أميراً على الحاج . وأبلغوا السلطان بما جرى فاعترف ضمنياً بعملهم اذ أرسل والياً آخر الى مصر . وقد عين الباشا الجديد ، قره مصطفى باشا ، الامير مصطفى بك الفقاري قائم مقام له في حوالي شوال ١٠٦٦/تموز ـ آب ١٦٥٦ . ثم أصلح بين أحمد بك بشناق وبين الفقارية .

وكانت طوائف العساكر في هـــذه الاثناء تستغل المناسبات لتحدي الصناجق ككل ، ومن الطبيعي أن تستفيد من الصراع الآن بين القاسمية والفقارية . وحاول العساكر فرض نفوذهم الذي طغى عليه نفوذ الصناجق ، وبدأوا ، في سبيل ذلك ، بطرد الاغراب ، من أولاد العرب ، من صفوفهم .

وحين عزل قره مصطفى باشا في ١٤ شوال ١٠٦٧/٢٦ تموز ١٦٥٦ عين محمد باشا الغازي ، الذي خلفه ، يوسف بك بدرب الجماميز الفقاري قائم مقام له . وكان في الوقت نفسه قيطاس بك الفقاري ، المعروف بالمجنون ، أميراً عـلى الحاج . واذا أضفنا الى هذين اسـم محمد بك الفقاري حاكم الصعيد لتبين لنا ان نفوذ الفقارية كان لايزال قائماً . ولكن هذا ظاهري أكثر منه حقيقي اذ ان المؤامرات للقضاء عليهم كانت تحاك ضدهم . واشهر

---

١ ـ انظر بشأن احياء القاهرة في القرن الثامن عشر :

A Raymond, « Essai de Géographie des Quartiers de Résidence Aristocratique au Caire au XVIIIeme Siècle », Journal of the Economic and Social History of the Orient, VI. 1 (1963), pp. 58 - 103.

من قام بذلك أحمد بك بشناق الذي كان آنذاك بمهمة في استانبول •
وحدث في هذه الاثناء ان قدم محمد بك الفقاري حاكم الصعيد الى القاهرة• ولا أدل على شدة نفوذه وتحديه لمن فيها من عدد العساكر والاتباع الذين رافقوه ، فكان بينهم أربعمائة شخص من لابسي القفاطين أي أصحاب النفوذ ، وسار خلفه أربعمائة مملوك وأمامه الف وستمائة من الغز (أي من الاتراك) ، بالاضافة الى عدد كبير من البدو • وتبجح على كافة الصناجق ، بما فيهم الفقارية ، مما أسخطهم[1] •

وعاد أحمد بك بشناق في هذه الاثناء من استانبول وهو يحمل أمراً سلطانياً بتعيينه حاكماً على الصعيد عوضاً عن محمد بك الذي عين والياً على الحبش ، وكان هذا قد غادر القاهرة الى الصعيد قبل وصول الامر • وما ان علم به حتى رفض التخلي عن منصبه فجمع الوالي محمد باشا الغازي كافة الصناجق والعساكر والعلماء وعرض عليهم الامر ، وذكر أن عدم تقيد محمد بك بأوامر السلطان دليل على عصيانه وتجب محاربته ، وأفتى له العلماء بذلك • وفي ٣ جمادى الثاني ١٠٦٩/٢٦ شباط ١٦٥٩ خرج الباشا الى البساتين ، جنوبي القاهرة ، بانتظار تكامل تجمع عساكره ، ثم سار نحو الصعيد في ٧ جمادى الثاني • ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الصناجق الفقارية كانوا في صفوف الباشا واشتركوا في قتال محمد بك الفقاري ، مما يدل على أن انقساماً قد حصل في صفوف الفقارية ، وربما سبب ذلك تعالي محمد بك • ويبدو أيضا ان بعد مركزه في الصعيد عن القاهرة قد أبعده عن زعامة الفقارية فيها مما أتاح المجال للمنافع الشخصية ان تبرز بين صفوف الفقارية •وهكذا فان الفراغ الذي أحدثه موت رضوان بك في الزعامة الفقارية لم يملأ بشخصية مماثلة • وكان من نتيجة الاصطدام بين

---

١ ـ انظر : زبدة ، ١٠ آ •

قوات الباشا ومحمد بك في الصعيد ان القي القبض على هذا الاخير ، وقتل في ٤ رجب ٢٨/١٠٦٩ آذار ١٦٥٩ ، كما قتل كثير من أتباعه[1] •

وأدى مقتل محمد بك الفقاري الى اضعاف الفقارية بصورة عامة والى ازدياد نفوذ القاسمية وبخاصة زعيمهم أحمد بك بشناق الذي كان قد عين حاكماً على الصعيد • وفي رمضان ١٠٦٩/أيار ـ حزيران ١٦٥٩ عين أحمد بك بشناق قائم مقام لوالي مصر الجديد مصطفى باشا • وقد استفحل في عهده الصراع بين طائفتي الفقارية والقاسمية ، وكانت الاولى تحاول الابقاء على نفوذها ، والثانية تحاول توطيد سيطرتها والقضاء على الفقارية • وحدثت مناسبة أدت الى القضاء على الفقارية • ففي ٢٧ محرم ٢/١٠٧١ تشرين الاول ١٦٦٠ احتج خمسة أنفار من طائفة العزب لدى مصطفى باشا على اساءة معاملتهم لدى قيامهم بحماية ناحية صنافير باقليم القليوبية وذلك من قبل أحد ملتزميها ويدعى عثمان الذي كان يشغل منصب رئيس الحراس الليليين في القاهرة • وخشي عثمان الاجتماع بالباشا الذي طلب اليه ذلك ، ولجأ الى أحد أعيان الفقارية • ثم التف من حوله الفقارية • ولا يعلم اذا كان هؤلاء قد تعصبوا له بسبب التجائه اليهم أو انهم استغلوا المناسبة لفرض نفوذهم • ومهما يكن ، فان عثمان لجأ الى طائفة كانت لاتزال قوية • ونتج عن ذلك أن كسب الفقارية عداوة الباشا وعداوة طائفة العزب القوية التي دعمت أنفارها المتضررين •

---

١ ـ انظر حول ذلك : المصدر السابق ، ١٠ آ ـ ١١ آ ؛ أحمد شلبي ، ١٩ ب ـ ٢٠ آ ؛ مخطوط بباريس ، Arabe 1855 ، ٥٠ ب ، ٥١ آ ؛ علي بن حسن الشمالي ، ١١٧ ب ؛ انظر أيضا القسم الخاص الذي أفرده ابراهيم الصالحي الحنبلي لواقعة قتل محمد بك في كتابه المخطوط : تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، انظر نسخة المكتبة الوطنية في باريس ، برقم Arabe 1853 ، الاوراق ٤٥ آ ـ ٥٤ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ابراهيم الصالحي • (توجد عدة نسخ عن هذا المخطوط منها نسخة جامعة Yale في الولايات المتحدة الاميركية ، وتاريخ نسخها هو ١٣ محرم ١٧/١٠٧٤ آب ١٦٦٣) ؛ بينما تاريخ النسخة السابقة هو ٢٧ رمضان ٢٦/١٠٧١ أيار ١٦٦١ • وقد استخلصت هاتين النسختين ، وأشرت في الهوامش الى النسخة الاولى فقط بسبب تشابههما • وهناك نسخة أخرى في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا برقم Cod. Arab. 415 وتاريخ نسخها هو ١٧ شوال ١٣/١٠٧٤ آيار ١٦٦٤ •

وأيدت مختلف طوائف العساكر العزب والباشا في موقفهم ، كما أيدهم قاضي قضاة مصر . وكان الفقارية يعتمدون على تأييد بعض المتنفذين في طائفة الانكشارية ، ولكن هؤلاء غلبوا من قبل الاكثرية الانكشبارية المؤيدة للباشا ، ولم يشذ الانكشارية عن موقف الطوائف الاخرى . ثم أمر مصطفى باشا بقتل عثمان ، وأخذ العزب رأسه وعلقوه على باب مركز قيادتهم امعاناً في التحدي . وتلت ذلك مناوشات بالسلاح بين العزب والسباهية ، من ناحية ، والفقارية ، من ناحية أخرى . وكان من شدة رد الفعل التي أظهرها العزب وحلفاؤهم ان قرر الفقارية التوجه الى الصعيد لمتابعة تمردهم ، وخرجوا الى البساتين للتجمع ومن ثم المسير . وأخليت الساح في مصر للباشا وللطوائف العسكرية وللقاسمية الذين اشتهروا الآن وعينوا لمناصب هامة . وبعد أن أكمل الباشا استعداداته العسكرية خرج بالعساكر من القاهرة في ٦ صفر ١٠٧١/١١ تشرين الاول ١٦٦٠ الى البساتين . وكان الفقارية قد غادروها . وازاء رد الفعل القوي هذا من جانب الباشا ومؤيديه حصل انقسام في صفوف الفقارية ، ففريق أراد الذهاب الى الصعيد ، وفريق أراد التوجه الى اقليم البحيرة . وكان ان هرب فريق منهم الى السودان ، وتوجه فريق آخر الى جرجا . أما الذين ساروا باتجاه البحيرة فركز الباشا المقاومة ضدهم ، وأبيد أكثرهم في ناحية الطرانه ، في ٢٢ صفر ١٠٧١/٢٧ تشرين الاول ١٦٦٠ ، وكان أحمد بك بشناق قائد قوات الباشا . كما قضي في الوقت نفسه على أغلب الفقارية الذين توجهوا الى جرجا . ووقع القتل والتفتيش عن الفقارية الآخرين . وأرسلت رؤوس بعض قتلاهم صحبة أحمد بك بشناق الى استانبول لاطلاع المسؤولين . وأرخ ابراهيم الصالحي الحنبلي لهذه الواقعة في كتابه الذي سماه : « تراجم الصواعق في واقعة الصناجق » ،ويقصد بذلك واقعة الصناجق الفقارية[1] ، ويدل هذا التعبير الشامل على أن الفقارية كانوا عماد الصناجق. وهكذا قضي على النفوذ السياسي للفقارية ، ولم يظهروا من جديد حتى أواخر القرن السابع عشر حين تحالفوا مع خليط من القوى .

---

١ ـ انظر ما يقوله ابراهيم الصالحي في ورقة ٣ ب .

كان حلف باشا مصر مع القاسمية مؤقتاً ؛ وبمجرد ازالة العدو المشترك ، الفقارية ، حاول الباشا ضرب القاسمية . وتم ذلك في عهد حاكم مصر ابراهيم باشا الشيطان (١٠٧٢ - ١٠٧٣/١٦٦٢ - ١٦٦٣) الذي دبر مقتل أحمد بك بشناق ، زعيم القاسمية ، في ٩ ذي الحجة ٢٦/١٠٧٢ تموز ١٦٦٢ ونفى أتباعه . وقد أضعف هذا الامر طائفة القاسمية فأصبحت أكثر خضوعاً ومسايرة للباشا بدليل أن أفرادها لم يثوروا اثر مقتل زعيمهم . وانحسر نفوذهم السياسي حتى أواخر القرن السابع عشر[1] .

ومما يلفت النظر ان القضاء على نفوذ القاسمية قد تم بعد حوالي سنتين من القضاء على الفقارية . لاشك ان الباشا تفرغ بعد القضاء على الفقارية لقتال القاسمية ، ولكن لماذا قضي عليهم بمثل هذه السرعة ؟ اذا استعرضنا تاريخ الصراع على النفوذ بين الطائفتين في السنوات الماضية لوجدنا ان القاسمية كانوا يشتهرون عادة أثناء ضعف الفقارية ، وليس العكس هو الصحيح . فقد رأينا كيف بدأ القاسمية بممارسة نفوذهم أثناء النقمة على رضوان بك وغيابه وسجنه في استانبول في أواخر الثلاثينيات . وحين اصطدمت الطائفتان بعد ذلك كان النصر دائماً للفقارية . واستفاد القاسمية مؤخراً ، وبصورة مؤقتة ، من تحالفهم مع الباشا والعساكر ضد الفقارية . ولكنهم لم يستطيعوا الثبات في وجه السلطة العثمانية . واذا نظرنا الى قضاء باشوات مصر على قوة الطائفتين في الفترة بين ١٦٦٠ - ١٦٦٢ في اطار عثماني عام لوجدنا فيه قوة السلطة المركزية العثمانية آنذاك في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي . فقد قضي على ثورة حسن باشا وعلى تمرد انكشارية دمشق في سنة ١٦٥٩ ، وأنشئت ولاية صيدا في سنة ١٦٦٠ لاحكام الطوق على أمراء جبل لبنان . ومما يؤكد هذا الاتجاه في دعم هيبة الدولة في المقاطعات ان أوامر وردت من استانبول الى مصر في عهد ابراهيم

---

١ - انظر حول هذه الاحداث : المصدر السابق ، ١٢ آ - ٤٥ آ ؛ زبدة ، ١١ آ - ١٤ ب ؛ أحمد شلبي ، ٢٠ ب - ٢١ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥١ آ-٥٢آ ؛ علي بن حسن الشمالي ، ١١٧ ب .

باشا الشيطان باخراج أولاد العرب من كافة الطوائف العسكرية في محاولة لتأكيد السيطرة العثمانية على الادارة المحلية • ويقابل هذا العمل في الشام ارسال طائفة القابي قول اليها •

وأدى القضاء على نفوذ الفقارية والقاسمية الى اضعاف المكانة السياسية للصناجق ، وبالتالي لرتبة الصنجقية • وليس أدل على ذلك من انخفاض خدمة الصنجقية ، وهي القيمة التي يدفعها المرشح للحصول على رتبة الصنجقية ، الى ما يقرب من نصف أو ثلاثة أرباع ما كانت عليه قبل عشرين سنة • ويذكر ان عدد الصناجق ورواتبهم تناقصت أيضاً تبعاً لذلك[١] •

ولاية مصر من ١٠٧٢/١٦٦٢ الى الربع الاول من القرن الثامن عشر

استغل ولاة مصر القضاء على نفوذ الفقارية والقاسمية لتوطيد سلطتهم، واستمدوا القوة والتصميم من محاولة السلطة المركزية في استانبول رد هيبتها في الولايات • ولكن سرعان ما ظهرت في مصر قوى جديدة استلمت زمام المبادرة السياسية من الولاة وملأت الفراغ السياسي الذي خلفه زوال نفوذ الصناجق الفقارية والقاسمية • وتالفت هذه القوى اما من زعماء انكشاريين مثل كجك محمد وافرنج أحمد ، أو من بيوتات عسكرية تشكلت من أفراد عسكريين أحاطت بكل منهم طائفة من الاتباع عرفت باسمهم ، مثل طائفة البلفية المؤلفة من أتباع القائد العسكري حسن آغا البلفي ، وطائفة القازدغلية المؤلفة من أتباع القائد العسكري مصطفى كاخيا القازدغلي • وانتسبت هذه البيوتات العسكرية المتنافسة الى طائفة أو أخرى من طائفتي الفقارية والقاسمية ، ونتج عن هذا الاندماج عودة الصراع بين الطائفتين في أواخر القرن السابع عشر ،وبذلك لم تعد الطائفتان تقتصران تقريباً على الصناجق المماليك ، كما في الفترة قبل سنة ١٦٦٢ • واشترك الآن في صراع الطائفتين ، وبالتالي انضوى تحت لوائهما ، المماليك والطوائف

---

١ ـ انظر :

P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, p. 84, «The Beylicate», p. 219

العسكرية ، وخاصة الانكشارية والعزب • وعلى هذا فلم يعد الصراع الآن بين الفقارية والقاسمية صراعاً ضيقاً يقتصر تقريباً على الصناجق ولكنه شمل الفرق المختلفة •

وقبل ذكر التطورات السياسية التي حدثت في هذه الفترة يجدر التعرف الى الطريقة التي تكونت بها البيوتات العسكرية والاسس التي قامت عليها • والى جانب ورود المماليك الى مصر وتشكيلهم فيها بيوتات مملوكية تقوم على العلاقة بين الاستاذ وعتقائه وعلى الخشداشية بين المماليك ، تماماً كما في عهد السلطنة المملوكية ، كان يرد أيضاً الى مصر شبان من الروم أغلبهم من المسلمين • وعند وصولهم الى مصر يلتحق أحدهم أو جماعة منهم بخدمة أحد الأغاوات العسكريين كحرس خاص ، ويسمى واحدهم في هذه الحالة سراجاً • وبعد خدمة بضع سنوات لدى الآغا يزداد الولاء بينه وبين سراجيه فيتقوى الآغا بهم ويدافعون عنه ، وينفق عليهم من ماليته الخاصة • ثم يعمد الآغا الى الحاق سراجيه باحدى الطوائف العسكرية ، ويتقاضون عندئذ رواتبهم من الطائفة التي انتسبوا اليها ، أي من مالية الدولة ؛ وينتسبون أيضاً الى نقابة تجار جدة الاغنياء للفائدة المادية • وينقلب اسم السراج في هذه الحالة الى تشراك (Çirak)[1] • ولا يعني هذا ان ولاء التشراك قد انقطع عن سيده بل يبقى ولاؤه له • والمقصود من هذه العملية ان السراج ، الذي تحول الى تشراك ، يأخذ نفقته الآن من موارد الدولة عوضاً عن موارد سيده الآغا • ويتمكن الآغا ، في هذه الحالة ، أن ينفق موارده في استخدام سراجين آخرين • وهكذا تنشأ حوله طائفة يعيش أكثرها على موارد الدولة ويتمتع هو بولائها قبل غيره • ولم يكن مجال الترقي مغلقاً أمام أفراد التشراك في الطوائف العسكرية ، فبعضهم كان يرتقي الى أعلى المناصب • ويبدو أن السراجين أصبحوا يؤخذون

---

١ ـ أشار الجبرتي ، جـ ١ ، ص ١٠٠ الى هذه التسمية بكلمة اشراق •

بالتدريج من غير الشبان الاروام ، وظهر بينهم خليط من الاجناس[1] ، وقد أتيح لهذه البيوتات العسكرية الشهرة بسبب ضعف الصناجق الفقارية والقاسمية •

وكانت السنوات القليلة التي تلت سنة ١٦٦٢ بمثابة امتحان لمختلف القوى في مصر اذ حاولت كل منها ملء الفراغ السياسي الذي حصل • وليس بغريب في مثل هذا الوضع أن يكون زمام المبادرة السياسية بأيدي ولاة مصر الذين كانوا ، بحكم مناصبهم والقوة التي أظهروها حديثاً والدعم الذي نالوه من استانبول ، أقرب الى ملء هذا الفراغ • وقد بطش عمر باشا السلحدار (١٠٧٤ – ١٠٧٧/١٦٦٤ – ١٦٦٧) بزعماء فتنة ضارية في مصر أثارها في ١٠٧٥/١٦٦٤ – ١٦٦٥ محمد بك حاكم جرجا ، وكان يؤازره الزرب (جمع زربة Zorba) أي العصاة من العساكر ، وقاسى الاهلون من أذاهم الشيء الكثير • ويشير ظهور الزرب في هذه الفتنة الى استغلال العناصر الانتهازية للوضع في غياب الزعماء التقليديين من الطائفتين ، كما ان شدة رد فعل عمر باشا ضدهم كان بمثابة تحذير للعناصر الاخرى ، كالانكشارية والعزب ، الذين قتلوا الدفتردار قبل قليل بتهمة قتل أحد أفرادهم •

ونلاحظ في الفترة بين ١٠٧٧/١٦٦٧ – ١٦٧٦ ان سلطة الولاة كانت موطدة في مصر • واستغل بعضهم هذه السلطة للاثراء وابتزاز الاموال ، وبطشوا بالذين عارضوا أوامرهم دون أن يخشوا أحداً • ولكن مظالم هؤلاء الولاة أتاحت الفرصة للعساكر ليظهروا كمدافعين عن السكان • ولذلك ما ان علم العساكر بنية الوالي الجديد أحمد باشا الدفتردار (١٠٨٦ – ١٠٨٧/١٦٧٥ – ١٦٧٦) فرض الضرائب على البيوت والمرافق

---

١ ــ للتوسع حول ذلك انظر :

P. M. Holt, « The Career of Küçük Muhammad (1674 - 94) », BSOAS, XXVI. 2 (1962), pp. 274 - 276

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي :

« The Career of Küçük Muhammad »

Shaw, Ottoman Egypt, pp. 8 - 10, Ottoman Egypt in the 18th century, pp. 23 - 26.

العامة ، كالخانات والطواحين ، حتى ثاروا عليه ،وعزلوه ، وعينوا قائم مقام ، وقتلوا أحد الموظفين القائمين على الشونة • وعندما حاول موظفو الديوان والصناجق التوسط ، صدهم العساكر ، وأظهروا معارضتهم لبقاء الباشا ، وأرسلوا العروض الى السلطان فعين باشا آخر على مصر[1] • ولم يكن عمل العساكر فريداً في نوعه ، ولكن المهم هنا انه بعد زوال نفوذ الصناجق ظهر العساكر كقوة توازن قوة الولاة • وعاد الصناجق ، في فترة ضعفهم ، الى الوقوف بجانب الولاة يدعمون سلطتهم وينفذون أوامرهم • ويذكرنا هذا بالوضع الذي ساد في مصر في الفترة بين ١٥٩١ و ١٦١٢ حين تمرد العساكر ووقف الصناجق الى جانب الولاة • ولكن العساكر الآن ، بسبب انقسامهم الى طوائف ، أشهرها الانكشارية والعزب ، وبسبب عدم وجود عدو قوي مشترك يوحد بينهم ، لأن الولاة لم يكونوا كلهم أقوياء أو مهتمين بقمع العساكر ، تعرضوا الى أزمات داخلية عنيفة • وحدثت هذه الازمات اما داخل الطائفة الواحدة ـ ومصدرها عادة في هـذه الحالة مغامر يريد استلام زمام المبادرة ـ أو بين الطوائف المختلفة • وانضم الباشا والصناجق والفقارية والقاسمية والعلماء الى فريق أو آخر •

وحدثت في عهد الوالي عبد الرحمن باشا (١٠٨٧ ـ ١٠٩١/١٦٧٦ ـ ١٦٨٠) أزمة داخل طائفة الانكشارية نتيجة لمحاولة كجك محمد ،الذي كان يشغل منصب باش أوضـه باشي[2] في الطائفة المذكورة منذ ١٠٨٥/

---

١ ـ انظر حول الاحـداث السابقة ، أحمد شلبي ، ٢١ آ ـ ٢٦ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٥٢ آ ـ ٥٨ آ ؛ علي بن حسن الشـمالي ، ١١٧ ب ـ ١١٨ آ ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ٩٤ •

٢ ـ لفهم طبيعة هذا المنصب وأهميته يجب التعرف الى مكانته بالنسبة للمناصب الأخرى في طائفة الانكشارية • من المعروف في مصر وغيرها أن قائد الانكشارية يسمى آغا • وكان العمل الاداري في هذه الطائفة في مصر في هذه الفترة ملقى عل عاتق مساعد الآغا ويسمى كاخيا الوقت (Vakit Kahyasi) ، وكان هذا متقدماً على حاملي رتبة الكاخيا بين الانكشارية، ويتلو الكاخيا في الرتبة موظف يدعى جاووش او جاويش (ويجب التفريق بين صاحب هذه الرتبة وبين أفراد طائفة الجاويشية) ، ويرأس هؤلاء الموظفين شخص برتبة باش جاووش • والى جانب هؤلاء الموظفين الكبار بين الانكشارية ،الذين شكلوا جماعة ذات نفوذ عرفت بالاختيارية (من اختيار) ، وجد موظفون أدنى رتبة مثل الاوضه باشي (Oda Bashi) ←

١٦٧٤ ـ ١٦٧٥[١] ، الانفراد بالسلطة فيها • وقد أوقع القتل والنفي بين زعماء الانكشارية ، وجرد محمد كاخيا الحبشلي ومصطفى كاخيا من وظيفة الكيخويــة ومنحهما الصنجقية • ثم ما لبث أن أعاد ، بعد فترة ، محمــد الحبشلي الى وظيفة كاخيا بين الانكشارية • اما مصطفى بك (كاخيا سابقاً) فاستمر صنجقاً • وقد منح كجك محمد الصنجقية وامارة الحاج الى ذي الفقار (الفقاري) في نفس الفترة • وفي ١٢ ربيع الاول ١٠٨٨/١٥ أيار ١٦٧٧ قتل مجهولون الشريف مصطفى ، باش جاويش الانكشارية • وفي غرة جمادى الثاني ١٠٨٩/٢١ تمــوز ١٦٧٨ قتل ذو الفقــار (شخص آخر) ، كاخيا الانكشارية ، بطنطا ، ومحرم ، جاويش الانكشارية بجرجا• ويبدو أن كجك محمد كان مسؤولا عن حوادث القتل هــذه في محاولة للتخلص من أعدائه أو معارضي نفوذه وتعيين أتباعه في مختلف المناصب • ومما يؤيد ذلك ان الانكشارية ضاقت ذرعاً بأعمال كجك محمد فقاموا عليه في ٢ رجب ١٠٨٩/٢٠ آب ١٦٧٨ يريدون قتله ، فالتجأ الى طائفة العزب ، ثم اتفق على نفيه الى الروم[٢] •

ويبدو أن هذه الاضطرابات بين الانكشارية قد أضعفتهم وساعدت ، في الوقت ذاته ، على اظهار نفوذ القاسمية والفقارية الذين انتسبوا الى فريق أو آخر ، واشتهرت معهم الصنجقية من جديد • وقــد رأينا كيف أن ذا الفقار الفقاري أصبح صنجقاً وأميراً على الحاج ؛ وحين عزل عبد الرحمن باشا وقدم الى مصر متسلّم خلفه عثمان باشا في ١٠ شعبان ١٠٩١/٥ ايلول ١٦٨٠ عهد المتسلم بالقائم مقامية الى قيطاس بك بقناطر السباع القاسمي • ويعلق صاحب أوضح الاشارات[٣] على ذلك ان رئاسة مصر انتهت الى ذي

←

الذي كان يرأس احدى فرق الانكشارية التي تقيم عادة في أوضة (غرفة) وكان يرأس الاوضة باشية موظف يسمى باش أوضة باشي ،ويذكر البروفسور Holt انه لايوجد دليل على امكانية الارتقاء من الوظائف الدنيا الى العليا ضمن هذه الطائفة ؛
انظر حول ذلك : Holt, « The Career of Küçük Muhammad », p. 277,

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٩٣ •

٢ ـ أحمدشلبي ، ٢٦ ب ـ ٢٧ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥٨ آ ـ ٥٩ آ •

٣ ـ أحمد شلبي ، ٢٧ آ •

الفقار الفقاري وقيطاس بك القاسمي ، بمعنى انهما تمتعا بالسلطة الفعلية : الاول كأمير للحاج والثاني كقائم مقام .

وفي سنة ١٠٩٢/١٦٨١ - ١٦٨٢ أعطيت رتبة الصنجقية لكل من ابراهيم بشناق الشهير بابي شنب القاسمي ، وهو ابن أخت أحمد بك بشناق الذي قتل في ١٦٦٢ ، والى مراد آغا . واذا اعتبرنا هذا التعيين تدعيماً لسلطة الصناجق والقاسمية الذين كان ابراهيم بك أبو شنب من زعمائهم[1] ، فان الفقارية ازدادوا نفوذاً أيضاً بتعيين ذي الفقار أمير الحاج قائم مقام في ١٢ رمضان ١٠٩٤/٤ ايلول ١٦٨٣ .

وحدث في أواخر جمادى الثاني ١٠٩٧/النصف الثاني من أيار ١٦٨٦ ان خرجت حملة من مصر الى الموره بناء على أوامر السلطان ضمت الف جندي من العزب والفاً من الانكشارية ، وكانت بقيادة قيطاس بك القاسمي. واستغل كجك محمد سفر هذا العدد الكبير من الانكشارية فعاد الى مصر من منفاه في شوال ١٠٩٧/آب - ايلول ١٦٨٦ ، والتحق بالانكشارية ، وعاد الى منصبه باش أوضه باشي . ولكنه أثار بتصرفاته نقمة عدد من الانكشارية يتزعمهم جلب خليل ، وتمكنوا من اخراجه من طائفتهم ، فذهب الى حسن آغا بلفية الفقاري ، الذي كان آنذاك آغا طائفة الجنليان وزعيم البلفية ، وهم من مشاهير البيوتات العسكرية ، فعينه في طائفته برتبة جربجي ، وكانت اذ ذاك رتبة شرفية .

وحدث في هذه الاثناء أن توفي ذو الفقار بك أمير الحاج في ٢٦ شعبان ١٠٩٨/٧ تموز ١٦٨٧ فأعطيت صنجقيته الى ابنه ابراهيم ، وعين اسماعيل بك صهر حسن آغا بلفية أميراً للحاج . وقد خلفه بعد فترة في امارة الحاج ابراهيم بك أبي شنب القاسمي . وفي ٨ رجب ١١٠١/١٧ نيسان ١٦٩٠ عين ابراهيم بك ، ابن ذي الفقار ، أميراً على الحاج . وكان هذا نصراً للفقارية على القاسمية .

وحاول كجك محمد من جديد اعادة نفوذه في طائفة الانكشارية فدبر

---

١ - انظر الجبرتي ، ج ١ ، ٢٤ .

في ١٣ شوال ١١٠٣/١٥ حزيران ١٦٩٢ مقتل جلب خليل ، كاخيا الوقت في هذه الطائفة وعدوه اللدود • وحدثت فتنة اثر ذلك بين الانكشارية استغلها كجك محمد للتخلص من كبار زعماء هذه الطائفة ، وتمكن من العودة الى طائفة الانكشارية في ٢٣ شوال ، وأصبح باش أوضه باشي ، وكان ذلك بمساعدة أتباعه والفقارية وزعيمهم ابراهيم بك أمير الحاج • وكان الفقارية مستائين من نفوذ القاسمية الذين سيطروا على قيادة الانكشارية • وحاول الحليفان ، ابراهيم بك وكجك محمد ، القضاء على خصومهما فبعثر الاول أمراء القاسمية خارج القاهرة ، ونفى الثاني مصطفى كاخيا القازدغلي ، مؤسس القازدغلية (وهي أشهر البيوتات العسكرية) ومنافسه في طائفة الانكشارية ، الى الحجاز • وكان كجك محمد يعتمد على دعم حسن آغا بلفية الفقاري • وبدأ كجك محمد بعد ذلك بتوطيد نفوذه وايجاد شعبية له فأبطل الحمايات وهي أموال تفرض من قبل بعض أصحاب النفوذ من الجند وغيرهم على أصحاب المصالح لحمايتهم ، وتم ابطالها بموافقة الصناجق والطوائف العسكرية السبع • وحين ارتفع سعر الخبز بسبب نقص مياه النيل تدخل كجك محمد وهدد تجار القمح المسؤولين عن الخبز وألقى القبض على بعض الافراد وقتلهم • ولكن شخصاً، وصف بأنه عبد أسود ، أطلق النار في ١٣ محرم ١١٠٦/٣ ايلول ١٦٩٤ على كجك محمد فقتله • ونسب ذلك الى عدوه مصطفى كاخيا القازدغلي الذي كان بالاصل سراجاً عند حسن آغا بلفية • وقد سر لقتله تجار القمح الذين تضررت مصالحهم منه • وليس من قبيل المصادفة ان أسعار المواد الغذائية ارتفعت كثيراً بعد موته ، وحزن عليه عامة الناس لعدله وحزمه • وهذا دليل على الرصيد الشعبي الذي استند اليه كجك محمد في دعم نفوذه • وقد بقي يشغل منصب باش أوضه باشي المتواضع وتحكم ، من خلاله ، بطائفة الانكشارية ، وتمتع بالنفوذ في القاهرة[1] •

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : زبدة ، ١٨ آ ـ ٢٧ آ ؛ احمد شلبي ، ٢٧ آ ـ ٣٢ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 . ٥٨ آ ـ ٦٤ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٢٥ ـ ٢٦ ، ٩٠ ـ ٩٤ ؛ الدرة المنصانة ، ٢ آ ـ ٨ ب ؛ مصطفى القينلي ، ٤ آ ـ ٨ آ •

سيطر على طائفة الانكشارية بعد مقتل كجك، محمد مصطفى كاخيا القازدغلي ، واستمر في ذلك حتى وفاته في ١١١٥/١٧٠٣ - ١٧٠٤ • ولكن صراعاً هاماً على النفوذ كان يجري في هذه الاثناء بين الفقارية والقاسمية • وقد ضايق ابراهيم بك الفقاري أمير الحاج وصاحب الرئاسة في مصر آنذاك خصمه القاسمي ابراهيم بك أبي شنب وذلك ضمن خطة للقضاء على زعماء القاسمية • ولكن الوضع تبدل عقب تعيين ابراهيم بك أبي شنب قائم مقام من قبل والي مصر اسماعيل باشا (١١٠٧ - ١١٠٩/١٦٩٥ - ١٦٩٧) ، وذلك في محرم ١١٠٧/آب ١٦٩٥ • وتوفي في نفس السنة ، اثر طاعون عم مصر ، أمير الحاج ابراهيم بك الفقاري فأعطيت صنجقيته الى قيطاس بك الفقاري وامارة الحاج الى أيوب بك الفقاري • وكانت مصر آنذاك تعاني من أزمة اقتصادية خانقة سببها تلاعب الملتزمين بالاموال الميرية وحدوث الطاعون • واستغل اسماعيل باشا الازمة فاستولى على أموال كثير من المتوفين بالطاعون ، وكان قد أثار نقمة الملتزمين والصناجق عليه حين أمرهم باطعام الفقراء متهماً اياهم بافقارهم بسبب تلاعبهم بأموال الميري • ولم يخفف هذا الاجراء من الضائقة الاقتصادية بل زاد في العداء بين طبقات المجتمع •

وثار العساكر على اسماعيل باشا في ١٢ ربيع الاول ١١٠٩/٢٨ ايلول ١٦٩٧ بسبب جشعه وتحديه لهم وللصناجق والعلماء وبسبب ما أشيع عن نيته بالبطش ببعض زعمائهم • وقد سجن بالفعل أيوب بك أمير الحاج بسبب شكوى قدمت ضده • وترأس المعارضة للباشا حسن آغا بلفية ومصطفى كاخيا القازدغلي واسماعيل بك الدفتردار ، فعزلوا الباشا ، ونصبوا قائم مقام ، وأبلغوا السلطان فاعترف بالامر الواقع •

ولم تحدث أية اصطدامات تذكر بين القوى المتنفذة في القاهرة وبين الولاة في الفترة بين ١١٠٩ - ١١١٩/١٦٩٧ - ١٧٠٧ • ولكن التطورات التي حدثت في هذه الفترة ضمن القوى المتنفذة أدت الى تأزم العلاقة بين الانكشارية والطوائف العسكرية الست الاخرى • ومن أحداث هذه الفترة اصطدام الفقارية ومؤيديهم من البلفية

والقازدغلية بالقاسمية في ربيع الثاني ١١١٣ / ايلول ١٧٠١ ، وهزيمة الاخيرين • وحدثت فتنة أخرى في رمضان ١١١٨/كانون الاول ١٧٠٦ بين طائفة العزب من ناحية وبقية الطوائف العسكرية بزعامة الانكشارية من ناحية أخرى ، وانتهت بالمصالحة على يد الأغوات والصناجق[1] •

وقد توفي في هذه الاثناء مصطفى كاخيا القازدغلي ، صاحب النفوذ في طائفة الانكشارية ، فحاول افرنج أحمد (رتبته باش أوضه باشي) الوصول الى الزعامة بين الانكشارية ، على غرار كجك محمد • ولكنه عزل ونفي من القاهرة مع زميل له يسمى حسين أوضه باشي اثر فتنة بين الانكشارية في ٣ رجب ١١١٩/٣٠ ايلول ١٧٠٧ • وفي أواخر شعبان من نفس السنة عاد افرنج أحمد والتجأ الى طائفة الشراكسة ، والتجأ زميله الى طائفة التفنكجية• وحين علم الانكشارية بذلك طلبوا من الحاكم حسين باشا اخراجهما فتعصبت لهما الطائفتان ، وانضمت اليهما بقية الطوائف العسكرية • فتباحث العلماء والصناجق والاعيان وتوسطوا في الخلاف ، وقر الرأي على جعل افرنج أحمد صنجقاً ،وأصبح يعرف بافرنج أحمد بك[2]• والمهم في هذه الحادثة توزع الولاء بين الطوائف العسكرية اذ جابه الانكشارية بقية الطوائف الاخرى • وقد ازداد هذا الانشقاق عمقاً في السنوات التالية ، وشمل بقية القوى المتنفذة من صناجق وفقارية وقاسمية وولاة الى أن انفجر الموقف في سنة ١٧١١ •

حدث في النصف الاول من ذي الحجة ١١٢٠/النصف الثاني من شباط ١٧٠٩ خلاف بين عثمان أوضه باشي ، الذي دعمه الانكشارية ،

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : زبدة ، ٢٧ آ ـ ٤١ ب (تنتهي أحداث هذا المخطوط عند أحداث سنة ١١١١/١٧٠٠) ؛ أحمد شلبي ، ٣٢ ب ـ ٤٣ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٦٤ آ ـ ٧٥ ب ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ٢٦ ـ ٢٧ ، ٢٨ ـ ٣١ ، ٩٩ ـ ١٠٢ ، انظر أيضا : ٣٠ ، ٣٢ ، ٩٨ ؛ الدرة المنصانة ، ٩ آ ـ ٤٠ ب ؛ مصطفى القينلي ، ٨ ب ـ ٥٣ آ •

٢ ـ انظر : أحمد شلبي ، ٤٣ آ ـ ٤٤ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٧٥ ب ـ ٧٦ آ ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٢ ـ ٣٣ •

ومحمد آغا كاخيا الجاويشية • ووقفت الطوائف الاخرى بجانب الجاويشية واستنفرت قواتها • وقد أثار هذا الجو من الاستعداد السكان المحليين فوقفوا ضد الانكشارية ، ولم تكن الاسباب التي أدت الى هذا التكتل مجرد خلاف بين شخصين بل كانت أعمق من ذلك • فقد طالب أعداء الانكشارية بالغاء المظالم والحمايات التي يبدو ان الانكشارية كانوا يستفيدون منها والتي أعيدت بعد مقتل كجك محمد • ورد الانكشارية بأن طالبوا الباشا بالغاء مظالم السباهية في الكشوفيات • وكان الباشا مغلوباً على أمره ولا يدري أوامر من سيطيع ، وهذا موقف تكرر ثم استفحل من قبل الولاة في القرن الثامن عشر حتى أصبحوا كأنهم سجناء في القلعة حيث يقيمون ، وأخذت القوى المتنفذة تصرف الامور • ولما لم ينفذ الباشا مطالب الطوائف الست ، اجتمع ممثلوها في ٢٧ ذي الحجة/٩ آذار ١٧٠٩ في مقر طائفة العزب التي تزعمت الطوائف الأخرى بسبب قوتها ومنافستها الشديدة للانكشارية وهددوا الباشا بالعزل ، فرضخ لمطالبهم ، وكان هذا انتصاراً بالظاهر على الانكشارية • ولكن هؤلاء اجتمعوا في ٤ محرم ١١٢١/١٦ آذار ١٧٠٩ وقرروا الاستمرار في المعارضة ، واحتج الانكشارية على مطالبة الطوائف الاخرى للباشا بنقل دار الضرب من القلعة ، حيث كانت بحماية الانكشارية ، الى الديوان لان ذلك يعتبر انتقاصاً لكرامتهم واتهاماً بتلاعبهم بالنقد •

وازداد تأزم العلاقات بين الانكشارية ومناوئيهم في ربيع الاول ١١٢١/أيار ١٧٠٩ بسبب دعم الانكشارية لقيطاس بك الفقاري في بقائه أميراً على الحاج ومعارضة الطوائف الاخرى لذلك • وقد تم للانكشارية ما أرادوا ، ولكن الطوائف الاخرى طالبت بنفي ثمانية انكشارية بتهمة التحريض على المقاومة • واستنفرت قوات الطرفين واعتصم الانكشارية في القلعة ، ثم تم الصلح بعد أن رمى العلماء بثقلهم ضد الانكشارية ، واتفق على نفي الانكشارية الثمانية • وقد عادوا بعد فترة قصيرة ووزعوا على الطوائف العسكرية بمعرفة الصناجق • وتمت المصالحة في هذه الاثناء بين الانكشارية وافرنج أحمد وأعيد الى وظيفته بينهم برتبة باش أوضه باشي •

ووردت في أوائل جمادى الاول ١١٢١/أواخر تموز ١٧٠٩ أوامر سلطانية باخراج العسكريين من الحرف ، وقطع أي علاقة بين الفريقين . ولم يمكن تنفيذ ذلك . وكان من شأن هـذا التهديد لمصالح العساكر ان ازدادوا تكاتفاً وتحدياً للسلطة العثمانية ممثلة بالباشا ، وتوعدوا كل من يتعامل مع الباشا ، حتى ولو كان منهم ، وقد نفوا ثلاثة أنفار من طائفتي الجاويشية والمتفرقة لمخالفتهم ذلك[1] .

وبعد المصالحة بين الطوائف العسكريـة وزوال العداء ظاهرياً تجاه الانكشارية ، استأنف أفراد هذه الطائفة عداواتهم الداخلية . وكان هذا مشجعاً للطوائف الاخرى للتدخل في شؤون الانكشارية ودعم فريق ضد آخر . وحدث في محرم ١١٢٣/آذار ١٧١١ ان ظهرت معارضة ضد افرنج أحمد بين الانكشارية تزعمها أتباع مصطفى كاخيا القازدغلي . وطالب المعارضون بعزل افرنج أحمد من منصب باش أوضه باشي وجعله جربجياً شرفياً ، وهددوا بالانضمام الى الطوائف الاخرى اذا لـم تنفذ مطالبهم ، ودعمتهم في ذلك الطوائف الست الاخرى . وازاء هذا التأييد ، طالب المعارضون بعودة الانكشارية الثمانية ، الذين أخرجوا سابقاً ، الى طائفة الانكشارية . وتدارس الصناجق واختيارية الطوائف الست الوضع وقرروا نقل الانفار الثمانيـة الى مقر العزب ، منافسي الانكشارية . واقر الباشـا هـذا الاجراء .

وحين عاد أمير الحاج ايواظ بك القاسمي[2] الى مصر في ٢٣ صفر ١١٢٣/١٢ نيسان ١٧١١ تقوى القازدغلية بعودة بعض زعمائهم الذين شغلوا مناصب في قافلة الحاج مثل حسن جاويش القازدغلي سردار القطار (قائد جنود احدى الطوائف العسكرية المرافقين للحاج) ، وسليمان جربجي

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : أحمد شلبي ، ٤٤ ب ـ ٥٠ آ ؛ بمخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٧٦ ب ـ ٧٨ ب (يتوقف هنا المخطوط فجأة عند احداث نهاية سنة ١١٢٠/١٧٠٩) ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٤ ـ ٣٨ ؛ الدرة المنصانة ، ٤١ آ ـ ٤٦ آ ، مصطفى القينلي ، ٥٣ ب ـ ٦١ آ .

٢ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٩٥ .

القازدغلي سردار الصرّة (المال الذي يرسل بأمر السلطان الى علماء وفقراء مكة والمدينة كل سنة)[١] ، وطلبوا الخروج من طائفة الانكشارية بسبب عدم طرد افرنج أحمد ، والتحقوا بالعزب ، وحاولوا من مركز العزب الستراتيجي في القلعة قطع الطريق على الانكشارية ، المقيمين في القلعة أيضاً ، ومحاصرتهم . وكانت النتيجة أن نشب قتال بين افرنج أحمد ومؤيديه من الانكشارية ، وبين العزب . وكان الباشا وقاضي القضاة الحنفي في هذه الاثناء منعزلين وعاجزين عن القيام بأي عمل لحسم النزاع . وقد حاول الصناجق وزعماء القاسمية والفقارية التوسط في النزاع ، ولكن افرنج أحمد أصرّ على اخراج الانكشارية الثمانية من طائفة العزب . ويبرز هنا طرف جديد في النزاع وهو محمد بك الفقاري حاكم الصعيد الذي قدم الى مصر وبدأ بقتال العزب الذين اعتصموا في القلعة . وتقوى افرنج أحمد بذلك فرفض الصلح ، وأخذ يقصف مركز العزب بالمدافع . وتحالف افرنج أحمد مع أيوب بك ، الدفتردار وأمير الحاج سابقاً وأحد زعماء الفقارية[٢] ، ومع آغا طائفة الشراكسة وآغا التفنكجيان وآغا الجنليان الذين نقلوا المقاومة للعزب الى حارات المدينة . ووقف زعماء القاسمية الى جانب العزب ، واشتركت غالبية القوى الأخرى في مصر ، بما في ذلك قبائل البدو ، في هذا النزاع . وهكذا وجد فريقان متنازعان : فريق افرنج أحمد ومؤيديه من الانكشارية ، ويدعمه أيوب بك ، ومحمد بك ، حاكم الصعيد وأتباعهما من الفقارية ، وبدو الهوارة ، وبدو حبيب ، وأغاوات طوائف الشراكسة والتفنكجيان والجنليان ، وطائفة المتفرقة ، وسليمان آغا كاخيا الجاويشية ، والباشا وقاضي القضاة ونقيب الاشراف . ويقابل هؤلاء فريق العزب ويؤيده القاسمية وزعماؤهم ايوازبك أمير الحاج وابراهيم بك أبو شنب أمير الحاج سابقاً ، وبعض الفقارية من القازدغلية المنشقين على الانكشارية ومن أتباع قيطاس بك الفقاري المناوىء لأيوب بك ، وأغلب أفراد الطوائف السباهية (باستثناء أغواتهم الذين وقفوا الى جانب افرنج أحمد فعزلهم فريق

---

١ ـ انظر ص ١٥٦ .

٢ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٩٨ .

العزب وعين آخرين مكانهم) • ووقف أيضاً الى جانب العزب الانكشارية الثمانيةالمنفيون ،وبدو السلالمةوالهنادي في البحيرة ، وأغلب العلماء•وقد عزل العزب وحلفاؤهم الباشا وعينوا قائم مقاممكانه ،كما عزلوا قائد الشرطة وعينوا بدلا منهشخصاً من قبلهم•ولجأ افرنج أحمد ،لمقاومة أعدائهالاقوياء ،الى تجنيد حوالي ثمانمائةجندي ،ودفع لهمالرواتب للوقوف الىجانبه•وأصبحت السلطة ثنائية : فالباشا يصدر أوامر من ناحية ، والقائم مقام يعارضها من ناحية أخرى ، وبالعكس • وحدثت عدة اصطدامات بين الفريقين في ربيع الاول وربيع الثاني ١١٢٣/نيسان ـ حزيران ١٧١١ ، وقتل خلالها ، في ١٤ربيع الثاني/١ حزيران ، ايوازبك زعيم القاسمية فخلفه في الصنجقية ابنه اسماعيل • واستخدم فريق العزب نوعاً من الحيلة لتشتيت قوة الفقارية فطلبوا من القائم مقام ، وهو من فريقهم ، تعيين أحد مؤيديهم برتبة كاخيا في طائفة الانكشارية وجعلوا مقره في مركز قائد الشرطة ، وقام بحراسته فريق من العزب • ثم طلبوا من الانكشارية الذين كانوا خارج القلعة أن ينضموا الى هذا الكاخيا والا قتلوا • فانضم اليه كثيرون مما أضعف قوة الانكشارية المتمركزين في القلعة • وفي محاولة أخرى من القائم مقام والصناجق مؤيدي العزب لاضعاف الانكشارية عمدوا الى تعيين آغا للانكشارية من مؤيديهم لخلق الاضطرابات بين أتباع افرنج أحمد ، وعينوا موظفين آخرين في وظائف الدولة الهامة بعد أن طردوا الموظفين المؤيدين للباشا • وطلبوا من جميع الانكشارية الالتحاق بالآغا الجديد فحدث انشقاق في صفوفهم استغله العزب ومؤيدوهم فاحتلوا في ٥ جمادى الاول/٢١ حزيران منزل أيوب بك بعد أن هزموا قوة أرسلها افرنج أحمد لحمايته ، وهرب أيوب بك باتجاه الشام ومحمد بك باتجاه الصعيد ثم استانبول بعد حرق بيتيهما في القاهرة • وتركز الهجوم على القلعة فاستسلم الباشا ، وقتل آغا الانكشارية فيها وحليفه آغا الشراكسة • وقتل افرنج أحمد ، وعين محمد بك قطامش حاكماً على الصعيد لقتال محمد بك الهارب • وهكذا انتصر فريق العزب ـ القاسمية على فريق الانكشارية ـ الفقارية • ولشدة احداث سنة

١١٢٣/١٧١١ هذه نظر اليها علـــى انها سنة الفتنة أو الواقعة الكبـــيرة ، وأصبحت تستخدم للتأريخ[١] •

وبعد القضاء على افرنج أحمد وعلى نفوذ الجناح الفقاري المؤيد له ، وبعد اضعاف القاسمية بموت زعيمهم ايوازبك ، استغل الفرصة الجنـــاح الفقاري ، الذي أيد العزب في الازمة السابقة ، برئاسة قيطاس بك واحتكر أغلب المناصب الهامة بتأييد من الباشا • وقد عين قيطاس بك دفترداراً وعين تابعه محمد بك قطامش أميراً للحاج • ولكن القاسمية بزعامة ابراهيم بك أبو شنب كانوا يحاولون استعادة نفوذهم ، فاستغلوا اتهام الباشا للزعيمين الفقاريين بالتلاعب بأموال الميري ودبروا عزلهما في ربيع الثاني ـ جمادى الاول ١١٢٧/نيسان ـ حزيران ١٧١٥ ، وعين اسماعيل بك بن ايوازبك القاسمي أمـــيراً للحاج • وفي ٤ رجب ١١٢٧/٦ تموز ١٧١٥ أمر البـاشــا بقتل قيطاس بك ، وادعى انه ينفذ بذلك أمر السلطان • وحدثت فتنة اثر ذلك بين مؤيدي قيطاس بك ومعارضيه اشترك فيهـا الانكشارية والعزب وانتهت بسيطرة القاسمية • وازاء ضعف الفقارية الآن حدث انشقاق بين القاسمية مرده الصراع على النفوذ بين اسماعيل بك بن ايواز وابراهيم بك أبو شنب • وحين توفي هـذا الاخير بالطاعون في ١٥ رجب ١١٣٠/١٤ حزيران ١٧١٨ تزعم أحد أتباعه ويسمى جركس محمد بك المعارضة لاسماعيل بك ، وتحالف مع عـدد من زعماء الفقارية ، علـى رأسهم ذو الفقار ، الذين كانوا يرغبون بقتل اسماعيل بك • وبالفعل تم قتل اسماعيل بك بن ايواز في ديوان الباشا في ١٩ صفر ١١٣٦/١٨ تشرين الثاني١٧٢٣ على يد ذي الفقار وجركس محمد بك • ورغم ان جركس محمد بك قد

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : أحمد شلبي ، ٥٠ ب ـ ٦٢ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٨ ـ ٤٧ ، ٩٦ ؛ الدرة المنصانة ، ٤٦ آ ـ ٥٩ آ ؛ مصطفى القينلي ، ٦١ آ ـ ٨١ آ •
كتب عن هذه الاحداث أيضا :

A. Raymond, « Une Révolution au Caire sous les Mamelouks : La crise de 1123/1711 », Annales islamologiques, t. VI (Le Caire, 1965), pp. 95 - 120; Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 88 - 90.

تخلص بذلك من منافسة اسماعيل بك الا أن قتله كان اضعافاً للقاسمية تجاه الفقارية الذين سرعان ما حاولوا القضاء على جركس محمد بك بعد زوال العدو الذي وحد بينهما • وقد أصبح محمد بك قطامش الفقاري أميراً للحاج في ١١٣٨/١٧٢٦ ، وخلفه في هذا المنصب في العام التالي ذو الفقار بك • وقد نشب نزاع على النفوذ بين هذين الزعيمين الفقاريين ، ولكن صفوفهما بقيت متراصة لان عدوهما جركس محمد بك كان يتربص بهما• وقد هرب الى الصعيد ليجمع المؤيدين له ، فأرسل الباشا وذو الفقار بك قوات ضده • وغرق جركس محمد بك في النيل في ٣٠ رمضان ١١٤٢/ ١٨ نيسان ١٧٣٠ دون أن يعلم باغتيال ذي الفقار بك قبل خمسة أيام على يد خليل آغا المتواطىء مع جركس محمد بك •

وأفسح المجال الآن لزعامة محمد بك قطامش الفقاري الذي تسلم الرئاسة (السلطة الفعلية) في القاهرة ، وقضى على القاسمية نهائياً ، وبذلك سيطر الفقارية[1] ، وبقوا كذلك حتى حملة نابليون بونابرت على مصر في ١٧٩٨ • ولكن بعد زوال القاسمية الذين وحدوا صفوف الفقارية في العداء لهم ، بدأ الفقارية ينشقون على أنفسهم • ولا أدل على طبيعة هذا الانشقاق من نوعية الاشخاص الذين اعتمد عليهم محمد بك قطامش في أول عهده واشتهروا معه ، وكان من بينهم مملوكه علي بك وعثمان كاخيا القازدغلي ، وعلى هذا فان الصراع تركز الآن ، ضمن الفقارية ، بين مجموعتين مختلفتين في التركيب : القازدغلية من ناحية والمماليك من ناحية أخرى • وبزوال القازدغلية بعد قليل انقسم المماليك ، بدورهم ، على أنفسهم ونشأت المنازعات بينهم • ثم ظهر علي بك في الستينيات وتوصل الى زعامة مصر •

---

١ ـ انظر بشأن تفاصيل الاحداث السابقة : أحمد شلبي ، ٦٢ ب ـ ٢٣١ آ ; الدرة المنصانة ، ٥٧ آـ١٢٠ ب ; الجبرتي ، جـ ١ ، ١٢٦ـ١٣٠ ، ١٤٤ ; مصطفى القينلي ، ٨١ آ ـ ١٧٩ب •

القسم الثالث

بلاد الشــام ومصر في فترة انحطاط الدولة العثمانية

من الربع الاول للقرن الثامن عشر الى حملة نابليون بونابرت

تمهيـــد

الفصل العاشر :

بلاد الشــام في فترة انحطاط الدولـة العثمانيــة •

الفصل الحادي عشر :

ولايــة مصر في فترة انحطاط الدولة العثمانيــة •

تمهيد

سبق أن رأينا[1] كيف بدأ العثمانيون يخسرون زمام المبادرة العسكرية لصالح الدول الاوربية منذ أواخر القرن السابع عشر ، وتخلوا بالتدريج بعد ذلك عن فتوحاتهم في البلقان • وكانت النمسا وروسيا من أعداء الدولة العثمانية الرئيسيين في الربع الاول من القرن الثامن عشر • وقد تقوت روسيا كثيراً آنذاك في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢ – ١٧٢٥) ، الذي سعى جاهداً للوصول الى مياه البحر الاسود الدافئة واحتلال منطقة أزوف ، ولكن العثمانيين حالوا دون ذلك[2] • وجابه الدولة العثمانية في الربع الثاني من القرن الثامن عشر خطر داهم من بلاد فارس حيث تمكن الامير التركماني نادر شـاه ، من قبيلة أفشر ، (ويعرف أيضاً بلقب طهماسب قولي خان) من القضاء على حكام فارس الافغانيين السنة في ١٧٢٩ ، وأعاد الصفويين الى الحكم • وقد أصبح هؤلاء مجرد حكام صوريين ، بينما كانت السلطة الفعلية في يد نادر شاه • وفي سنة ١٧٣٦ أعلن نادر شاه نفسه حاكماً عـلى فارس ، وأزال الصفويين من الحكم • وكان منذ أن ظهر عـلى مسرح السياسة في ١٧٢٩ وحتى وفاته في ١٧٤٧ ، العدو الاكبر للعثمانيين اذ هدد الولايات العثمانية في العراق ، وحاصر بغداد والموصل أكثر من مرة • وقد عقدت عدة معاهدات صلح بينه وبين العثمانيين في هذه الفترة ، ولكنها سرعان ما كانت تلغى بتجدد القتال • وحاول نادر شاه ، الذي تبنى المذهب الشيعي الجعفري (نسبة الى الامام جعفر

---

١ – انظر ص ١٨٣ •

٢ – انظر تفاصيل القتال بين العثمانيين والروس ، في مخطوط تحفة الاحباب ، ٩٥ آ – ٩٩ آ (حيث ينتهي المخطوط فجأة) ؛ انظر أيضاً : Creasy, pp. 328 - 338 .

الصادق) ، أن يرسل الى الحجاز قافلة حاج فارسية يرأسها أمير حاج خاص ، ليؤكد بذلك نفوذه الديني ، وليوفر على الحجاج الفرس الذهاب الى دمشق للانضمام الى قافلة الحاج الشامي ، كما جرت العادة . ولكن السلطان العثماني رفض الاعتراف بذلك في معاهدات الصلح مع نادر شاه لأنه اعتبر هذا الامر انتقاصاً لسلطته الدينية ولاشرافه على الاماكن المقدسة في الحجاز[1] . وكان السلطان العثماني يرعى قافلتي الحاج الرئيسيتين في العالم الاسلامي آنذاك وهما : قافلة الحاج الشامي التي تضم عادة الحجاج المسلمين القادمين من بلاد الشام ومن المناطق الى الشمال الغربي والشرق ، بما في ذلك الحجاج الفرس ؛ وقافلة الحاج المصري التي تضم عادة حجاج وادي النيل والمغرب . وكانت هناك قافلة حاج يمنية ، أقل شأناً ، تضم حجاج اليمن والحجاج القادمين بحراً الى اليمن .

وقد أدت انتصارات نادر شاه على العثمانيين في ١٧٣٠ الى حدوث ثورة شعبية في استانبول ، تزعمها الانكشارية ، احتجاجاً على هزائم العثمانيين في الجبهة الفارسية وعلى ابتزاز أموال الشعب باسم الدفاع ضد نادر شاه بينما كانت تبذر في الحقيقة على بذخ الحكام في استانبول . وقد قتل الصدر الاعظم بنتيجة الثورة ، وأجبر السلطان أحمد الثالث على الاستقالة[2] .

---

١ انظر :

PRO, S. P. 97/31 : Constantinople, 30. 1. 1741, Constantinople, 8. 5. 1741, Constantinople, 8. 4. 1742 ;

انظر أيضاً ما كتبه V. Minorsky تحت عنوان Nadir Shah في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى .

انظر حول العلاقات العثمانية الفارسية بصورة عامة :

Muhammad ‘Ali Hikmat, Essai sur l’Histoire des Relations Politiques Irano - Ottomanes de 1722 à 1747, Paris, 1947, voir pp. 183 - 184.

Mary L. Shay, The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana, 1944, see pp. 125 - 126.

٢ ـ انظر تفاصيل أخرى عن هذه الثورة في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 105 - 106

وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون منشغلين في أحداث الجبهة الفارسية كانت الدول الاوربية منشغلة هي الأخرى في حروب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ – ١٧٤٨) ، ثم في حرب السبع سنوات (١٧٥٦ – ١٧٦٣) . ولكن الاشتباكات العثمانية ـ الروسية تجددت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، في عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ – ١٧٩٦) ، وبلغت ذروتها في حرب دامت بينهما من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٤ ، وانتهت بمعاهدة كجك قاينارجة[١] . وقد أنهكت هذه الحرب الامبراطورية العثمانية ، وهدد أثناءها الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط سواحل الاناضول وبلاد الشام . واستغل علي بك المملوكي في مصر وظاهر العمر في بلاد الشام انشغال العثمانيين بهذه الحرب فاحتلت قواتهما دمشق لفترة قصيرة في حزيران ١٧٧١ ، وتحالفا مع قائد الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط[٢] . وتخلت الامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة كجك قاينارجة عن سيادتها على السكان التتار في القرم ؛ وفي سنة ١٧٨٣ ضمت روسيا القرم اليها ، وبذلك خسر العثمانيون مناطق يسكنها أتراك مسلمون . وكان هذا ضربة كبيرة لنفوذ العثمانيين لأن خسائرهم ، قبل ذلك، اقتصرت تقريباً على مناطق مفتتحة في أوروبا وسكانها من المسيحيين.

وهكذا تعرضت الدولة العثمانية ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الى ضغط دولتين كبيرتين : روسيا من الشمال ، والنمسا من الغرب . وتجددت الحرب بين العثمانيين والروس في الفترة بين ١٧٨٧ – ١٧٩٢ ، وانتهت بمعاهدة صلح ياسي في ٩ كانون الثاني ١٧٩٢ التي اعترفت بتوسع روسيا حتى حدود نهر الدنيستر ، وأصبح هذا النهر منطقة الحدود بين الدولتين[٣].

---

١ – انظر ص ٥٩ .

٢ – انظر الفصل العاشر .

٣ – انظر : Creasy, pp. 419 - 445

وقد حدثت ، اثر هزائم العثمانيين المتكررة في القرن الثامن عشر ، محاولات عثمانية للاصلاح ، وخاصة في المجال العسكري، لتتمكن الدولة من مقاومة الجيوش الاوربية المتفوقة . وكان العثمانيون قد اطلعوا على تفوق الغرب بواسطة احتكاكهم به عن طريق الحرب ، والتجارة ، والبعثات الدبلوماسية الاوربية المقيمة في استانبول ، والوفود العثمانية التي كانت ترسل بين فترةوأخرى الى أوروبا ، واللاجئين من الغرب الى الامبراطورية العثمانية . وقد أدخل العثمانيون ، منذ الربع الاول للقرن الثامن عشر ، اصلاحات في مجالات الطباعة والبحرية والهندسة والمدفعية . ولكن الخطوة الأساسية التي كان على المسؤولين العثمانيين اتخاذها هي اصلاح الجيش العثماني . وكان الانكشارية ، الذين شكلوا عماد هذا الجيش ، قد وصلوا الى درجة كبيرة من الفوضى والتسلط ، ولم يعودوا يرهبون سوى السلاطين العثمانيين الذين قاسوا منهم ، وقتل بعضهم بسبب ثوراتهم . واغتنم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) توقيع معاهدة ياسي مع روسيا في ١٧٩٢ وانشغال الدول الاوربية بمشاكل الثورة الفرنسية آنذاك، فأصدر في سنتي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ عدة قرارات ، سميت بالنظام الجديد ، لاصلاح الادارة المالية ، وادارة الولايات ، والتجارة ، ولايجاد جيش جديد على الطراز الاوربي . وبالتدريج اقتصر تعبير « النظام الجديد » على الجيش الجديد لانه كان أبرز هذه الاصلاحات. ولم يتمكن السلطان سليم الثالث من الصمود في وجه المقاومة لاصلاحاته ، وخاصة من قبل الانكشارية والعلماء ، وعبثاً حاول استبعاد النقمة ضده بالتخلي عن الاصلاح . وفي سنة ١٨٠٧ عزله الانكشارية من السلطنة ، بموافقة شيخ الاسلام في استانبول ،

وحل الجيش الجديد ، وأصيب الاصلاح بنكسة قوية[١] .

ورغم فشل السلطان سليم الثالث في اصلاحاته ، فان محاولته وضعت عناصر الاصلاح وجهاً لوجه أمام العناصر المحافظة ذات المصلحة في الابقاء على الامبراطورية كما هي . ولم ينفذ الاصلاح ويقض على الانكشارية حتى عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) . واذا استعرضنا قائمة السلاطين العثمانيين منذ عهد مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) وحتى نهاية القرن الثامن عشر، لوجدنا أن سليم الثالث هو أول من أعاد زمام المبادرة السياسية ، في هذه الفترة ، الى السلاطين . وكان يتنازع على السلطة العليا في استانبول قبل عهده ، أثناء غياب السلاطين عن المسرح السياسي كل من الصدر الاعظم والكزلار آغا . وقد ازدادت أهمية الموظ الأخير الذي كان يشرف عـلى شؤون حريم السلطان ، ب انقطاع السلاطين الى حيـاة القصر الخاصـة . وانتسب الولايـات الى هذين الموظفين ، وتوقف مصيرهم عـا الصراع بينهما . وتأثرت تبعاً لذلك الادارة في الولايا حدث مثلا حين عزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام بسبب عداء الكزلار آغا له . وسعى الكزلار آغا في حسين باشا بن مكي على الشام ، وكان والياً ضعيفاً قافلة الحاج في عهده ، وأبادوها تقريباً[٢] .

ونتج عن ضعف الدولة العثمانية تجاه الصراع على النفوذ في استانبول ، ان تناقص في الولايات ، وعجزت عن تحقيق الأم

---

١ ـ انظر حول محاولات الاصلاح في الامبراطورية
- 72 ;
انظر أيضاً ما كتبه J. H. Kramers تحـ
المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى .
٢ ـ انظر الفصل العاشر .

لظهور حكام محليين في كثير من الولايات العربية وغيرها في القرن الثامن عشر • ففي روميلية والاناضول ظهر أعيان محليون ، سموا في الاناضــول باسم (Derebeys) ، أي ســادة الوديان ، وكانوا اما من كبار الملاكين أو أصحاب الاقطاعات أو الملترمين • وقد أمنوا النظام في مناطقهم ، فاعترفت الدولة بسلطتهم لأنه ليس بامكانها القضاء عليهم أو القيام بتأمين النظام مثلهم •

واختلف الوضــع في الولايات العربيــة عنه في الأناضــول وروميلية فيما يتعلق بنوعية الحكام • ففي بلاد الشــام وولايــة الموصل ظهرت على الصعيد السياسي أسر محلية : آل العظم في الاولى وآل الجليلي في الثانية ، وتمكن أفراد هاتين الأسرتين أن يصبحوا ولاة محليين خلال القسم الاكبر من القرن الثامن عشر• وقد عين أول وال من آل العظم وهو اسماعيل باشــا العظم ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، حاكماً على معرة النعمان وحماة ، ثم والياً عــلى طرابلس ؛ وفي ١٧٢٥ عين عــلى ولاية الشام[١] • وحكم أفراد هذه الأسرة ، بشكل متقطع ، في مختلف [...]يات الشام ، وخاصة في دمشق وصيدا وطرابلس ، حتى الربع [...]ل من القرن التاسع عشر • وقد عاصر آل العظم ، في منطقة [...]ن في القرن الثامن عشر ، الزعيم المحلي ظاهر العمر الذي [...]حة كبــيرة من السلطة ، وتحدى العثمانيين في ســاحات [...]

[...]بدأ حكم آل الجليلي في الموصل في ١١٣٩/١٧٢٦ — [...] اسماعيل باشا بن عبد الجليل ، مؤسس الاسرة ، [...] بقيت هذه الاسرة تحكم ، بشــكل متقطع ، حتى [...]١[٢] •

[...]صل العاشر •

[...]كم آل الجليلي في الموصل : ياسين العمري ، منية الادباء في [...] الحدباء ، نشره سعيد الديوه‌جي ، الموصل ١٩٥٥ •

واحتكر حسن باشا وابنه أحمد باشا حكم ولايتي بغداد والبصرة في النصف الاول من القرن الثامن عشر • وكان حسن باشا قد تولى عدة ولايات قبل تعيينه على بغداد في سنة ١٧٠٤ ، واستمر في ولايتها حتى وفاته في ١٧٢٣ • ثم خلفه في حكمها ابنه أحمد باشا الذي كان يشغل آنذاك منصب والي البصرة • وبقي أحمد باشا والياً على بغداد حتى وفاته في ١٧٤٧ ، باستثناء فترة سنتين (١٧٣٤ – ١٧٣٦) حين عين على ولاية حلب ، ثم أعيد الى ولاية بغداد بسبب عدم كفاءة خلفائه في توطيد الأمن والنظام فيها • ولم يخلف أحمد باشا ولداً ذكراً فخلفه في ولاية بغداد أحد مماليكه ، وحكم البصرة مملوك آخر • وكان أحمد باشا وأبوه من قبله قد اعتمدا على جند من المماليك (لا علا لهم بمماليك مصر سوى الاسم وطريقة التجنيد) في توط سلطتهما • وبقي المماليك يحكمون ولايتي بغداد والبصرة سنة ١٨٣١ حين قضى العثمانيون على حكمهم[1] •

---

١ – انظر حول أحوال العراق في هذه الفترة : عبد الرحمن السويا بغداد أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، مخطوط في المتحف الب Add. 18507 ، ويتألف من ٢١٩ ورقة • وقد نشر صفاء من هذا المخطوط يشمل أول سبع وستين ورقة منه ، تحت بغداد لابن السويدي أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء بغداد ، ١٩٦٢ ، ويبحث هذا الجزء في حكم حسن باشا رسول الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغد التركية موسى كاظم نورس ، بيروت (؟) ؛ وانظر البغدادي ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد ١٩٦٢ ، وانظر أيضاً : العزاوي ، تاريخ والسادس • انظر حول داود باشا ، آخر ولاة ا خمس عشرة سنة : عثمان البصري ، مطالع ال وقد نشر مختصراً عنه مع بعض الاضافة أم طبع بومباي ، ١٣٠٤/١٨٨٦ ؛ ويراجع في
s of Modern Iraq, Oxford, 1925.
وقد ترجم جعفر الخياط هذا الكتاب الى ا سنة ١٩٤٩ •

وبلغ المماليك في مصر ، في القرن الثامن عشر ، ذروة نفوذهم وسلطتهم في عهد علي بك • ولم يعد الباشا العثماني يتمتع بسلطة فعلية كبيرة[1] • وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة للنفوذ العثماني في مصر ، اذ بعد اضعاف سلطة المماليك نتيجة لحملة نابليون بونابرت على مصر ، ظهر محمد علي وسيطر على مقدرات البلاد •

وظهرت في طرابلس الغرب في القرن الثامن عشر الاسرة القرمانلية التي حكم أفرادها من سنة ١٧١١ الى سنة ١٨٣٥ • وكانت هذه الاسرة تركية الاصل ، من قرمان (كرمان) ، وهاجر أحد أفرادها الى طرابلس الغرب حيث عمل بحاراً • واصبح ابنه باش آغا فرسان الساحل ، ثم خلفه في هذا المنصب ابنه أحمد القرماني الذي توصل الى حكم ولاية طرابلس الغرب في سنة ١٧١١[2] •

وتجدر الاشارة الى أن أحداً من هؤلاء الحكام المحليين لم يعلن استقلاله عن الدولة رغم ماتمتع به من سلطة مطلقة تقريباً في منطقته • والسبب في ذلك أن السلطان العثماني ، مهما بلغ ضعفه السياسي والعسكري ، كان لا يزال زعيم المسلمين ، وان خروج عليه من شأنه أن يؤلب الرأي العام الاسلامي ضد • كما أن الانفصال عن السلطنة العثمانية سيجعل المنفصل ليس فقط الى مقاومة الدولة العثمانية له بل الى اطماع القوات الخارجية التي يسهل عليها عندئذ الانفراد به • وكان ضى بوجود هؤلاء الحكام المحليين ، مهما بلغوا من ما داموا يقدمون الطاعة له ، ويحافظون على الامن

-حادي عشر •

-م الاسرة القرمانلية : رودلفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت كي ، نقله الى العربية طه فوزي ، مطبوعات معهد الدراسات ، القاهرة ١٩٦١ •

وبعد أن رأينا كيف ساعد انحطاط الادارة المركزية العثمانية في القرن الثامن عشر على ظهور هؤلاء الحكام المحليين الذين ملأوا الفراغ الذي تركه ضعف السلطة العثمانية في الولايات ، نتساءل الآن عن الاسباب المحلية التي مكنت هؤلاء الحكام أن يظهروا في هذا القرن وفي هذه الأماكن بالذات والتي أتاحت لهم استمرار حكمهم ، رغم اختلافهم في الأصل وفي الاسس التي إستمدوا منها قوتهم .

لقد ظهر مؤسس الاسرة العظمية ، ابراهيم العظم ، كجندي يدافع عن السلطة العثمانية في معرة النعمان ضد غزوات التركمان في الربع الثالث من القرن السابع عشر . واستمر أفراد هذه الاسرة في خدمة العثمانيين ، وعينوا بين سنتي ١٧٢٥ و ١٧٢٨ على ولايات الشام ، وصيدا ، وطرابلس . وقد تمتع آل العظم بالغنى والنفوذ والدعم في استانبول ، وهي أشياء أساسية ، في مقاييس تلك الفترة ، للحصول على الحكم والاستمرار فيه . ولكن بقاءهم في الحكم مدة طويلة وتعيينهم على ولاية الشام مدة ثلاث وأربعين سنة ، بشكل متقطع ، في القرن الثامن عشر ، يدل على وجود أسباب أخرى أتاحت لهم ذلك . ان بلاد الشام الجنوبية ، وولاية الشام بالذات ، كانت تجاور البادية حيث القبائل البدوية التي هددت قافلة الحاج . وقد رأينا[1] كيف أن تكليف ولاة الشام بامارة الحاج ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، قد نتج عنه اطالة حكم هؤلاء الولاة ما داموا يؤمنون سلامة الحاج . وقد أمن آل العظم ذلك فاستمروا في الحكم . ووطدوا ، بالاضافة الى ذلك ، الامن في ولاياتهم ، ودفعوا مال الميري ، ولم تحدثهم نفسهم بالثورة والاستقلال ، بل قنعوا بالحكم في ظل السلطان فتسامح بوجودهم ، لاسيما وانه كان بامكانه عزلهم أو نقلهم من مكان الى

١ ـ انظر ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ .

آخر وحتى مصادرتهم ، كما حدث بالواقع[1] • ويفسر تعيين آل العظم حكاماً أيضاً على ولايات صيدا وطرابلس ، وأحياناً حلب ، بقوة النفوذ الذي وصلوا اليه وبمحاولة الدولة ايجاد الانسجام بين الولاة لينصروا بعضهم بعضاً ضد ظاهر العمر والبدو الاقوياء وليكون أمراء جردة الحاج ، وهم عادة من ولاة طرابلس أو صيدا ، خير المؤازرين لامراء الحاج •

أما بالنسبة الى ظاهر العمر فقد كان ملتزماً ، مثل أبيه وجده، في منطقة صفد ـ طبرية • وتمكن بتحالفه مع القوى المحلية ، البدوية والاقطاعية ، وباستغلاله ثروات بلاده الاقتصادية ، في وقت نشطت فيه التجارة الفرنسية في بلاد الشام الجنوبية ، من أن يبلغ درجة كبيرة من السلطة وأن يصل الى حكم عكا وولاية صيدا • ويجب القول أن منطقة فلسطين حيث اشتهر ظاهر العمر قد شهدت ، قبل ذلك ، ظهور عدد من الحكام المحليين الذين اختلفت قوتهم حسب علاقتهم مع بعضهم وحسب قوة السلطة المركزية • وعلى هذا يمكن اعتبار وجود ظاهر العمر شيئاً من تقاليد المنطقة• ولكن شهرته ونشأته كملتزم للأموال الميرية ، يعين نظرياً لمدة سنة واحدة يجوز تجديدها ، أمر يستدعي الانتباه ويفسر بانحطاط سلطة الدولة العثمانية آنذاك • وبعد أن قضي على ظاهر العمر في ١٧٧٥ أفسح المجال لظهور أحمد باشا الجزار الذي كان مملوكاً بالاصل والذي استطاع ،على غرار حسن باشا وأحمد باشا ولاة بغداد ، وبالاعتماد ، مثلهما ، على جيش من المماليك ، أن يسيطر على ولاية صيدا ويمد سلطته على ولاية الشام في الربع الأخير من القرن الثامن عشر •

وشجعت الاوضاع المحلية في العراق ، وفي بلاد فارس المجاورة ، قيام حكام أقوياء وتشكيلهم ما يشبه السلالات الحاكمة•

---

١ ـ انظر الفصل العاشر

وقد تزايد تهديد حكام فارس للعثمانيين ، خاصة في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، حين تسلم الافغانيون ثم نادر شاه زمام السلطة من الصفويين • ونظراً لضعف الدولة العثمانية آنـذاك وتهديد روسيا والنمسا لها ، فقد أبقت الولاة الاقوياء في العراق الذين قاوموا الخطر من بلاد فارس ، وحدوا من تمرد البدو ، وخاصة قبيلة المنتفق القوية في منطقة البصرة • وهكذا تعاقب آل الجليلي في ولاية الموصل ، وحكم بغداد والبصرة حسن باشا وابنه أحمد باشا ثم مماليكهما •

وعلى غرار الاوضاع في العراق ، فقد ساعدت على ظهور الحكام القرمانليين في طرابلس الغرب الاخطار المحدقة بالبلاد من القراصنة ، من ناحية الساحل ، ومن القبائل في الداخل • وعجز الوالي العثماني عن تحقيق الأمن والاستقرار ، بينما نجح القرمانليون في ذلك •

ولم تكن شهرة المماليك في مصر في القرن الثامن عشر حادثاً طارئاً استلزمته أوضاع محلية جديدة ، كما في الولايات العربية الأخرى ،بل كانت تطوراً طبيعياً لنمو قوتهممنذ أن أبقىالعثمانيون عليهم اثر فتحهم لمصر • واستفاد المماليك ، كغيرهم ، منانحطاط السلطة العثمانية ، وتمكنوا من السيطرة الفعلية على حكم البلاد• ورغم أن علي بك ، الذي مثل ذروة النفوذ المملوكي في مصر ، لم يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، بل اكتفى بلقب قائم مقام ، فانه تصرف بمقدرات البلاد ، واحتلت قواته بلاد الشام الجنوبية، بما فيها دمشق ، في محاولة منه لاعادة السلطنة المملوكية • ولو نجح في ذلك لاعتبر العثمانيين مغتصبين لحكم البلاد من المماليك ، وقـد استغل ضعف الدولة العثمانية وانشغالها آنـذاك في حرب طويلة مع روسيا ، وحاول تحقيق مطامعه •

ويمكننا أن نعتبر ازديـاد نفوذ الانكشارية اليرلية ، الـذين

أصبحوا في القرن الثامن عشر دمشقيين بملابس عسكرية ، وتعاظم سلطة الاشراف في حلب في هذا القرن ، مظاهر أخرى من محاولات السكان المحليين الدفاع عن أنفسهم وعن مصالحهم ازاء ضعف السلطة المركزية العثمانية وعدم تمكنها من تحقيق ذلك لهم .

ولم تكن الامثلة السابقة عن ازدياد نفوذ القوى المحلية وظهور شبه سلالات حاكمة ، ضمن الاطار العثماني ، سوى مظهر واحد من ردود الفعل المحلية ، من الوجهة السياسية ، على ازدياد ضعف السلطة العثمانية . وقد حدث في القرن الثامن عشر تحد ، من نوع آخر ، لسلطة العثمانيين ، وذلك على الصعيد الديني ، فظهرت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية احتجاجاً على البدع ، وخاصة الطرق الصوفية المتطرفة ، التي انتشرت في الدولة العثمانية ، وتساهل معها ، وأحياناً رعاها ، السلاطين العثمانيون . فما هي باختصار مقومات الحركة الوهابية وعوامل قوتها وأسباب خوف السلطان منها ؟

استوحى مؤسس الحركة الوهابية ، محمد بن عبدالوهاب[١] (١٧٠٣ ـ ١٧٨٧) ، الذي ولد في نجد ، أفكار حركته من المذهب الحنبلي ، ودعا الى الرجوع بتعاليم الاسلام الى صفائها الاول ، في عهد السلف الصالح . وقد رفض محمد بن عبد الوهاب أي وسيط بين الله والمؤمن ، وقصده من ذلك الحد من فكرة الاولياء والصوفية . ولم تكن أفكار ابن عبد الوهاب هذه الاولى من نوعها ، ولكن ليس هناك شخص نادى بها بهذه القوة

---

١ ـ انظر حول سيرته ودعوته : كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، مجهول المؤلف ، مخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 23, 346 ; حسين بن غنام ، له مؤلف في جزئين ، عنوان الجزء الاول : روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوة ذوي الاسلام ؛ عنوان الجزء الثاني : الغزوة البيانية والفتوحات الربانية ، طبع الجزءان في بومباي ، ١٩١٩ ؛ عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، جزءان ، مكة ، ١٩٣٠ ؛ انظر أيضاً ما كتبه D. S. Margoliouth تحت عنوان : Wahhabiya في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى .

منذ مناداةأحمد بن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) ، في دمشق ،بمعارضة البدع وزيارة قبور الاولياء . وأتيح لمحمد بن عبد الوهاب ، بواسطة أسرته التي ظهر فيها كثير من العلماء الحنابلة وبواسطة أسفاره في البلاد الاسلامية ، الاطلاع على مبادىء ابن تيمية وعلى مدى انتشار أفكار التصوف . ورغم أن فكرة ابن عبد الوهاب دينية المحتوى الا أنها كانت تحدياً للقوى المسيطرة سواء منها القبائل البدوية التي عاش بينها والتي جهلت كثيراً من أمورالدين، أو الدولة العثمانية التي رعت الحركات الصوفية . وان دعوة ابن عبد الوهاب الى الرجوع بتعاليم الاسلام الى صفائها الاول تعني أن السلطان العثماني لايصلح لأن يكون زعيم الامة الاسلامية ، ويستشهد الوهابيون بانكسارات السلطان العسكرية آنذاك ضد غير المسلمين كدليل على عدم كفاءته للدفاع عن دار الاسلام . وفي هذا تحد عربي مسلم في منطقةعربية أصيلة . وان الحركة الوهابية بدعوتها الى العودة الى تعاليم الاسلام انما كانت تحيي ذكريات عظمة العرب الاولى وما قدموه للاسلام . ولهذا تعتبر الوهابية رد فعل عربي ، في القرن الثامن عشر ، لارجاع زمام المبادرة في البلاد الاسلامية الى العرب ، وهذه فكرة قال بها في القرن التالي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٣) .

وتحالف محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن سعود وهو أمير قبيلة صغيرة في أواسط شبه الجزيرة العربية ، وأسسا معاً دولة حيث يمكن للمسلمين أن يعيشوا وفق المبادىء التي نادى بها ابن عبد الوهاب . وعملا على احلال الشريعة محل جاهلية القبائل والتماسك الاسلامي محل العصبية . وكان يزيد من شدة القبائل العربية التي تبنت الوهابية انها صبغت وقوت فكرة الغزو المألوفة لديها بفكرة الجهاد . وسيطرت الحركة الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر على أواسط الجزيرة العربية وعلى الخليج العربي ،

وغزت في مطلع القرن التالي كربلاء ، واحتلت الحجاز ، وهددت دمشق ومنعت قافلة الحاج الشامي من السير الى الحجاز • وآخيراً تدخلت قوات محمد علي باشا ، بناء على أوامر السلطان ،وبطشت بالوهابيين ، وقضت على نفوذهم ، مؤقتاً ، في سنة ١٨١٨ •

وقد أكد ظهور هذه التحديات المحلية ، على الصعيدين السياسي والديني ، ضرورة الاصلاح في الدولة العثمانية •وكانت محاولة السلطان سليم الثالث في ادخال النظام الجديد الى الدولة أولى محاولات العثمانيين في الاصلاح ، والهدف من ذلك اعادة هيبة الدولة تجاه الاعداء الخارجيين والقوى المحلية التي ازداد شأنها • ونتج عن الاصلاحات والتنظيمات في القرن التاسع عشر أن قويت السلطة المركزية واشتدت قبضتها في أغلب الولايات باستثناء مصر ، حيث سيطر محمد علي وخلفاؤه ، وولايات البلقان ، حيث انتشرت الافكار القومية • وتدخلت الدول الاوربية لمساعدة شعوب البلقان في التحرر من الحكم العثماني ، كما تدخلت في الولايات العربية لاستغلال الاوضاع وفق مصالحها •

الفصل العاشر

بلاد الشام في فترة انحطاط الدولة العثمانية

من الربع الاول للقرن الثامن عشر الى حملة نابليون بونابرت

تميز تاريخ بلاد الشام في القرن الثامن عشر بطول عهد الولاة ، بالمقارنة مع القرن السابق ، وبظهور آل العظم على الصعيد السياسي . وقد سبق القول الى أن تكليف ولاة الشام بامارة الحاج كان من الاسباب الرئيسية التي أدت الى اطالة حكم الولاة طالما أنهم يؤمنون سلامة الحاج ويقيمون النظام . وبقي أسعد باشا العظم في ولاية الشام مدة أربع عشرة سنة (١٧٤٣ - ١٧٥٧) ، وحكم عثمان باشا الكرجي (الصادق) هذه الولاية مدة احدى عشرة سنة (١٧٦٠ - ١٧٧١) ، وبقي محمد باشا العظم في حكمها حوالي عشر سنوات (١٧٧١ - ١٧٨٣ ، وتخلل هذه الفترة انقطاع بين حزيران ١٧٧٢ وايلول ١٧٧٣ حين عزل محمد باشا عن الشام) . ومع ذلك ، عمدت سلطات استانبول الى عزل الولاة الذين بقوا في ولايتهم مدة طويلة رغم تأمينهم سلامة الحاج واقامتهم النظام . والسبب في ذلك خوف هذه السلطات من ازدياد نفوذ الولاة أو طمعها بمصادرة أموالهم . كما أن المنافسات والاحقاد بين كبار الموظفين في استانبول ووجود مرشحين للولايات ذوي دعم أقوى لعبت دوراً هاماً في عزل الولاة . وان عزل أسعد باشا العظم هو خير دليل على ذلك[1] . وهذا مايفسر عدم استمرار حكم آل العظم ، فنرى ولاة هذه الاسرة يعزلون تارة ، ويعودون الى الحكم تارة أخرى .

(واشتهر في هذه الفترة الانكشارية اليرلية في دمشق ، واصطدموا

---

١ - انظر ص ٣٣٩ ٣٤٢ .

بالقابي قول). وقد أدى غياب الوالي عن دمشق ، قرابة خمسة أشهر ، للقيام بمهام الدورة وامارة الحاج ، الى ازدياد ضعف السلطة العثمانية ، واستغل ذلك اليرلية والقابي قول لممارسة نفوذهم . واعتمد الولاة ، ازاء هذا الوضع ، على أنواع مختلفة من الجند المرتزقة لتوطيد سلطتهم . وتعرضت بلاد الشام ، من جراء ذلك ،الى كثير من الفوضى والاضطرابات.

واذا كان الولاة من آل العظم لم يريدوا ، أو لم يجرأوا على تحدي الادارة المركزية العثمانية ، فان واحداً من أشهر الملتزمين في فلسطين ، وهو ظاهر العمر ، تحدى السلطة العثمانية . واستفاد ظاهر العمر من الانتعاش الاقتصادي في منطقته ومن ازدهار تجارة بلاد الشام الجنوبية مع أوروبا في توطيد قوته . وساعده أيضاً في ذلك انشغال ولاة الشام بتأمين سلامة الحاج وانهماك الدولة العثمانية في قتال حكام فارس وروسيا . وكان الشهابيون والمتاولة في هذه الاثناء منشغلين بخلافاتهم الداخلية . وقد تعرض الامراء الشهابيون طيلة القرن الثامن عشر الى معارضة الاسر الاقطاعية في جبل لبنان لنفوذهم . ونتج عن انقسام هذه الاسر الى حزبي الجنبلاطية واليزبكية (الارسلانية) ، في أعقاب طرد اليمنية في ١٧١١ وتفكك القيسية ، ان انقسمت الاسرة الشهابية الحاكمة على نفسها ، وأصبح لكل حزب مرشح فيها . وانقسم المتاولة بدورهم الى حزبين (حزب الشيخ ناصيف وحزب الشيخ قبلان) بنتيجة الضغط عليهم من قبل ظاهر العمر والامراء الشهابيين ، وبسبب ازدهار بلادهم الاقتصادي مما شجع المنافسة بينهم . وأدى ازدياد قوة ظاهر وعدم وجود ضغط خارجي قوي عليه الى حدوث انشقاق في صفوفه فتمرد عليه بعض أبنائه طمعاً بالحكم . وحين اشترك مع علي بك في احتلال دمشق في ١٧٧١ كان ذلك بداية نهايته ، وقتل بعد أربع سنوات . وملأ أحمد باشا الجزار الفراغ الذي تركه موت ظاهر وضعف سلطة الولاة العثمانيين وانشغال الشهابيين والمتاولة بخلافاتهم ، وبقي مسيطراً في بلاد الشام الى ما بعد مجيء الحملة الفرنسية .

وسنرى فيما يلي الاسباب والظروف التي أدت الى هذه التطورات ، والنتائج التي نشأت عنها . (ويمكننا أن نقسم تاريخ بلاد الشام في القرن

الثامن عشر ، تبعاً لذلك ، الى أربعة أقسام : بداية حكم آل العظم وازدياد نفوذ اليرلية (من حوالي ١٧٢٠ الى ١٧٤١) ؛ ذروة نفوذ آل العظم وسيطرة ظاهر العمر (١٧٤١ – ١٧٥٧) ؛ الاضطرابات في بلاد الشام (١٧٥٧ – ١٧٧١ ؛ والصراع على النفوذ في بلاد الشام وسيطرة أحمد باشا الجزار (١٧٧١ – ١٨٠٤) .

بداية حكم آل العظم وازدياد نفوذ اليرلية (من حوالي ١٧٢٠ الى ١٧٤١)

بداية حكم آل العظم – تتفق أغلب المصادر على أن آل العظم أسرة محلية اشتهرت في منطقة معرة النعمان – حماة ، وتوصلت الى حكم هذه المنطقة في الربع الاول من القرن الثامن عشر . ويذكر رسلان القاري[١] ان اسماعيل باشا العظم ، أول ولاة آل العظم في بلاد الشام ، كان فلاحاً من المعرة . ويشير ابن كنان[٢] المعاصر الى اسماعيل باشا بأنه ابن العظم النعماني ، أي من معرة النعمان . وعندما عزل سليمان باشا العظم من ولايته الثانية على دمشق ، ذكر ابن كنان انه خرج من دمشق وذهب الى بلاده ، أي الى حماة حيث أقامت أسرة سليمان باشا وحيث بنى سرايا ، وتعني بيتاً كبيراً هنا[٣] . وقد أعطي آل العظم ، اثر ازدياد سلطتهم ، المعرة وحماة وحمص على شكل « مالكانه »[٤] ، وذلك في الربع الاول من القرن الثامن عشر . ويذكر الخوري ميخائيل بريك المعاصر أن « أولاد العضم أصلهم من معرة حلب أولاد عرب »[٥] ، ويقصد بتعبير « أولاد عرب » أنهم من السكان المحليين . واعتبر بريك وصول آل العظم المحليين الى الحكم في ١٧٢٠ حادثاً هاماً جعله ، بالاضافة الى أسباب أخرى ، يبدأ تاريخه لحوادث الشام من هذه السنة[٦] . وكان بريك حريصاً على ابراز اختلاف هوية السكان المحليين من الاروام (وتعني هذه اللفظة العثمانيين عادة ، ولكن بالنسبة لبريك فانها تعني الروم الارثوذكس) ، فذكر أن أحد بطاركة دمشق

---

١ – انظر مخطوطه الذي نشره المنجد في كتابه « ولاة دمشق في العهد العثماني » ، ص ٧٧ .

٢ – الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٦٣ ب .

٣ – المصدر السابق ، ٨٤ ب ، ٨٥ آ ، ١٠٥ آ .

٤ – انظر ص ٦٨ ؛ الطباخ ، جـ ٣ ، ٢٣٥ .

٥ – بريك ، ٣٦ .

٦ – المصدر السابق ، ٢ .

في أوائل العشرينيات من القرن الثامن عشر كان « من أولاد العربيين »[1] •
وذكر القناصل الفرنسيون[2] المعاصرون المقيمون في بلاد الشـام بأن آل العظم كانوا عرباً[3] •

(ويذكر المؤرخ الحلبي عبد الله بن ميرو[4] ، الـذي عاصر ولاة آل العظم ، ان ابراهيم العظم ، والد اسماعيل باشا ، كان جندياً في المعرة في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وقد قتل في المعارك التي نشبت بين أهل المعرة والتركمان المجاورين • وولد ابنه اسماعيل في المعرة قبيل سنة ١٠٧٠/١٦٥٩ ـ ١٦٦٠ ، ثم أصبح في الربع الاول من القرن الثامن عشر حاكماً على المعرة وحماة ، وبوساطة والي حلب ، عارفي أحمد باشا ، أعطي اسماعيل طوخين وعين والياً على طرابلس في أوائل العشرينيات من القرن الثامن عشر ، وأعطي بهذه المناسبة امارة جردة الحاج • وفي عام ١٧٢٥ عين والياً على الشام[5]).

(لقد تمتـع آل العظم بغنى وافر من « مالكاناتهم » في المعرة وحماة وحمص ، واستفادوا من الازدهار الاقتصادي في ولايـة طرابلس • فقد نشطت في هذه الولاية تجارة التبغ والحرير ، بعد انقطاع حرير فارس ،

---

١ ـ المصدر السابق ، ٣ •

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1118 : Tripoli, 10. 10. 1746 ; A. E. B[1] 1033 : Seyde, 16. 7. 1763 (Bulletin).

٣ ـ اختلف المؤرخون حول أصل آل العظم ، وأشهر من كتب في ذلك عيسى اسكندر المعلوف ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة في الامر ، فذكر مرة في المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) في مقال عنوانه : « قصر أسعد باشا العظم » ، ص ٥ ـ ٦ ، ان أصل آل العظم من قبيلة بني عزيم العربية في البلقاء • ولكنه يميل الى الاعتقاد في مقال لاحق بعنوان : « المرحوم جميل بك العظم » ، الذي نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٤ (١٩٣٦) ، ص ٥٦ ، ان أصل آل العظم من قونية بالاناضول ويقلل هنا من اهميـة انتسابهم الى قبيلة بني عزيم حين يذكر هـذه المعلومات في الهامش • ويدل قولـه : « والله أعلم » ، بعد ذلك ، على حيرته وفي الحقيقة حيرة غيره من المؤلفين ، حول أصل آل العظم •

٤ ـ توفي سنة ١١٨٤/١٧٧٠ ـ ١٧٧١ ، وترك تاريخاً لايعرف مكانه الآن ، وقد اطلع عليه ونقل منه خليل المرادي صاحب « سلك الدرر » ، انظر : الطباخ ، ج ١ ، ٣٦ ـ ٣٧ ، كما اقتبس منه الطباخ في أعلام النبلاء ، وكرد علي في خطط الشام •

٥ ـ انظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٣١٦ ، ج ٦ ، ٤٨١ ؛ كرد علي ، ج ٢ ، ٢٨٩ ؛كامل الغزي،ج٣، ٢٩٥ ـ ٢٩٦ •

الذي كان يستورده التجار الانكليز عبر حلب واسكندرونة ، اثر غزو قيصر روسيا بطرس الأكبر لبلاد فارس الشمالية ؛ كما صدرت منها سوائل القلي الى أوروبا لصناعة الصابون والزجاج فيها[١] • واشترى آل العظم بمالهم المتزايد الدعم لهم في استانبول ، وكان لهم وكيل فيها يرعى مصالحهم يسمى خليل أفندي الذي استمد نفوذه من كاخيا الصدر الاعظم[٢] •

وتميز حكم اسماعيل باشا العظم في دمشق باحتكاره بيع المواد الغذائية، وخاصة اللحوم • واستفاد من ذلك ببيعه المواشي التي يملكها بالاسعار التي يريدها[٣] • واعتمد اسماعيل باشا على قواته من المغاربة في تدعيم سلطته[٤] ومنع حدوث ثورة ضده علـى غرار الثورة التي قام بها الدمشقيون ، قبل قليل ، ضد عثمان باشا أبي طوق [٥] • كمـا أرضى الرأي العام الدمشقي بحمايته ، في أول ولايته ، الدمشقيين الذين نفاهم أبو طوق من دمشـق وأرسلهم الى استانبول فتحطم مركبهم قرب طرابلس وأنقذهم حاكمها ، سليمان باشا العظم ، بناء عـلى أوامر أخيه اسماعيل باشا ورحب أيضاً في دمشق بشريف مكة المعزول ، الشريف يحيى ، الذي اضطهده سابقاً أبو طوق[٦] • وأرضى الرأي العام الديني أيضاً ببنائه مدرسة وحماماً في سوق الخياطين ، وبنى حماماً أخرى في حي الخراب[٧] • وأمن اسماعيل باشا سلامة الحاج من البدو باستثناء سنة حكمه الاخيرة في الشام ، في ١٧٣٠ ، حين هاجم بدو بني حرب في الحجاز قافلة الحاج الشامي[٨] •

---

١ ـ انظر : A. E. BIII 45 : Marseille, 6. 8. 1728

٢ ـ انظر :
PRO, S. P. 110/25, pt. I : Aleppo, 14. 8. 1725, Aleppo 29. 10. 1725 ;
A. E. BI 1022 : Seyde, 22. 11. 1729.

٣ ـ انظر : الموصلي ، ٥٥ ب ـ ٥٨ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٧٤آ ؛ القاري، نشر منجد ، ٧٧ •

٤ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٦٥ آ ؛ بريك ، ٦ •

٥ ـ انظر ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ •

٦ ـ انظر : الموصلي ، ٥٥ ب ، ٥٦ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٦٧ب ١٦٨ب•

٧ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٥٣ ، ٢٨١ ، ج ٣ ، ٩٣ ، ج ٤ ، ١٥٤ • ٢١٨ ، مطمح الواجد ، ١٩٤ آ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١١٨ آ •

٨ ـ الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ ، انظر أيضاً ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦١ ، ٦٢ •

وقد شدد اسماعيل باشا قبضته على المناطق الريفية خارج دمشق ، فمنع الرعاة من ممارسة رعي المواشي دون اذن منه • وذلك لانجاح سياسة احتكار اللحوم في دمشق[1] • واتبع سياسة التوازن بين القوى المحلية في الولاية لايجاد الاستقرار ، فاعترف بنفوذ أسرة طوقان في منطقة نابلس ليوازن بها القوى البدوية المجاورة • كما أنه وازن قبائل البدو بعضها مع بعض ، فاعترف بسلطة الشيخ راشد النعيم في منطقة صفد وبسلطة الشيخ جبر في حوران • وحين ازداد نفوذ الشيخ جبر طرده اسماعيل باشا الى منطقة الخليل وأقام مكانه الشيخ طاهر بن كليب • واستفاد اسماعيل باشا من هذا التوازن فقام بابتزاز الاموال من الفلاحين ، وبلغ بهم الامر أن تمردوا عليه في ١٧٢٩ في منقطة القدس ، وخف لنجدته أخوه سليمان باشا حاكم صيدا[2] •

وبلغ آل العظم درجة كبيرة من السلطة بين ١٧٢٥ و ١٧٣٠ • وقد عين سليمان باشا العظم على ولاية طرابلس بعد نقل اسماعيل باشا الى ولاية الشام في ١٧٢٥ • وفي سنة ١٧٢٧ عين ابراهيم باشا العظم ، ابن اسماعيل باشا ، على ولاية طرابلس ، ونقل سليمان باشا الى ولاية أورفه ، ولكنه عزل منها في سنة ١٧٢٨ وعين على ولاية صيدا • وهكذا حكم آل العظم ولايات الشام وطرابلس وصيدا في آن واحد • وعين ابراهيم باشا ابنه ياسين بك حاكماً على اللاذقية التي كانت تتبع ولاية طرابلس ، كما عين اسماعيل باشا ابنه أسعد بك متسلماً (نائباً) له على « مالكانات » حماة والمعرة • وامتد بذلك حكم آل العظم على المنطقة الواقعة بين حلب والعريش[3] • ولكن أحداثاً هامة كانت تجري آنذاك في استانبول ، وقد قاسى آل العظم من نتائجها •

---

١ ـ الموصلي ، ٥٨ آ ـ ٥٩ ب •

٢ ـ انظر حول الاجزاءات السابقة : المصدر السابق ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٩٩ آ ؛ مرتضى الكردي ، كتاب تهذيب الاطوار في عجائب الامصار ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 6142 Spr. 23 ، ورقة ٣١ آ ؛ احسان النمر ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٣٨ ، ص ٧٩ ـ ١٠٤ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 978 : Acre, 15. 4. 1730, Acre, 18. 10. 1730

٣ ـ انظر : بزيك ، ١٢٤ •

ثار الانكشارية في استانبول في ١٥ ربيع الاول ٢٨/١١٤٣ ايلول ١٧٣٠ احتجاجاً على الحرب الخاسرة في الجبهة الفارسية وعلى ابتزاز الحكام المال من الاهلين لتمويل تلك الحرب بالظاهر بينما كانوا ينفقونها على بذخهم) وطالب الثائرون بقتل الصدر الاعظم وكاخياه والقبطان باشا (قائد الاسطول فنفذ السلطان أحمد الثالث ذلك • وكان هذا بداية الضعف من جانبه • وكانت خطوة الثائرين التالية عزل السلطان أحمد الثالث وتنصيب محمود الاول مكانه[١] •

(وقاسى آل العظم من هذه الثورة لان وكيلهم في استانبول ، خليل أفندي ، فقد نفوذه بمقتل كاخيا الصدر الاعظم • ونتج عن الثورة أيضاً تبدل واسع بين كبار الموظفين في الولايات • وصدرت الاوامر بعزل وسجن ومصادرة أموال جميع حكام آل العظم في بلاد الشام) ورغم أن ولاة آخرين قد عزلوا بهذه المناسبة أيضاً الا أن ما حل بآل العظم يفوق الحد المألوف في مثل هذه الحالات ويثير الاهتمام • ويبدو أن سياسة الولاة من آل العظم في ابتزاز الاموال أثناء حكمهم قد أثارت عليهم السكان المحليين والمسؤولين الذين تلقوا عدة شكايات حول ذلك • ومما يؤيد هذا أن ثورة شعبية حدثت ضد ابراهيم باشا العظم والي طرابلس وابنه ياسين بك حاكم اللاذقية بمجرد وصول أنباء ثورة استانبول • ولم تحدث ثورة في دمشق على اسماعيل باشا لان سياسته في السابق كانت تقوم على ابتزاز الاموال واسترضاء السكان في آن واحد ،وأيضاً لأن القابي قول واليرلية استغلوا أنباء الثورة للقتال فيما بينهم ، وربما الهى ذلك السكان عن اسماعيل باشا • أما سليمان باشا فقد تجنب ثورة السكان ضده لانه تودد ، أثناء ولايته ، الى سكان المدينة ، بينما شدد قبضته على الفلاحين في الريف الذين أصبحوا أغنياء نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة وبسبب ازدياد شراء الفرنسيين للقطن والحرير والقلي المنتجة محلياً • وقد تعرض ، قبل عزله، الى مقاومة مسلحة من قبل سكان منطقة طبرية بسبب ظلمه لهم • ولما كان

---

١ ـ انظر ص ٢٩٨ •

التزام طبرية في عهدة ظاهر العمر ، فقد تأزمت العلاقة بينه وبين سليمان باشا بعد ذلك •

وكانت الادارة العثمانية في استانبول مستاءة من اسماعيل باشا بسبب هجوم بدو بني حرب في الحجاز على قافلة الحاج ، التي كان أميرها ، في ١٧٣٠ • ومن الاسباب الاخرى التي دعت الى عزل آل العظم رغبة الدولة في مصادرة أموالهم الكثيرة بسبب حاجتها اليها لتمويل حربها مع حكام فارس • وتشهد كثرة الاموال التي صودرت منهم على غنى آل العظم واستخدامهم مناصبهم ، كعادة حكام ذلك الزمن ، للاثراء • كما أن مجيء موظفين جدد الى الحكم في استانبول أتى بمرشحين آخرين لحكم الولايات[١] •

ولم تكد تنقضي سنة واحدة على سجن ومصادرة الولاة من آل العظم حتى أطلق سراح اسماعيل باشا وأبنائه في جمادى الاول ١١٤٤/تشرين الثاني ١٧٣١ • وعين اسماعيل باشا والياً في جزيرة كريت ، حيث توفي في ١١٤٥/١٧٣٢ — ١٧٣٣ ، ورافقه الى كريت ابنه ابراهيم باشا • أما أسعد باشا فتخلف عن الذهاب مع أبيه بسبب مرضه[٢] • وكان سليمان باشا الوحيد من آل العظم الذي عين على ولاية محلية ، اذ ما كاد يطلق سراحه من قلعة صيدا في ١٥ ربيع الثاني ١١٤٤/١٧ تشرين الاول ١٧٣١ حتى عين والياً على طرابلس[٣] •

ونستدل من عفو الدولة عن آل العظم وتعيينهم مجدداً انهم قد استعادوا

---

١ — انظر حول الاحداث السابقة :

A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 26. 10. 1730, A. E. B[1] 978 : Acre, 15. 4. 1730, Acre, 3. 5. 1730, Acre, 18. 10. 1730 ; Charles - Roux, 59.

انظر أيضاً ، بربك ، ١٢٣ — ١٢٧ ؛ الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ •

٢ — انظر : طباخ ، ج ٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ج ٦ ، ٤٨١ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٦٥ آ ؛ انظر أيضاً A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 25. 11. 1731

٣ — انظر : مصطفى اللقيمي ، موانح الانس برحلتي لوادي القدس ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Qq. 238 ، الاوراق ، ١٤١ آ — ١٤٢ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٠٩ آ ؛ انظر أيضاً A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 25. 11. 1731

نفوذهم • وبالفعل فقد حدثت تطورات لصالحهم في استانبول اذ قضي فيها ، في آذار ١٧٣١ ، على زعماء الثورة واستعاد خليل أفندي ، وكيل آل العظم، بعض نفوذه ، وعاد الى حماية مصالح آل العظم[1] • والجدير بالملاحظة أن سليمان باشا برز الآن أكثر من أخيه وأبنائه لانه عين على ولاية طرابلس بينما عين اسماعيل باشا والياً في كريت التي كانت عادة تستخدم كمنفى • ولم يعط أحد من أبناء اسماعيل باشا أية ولاية • ويفسر تعيين سليمان باشا على طرابلس بعدم تمكن واليها ، الذي خلف ابراهيم باشا العظم ، في القضاء على ثورة قامت ضده فيها • واتفق ذلك مع ازدياد نفوذ آل العظم فعين سليمان باشا على طرابلس دون أخيه وأبنائه لأن سجل هؤلاء في طرابلس واللاذقية، وحتى دمشق ، لم يكن نظيفاً • أما سليمان باشا فقد عرف عنه ، حين ولي طرابلس (١٧٢٥ - ١٧٢٧) وصيدا (١٧٢٨ - ١٧٣٠) ، تودده الى سكان المدينة ، وهم الذين يصنعون الثورات عادة ، وتشديد قبضته على سكان الريف الضعفاء • ويستدل من ذلك أيضاً أن سليمان باشا كان أوسع نفوذاً من أخيه اسماعيل باشا ، وقد بقي بعد ذلك الشخصية المسيطرة بين آل العظم حتى وفاته في ١٧٤٣ وانتقال الزعامة في الاسرة الى ابن أخيه ، أسعد باشا العظم •

واهتم سليمان باشا الآن بالحصول على ولاية الشام ، وقد تم له ذلك في شعبان ١١٤٦/كانون الثاني ١٧٣٤ ، بعد أن عين عبد الله باشا الايضنلي الذي حكم هذه الولاية منذ عزل اسماعيل باشا العظم ، في منصب عسكري في الجبهة مع بلاد فارس • ويدل تعيين سليمان باشا على الشام على ازدياد نفوذه ونفوذ آل العظم ككل • والجدير بالذكر أن أخاه اسماعيل باشا كان مقرراً أن يخلفه في ولاية طرابلس ، ولكنه توفي قبل مغادرة كريت • وقد حاز سليمان باشا ، أثناء ولايته على طرابلس ، على شهرة كبيرة حين

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 402 : Constantinople, 30. 11. 1730 ; B[1] 1116 : Tripoli, 15. 1. 1731 ; Joseph Von Hammer - Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, traduite de la langue allemande par J. J. Hellert, 18 vols., Paris, 1835 - 43, voir, Vol XIV, 242.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Hammer

أخمد ثورة فيها ، في بـدء ولايته ، وحين اسهم في حمايـة الحاج بصفته أميراً للجردة[1] .

(اهتم سليمان باشا في ولايته الاولى على الشام (١٧٣٤ – ١٧٣٨) بتوطيد الأمن في دمشق ، فقضى على بعض اللصوص وقطاع الطرق ، وأزال بعض المظالم ، في أول ولايته ، وزرع الهيبة في نفوس الدمشقيين . كما أنه وضع حداً لمنازعات اليرلية والقابي قول ، وبطش بعدة أفراد منهم) وأمن سليمان باشا سلامة قافلة الحاج ، طيلة عهده ، مما حببه الى الرأي العام المسلم . وزاد من ذلك اشراكه الدمشقيين في الحفلات التي أقامها والاجتماعات الرسمية التي دعا الى عقدها . وبنى مدرسة ، قرب بيته ، في زقاق البريد ، كما بنى حمامين : في الهرمية وفي حي الخراب . وشيد أيضاً قيسارية (خاناً) في سوق العبي[2] . ويدل تشييد القيسارية على الازدهار الاقتصادي الذي عم الشام في هذه الفترة بسبب نشاط التجارة الاوربية في بلاد الشام الجنوبية . واستفادت دمشق من ذلك لأنها كانت مركز التبادل التجاري بين الساحل والداخل ، ونقطة مرور القوافل التجارية من البصرة الى الساحل ، ولانها كانت أيضاً مكان تجمع الحجاج ،وبالتالي سوقاً لبضائع الحجاج والتجار المرافقين لهم . واستفاد سليمان باشا من هذا الازدهار الاقتصادي ومن بيع واردات « مالكانته » في حماة التي منحتها الدولة له ، بالاشتراك مـع ابن أخيه أسعد باشـا ، وذلك بعد وفاة اسماعيل باشـا . واشترى سليمان باشا عدة بيوت وبساتين في دمشق[3] مما يدل على رغبته في جعل دمشق مركزاً آخر لاسرته ، وحول بعض هذه الممتلكات الى وقف أهلي (ذري) ، ليتحاشى بذلك مصادرة أمواله وممتلكاته من قبل الدولة.

وطبق سليمان باشا في دمشق سياسته التقليدية في الحكم التي تقضي

---

١ – انظر : A. E. B¹ 1117 : Tripoli, 30. 7. 1732

٢ انظر : القاري ، نشر منجد ، ٧٨ ؛ بريك ، ٨ – ٩ ؛ ابن كنان ، **الحوادث اليومية** ، ج ٢ ، ٦٩ ب ، ٧٦ آ ، ٨٣ آ ، ٨٤ ب ، ٨٦ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ،٨ ، ج ٢ ، ٢١٥ .

٣ – ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٨٤ ب .

بالتودد الى سكان المدينة لكسب رضاهم وتوطيد نفوذه بينهم ، وبالتشدد مع سكان الريف لابتزاز المال منهم بحجة اخضاعهم الى سلطة الدولة . وقد جرد سليمان باشا ، في أواخر سنة ١٧٣٦ ، حملة ضد الامير ملحم الشهابي ، أمير جبل لبنان ، بسبب هجمات أتباعه على منطقة البقاع الخاضعة لولاة الشام . وفشلت الحملة من الناحية العسكرية بسبب الخلاف بين سليمان باشا ووالي صيدا ، الذي اشترك في الحملة بناء على أمر السلطان . وقد تمت المصالحة بين سليمان باشا والامير ملحم ، بوساطة القنصل الفرنسي في صيدا ، وقبل الامير ملحم بدفع مائة وخمسين الف قرش الى سليمان باشا مقابل التخلي عن الحملة ضده ، ووضع بعض الرهائن لدى القنصل الفرنسي حتى يتم دفع المال[١] .

وجه سليمان باشا بعد ذلك اهتمامه نحو ظاهر العمر الذي تقوى كثيراً . وقد تحالف ظاهر مع الامراء المحليين ليدعم بواسطتهم نفوذه ، ثم ما لبث أن تخلص منهم . وكان آل ماضي وآل جرار ، زعماء منطقة نابلس ، ينافسون سلطة ظاهر العمر الذي كان تابعاً لوالي صيدا بسبب التزامه مناطق صفد وطبرية التابعة لولاية صيدا . وحين اعتدى ظاهر العمر على مناطق آل ماضي وآل جرار ، التابعين لوالي الشام ، استغل سليمان باشا الفرصة للقضاء على نفوذ ظاهر الذي قوى تحصينات طبرية لمقاومة مثل هذا الهجوم . وقاد سليمان باشا حملة ضده ، واشترك معه فيها بدو بني صقر ، أعداء ظاهر . وأسر بنتيجة الحملة أخ لظاهر وأعدم في دمشق[٢] . وتنفس ظاهر الصعداء حين عزل سليمان باشا عن ولاية الشام في تموز ١٧٣٨ .

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٣٠ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٦ آ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٢٥ (يجب دراسة المصادر اللبنانية بكثير من الدقة والنقد ومقارنتها مع غيرها نظراً لارتباكها وخاصة في تأريخ الاحداث في المناطق المجاورة لجبل لبنان) ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1024 : Seyde, 4. 2. 1737, Seyde, 17. 7. 1737 ; Charles - Roux, 65.

٢ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٤٦ ـ ٥٢ ؛ عبود الصباغ ، ٧ آ ؛ بريك ، ٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٨٤ ؛ انظر أيضاً : Pococke, II. i. 68 - 69.

ازدياد نفوذ اليرلية • — رأينا فيما سبق[1] درجة الضعف التي وصل اليها اليرلية في دمشق في الربع الاول من القرن الثامن عشر • وقد سيطر القابي قول الذين دعموا الولاة ضدهم • وبرز العلماء يدافعون عن الدمشقيين ضد مظالم الولاة وعوانيتهم •

واستعاد اليرلية بعض نشاطهم في ولاية اسماعيل باشا العظم على الشام، وكان ذلك رد فعل على سياسته في احتكار بيع اللحم خاصة • وحين تعرض كاخيا اسماعيل باشا ، في ١٧٢٦ ، أثناء غياب الوالي للحام من الاشراف خرق أنظمة الاحتكار ، انتصر له اليرلية ، وأغلقت البلد بنتيجة ذلك وهوجمت المحكمة • ولم تهدأ الحالة حتى أطلق سراح المعتقلين وأوقفت العقوبات[2] • وحدث في صيف السنة نفسها أن تعرض الصوباشي (مدير الشرطة) ومساعدوه التفنكجية الى حرمة منزل عبد الله بن صدقة ، من أعيان اليرلية في حي الميدان • فاستثار هذا العمل اليرلية والعلماء والاشراف الذين كانوا في حفل في بيت عمر آغا الناشف ، مقابل بيت ابن صدقة ، وقتلوا الصوباشي • وتدخل المفتي والقاضي للنظر في أسباب النزاع[3] • واصطدم اليرلية في ايلول ١٧٢٦ بالقابي قول ، وأغلقت دمشق ثلاثة أيام، وحدثت عدة اصابات بين الفريقين[4] • ومما يلفت النظر في هذه الاحداث أن اليرلية ، الذين أصبحوا يجندون من الدمشقيين ، قد تعاونوا مع الاشراف وبعض العلماء في معارضة السلطة العثمانية والقابي قول ، وفي هذا تأكيد للمصلحة المشتركة التي جمعت بينهم • ونظراً لقوة اليرلية الآن ، عاد كبار العلماء الى دورهم التقليدي في التوسط في النزاع واقامة حدود الشريعة بين المتخاصمين • وكان المفتي محمد خليل البكري الصديقي الذي قاد الدمشقيين ، أثناء ضعف اليرلية ، في الثورة ضد الوالي عثمان باشا أبو

---

١ — انظر ص ٢٢٠ — ٢٢١ •

٢ انظر : الموصلي ، ٥٨ آ — ٥٨ ب •

٣ — المصدر السابق ، ٥٩ آ — ٥٩ ب •

٤ — ابن كنان ،الحوادث اليومية ،ج ٢ ،١٦٩ ب — ١٧٠ آ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ،٦٢-٦٣ •

طوق[1] ، قد عزل عن منصب الافتاء ، بعد تعيين اسماعيل باشا على الشام ، وخلفه حامد أفندي العمادي[2] .

وحين وصلت الى دمشق أنباء الثورة في استانبول في ١٧٣٠ وعزل آل العظم ، استغل اليرلية والقابي قول المناسبة للقتال فيما بينهم . وقد أغلقت دمشق أربعة أيام ، وحدثت عدة اصابات نتيجة لذلك[3] . وتدل هذه الاصطدامات المتلاحقة بين الفريقين على شدة العداء بينهما وعلى ضعف السلطة العثمانية في دمشق . وكانت الاصطدامات تحدث عادة أثناء غياب الوالي عن دمشق ، بسبب تكليفه بامارة الحاج وقيامه بالدورة ، أو حين ورود الأوامر بعزله ، كما سنرى أيضاً في مناسبات أخرى .

وتمكن متسلم والي الشام عبد الله باشا الايضنلي (١٧٣٠ - ١٧٣٤) ، في أول حكمه ، من اعادة الهدوء بين اليرلية والقابي قول في دمشق . وخنع اليرلية طيلة عهد هذا الوالي لعدة أسباب أهمها قوة عبد الله باشا ، وكثرة وشجاعة قواته الخاصة المرافقة له[4] . وحدث في عهده طاعون في دمشق والمناطق المجاورة دام حوالي سنة من ١١٤٤ الى ١١٤٥/١٧٣١ الى ١٧٣٢ ، ونتجت عنه وفيات كثيرة ، مما ألهى الطوائف المختلفة عن متابعة منازعاتها[5] . وازدهرت الحالة الاقتصادية في دمشق ، في عهد عبد الله باشا[6] ، ولم يلجأ الى ابتزاز الاموال مما ساعد على عدم اثارة اليرلية والدمشقيين ضده . وبالاضافة الى ذلك ، فانه أولى العلماء رعاية خاصة[7] .

ولم يقم اليرلية في ولاية سليمان باشا العظم الاولى (١٧٣٤-١٧٣٨) بأي تمرد يذكر بسبب قوة الوالي وموازنته بين مختلف الطوائف في

---

١ - انظر ص ٢٢٣ .

٢ - انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٦٥ ب ؛ الموصلي ، ٥٥ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٨٤ .

٣ - ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٤ .

٤ - انظر : بريك ، ٨ ؛ A. E. B[1] 1023 : Seyde, 28. 3. 1731 ;

٥ - ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٢٨ ب ؛ ٣٠ ب ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٥ .

٦ - بريك ، ٨ .

٧ - القاري ، نشر منجد ، ٧٨ .

دمشق . وحين ثار القابي قول على آغا طائفتهم وقتلوه في ١١٤٨/١٧٣٥ - ١٧٣٦ ، تدخل سليمان باشا وقتل اثني عشر شخصاً منهم . كما انه اعتقل في السنة نفسها ثمانية أفراد من اليرلية دون أن يعلم سبب ذلك[1] .

وبلغ نفوذ اليرلية درجة كبيرة من القوة حين قادوا الدمشقيين في ثورة ضد والي الشام حسين باشا البستنجي . وكان هذا الوالي قد نقل من ولاية طرابلس الى ولايــة الشام في جمادى الاول ١١٥١/ آب ١٧٣٨ . وبــدأ حكمه في دمشق بتظاهرة قوة حين شنق شخصين وتركهما معلقين فترة من الزمن . ثم بدأ بابتزاز المال من الاهلين ، وبلغ ما جمعه خلال شهر من تعيينهمقدار تسعمائة كيس[2] ، وأبطل بعض الاحتفالات الصوفية كالتهليلة، ورغم أن المؤرخ المعاصر ابن جمعة حبَّذ ضمنياً ذلك ، الا أن بعض المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية احتجوا ، والتف من حولهم الشعب الذي قاسى من ظلم حسين باشا .

وتزعم الثورة ضــد حسين باشا اليرلية ومؤيدوهم من الدمشقيين ، ووقعت عدة اصابات في الاصطدامات التيحدثت بين الفريقين في ١٢ جمادى الثاني ١١٥١/٢٧ ايلول ١٧٣٨ . وكان حسين باشــا يعتمد عــلى قواته المرتزقــة من المغاربة والدالاتيــة . ودعم القابي قول الثائرين ، ووجهوا مدافع القلعة على سرايا الباشا . ويبدو أن القابي قول قد تضرروا من مظالم حسين باشا بعد أن أصبحوا ، مثــل الانكشارية في أول عهدهم ، أصحاب مصالح في دمشق . وربما وجدوا قضية حسين باشا خاسرة نظراً لاجماع المعارضة المحلية ضده فاشتركوا في الثورة عليه . ورد حسين باشا بمهاجمة حي الميــدان ، مقر اليرلية الرئيسي ، ووقعت عــدة اصابات نتيجة لذلك ، وحدث كثير من النهب .

ثم تلت فترة هدوء بسبب خروج حسين باشــا لاجــل الدورة ، ثم قيادته قافلة الحاج الى الحجاز واغتنم الدمشقيون فرصة غياب حسين باشا

---

١ - بريك ، ٩ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٧٦ آ ، ٨٦ ب .

٢ - انظر حول معنى الكيس ص ٢١٦ هامش ٢

فعززوا الدفاع عن أسوار وأبواب المدينة ، واشتكوا الى السلطان ، ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً بسبب حماية الصدر الاعظم لحسين باشا •

وما أن عاد حسين باشا من الحجاز حتى وجد المعارضة ضده قد اشتدت ، وهاجم اليرلية والقابي قول مقره في دمشق ، وتمكنوا من طرده من المدينة • وعاثت قواته فساداً في القرى المجاورة فلجأ أهلها الى دمشق• ونقم الدمشقيون على أعمال قوات الباشا وخاصة المغاربة فطردوهم من دمشق، وطردوا كذلك المغاربة المقيمين فيها • ولم يستطع السلطان التغاضي عن استفحال الثورة في دمشق مقر تجمع الحجاج ، وفي وقت كان منشغلا فيه بخطر نادر شاه من جهة بلاد فارس ، فعزل حسين باشا في ١ جمادى الثاني ١١٥٢/٥ ايلول ١٧٣٩ ، وأقيمت الاحتفالات في دمشق بهذه المناسبة[١] •

قوي موقف الدمشقيين ، وخاصة اليرلية ، اثر ذلك ، وتشجعوا على الثورة في وجه الولاة ، لاسيما وان السلطان قد أيد موقفهم • وليس بغريب أن توجه نقمتهم ضد الجند المغاربة نظراً لما قاموا به من مظالم • اما أن تشمل نقمة الدمشقيين حتى المغاربة المقيمين في دمشق فهذا له أسباب أخرى • صحيح أن بعض المغاربة كانوا يقيمون في دمشق كمجاورين ، ولكنهم لايلبثون أن ينضموا الى الجند المرتزقة•وبالفعل ازداد عددهم كثيراً في دمشق وهددوا مصالح الدمشقيين • وليس طرد جميع المغاربة من قبيل

---

١ ـ انظر بشأن تفاصيل هذه الثورة : الوصف الذي كتبه حسين بن طعمة البيتماني المعاصر والحقه بديوانه المخطوط الذي توجد نسخة عنه في المتحف البريطاني برقم Or. 3175 انظر الاوراق ، ١٧ آ ـ ١٧ ب ؛ انظر وصفاً مفصلا آخر لشاهد عيان في دمشق من اليسوعيين (Jesuites) في منشورات المرسلين اليسوعيين ، وعنوانها :

Lettres édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Compagnie de Jésus, ed. C. Le Gobien, J. B. Halde, L. Patouillet, 34 vols., Paris, 1707 - 1773, voir vol. XXVI (1743), pp. 443 - 447.

انظر أيضاً : ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٦ ـ ٦٧ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ١١ ب ، ١٢ آ ، ١٣ ب ، ١٤١ آ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٧٨ ؛ بريك ، ٩ ـ ١٠ ؛

انظر أيضاً : A. E. B[1] 1024 : Syede, 11. 10. 1738, Seyde, 27. 2. 1739, Seyde, 29. 7. 1739, Seyde, 2. 9. 1739.

أخذ الطائفة بكاملها بجريرة بعض أفرادها ، بل كان في جذوره ردة فعل دمشقية ازاء الطوائف الغريبة ،من مغاربةوقوات مرتزقة أخرى وقابي قول، التي كان يستخدمها الولاة لاذلال السكان المحليين • وقد تشجع اليرلية اثر طرد المغاربة فطالبوا ، بعد قليل ، بطرد أعدائهم القابي القول الاغراب عن دمشق بحجة أنهم فاسقون •

ورغم أن أهالي دمشق ، بعد تقوية الدفاع عن المدينة لمقاومة حسين باشا ، قد ازدادوا ثقة بأنفسهم ، الا أنهم خسروا مادياً نتيجة للاضطراب الاقتصادي الذي عم المدينة والريف بفعل الثورة • وزاد في الامر أن الاضطرابات السياسية هذه جعلت التجار الفرنسيين ، الذين كانت تجارتهم ناشطة آنذاك مع بلاد الشام الجنوبية ، يخشون اقامة مراكز تجارية أو قنصلية في دمشق ولذلك جعلوا مركز بيعهم وشرائهم في صيدا ، وبقي الأمر كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر تقريباً • وخسرت دمشق من جراء ذلك لانها كانت تبيع كثيراً من مصنوعاتها للفرنسيين وتشتري بالمقابل كثيراً من منتجاتهم[1] •

لقد جمع بين اليرليةوالقابي قول ،في الثورةالسابقة ، عداؤهما المشترك لحسين باشا • وما أن عزل حسين باشا حتى عاد النزاع بين الطائفتين أشد مما سبق ، بعد أن تقوى اليرلية اثر نجاحهم في طرد المغاربة • ونشب القتال بينهما في محرم ١١٥٣/آذار ـ نيسان ١٧٤٠ ، في ولاية عثمان باشا المحصل على الشام (جمادى الثاني ١١٥٢ ـ شعبان ١١٥٣/ايلول ١٧٣٩ ـ تشرين الاول ١٧٤٠) • وازداد تأزم الموقف بوصول فرقتين جديدتين من القابي قول الى دمشق ، في هذه الاثناء • وسرعان ما انتسب أفرادهما الى الحرف مما يدل على أن هذا كان شيئاً مألوفاً بالنسبة للقابي قول قبل ذلك• واعتبر اليرلية تقوية أعدائهم انتقاصاً لنفوذهم وتهديداً لمصالحهم ، فطالبوا السلطان باخراج القابي قول من دمشق نظراً لفسادهم ، وأيدهم العلماء

---

١ ـ انظر التقارير السابقة من قنصلية صيدا ، وانظر أيضاً :
A. E. B[1] 1024 : Seyde, 10 2. 1740, B[1] 979 : Acre, 6. 7. 1783.

وعثمان باشا في ذلك • ورضخ السلطان لهذا الاجماع في الرأي ، وأصدر فرماناً بطرد القابي قول من دمشق في ربيع الثاني ١١٥٣/تموز ١٧٤٠ • وقد قتل بعضهم وطرد البعض الآخر وسمح لذوي السلوك الحسن من بينهم ، من أصحاب العائلات ، بالبقاء في دمشق شريطة أن يصبحوا مواطنين عاديين • وكان عدد كبير من القابي قول من أصل موصلي وبغدادي[١] •

أدى طرد القابي قول الى ازدياد نفوذ اليرلية في دمشق ، فعادوا الى التمركز في القلعة وحماية أسوار وأبواب المدينة • وقد ازداد ، نتيجة لذلك ، تمرد بعض أفراد اليرلية وتحديهم لكبار المسؤولين ، بما في ذلك آغا طائفتهم والوالي • وعرف هؤلاء اليرلية الخارجون على القانون باسم الزرب أو الزرباوات (مفردها زربة ، وهي تركية الاصل) ، وأطلق عليهم أحياناً تعبير أشقياء الجند أو الرعاع • وقد أخاف الزرب الولاة والدمشقيين، في هذه الفترة ، الى أن قضى عليهم أسعد باشا العظم في سنة ١٧٤٦ •

ذروة نفوذ آل العظم وسيطرة ظاهر العمر (١٧٤١ ـ ١٧٥٧)

ذروة نفوذ آل العظم • ـ حكم آل العظم ولاية الشام في هذه الفترة مدة ست عشرة سنة تعاقب خلالها على الولاية سليمان باشا العظم (١٧٤١ ـ ١٧٤٣) ، وابن أخيه أسعد باشا (١٧٤٣ ـ ١٧٥٧) • ولم يحدث في

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٨ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٧٨ ؛ بريك ١٠ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٥٩ آ ، ١٨٨ ب ؛ أحمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٦ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي • توجد في المكتبة الظاهرية بدمشق نسختان مخطوطتان عن هذا المؤلف ، أرقامهما هي : عام ٣٧٣٧ و عام ٤٢٨٣ • وقد نشر هذا المخطوط الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في القاهرة سنة ١٩٥٩ • ورأينا الاعتماد على النسخ المخطوطة نظراً لعدم دقة الكتاب المنشور (مثلا يؤيد الناشر في ص ٢٣ الهامش رقم (١) ، ما يذكره القاسمي خطأ بان المخطوط يجب أن ينتهي في سنة ١١٧٥ وليس في سنة ١١٧٦ كما ذكر البديري في العنوان • والحقيقة أن البديري هو المصيب اذا ما تفحصنا تواريخ الاحداث وتراجم الاشخاص المذكورين في الصفحات الأخيرة من المخطوط وقارناها مع مصادر أخرى • كما أسقط الكتاب المنشور كثيراً من الجمل والعبارات • انظر حول ذلك كتابنا : The Province of Damascus, pp. 321 - 323 • وسنعتمد في الرجوع الى مؤلف البديري مخطوط الظاهرية رقم ٣٧٣٧ لتسهيل مهمة القارىء ، انظر في هذه المناسبة الورقة ١ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : البديري •

التاريخ العثماني أن واليين من آل العظم تعاقبا على حكم ولاية الشام • وبدا كما لو أن حكم الولاية أصبح وراثياً في هذه الاسرة • ورغم أن الولاة من آل العظم تعاقبوا ، لفترات قصيرة نسبياً ، عـلى حكم ولايات صيدا وطرابلس ، الا أن أهمية حكمهم الآن في ولايـة الشام تنبع من أهميـة الولاية ومن سعيهم دوماً للحصول عليها • ولم يكن حكم آل العظم ليستقر أو يدوم في ولايات صيدا وطرابلس اذا لم تكن ولاية الشام في يدهم • كما أن طول المدة التي قضاها أسعد باشا في حكم ولاية الشام والتي بلغت أربع عشرة سنة ليس لها مثيل في العهد العثماني • ووصل آل العظم في عهد أسعد باشا الى ذروة نفوذهم في بلاد الشام •

حاول سليمان باشا العظم اثر عزله عن ولاية الشام في ١٧٣٨[١] أن يعود اليها بسرعة ، وأنفق أموالا كثيرة في استانبول لهذه الغاية[٢] ، ولكنه فشل مؤقتاً • ولـم يكن عزله اذ ذاك نتيجة نقمة عليه بدلالة انـه عين في ١١٥٢/١٧٣٩ على ولاية الشام[٣] ، ولم تصادر أمواله اثر عزله ، عـلى عكس ما حدث مثلا في ١٧٣٠[٤] • ويبدو أن عزل كاخيا الصدر الاعظم في استانبول ، الذي كان يعتمد عليه وكيل سليمان باشا ، وحماية الصـدر الاعظم نفسه لحسين باشا البستنجي الذي خلف سليمان باشا في ولايـة الشام ، هما السببان الرئيسيان اللذان أديا الى عزل سليمان باشا العظم[٥] •

عين سليمان باشا للمرة الثانية على ولاية الشام في ربيع الثاني ١١٥٤/ تموز ١٧٤١ • ولم يكن تعيينه مجدداً حادثاً فريداً في ولاية الشام في العهد العثماني بالرغم من أن تكرار تعيين الوالي أصبح في القرن الثامن عشر أقل حدوثاً منه في القرنين السابقين • ويعتبر تعيين سليمان باشا الآن ظفراً له

---

١ ـ انظر ص ٣٢١ •

٢ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٨٤ ب •

٣ ـ انظر : مصطفى القينلي ، ١٩٩ آ ، ١٩٩ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٥٠ ـ ١٥١ •

٤ ـ انظر ص ٣١٧ •

٥ ـ انظر : PRO, S. P. 97/29 : Constantinople, 14. 1. 1738 ; Lettres édifiantes (Compagnie de Jésus), XXVI (1743), p. 442.

ولآل العظم بصورة عامة بسبب محاولتهم الدائبة للوصول الى حكم ولاية الشام •

وتعرض سليمان في دمشق الى تحدي اليرلية لسلطته بعد أن ازداد نفوذهم اثر طرد القابي قول • ولم ترهبهم تظاهرة القوة التي قام بها سليمان باشا في أول ولايته حين شنق ثلاثة عصاة من البدو • وحين تأخر وصول الفرمان السلطاني بشأن استمراره في حكم الشام سنة أخرى ، ازدادت شرور الزرب وعبثهم بالنظام الى أن وصل الفرمان في ٤ جمادى الثاني ١١٥٥/٦ آب ١٧٤٢ • وعقد سليمان باشا ديواناً ، بعد ذلك ، أقر معاقبة بعض الزرب ، ولكن هذا القرار لم ينفذ رغم وصول أمر سلطاني بقتل الزرب • ويدل هذا على مدى نفوذ اليرلية وعلى تراجع سليمان باشا أمامهم• وازداد نفوذهم اثر طرد سليمان باشا لبقايا القابي قول من دمشق بسبب اتهامهم باثارة الفوضى والفتن[1] •

ويبدو أن سليمان باشا لم يكن مهتماً جدياً بالقضاء على المتمردين بين اليرلية ، ربما بسبب عدم قدرته على ذلك • وقد طبق ، من جديد ، سياسته التقليدية في المصالحة مع مختلف فئات القوة في المدينة ، فتغاضى عن استغلال تجار الحبوب وأصحاب المطاحن والمخابز حاجة الشعب لهذه الخدمات ورفعهم الأسعار حسب رغبتهم • والسبب في تسامحه هذا استفادته هو من هذه الاوضاع ، وانتساب كثير من أصحاب المصالح هؤلاء الى طائفة اليرلية• وحين ثار الفقراء على الغلاء وهاجموا المخابز والمحكمة بسبب مسؤولية القاضي في تطبيق قواعد الشرع وقيامه بدور المحتسب ، تدخل سليمان باشا فأمر بتخفيض الاسعار ، ولم يدم ذلك الا فترة قصيرة • وقد خفف سليمان باشا من النقمة ضده بأن الغى كثيراً من المظالم التي فرضت على أصحاب الحرف والصنائع والحارات • كما وانه أحسن الى الفقراء وتودد الى العلماء لينال تأييدهم ، وبنى الاقنية على نهر قنوات ونظم حقوق المستفيدين من مياهه[2] •

---

١ ـ البديري ، ٣ ب ـ ٤ آ ، ٦ ب •

٢ انظر المصدر السابق ، ٤ ب ـ ١٠ آ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١١٧ آ •

واستغل دفتردار دمشق فتحي الدفتري (نسبة الى دفتردار) تساهل سليمان باشا مع اليرلية فانتمى اليهم ، وحاول ، بواسطة دعمهم ، منافسة آل العظم على السلطة • وكان جد فتحي من قرية فلاقنس ، قرب حمص ، قد هاجر الى دمشق ، واشتهر أحفاده فيها كموظفين ماليين[1] • وعين فتحي دفترداراً في سنة ١١٤٨/١٧٣٥ ـ ١٧٣٦ ، وبقي يشغل هذا المنصب حتى مقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ • وقد عينه حسين باشا البستنجي متسلماً له في ١١٥١/١٧٣٨ ـ ١٧٣٩ • وتذكر أغلب المصادر أن فتحي كان من الاشراف ، وهذا يعني أنه تمتع ، بالاضافة الى دعم اليرلية ، بدعم الاشراف أيضاً • ويبدو أن أصل آل العظم المحلي وتوصلهم الى الحكم قد أثار منافسة فتحي الدفتري الذي كان هو الآخر من أصل محلي ويطمح بالوصول الى الحكم •

وحاول فتحي الدفتري توطيد نفوذه في دمشق فجدد منارتي التكية السليمانيـة ، وعمر طريق الصالحية في ١١٥٥/١٧٤٢ ـ ١٧٤٣ • ورمم في العام التالي الجامع الاموي ، وبنى مدرسة في حي القيمرية ، حيث مقر أسرته ، كما أنه عمر حماماً ومقهى في الميدان حيث يسكن اليرلية ، مما زاد من نفوذه بينهم • وامتدح فتحي كثير من العلماء والشعراء في دمشق ، وفي طليعتهم سعيد سليمان الذي عينه فتحي اماماً وخطيباً في مدرسته • وللتعبير عن امتنانه وولائه جمع سعيد السمان تراجم الشعراء الذين امتدحوا فتحي في كتاب عنوانه : الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح[2] • وقد

---

١ ـ انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٨١ آ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ١٦٧ ، ج ٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ •

٢ ـ يوجد مختصر مخطوط لهذا الكتاب في مجموعة برلين عنوانه : مختصر الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح ، برقم 8047. we. (II), 1771 ، انظر خاصة الاوراق ٥٠ ـ ٧٦ • انظر حول أعمال فتحي هذه : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ١٤٣ ، ٢٤٠ ، ج ٣ ، ٢٨٠ ؛ البديري ، ١٨ آ ؛ سعيد السمان ، (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8040. Spr. 1124 ، ورقة ٣٤ ب ؛ أحمد المنيني ، (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8039. we. (II). 158 الاوراق ، ٧٦ آ ، ١٠٣ ب ؛ أحمد الكيواني (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8041, 8163. we (II) 202 ، ورقة ٦٦آ ، انظر أيضاً ديوان أحمد الكيواني المطبوع في دمشق في ١٣٠١ هـ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ •

وصف البديري المعاصر النفوذ الذي بلغه فتحي بقوله انه كان السلطان في الشام[1] • وانتهز فتحي فرصة زواج ابنته من ابن أخيه فأكد نفوذه علناً بالاحتفالات التي أقامها في ربيع الاول ١١٥٦/نيسان ـ أيار ١٧٤٣ ،والبذخ الذي أظهره ، مما فاق الاحتفالات التي أقامها سليمان باشا العظم ، قبل أيام ، بمناسبة ختان ابنه[2] • واذا كانت العلاقة بين فتحي وآل العظم ودية بالظاهر ، حتى الآن ، فذلك لأن فتحي كان لايزال يوطد سلطته وينتظر الوقت المناسب لمقاومتهم •

توفي سليمان باشا قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ٢٥/١١٥٦ آب ١٧٤٣ ، وهو يحاصر ظاهر العمر • وسنرى في البحث التالي أسباب النزاع بينه وبين ظاهر العمر • وقد أثارت وفاة سليمان باشا كثيراً من الاضطرابات في دمشق • فقام اليرلية وقتلوا جماعة من الجند الدالاتية المرتزقة • واستغل فتحي الدفتري الفرصة فسجن كبار مساعدي سليمان باشا ، وتسلم السلطة الفعلية في المدينة ، وأعلم السلطان بما حدث • واذا كان فتحي ينتظر أن يعين والياً على الشام ، فقد خيب أمله خاصة لأن والياً آخر من آل العظم ، هو أسعد باشا ، قد عين خلفاً لعمه سليمان باشا •

دخل أسعد باشا دمشق في ٢٤ شعبان ١٣/١١٥٦ تشرين ١٧٤٣ ، وكان له من العمر تسع وثلاثون سنة • وقد سبق أن عين من قبل أبيه ، اسماعيل باشا ، متسلماً على حماة والمعرة ، ثم أعطي ، بالاشتراك مع عمه سليمان باشا ، « مالكانة » حماة فأقام فيهـا يدير أمورها • وفي سنة ١٧٤١ خلف أخاه ابراهيم باشا في حكم صيدا ، ثم عين في آذار ١٧٤٢ حاكماً على حماة ، وبواسطة بكر باشا ، والي جدة سابقاً وصهر السلطان حالياً ، أعطي « مالكانة » حماة لوحده[3] ، ثم عين على ولاية الشام بعد ذلك[4] •

---

١ ـ البديري ، ١٠ ب •

٢ ـ انظر تفاصيل ومدلول هذه الاحتفالات في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 148, 152 - 154.

٣ ـ انظر حول بكر باشا : Hammer, XV. 10

٤ ـ انظر حول سيرة أسعد باشا : الطباخ ، ج ٣ ، ٣٣٤ •

يمكننا أن نلاحظ ثلاث فترات في حكم أسعد باشا العظم في الشام : فترة سلطة اليرلية وفتحي الدفتري ، ١١٥٦ - ١١٥٨/١٧٤٣ - ١٧٤٥ ؛ فترة انتصار أسعد باشا على اليرلية وفتحي ، ١١٥٩/١٧٤٦ ؛ وفترة توطيد نفوذه ، ١١٥٩ - ١١٧٠/١٧٤٦ - ١٧٥٧ .

جابه أسعد باشا في الفترة بين ١١٥٦ - ١١٥٨/١٧٤٣ - ١٧٤٥ ازدياد سلطة اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق . وكان تساهل سليمان باشا العظم مع اليرلية ومع فتحي مسؤولا الى حد بعيد عن هذا الوضع . وجاء أسعد باشا الآن ليقاسي من نتائج تلك السياسية .

خرج أسعد باشا ، بعد دخوله الى دمشق بعشرة أيام ، الى الدورة استعداداً لقيادة قافلة الحاج . فاستغل ذلك أحد أتباع فتحي ، ويسمى لعفصه ، وهدد السيد علي أفندي العجلاني نقيب الاشراف والسيد علي أفندي المرادي من كبار العلماء ، وأطلق النار على هذا الاخير . وقد اجتمع الاعيان والعلماء وأصدروا فتوى بقتل لعفصه ، ولكنه لجأ الى أحد زعماء اليرلية في الميدان . وبعد أن كتب المجتمعون عريضة الى السلطان ضد فتحي ، حامي لعفصه وأصل الفساد ، عدلوا عن ارسالها في اليوم التالي[1] . ونستدل من ذلك على قوة نفوذ فتحي وخوف أعيان دمشق منه. ولكن مجرد تكتلهم ضده واعلانهم انه رئيس المفسدين كان لصالح أسعد باشا لأنه كسب الى جانبه الاعيان والعلماء ضد فتحي واليرلية . وفي غياب أسعد باشا في الحجاز ، وصل رسول من قبل السلطان الى دمشق في ٢٣ شوال ١١٥٦/١٠ كانون الاول ١٧٤٣ ، وبدأ بمصادرة أموال سليمان باشا . وقد دهش الدمشقيون من كثرة الاموال المصادرة ، واعتقدوا أن سليمان باشا قد جوع الناس حتى جمع هذا المال[2] . ومما شجع على هذا الاستنتاج غلاء أسعار المواد الغذائية في ذلك الوقت . وكانت مصادرة أموال الولاة أمراً شائعاً في الدولة العثمانية ، خاصة وان السلطان كان بحاجة ماسة

---

١ - انظر : البديري ، ١١ آ - ١١ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ .
٢ - انظر : البديري ، ١٢ آ - ١٣ ب .

للمال آنذاك لتمويل الحرب مع حكام فارس • وبلغ من حاجة الدولة للمال انها رحبت بغنى وتقدم سن المرشحين للوظائف لتتمكن من مصادرة أموالهم بسرعة[١] •

ودهش الدمشقيون من موقف اللامبالاة الذي اتخذه أسعد باشا تجاه مصادرة أموال عمه وتجاه فتحي الذي ساعد في ذلك • وفي جمادى الثاني **١١٥٧**/آب **١٧٤٤** استدعي فتحي الى استانبول ،فاستغل بعض علماء دمشق غيابه وكتبوا شكوى ضده ،ولكنهم سرعان ما عدلوا عن ارسال الشكوى الى استانبول • ويبدو أن مؤيدي فتحي من العلماء مثل الشيخ سعيد السمان قد ثنوهم عن عزمهم • الا أن معارضي فتحي الاشداء أرسلوا شكوى ضده الى استانبول • ولكن فتحي لم يمس بأذى بسبب دعم الكزلار آغا له • وعاد الى دمشق أشد قوة ، وانتقم من معارضيه • وتفاقم تعدي الزرب ، ولم يحرك أسعد باشا ساكناً فلقبه الناس سعدية كاضن(Kadin أي امرأة) ، وفي هذا اهانة مزدوجة لأسعد باشا[٢] •

وكلما ازداد تعدي فتحي والزرب كلما ازدادت الكراهية لهم بين الدمشقيين ، واستفاد أسعد باشا من ذلك ، ولم يبق عليه الا أن يستنفر قواته للبطش بالمفسدين • وقد استغل نقمة الجماهير على ازدياد أسعار المواد الغذائية لخلق جو من الازمة وتركيز الاهتمام عليه كمنقذ لهم من أزمتهم • وحين أرسل أسعد باشا الجماهير الى القاضي للاحتجاج على غلاء الاسعار ، خاف القاضي ، وأطلق أتباعه النار على المتظاهرين • وتوجهت الجماهير ، بعد ذلك ، بأنظارها الى أسعد باشا فاستغل نقمتها للقضاء على نفوذ اليرلية وفتحي الدفتري •

بطش أسعد باشا باليرلية وبفتحي في سنة **١١٥٩**/**١٧٤٦** ، واعتمد في ذلك على قواته المرتزقة من الدالاتية • وقد بدأ باحتلال قلعة دمشق من اليرلية في **٢٢** صفر **١١٥٩**/**١٧** آذار **١٧٤٦** • وكانت قوة اليرلية الرئيسية

---

١ ــ انظر : Hammer, XV, 75 - 76

٢ ــ انظر : البديري ، ١٣ ب ــ ١٤ آ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٢٨٧ •

في حي الميدان ، وبعضها في حي سوق ساروجا • وقد تجمع اليرلية في باب الجابية لحماية حي الميدان ، ولكن أسعد باشا خدعهم بمهاجمة سوق ساروجا الأقل شأناً والأقل حماية ، وهرب زعيم هذا الحي أحمد القلطقجي • والتفت أسعد باشا ، بعد ذلك ، الى اخضاع حي الميدان حيث كان مصطفى آغا بن خضري زعيم الزرب والذي لقب نفسه سلطان الشام• وأصاب الذعر يرلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على سوق ساروجا ، فهرب المدافعون عنه قبل احتدام القتال ، ونهب عساكر أسعد باشا حوالي خمسمائة دار فيه وهدموا بعضها • وقضى أسعد باشا بعد ذلك على الاشقياء ، الباقين في المدينة ، وساعده في ذلك مشايخ وأئمة الحارات تحت طائلة العقوبة[1] •

ورغم الفوضى التي أحدثها عساكر أسعد باشا فقد سر الدمشقيون من عمله • وأمر أسعد باشا باقامة الزينة ، وخلع عليه السلطان هدايا عظيمة • ورقي أخوه سعد الدين باشا، في هذه الاثناء ، الى رتبة وزير ، وعين بعد قليل والياً على طرابلس • وطلب أسعد باشا من السلطان اعادة القابي قول الى دمشق لموازنة قوة اليرلية وابقائهم خاضعين لسلطته ، وتم له ذلك[2] • وهكذا أعيد القابي قول الى دمشق بعد أن طردوا منها في سنة ١٧٤٠ •

وكانت خطوة أسعد باشا الثالثة التخلص من فتحي الدفتري ، فقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ • وكان فتحي قد ضعف كثيراً اثر القضاء على أتباعه من اليرلية • كما أن حاميه في استانبول ، الكزلار آغا ، توفي في ١ جمادى الاول ١١٥٩ • وزاد في الأمر أن الصدر الاعظم حسن باشا كان يكره فتحي بسبب عداوة شخصية • وأيد كثير من علماء دمشق ،من بينهم محمد خليل البكري الصديقي ، طلب أسعد باشا الى السلطان بوجوب التخلص من فتحي • وضمن أسعد باشا للسلطان بأن

---

١ ـ انظر حول ذلك : البديري ، ١٥ آ ـ ١٦ آ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٧٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٢ ، ٦٣ ، جـ ٣ ، ٢٨٧ ، جـ ٤ ، ١٧٨ •

٢ ـ انظر : البديري ، ١٦ ب ؛ الطباخ ، جـ ٣ ، ٣٢٩ •

يدفع له ألف كيس من ثروة فتحي اذا أمر بقتله • وقد تعرض أتباع فتحي وعدد من أقربائه الى كثير من الأذى نتيجة لمقتله[1] •

وانصرف أسعد باشا ، في الفترة بين ١١٥٩/١٧٤٦ ونهاية ولايته في ١١٧٠/١٧٥٧ ، الى توطيد نفوذه واغناء نفسه وبناء آثاره المشهورة • وبعد أن وازن قوة اليرلية باعادة القابي قول ، تعرض أسعد باشا الآن الى تمرد الدالاتية الذين ازداد غرورهم اثر انتصارهم على اليرلية واللجوء اليهم ، بعد ذلك ، لحماية دمشق ضد خطر مهاجمة اليرلية الفارين لها • وعاث الدالاتية فساداً في القرى المحيطة بدمشق التي أوكل اليهم أمر الدفاع عنها• ولما كان يصعب على أسعد باشا التخلص من الدالاتية فانه أعاد عساكر المغاربة الى دمشق ، وكانوا قد طردوا منها في سنة ١٧٣٩ ، واستخدمهم لموازنة قوة الدالاتية[2] • ولم يكن اليرلية في وضع قوي ليعارضوا عودة أعدائهم ، وأصبحوا خاضعين لسلطة أسعد باشا الذي صحبهم معه في حملاته ضد أمراء جبل لبنان ، وازدادت أيضاً سلطة آغا اليرلية على أفراد طائفته بعد القضاء على الزرب ، وقوي نفوذ القابي قول بسبب دعم الباشا لهم وضعف منافسيهم، وكثرت تعدياتهم على السكان ،وخاصة على الاشراف الذين ظهروا الآن ليملأوا الفراغ الذي تركه ضعف اليرلية•وهزم الاشراف في عدة اصطدامات جرت بينهم وبين القابي قول في ١١٦١/١٧٤٨ • وحين هاجم الزرب الفارون مدينة دمشق في شوال ١١٦١/تشرين الاول ١٧٤٨ ، أثناء غياب أسعد باشا في الحاج ، قاتلهم المتسلم موسى كاخيا وردهم على أعقابهم بمساعدة قواته المرتزقة والقابي قول • ونفذ حكم الاعدام بكثير من الدمشقيين بتهمة مساعدتهم الزرب ، وكان ذلك بناء على توصية القابي قول•وازدادت شرور

---

١ ـ انظر : البديري ، ١٦ ب ـ ١٨ آ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ١٦٣ ، ج ٢ ، ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ج ٣ ، ٢٨٧ ؛ انظر أيضاً :

PRO, S. P. 97/32 : Contantinople, 42. 6. 1746, Constantinople, 18. 7. 1746 ; Hammer, XV, 105 - 107.

٢ ـ البديري ، ١٩ ب ـ ٢١ ب ، ٢٤ آ •

القابي قول وجرائمهم ولاسيما بعد أن أضيفت اليهم فرقة جديدة في جمادى الثاني ١١٦٤/أيار ١٧٥١[١] •

وظهر الآن في دمشق انقسام واضح بين الدمشقيين واليرلية الضعفاء ، من ناحية ، وبين القابي قول والدالاتية والمغاربة ، من ناحية أخرى • وتضايق الدمشقيون من تسلط هذه القوى الغريبة ، لاسيما وأن أبناء الشام تمتعوا ، لفترة قبل ذلك ، بالسلطة لوحدهم • ومنع القابي قول الآن ،تحت طائلة العقوبة ، من قبول انتساب أي من الدمشقيين الى صفوفهم[٢] • ورغم أن هذا قصد منه قطع علاقة القابي قول مع السكان المحليين وابقاؤهم أقوياء ، الا أنه بالمقابل حال دون قيام أي تعاطف بين القابي قول وبين الدمشقيين ، وزاد بالتالي من حدة العداء بينهما •

وقاست دمشق اجتماعياً من تعدي وفوضى هذه القوات الغريبة التي ازدادت اعتداداً الآن بقوتها • فقد تبجح الدالاتية بقضائهم على اليرلية ، وعاد القابي قول الى القلعة والى ممارسة نفوذهم ، وأعيد المغاربة الى دمشق بعد أن طردوا منها ، وكثرت تعدياتهم الآن[٣] • وازداد الفسق والفجور في دمشق تبعاً لازدياد فوضى هذه القوات[٤] • وقد دهش الشيخ عبد الله السويدي الذي أقام في دمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/٣٠ ايلول – ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٢ ، من كثرة الخلاعة وجرأة الزناة والزواني في المدينة[٥] •

واستفاد أسعد باشا من التهاء مختلف القوى بخلافاتها وشرورها ومن

---

١ – انظر البديري ، ٢٤ ب – ٢٥ ب ، ٢٦ ب – ٢٨ آ ، ٢٩ آ – ٣١ ب ، ٣٥ ب ؛ انظر الدراسة التفصيلية لهذه الاحداث في كتابنا :
The province of Damascus, pp. 169 - 175.

٢ – انظر : البديري ، ١٦ ب •

٣ – المصدر السابق ، ٢٦ آ ، ٣٧ ب ، ٤٣ آ •

٤ – المصدر السابق ، ١٢ ب ، ١٣ آ ، ٢١ آ ، ٢٥ ب ، ٢٩ ب ، ٣١ آ •

٥ – عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 23. 385 انظر : الورقة ٩٤ ب • (هناك نسخة أخرى عن هذا المخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 7337) •

دعم القابي قول له مقابل دعمه لهم[1] ، وانصرف الى جمع الثروة • وقد حاول ، بالتعاون مع شيخ الطحانة ،ابقاء أسعار المواد الغذائية مرتفعة ليستفيد من بيع حاصلات « مالكانته » في حماة • واستفاد من هذا الوضع بعض كبار التجار وغيرهم من الذين تعاونوا مع أسعد باشا ، وتغاضى الآخرون عن تلك المساوىء خوفاً من الشخصيات الكبيرة ذات العلاقة • ولم تجد ثورات الفقراء أو تخفيض سعر العملة النقدية ، في التخفيف من الغلاء[2] •

وقد خفف من شدة هـذا الاستغلال ازدهار الحالة الاقتصادية في دمشق آنذاك بسبب نمو المبادلات التجارية بين التجار الفرنسيين المتمركزين على ساحل بلاد الشام الجنوبية ، والتجار الدمشقيين ؛ ونشطت تجارة المنسوجات الدمشقية التي ازداد الطلب عليها • كما أن تأمين أسعد باشا لسلامة الحاج طيلة عهده ، شجع مجيء الحجاج ،وازداد بالتالي عدد التجار المرافقين لقافلة الحاج ، وقد استفادت دمشق من ازدهار التجارة بهذه المناسبة[3] •

وازدادت ثروة أسعد باشا على مرور الزمن ، ويدل بناؤه خانه المشهور في البزورية في ١١٦٦/١٧٥٢ ـ ١٧٥٣[4] ، على الحالة الاقتصادية الناشطة في دمشق ، وعلى استفادة أسعد باشا من ذلك • واشترى أسعد باشا كثيراً من الممتلكات في دمشق التي أصبحت الآن مركزاً آخر لاسرة آل العظم ، بجانب حماة والمعرة • وحول أغلب ممتلكاته الى وقف أهلي لمنفعة ذريته[5] ، بعد أن رأى بنفسه مصادرة أموال عمه سليمان باشا • وفي سنة ١١٦٣/١٧٤٩ ـ ١٧٥٠ بدأ أسعد باشا ببناء قصره المشهور في البزورية ، وانتهى من بنائه في العام التالي • وقد أتى آية في الروعة وفن العمارة ،

---

١ ـ انظر البديري ، ٢٥ آ ـ ٢٥ ب •

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٢ آ ، ٢٩ ب ، ٣٠ آ ، ٣٦ آ ، ٣٨ ب ، ٤٠ آ ـ ٤١ آ •

٣ ـ انظر حول ذلك كتابنا : The Province of Damascus, pp. 187 - 180.

٤ ـ البديري ، ٤١ ب ، ٤٢ ب ؛ بريك ، ١٨ ؛ نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص ١١٠ •

٥ ـ البديري ، ١٨ ب ـ ١٩ آ •

وأنفق أسعد باشا على بنائه كثيراً من المـال والجهد ، وجند امكانيات فنية وموارد اقتصادية كبيرة لذلك[1] •

ولم يكن قصر أسعد باشا مجرد بناء عادي قام به أحد ولاة الشام العاديين • فلم تشهد بلاد الشام ، في العهد العثماني ، قصراً لوال محلي بمثل هذه الضخامة ، باستثناء قصر بيت الدين للامير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ – ١٨٤٠) ولكن الامير بشيراً هذا يختلف عن أسعد باشا في كونه يمثل أسرة حاكمة اعترف العثمانيون بوراثتها الحكم في جبل لبنان • ويبقى قصر أسعد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانيين • ويدل بناؤه عـلى مقدار النفوذ الذي بلغه أسعد باشا مع أسرته في الشـام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة • والجدير بالملاحظة أن الابيات الشعرية الموجودة الآن عـلى جدران وسقوف القصر لاتذكر ، كما يبدو ، اسـم السلطان العثماني ، وتكتفي بتمجيد أسعد باشـا وذكر نعمة الله عليه • ويدل ذلك على مدى نفوذ أسعد باشا والاهمال التدريجي لذكر السلطان العثماني الذي لم تعد تسمع أخبار فتوحاته العسكرية ، كما كان الأمر في عهد السلطان سليمان القانوني • ولم تعد دمشق تزين لمثل هذه المناسبات ، واقتصرت زينتها الآن عـلى الاحتفال بولادة أبنـاء السلاطين وشتان بين المناسبتين •

لقد رمم وأصلح أسعد باشا كثيراً من الجوامع والمدارس والمزارات، وبنى عدة خانات في حماة والمعرة وخان شيخون ، ونسب اليـه بناء دار كبيرة في حماة • ولكننا نلاحظ أن أسعد باشا وغيره من الولاة ، خاصة في القرن الثامن عشر ، الذين شيدوا عدة أبنية في دمشق ، لم يبنوا أية جوامع على غرار جامع الدرويشية الذي بناه درويش باشا وجامع السنانية الذي بناه سنان باشا في النصف الثاني من القرن السادس عشر • وربما يفسر ذلك أن أحداً من هؤلاء لم يبلغ نفس الدرجة من المجد والشهرة الواسعة التي نالها درويش باشا وسنان باشـا[2] • وفي الحقيقة لم يعد هناك من

---

١ – انظر تفاصيل بنائه في كتابنا : The Province of Damascus, pp. 181 - 182

٢ – انظر ص ١٥٢ •

مجال ،في فترة ضعف الدولة التي تلت عهد هذين الواليين ، لاشتهار الولاة في الميدان العسكري • وأصبح هم أغلب الولاة ، الذين عينوا عادة لمناصبهم بدون كفاءة مناسبة ، جمع المال لأنفسهم • واستفاد ولاة آل العظم من شهرتهم المحلية ومن غناهم في توطيد نفوذ ومجد أسرتهم في دمشق عن طريق بناء الابنية الخاصة بهم • واذا كان درويش باشا وسنان باشا قد أرادا تخليد ذكرى حكمهما في دمشق ببناء الجوامع فيها فهذا يعود الى كونهما غرباء عن دمشق •

واشتهر من آل العظم ، في فترة ولاية أسعد باشا على الشام ، اخوته ابراهيم باشا وسعد الدين باشا ومصطفى باشا • وقد توفي ابراهيم باشا في ١١٥٩/١٧٤٦ ـ ١٧٤٧ ، بعد عزله عن ولاية صيدا بسنتين[١] • أما سعد الدين باشا فقد عين في ١٧٤٦ والياً على طرابلس ، واستمر فيها حتى ١١٦٤/١٧٥٠ ـ ١٧٥١ حين عين والياً على حلب • ويبدو أنه عين في العام التالي على صيدا ، ونقل في سنة ١٧٥٣ الى ولاية طرابلس حيث استمر فيها الى سنة ١٧٥٦ • وشغل امارة الجردة طوال هذه الفترة • وقد منح مصطفى طوخين (رتبة بيلربيي) في ١١٦٦/١٧٥٢ ـ ١٧٥٣ ، وأمر بمساعدة أخيه سعد الدين باشا في حماية الجردة • وفي سنة ١١٦٨/١٧٥٥ عين والياً على صيدا • وهكذا حكمآل العظم ولايات الشام وصيداوطرابلس، كما في سنة ١٧٣٠ • ولكن تطورات هامة كانت تجري في استانبول ، في هذه الفترة ، وقد أثرت على مصير الولاة من آل العظم • فبعد وفاة السلطان محمود الاول في ١٧٥٤ واعتلاء السلطان عثمان الثالث ، ازدادت سلطة الكزلار آغا أحمد أبو قوف الذي كان عدواً شخصياً لاسعد باشا • وذكر أن الكزلار آغا استاء من أسعد باشا لانه لم يوله عناية مناسبة حين مروره بدمشق ، في طريقه الى الحجاز ، في سنة ١٧٥٤ ، على عكس موقف حسين بك ابن مكي ، حاكم غزة ، الذي رحب كثيراً بالكزلار آغا فعمل على ترقيته وتعيينه حاكماً على القدس أولا في سنة ١٧٥٦ ، بعد أن فصلها ،

---

١ ـ الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ •

كما يبدو ، عن دمشق ، ثم عينه في العام التالي على ولاية الشام ، بعد أن أعيدت اليها القدس[١] •

عزل أسعد باشا عن ولايـة الشام في آخر ربيـع الثاني ١١٧٠/٢١ كانون الثاني ١٧٥٧ ، وعين على ولاية حلب • واصطدم في حلب بواليها المعزول راغب باشا[٢] ، الذي كان مقرراً أن يخلفه في الشام ولكنه عـين صدراً أعظم • وعين حسين باشا ابن مكي والياً على الشام • وهكذا أصبح كل من الصـدر الاعظم الجديد والكزلار آغا في استانبول من أعداء أسعد باشا ، وعزل أخواه عن ولايتي طرابلس وصيدا •

وشعر أسعد باشا بازدياد النقمة ضده في استانبول ، فعمد الى تخفيض أسعار الحبوب في حلب ، وزود المدينة بالمؤن من عنابره الخاصة • وكسب بذلك دعم السكان له ، فثاروا لدى سماعهم ، في شباط ١٧٥٧ ، بنبأ عزله عن حلب وتعينه على مصر ، وأبقوه بالقوة[٣] وبدا لفترة كما لو أن آل العظم سينجحون في الابقاء على بعض نفوذهم ، وقد عين سعد الدين باشا عـلى مرعش وأخوه مصطفى باشا على الموصل[٤] • ولكن في ٢٥ ايلول ١٧٥٧ عزل أسعد باشا من جديد ،وعين على سيواس • ولم تجد احتجاجات الحلبيين ولا محاولات آل العظم في استانبول وحلب لالغاء قرار العزل • ولم يلجأ أسعد باشا الى السلاح للمقاومة ، كما نصحه مشاوروه ، بل بقي الوالي المطيع حتى النهاية • وفي ٥ شعبان ١١٧١/١٤ نيسان ١٧٥٨ ، قتل أسعد باشا في الاناضول بأمر الدولة ، وتلا ذلك مصادرة أمواله الكثيرة •

لقد شاع في دمشق ، وفي غيرها ، أن سبب مقتل أسعد باشا تحريضه البدو على مهاجمة قافلة الحاج والجردة ، في عهد خلفه حسين باشا ابن مكي ،

---

١ ـ انظر حول هذه التطورات كتابنا : The Province of Damascus, pp. 200 - 204.

٢ ـ انظر : A. Russel, The Natural History of Aleppo, 2 vols., London, 1734, see vol. I, pp. 404 - 405 n. 30.

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 87 : Alep, 22. 3. 1757, Alep, 26. 3. 1757, A. E. B[1] 435 : Constantinople, 30 4. 1757.

٤ ـ البديري ، ٤٧ آ ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٣٢٩ •

وذلك احتجاجاً على عزله • وذكر التهمة كثير من المؤرخين الدمشقيين وغيرهم ، بينما لزم الصمت آخرون مثل البديري • وقد حدث هجوم البدو من بني صخر على الجردة في ٢٠ ذي الحجة ١١٧٠/٥ ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان ، وعلى قافلة الحاج في حوالي ١٠ صفر ١١٧١/ ٢٤ تشرين الاول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين تبوك وذات صبح • وكان الهجوم من الشدة بحيث أبيدت تقريباً الجردة والقافلة • ولم تحدث مثل هذه الكارثة ، قبل ذلك ، في العهد العثماني • فارتاع السلطان لهول المصيبة لاسيما وأن سمعته الدينية كانت كل شيء له الآن بعد انهيار سمعته العسكرية • فبحث عن ضحية مناسبة يحملها اللوم ، ووقع على أسعد باشا الذي ازداد نفوذه في بلاد الشام الى درجة كبيرة وثار الحلبيون لابقائه بينهم • وكان أعداء أسعد باشا في استانبول ، وأشهرهم راغب باشا الصدر الاعظم وأحمد أبو قوف الكزلار آغا يكيدون لأسعد باشا ، فشجعوا السلطان على استغلال كارثة الحاج لاتهام أسعد باشا ، وذلك لمصادرة ثروته الكبيرة • وكانت الدولة آنذاك بحاجة ماسة الى المال • وقد بلغ من كثرة أموال أسعد باشا المصادرة[1] ان الدولة أجرت تبديلا في سعر النقود ، وزادت ، بصورة عامة ، من قيمتها[2] •

ومما ينفي التهمة عن أسعد باشا الاحداث التي جرت آنذاك في استانبول • ففي ١٦ صفر ١١٧١/٣٠ تشرين الاول ١٧٥٧ توفي السلطان عثمان الثالث ، وخلفه أخوه مصطفى الثالث • ونتج عن ذلك ، كالعادة ، تبدلات بين كبار الموظفين • وفي ٢٤ صفر من نفس السنة نفي الكزلار آغا أحمد أبو قوف الى رودس ، وأشيع أن أمواله قد صودرت • وقد بقي راغب باشا صدراً أعظم • ووصلت أنباء الهجوم على قافلة الحاج الى استانبول بعد اعتلاء السلطان مصطفى الثالث بفترة وجيزة • وكانت تعم استانبول آنئذ نقمة شعبية بسبب غلاء أسعار المواد الغذائية وتدفق

---

١ ـ انظر مثلا : البديري ، ٥١ ب ؛ بريك ، ٥٩ ـ ٦٠

A. E. B[1] 88 : Alep, 31. 5. 1758

٢ ـ انظر :

PRO, S. P. 97/40 : Constantinople, 16. 8. 1758 ; Hammer, XVI. 25, 26

القرويين الى المدينة ، وعمد السلطان ، ارضاء للشعب ، الى تبديل كثير من الموظفين ، والى قتل الكزلار آغا أحمد أبو قوف في ١٥ ربيع الاول ١١٧١ / ٢٧ تشرين الثاني ١٧٥٧ • وذكر على اللوحة التي علقت على رأسه الذي عرض أمام الجماهير أن الكزلار آغا كان سبب عزل حاكم الشام القوي أسعد باشا العظم وتعيين صنيعته حسين باشا ابن مكي الذي هوجم الحاج أثناء امارته • وفي هذا مديح لأسعد باشا المعزول ونفي ضمني لتهمة اشتراكه بتحريض البدو • ولم يفد أسعد باشا من ذلك لأن عدوه الآخر الصدر الاعظم راغب باشا كان لايزال قوياً • وقد ازدادت سلطة راغب باشا بعد التخلص من منافسه الكزلار آغا ، ودبر التهمة ضد أسعد باشا للاستيلاء على ماله بالدرجة الاولى •

أما الاسباب الحقيقية[١] التي أدت الى هجوم البدو على قافلة الحاج فتعزى الى امتناع حسين باشا عن دفع مال الصر الى البدو ، في وقت كان البدو يعانون فيه من شدة القحط وجفاف المياه وقلة المرعى ، والى استبعاد قبيلة بني صخر ، منذ ولاية أسعد باشا ، من عملية نقل الحجاج وتأجير الجمال لهم ، مما أدى الى خسارة كبرى لبني صخر ، فتحينوا الفرصة الآن للتعبير عن احتجاجهم • وكان أسعد باشا ، أثناء ولايته على الشام ، قد شدد قبضته على القبائل الصغيرة مثل بني صخر في منطقة البلقاء ، وبني فضل في حوران ، في حين أنه تودد الى القبائل الكبيرة مثل العنزة في البادية السورية ، وبني حرب في الحجاز[٢] • ولذلك استغلت القبائل الصغيرة مناسبة عزل أسعد باشا لتثور على سلطة والي الشام • وأتيح لهم ذلك بسبب ضعف حسين باشا ابن مكي الذي وصفه المرادي « انه كان بطيء الحركة عن شهامة الوزارة »[٣] • وكان حسين باشا من أهالي غزة ، وقد تعامل معه البدو المحليون قبل ذلك ، وعرفوا مقدار ضعفه • وأصبح

---

١ _ انظر تحليل الاحداث التي أدت الى مقتل أسعد باشا والى الهجوم على قافلة الحاج في كتابنا: The Province of Damascus, pp. 204 - 207, 213 - 222

٢ _ انظر حول علاقة أسعد باشا بالبدو ، المصدر السابق : Ibid., 198 - 200

٣ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦١ •

الآن والياً على الشام وأميراً لقافلة الحاج بدون جدارة ، فانتهز بنو صخر الفرصة لتصفية حسابهم مع السلطات العثمانية •

وكان القضاء على أسعد باشا ضربة كبيرة لنفوذ آل العظم • وقد عزل أخوه مصطفى باشا وجرد من أطواخه في الوقت نفسه • أما سعد الدين باشا فلم يصب بأذى ، ولكنه فقد كثيراً من نفوذه ، وتوفي في ١١ ذي القعدة ١١٧٥/٣ حزيران ١٧٦٢ • وهكذا انتهى جيل آخر من حكام آل العظم ، وكان جميع أفراده من أولاد اسماعيل باشا • ولم يتوصل محمد باشا العظم ، الذي يمثل الجيل الثالث من حكام هذه الاسرة ، الى ولاية الشام حتى سنة ١٧٧١ • ولكن أحداً من آل العظم لم يبلغ بعد أسعد باشا درجة النفوذ التي وصل اليها بسبب ضعف الأسرة العظمية من ناحية ، وبسبب انهيار سلطة ولاةالشام عامة تجاه ازدياد قوةظاهر العمر وعليبكالمملوكي، ثم أحمد باشا الجزار ، من ناحية أخرى •

سيطرة ظاهر العمر • ـ لابد لنا أثناء دراستنا لازدياد نفوذ ظاهر العمر في هذه الفترة من معالجة الصراع على السلطة ، في بلاد الشام الجنوبية ، بين الامراء الشهابيين والمتاولة وظاهر العمر وولاة الشام وصيدا ، وأيضاً الصراع داخل صفوف هذه الفئات ، وذلك لنتفهم كيف تمكن ظاهر العمر من الوصول الى ما يقرب السلطة المطلقة في فلسطين خاصة •

وقد ذكرنا كيف أن سليمان باشا العظم اشتبك ، في أواخر ولايته الاولى على الشام ، في قتال مع ظاهر العمر بسبب اعتدائه على مناطق ابن ماضي وابن جرار الخاضعين لاشراف سليمان باشا • واستفاد ظاهر العمر من سرعة تبدل ولاة الشام في الفترة بين ١٧٣٨ ـ ١٧٤١ ، حين تعاقب على الولاية حسين باشا البستنجي وعثمان باشا المحصل وعلي باشا ، ومن انشغال الوالي الاول بثورة الدمشقيين ضده ، والوالي الثاني بطرد القابي قول من الشام • أما الوالي الثالث فقد اتصفت علاقاته بالمصالحة مع اليرلية ومع ظاهر •

وما أن عين سليمان باشا العظم للمرة الثانية على الشام في ١٧٤١ حتى

عاد الى استئناف القتال ضد دروز جبل لبنان وظاهر العمر • ويتفق هذا الموقف مع سياسة سليمان باشا التقليدية في تشديد قبضته على القوى المحلية في الريف والتسامح مع سكان المدن[1] •

وبدأ سليمان باشا ولايته بقيادة حملة ضد دروز جبل لبنان بسبب اعتدائهم على البقاع • وكما حدث في ولايته الاولى ، فقد تصالح معهم ، قبل أن يبدأ القتال ، لقاء مبلغ كبير من المال[2] •

ثم وجه سليمان باشا كامل جهده لاخضاع ظاهر العمر الذي كان يثير مخاوف سليمان باشا بسبب ازدياد سلطته في منطقة صفد وتحصنه في قلعتي طبرية ودير حنا ، وأيضاً بسبب اعتدائه على منطقة نابلس التي تتبع ولاة الشام • ورغم أن منطقة صفد ـ طبرية تقع تحت اشراف ولاة صيدا ، الا أن اشغال هذه الولاية ، في عهد حكم سليمان باشا في الشام ، من قبل أبناء أخيه ، ابراهيم باشا أو أسعد باشا ، ولجوء هذين الواليين الى عمهما لمساعدتهما ضد ظاهر ، ألقى المسؤولية على سليمان باشا • وكان سليمان باشا يهتم بأن يدفع ظاهر أموال الميري بانتظام الى ولاة صيدا لانفاقها على تمويل جردة الحاج • وخرج سليمان باشا بحملة كبيرة من دمشق في ٣ رجب ١١٥٥/٣ ايلول ١٧٤٢ لمحاصرة ظاهر العمر في طبرية ، وذلك بمناسبة الدورة • وساعده الامير ملحم الشهابي ، أمير جبل لبنان ، ببعض قواته نظراً لعدائه لظاهر • ودعم سليمان باشا أيضاً بدو بني صخر وبدو بني صقر الذين كانوا على خلاف مع ظاهر[3] • ولكن سليمان باشا فشل في احتلال قلعة طبرية ، رغم حصاره لها مايقرب من ثلاثة أشهر ، واضطر الى التراجع الى دمشق بسبب دنو موعد خروج قافلة الحاج • وليس

---

١ ـ انظر ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، ٣٢٩ •

٢ ـ انظر : البديري ، ٢ آ ؛

A. E. B[1] 1025 : Seyde, 19. 8. 1740, Seyde, 10. 11. 1741.

٣ ـ انظر : البديري ، ٤ آ ـ ٦ آ ؛ عبود الصباغ ، ٧ ب ـ ٨ آ ؛

A. E. B[1] 1026 : Seyde, 19. 9. 1742

صحيحاً ما شاع آنذاك في دمشق بأن سليمان باشا احتل قلعة طبرية[1] .

واغتنم ظاهر العمر فرصة انسحاب سليمان باشا فبدأ بتقوية نفسه عسكرياً . كما أنه اتصل بالقنصل الفرنسي في صيدا لكسب دعمه وليتوسط له لدى السلطات العثمانية لمنع والي الشام من شن الحملات عليه . واتصل القنصل بالسفير الفرنسي في استانبول ليتوسط فيها لصالح ظاهر . وتردد السفير في ذلك لأن ظاهر العمر يعتبر ثائراً في استانبول ، كما أن ذلك سيغضب سليمان باشا وسيسيء للمصالح الفرنسية في بلاد الشام الجنوبية ، لاسيما وأن الفرنسيين لم يتأكدوا بعد من مقدرة ظاهر العمر على البقاء ومقاومة سليمان باشا[2] .

وخرج سليمان باشا ، بعد عودته من الحجاز ، بحملة ثانية ، بناء على أوامر السلطان ، ضد ظاهر وضد متاولة جبل عامل الذين رفضوا دفع مال الميري لوالي صيدا ، ابراهيم باشا العظم . واستنهض ابراهيم باشا الامير ملحم الشهابي لمساعدته ضد المتاولة ، وتمكن من هزيمتهم . ولم يشترك سليمان باشا بقتال المتاولة ، بل عمل ، بعد هزيمة الامير الشهابي لهم ، على كسبهم الى جانبه واشراكهم معه في قتال ظاهر ، بعد أن رفض مساعدة الامير الشهابي له . ويبدو أن سليمان باشا كان يخشى ازدياد قوة الامير الشهابي ولجوء المتاولة الى ظاهر ، فقرب اليه المتاولة . ثم بدأ بمهاجمة قلعة دير حنا حيث تحصن أخو ظاهر . ولو نجح سليمان باشا باحتلال هذه القلعة لقطع المؤن عن قلعة طبرية وأرهب المحاصرين فيها . ولكنه توفي في قرية لوبية قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ١١٥٦/٢٥ آب ١٧٤٣[3] . وتنفس ظاهر الصعداء .

---

١ ـ انظر معالجة ذلك بالتفصيل في كتابنا : The Province of Damascus, pp. 157 - 158

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 420 : Constantinople, 1. 5. 1743

٣ انظر حول الاحداث السابقة : البديري ، ٩ آ ـ ١٠ آ ؛ عبود الصباغ ، ٩ آ ؛ ميخائيل الصباغ ، ٦٢ ـ ٦٣ ؛ ابن جمعة ، نشر منجد ، ٦٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٨٤ ؛ بريك ، ١١ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٧٨ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٦ آ ـ ٣٦ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٢٩ ـ ٣٢ ؛ تاريخ جبل الدروز ، ٦ ب ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1026 : Seyde, 20. 8. 1743

واستفاد ظاهر العمر من انشغال أسعد باشا العظم بتوطيد سلطته ضد اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق ، في الفترة بين ١٧٤٣ - ١٧٤٦ ، فقوى نفسه . وحين تفرغ أسعد باشا من ذلك وأصبح سيد الموقف في دمشق ،لم يستأنف سياسة العنف ، التي اتبعها عمه سليمان باشا ، نحو ظاهر العمر ، بل اتخذ منه موقف التعايش السلمي ، في حين شدد قبضته على دروز جبل لبنان . فما هي أسباب هذه السياسة ؟

لقد تكررت حملات أسعد باشا ضد أمير جبل لبنان اما بسبب مماطلته في دفع مال الميري أو بسبب تعدي سكان الجبل على منطقة البقاع الغنية التابعة لولاة الشام . ورغم أن مسؤولية جمع مال الميري من أمير جبل لبنان تقع على عاتق والي صيدا ، فقد أمر أسعد باشا من قبل السلطان ، في ١٧٤٥، بالانضمام الى ولاة صيدا وطرابلس في حملة ضد الامير ملحم ، وتوصلوا الى تسوية معه بدفع مال الميري المتأخر[١] . وقد أظهرت هذه الحملة لاسعد باشا ضعف الدروز ، واستاء هؤلاء من الحملة فردوا بمهاجمة البقاع . كما أن بعض الزرب الذين هربوا من دمشق ، أثناء قمع أسعد باشا لليرلية ، وجدوا ملجأ بين الدروز ، وخاصة آل تلحوق ، وعادوا بصحبتهم يهددون الشام . ولهذا شن أسعد باشا حملةأخرى ضد الدروز في جمادى الاول ١١٦٠/أيار ١٧٤٧ . وقد استغل أسعد باشا موسم الحصاد فيالجبل فنهبت قواته القرى ، وصادر الحبوب ثم باعها في دمشق بأسعار مرتفعة . صحيح ان اتلاف مؤن العدو ضرورة عسكرية ، ولكن يتساءل المرء هنا اذا لم يكن توقيت الحملة مدبراً بقصد المصادرة والاثراء . ولم تصل الحملة الى اتفاق مع الدروز بسبب مماطلة والي صيدا في تأييد أسعد باشا. ورد الدروز بأن هاجموا في رجب /تموز - آب ، من نفس السنة ، بعض قرى البقاع . وخرج أسعد باشا لقتالهم في ٧ شعبان / ١٤ آب ، وحدثت عدة اصابات بين الفريقين[٢] . وهاجم الدروز في منتصف سنة ١١٦١/

---

١ - انظر : A. E. B¹ 1026 : Seyde, 22. 10. 1745

٢ - انظر : البديري ، ٢١ آ - ٢٣ آ .

منتصف ١٧٤٨ منطقة الزبداني ، واشتركوا ، بعد قليل ، مع الزرب في الهجوم على الشام[١] • وتجب الاشارة هنا الى أن الامير ملحم الشهابي لم يكن مسؤولا عن جميع هـذه الهجمات ، بل كانت بعض قوات الجبل تقوم ، على مسؤوليتها الخاصة ، بمهاجمة البقاع وتأييد الزرب • ومما يؤكد ذلك ، الخلاف الذي حدث بين الامير ملحم وآل تلحوق وآل عبد الملك بسبب حمايتهم للزرب ، والذي أدى الى قتاله لهم • ويدل هذا على رغبة الامير ملحم العيش بسلام مع أسعد باشا • وبالفعل لم تحدث ، بعد ذلك ، اصطدامات هامة بين أسعد باشا وسكان الجبل بسبب انشغاله بتشييد أبنيته المختلفة في دمشق • كما أن طلب أسعد باشا الى السلطان تعيين أخيه مصطفى باشا على ولاية صيدا لاحكام الطوق على أمراء جبل لبنان لم يتحقق حتى ١٧٥٥ ، أي قبل سنتين من عزل أسعد باشا •

وانشغل الامير ملحم بدوره بمحاولة الحصول على التزام بيروت لدعم نفوذه تجاه ظاهر العمر القوي والمتاولة الذين لم يعودوا يقبلون الخضوع لامراء جبل لبنان • كما أن سلطة الامير ملحم بين المشايخ المحليين في جبل لبنان قد ضعفت كثيراً ، ولم يدفعوا له أموال الميري بانتظام ، ومن هنا تأخره في دفعها الى الدولة • وعلى هذا فان حصوله على التزام بيروت سيتيح له ، بجانب النفوذ الذي سيجنيه منه ، الحصول على موارد اقتصادية اضافية • واذا كان ظاهر قد حصل على التزام عكا في ١٧٤٦ فلماذا لا يحصل الامير ملحم على التزام بيروت ؟• وبالفعل تم للأمير ملحم ذلك في حوالي سنة ١٧٤٩[٢] •

لقد تمكن الامير ملحم من الابقاء على نفوذه تجاه المشايخ المحليين باتباع سياسة التفرقة بينهم • ولكن النقمة المحلية ضده أخذت تتعاظم ، ولم يدفع له السكان أموال الميري الا بضغط شديد • وعندما مرض الامير ملحم

---

١ ــ المصدر السابق ، ٢٣ ب ــ ٢٤ آ ، ٢٦ آ ــ ٢٦ ب •

٢ ــ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٤٠ ، ٤١ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٢٩ ؛ يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، ٨ أجزاء ، بيروت ١٨٩٣ ــ ١٩٠٥ ، انظر : ج ٧ ، ٣٧٩ •

في ١٧٥٤ ، استغل المشايخ المحليون ذلك ، وشجعوا أخويه : الامير منصور والامير أحمد للحكم سوية مكانه • واضطر الامير ملحم ، ازاء ذلك ، الى الاستقالة ، واختير أخواه للحكم مكانه • ويعكس اختيارهما للامارة انقساماً بين مشايخ جبل لبنان ، وقد زاد حكمهما في تدعيم هذا الانقسام • وظهر في هذه الاثناء حزبان رئيسيان : الحزب الجنبلاطي ويرأسه علي جانبلاط، والحزب اليزبكي ويرأسه عبد السلام عماد (وسمي الحزب كذلك نسبة الى يزبك وهو جد عبد السلام)[1] • وسنرى اثر هذا الانقسام في دراستنا للفترة التالية • وقد استفاد من ذلك ظاهر العمر •

لقد جرد أسعد باشا ، كما رأينا ، أكثر من حملة على دروز جبل لبنان ، بينما لم يجرد حملة واحدة على ظاهر العمر • ويفسر ذلك ، من ناحية ، بسهولة الهجوم على الدروز • فهؤلاء كانوا يسكنون منطقة واسعة، ويكفي لأسعد باشا أن يهاجم قرية من قراهم حتى يعتبر عمله حملة ضد الدروز • ولم يكن الامر بمثل هذه السهولة بالنسبة لظاهر • فلم يكن ظاهر رئيس طائفة مثل الدروز ، بل كان رئيس أسرة ، هي أسرة الزيادنة، التي بنت قوتها بالاعتماد على القوى المحلية وعلى استغلال الموارد الاقتصادية في المنطقة • وان هجوم أسعد باشا على ظاهر يعني بالضرورة مهاجمة قلعتيه الحصينتين في طبرية ودير حنا • وقد فشل سليمان باشا العظم ، قبل ذلك، في احتلال هاتين القلعتين ، وتوفي وهو يحاصر قلعة دير حنا • وقد ازدادت استعدادات وقوة ظاهر العمر اثر هذه الهجمات • وعلى هذا ، فان قيام أسعد باشا بحملة ضد ظاهر العمر فيه كثير من المخاطرة ، وقد يؤدي الى هزيمته أو الى الاضرار بنفوذه • كما أن ظاهر العمر قد وطد سلطته ، ولم يعد مجرد ثائر بالنسبة للفرنسيين فاعترفوا به وتعاملوا معه ، وكذلك

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ١٥ آ ، ٣٨ ب ـ ٣٩ آ ؛ شدياق ، ج ١ ، ١٧٧ ج ٢ ، ٣٠ ٣٣ ؛ انظر أيضاً : نقولا الترك ، حوادث الزمان في جبل لبنان ، مخطوط في المكتبة الظاهرية ، برقم ٤٧٢٤ ، انظر الاوراق ، ١٧ آ ـ ٢٠ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : حوادث الزمان

تغاضت عنه الادارة المركزية في استانبول . وقد جرت العادة أن يحدد سعر القطن في المناطق التي يسيطر ظاهر العمر على التزامها ، من قبله ومن قبل التجار الفرنسيين . ولكن ظاهر العمر بازدياد نفوذه بعد صد هجمات سليمان باشا العظم أصبح وحده يحدد الاسعار . وتضايق الفرنسيون من ذلك ، كما تضايقوا أيضاً حين حصل ظاهر في ١٧٤٦ على التزام عكا من والي صيدا[١] ، لانه أصبح يتحكم بأحد الموانيء الرئيسية وبأهم مركز للتجارة الفرنسية . وحين بدأ ظاهر بابتزاز الاموال من التجار الفرنسيين ، ابتهلوا الى السفير الفرنسي في استانبول ليتدخل لدى السلطات العثمانية ، وبالفعل كتب الصدر الأعظم حول هذا الموضوع الى أسعد باشا ليتدخل في الأمر ، ولكن لم يكن الصدر الاعظم وأسعد باشا جادين في معاقبة ظاهر[٢] .

وكان ظاهر العمر حريصاً ، في هذه الاثناء ، على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية ، فدفع أموال الميري بانتظام ، كما أنه قبض على عدد من الزرب الهاربين من دمشق ، وقتل بعضهم ، وأرسل رؤوسهم الى استانبول للتدليل على طاعته ومحافظته على القانون . وكان يهدف أيضا من ذلك الى الحصول على فرمان من السلطان تستثنى بموجبه منطقة طبرية ، التي كان يسيطر عليها ظاهر ، من دورة ولاة الشام[٣] . وقد رأى السفير الفرنسي في استانبول عدم جدية الدولة في القضاء على ظاهر لاسباب كثيرة ، منها انشغال الدولة آنذاك بقضايا أكثر الحاحاً ، وأيضاً لأن ظاهر العمر تمكن من توطيد سلطته ، وان القضاء عليه سيكلف الدولة جهداً كبيراً لاسيما بعد أن رأت فشل حملات سليمان باشا ضده . ومادام ظاهر العمر يدفع مال الميري ، ويقيم الامن والنظام في المنطقة التي يسيطر عليها ، فلا بأس من بقائه حتى

---

١ ـ انظر . A. E. B[1] 978 : Acre, 18. 11. 1746 (Mémoire) ; A. E. B[1] 1027 Seyde, 12. 11. 1476, Seyde, 26. 1. 1748 (Mémoire), B[1] 1028 : Seyde, 28. 1. 1751, Seyde, 7. 12. 1751 ;

انظر أيضاً : عبود الصباغ ، ٢٩ ؛ ميخائيل الصباغ ، ٤١ ـ ٤٣

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 428 : Constantinople, 16. 10 1749 (تحتوي هذه الرسالة على ترجمة فرنسية للرسالة التي بعث بها الصدر الاعظم الى ظاهر العمر)

٣ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٩ ب ؛ البديري ، ٣٠ آ .

يحين وقت مناسب للدولة العثمانية للقضاء عليه • واضطر الفرنسيون ازاء ذلك الى توقيع اتفاق تجاري مع ظاهر في ١٧٥٣ لتنظيم التجارة بينهما[١] •

وازدادت سلطة ظاهر بعد ذلك ، وحصل على التزام حيفا ، التي كانت تابعة لاشراف ولاة الشام ، كما حصل على التزام مناطق أخرى ، تابعة لولاة الشام ، مثل بعض القرى في مناطق نابلس وبلاد حارثة وجبل عجلون[٢]• وانعكس هذا التوسع على الالقاب التي اتخذها ظاهر فلقب نفسه : ضابط عكا وبلادها ، وضابط عكا وبلاد الجليل •

وبازدياد سلطة ظاهر بدأت مظاهر الانشقاق تظهر داخل أسرته • ويذكر حدوث خلافات بين ظاهر وبعض أبنائه وخاصة عثمان ، منذ سنتي ١٧٥٢ و ١٧٥٣[٣] • ولكن هذه الخلافات التي كانت على نطاق ضيق في هذه الفترة والتي طغت عليها شهرة ظاهر ، ستستفحل في الستينيات ، وستكون عاملا رئيسياً في تقويض قوة ظاهر من الداخل • وسندرس عندئذ الأسباب التى أدت اليها •

الإضطرابات في بلاد الشام (١٧٥٧ – ١٧٧١) • –

حدثت عدة اضطرابات في بلاد الشام في هذه الفترة نشأت عن الهجوم على قافلة الحاج وعن النزاع بين اليرلية والقابي قول ، في عهد حسين باشا ابن مكي ، وعن الصراع على النفوذ ، خارج دمشق ، بين أمراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وبلغت الاضطرابات ذروتها باحتلال دمشق من قبل قوات علي بك المملوكي وظاهر العمر والمتاولة في حزيران ١٧٧١ •

---

١ – انظر : A. E. B[1] 1028 : Seyde (Constantinople), 15. 7. 1750, Seyde, 23. 9. 1750, B[1] 1030 : Seyde, 12. 7. 1753 (Articles d'accommodement entre M. de Verrayon, consul de France à Seyde et le Chek Daher el Omar commandant d'Acre).

٢ انظر : عبود الصباغ ، ٩ ب – ١٠ آ •

٣ – انظر : البديري ، ٣٩ ب ؛ المنير ، المشرق ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٠ – ٦٨١ •

الاضطرابات في عهد حسين باشا ابن مكي • ١ - عين حسين باشا ، بمساعي الكزلار آغا ، على الشام في جمادى الثاني ١١٧٠/٢٥ شباط ١٧٥٧ ، عقب عزل أسعد باشا العظم • وكان تغيير الوالي مناسبة استغلتها الفئات الناقمة في الشام للتعبير عن سخطها ضد خصومها • وقام الفقراء والعامة ، أثناء دخول الوالي الجديد الى الشام وأيضاً حين ذهب الاعيان الى السرايا في اليوم التالي للسلام عليه ، بتظاهرة احتجاج على ما عانوه من غلاء الاسعار والفقر في السابق بسبب جشع التجار والاعيان ، وابتهلوا الى الباشا للأخذ بيدهم ، ورجموا الاعيان ، وصاحوا عليهم ان « ارجعوا لابارك الله فيكم أنتم منافقون وتعينون الحكام على ظلم الفقراء والمساكين • وأكثروا من سبهم وشتمهم »[1] • وعمد حسين باشا الى التفتيش ، وانخفض سعر الخبز بمقدار النصف تقريباً • ولكن ذلك دام لفترة قصيرة •

واستغل اليرلية عزل أسعد باشا فبدأوا ينظمون صفوفهم للثأر من القابي قول الذين سلبوهم نفوذهم المطلق ، واستعد القابي قول بدورهم للدفاع • وعمت حالة من الفوضى والذعر في دمشق ، وأقفلت الدكاكين • وتمرد أيضاً الجنود المغاربة ، الذين فقدوا رعاية أسعد باشا لهم ، واصطدموا بالمرتزقة من جنود اللاوند •

وما أن غادر حسين باشا دمشق للقيام بالدورة حتى بدأت أولى الاشتباكات بين اليرلية والقابي قول في ١٨ رمضان ١١٧٠/٦ حزيران ١٧٥٧ • ووقف الفقراء الى جانب اليرلية بسبب الغلاء الذي تفاقم من جديد • واستنفر القابي قول القوات المرتزقة الغريبة عن دمشق مثل الدالاتية واللاوند والموصلية والبغادة (نسبة الى بغداد) ، وحدث بذلك انقسام بين القوات المحلية الدمشقية التي يتزعمها اليرلية ، وبين القوات الغريبة عن دمشق التي يتزعمها القابي قول • ووقعت عدة اصابات في القتال الذي جرى بين الفريقين ، ولم يهتم حسين باشا ، بعد عودته من الدورة ، بالتحقيق حول أسباب ذلك أو بمعاقبة المعتدين[2] •

---

١ - البديري ، ٤٦ ب - ٤٧ آ ؛ انظر أيضاً : المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٢ ، ٦١ •
٢ - البديري ، ٤٧ آ - ٤٨ آ ؛ بريك ، ٤٤ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٢ ، ٦١ ، جـ ٣ ، ٢٠٧ ، مطمح الواجد ، ٣٩ ب •

ومما يؤيد الانقسام في الولاء بين مختلف القوات في دمشق قيام أهل الشام « بصوت واحد »[١] ومطالبتهم حسين باشا ، قبيل خروجه مع قافلة الحاج الى الحجاز ، باخراج الغرباء من المدينة • وزاد في كره الدمشقيين لهذه القوات الغريبة ، ليس فقط استخدامها في قمعهم بل منافستها لهم في المجال الاقتصادي • ولم يلتزم القابي قول حدود القلعة ، بل أقامـوا في الاحياء ، وخاصة حي العمارة[٢] ، ولم تجد محاولة حسين باشا مصالحة اليرلية مع القابي قول ، وسرعان ما استأنف الطرفان اشتباكاتهما في غياب حسين باشا في الحجاز • ووقف الاشراف الى جانب اليرلية ، وقـد قتل القابي قول عدة أفراد منهم • ولم يخفف من حدة القتال ورود أنباء الاعتداء على قافلة الحاج •

وقد سبق القول[٣] ان بدو بني صخر هاجموا ، في هـذه الاثناء ، الجردة وقافلة الحاج وأبادوهما تقريبـاً • وعم الحزن دمشق والعالـم الاسلامي • وتمكن حسين باشا من الهرب ، ولم يعد الى دمشق بعد ذلك • وتفاقم القتال ، وسط هذه الفوضى ، بين اليرلية والقابي قول[٣] •

وعين السلطان مصطفى الثالث أحد القادة العسكريين المشهورين ، ويدعى عبدالله باشا الشتجي (أو الجتهجي ، وتعني المغوار)[٥] ، على ولاية الشام للقضاء على الفوضى فيها ، ودخل دمشق في ٢٧ ربيع الثاني ١١٧١/٨ كانون الثاني

---

١ ـ البديري ، ٤٨ آ •

٢ ـ بريك ، ٤٥ ؛ البديري ، ٤٦ ب ، ٤٨ آ •

٢ ـ انظر ص ٣٤١ •

٤ ـ انظر : البديري ، ٤٨ آ ـ ٥٠ آ ؛ بريك ٤٥ ، ٤٩ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٨٠ •

٥ ـ انظر حول أصله وماضيه : عمر بن محمد الوكيل ، ترويح القلب الشجي في مآثر عبد الله باشا الجتهجي ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، برقم Mixt. 195 انظر الاوراق: ٥ ب ـ ١٣ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الوكيل ؛ انظر أيضاً : جعفر البرزنجي ، النفح الفرجي في الفتح الجتهجي ، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٨٧٢٤ ، انظر الاوراق : ١٠ آ ـ ١٤ ب (انظر وصفه لهجوم البدو على قافلة الحاج في عهد حسين باشا بن مكي ، ٤ ب ـ ٨ آ) : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : البرزنجي ؛ انظر أيضاً : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٨١ ؛ Volney, 317 - 319

١٧٥٨ • وكان دخوله بمثابة تظاهرة قوة بسبب كثرة وتنوع الجنود الذين رافقوه • وسرعان ما بـدأ بالتفتيش عن المشاغبين بين اليرلية ، فرد هؤلاء باستنفار أفرادهم واطلاق النار باتجاه السرايا • ودعا عبد الله باشا الى ديوان حضره الاعيان وكبار العلماء لاعطاء عمله ضـد اليرلية صفة الشرعية ، ثم هاجم ، على رأس عساكره ، حي الميدان حيث تجمع اليرلية • وحدث كثير من القتل والعنف ، ولا أدل على فظاعة ما حصل من قول المؤرخ المعاصر ، البديري ، « وانتكبت أهل الشام نكبة في ذلك العام ما عهدت من أيـام تيمور »[1] • وكان القضاء على نفوذ اليرلية حاسماً ، ولم يستطيعوا بعد ذلك منافسة القابي قول والولاة العثمانيين • وقويت السلطة العثمانيـة ، وعبر المؤرخ المعاصر ، ميخائيل بريك ، عن ذلك بقوله ان عبد الله باشـا « فتح الشام »[2] • وهذا تعبير استعمله مؤرخون آخرون في مناسبات مشابهة[3] للدلالة على القضاء على أصحاب النفوذ المحلي واعادة هيبة الدولة •

وتعرض الدمشقيون بعد ذلك الى شدة عبد الله باشا ومظالم أتباعه وجنوده • وقد فرض على الدمشقيين قبول عملة نقديـة بطل استعمالها ، وأغلقت الدكاكين احتجاجاً على ذلك[4] • وكثر تجسس عبد الله باشا على الشعب • وقويت سلطة القاضي ، تبعاً لذلك ، فدار على الأسواق ، وتأكد من صحة الموازين والاوزان • ورغم أنه قضي بذلك على كثير من الفساد ، الا أن الشعب تضايق من مظالم عبد الله باشا وعوانيته • وكان عبد الله باشا قد قرب اليه العلماء ، لاهتمامه هو بالعلم ، فنصحوه بانصاف الشعب ،وقرعه المفتي علي المرادي على مظالمه وأتباعه[5] •

وأظهر عبد الله باشا من السلطة خارج دمشق بقدر ما أظهر داخلها•

---

١ ــ البديري ، ٥٠ ب •
٢ ــ بريك ، ٥٢ •
٣ ــ انظر ص ١٧٣ ، ٢٥١ •
٤ ــ بريك ، ٥٢ ، ٥٣ ــ ٦٦ •
٥ ــ المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٨ ب ــ ٤٠ آ ؛ انظر أيضا : المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٩٨ ؛ الوكيل ، ٥٩ آ ، ٦٢ ب ، ٦٤ آ ؛ بريك ، ٦١ ، ٦٦ ؛ البديري ، ٥١ آ ــ ٥٢آ•

وقد خرج الى الدورة تصحبه المدافع والعساكر الكثيرة • واستولى على قلعة الكرك ، وكانت في حالة مهدمة ، من يد البدو ، وحصنها ، ووضع فيها اليرلية لمحافظة على سلامة الحاج[1] • وكان عمله هذا جزءاً من حماية طريق الحاج من البدو ، لاسيما وأن الكرك تقع على مسافة قريبة من القطرانة ، في المنطقة حيث هاجم بنو صخر قافلة الحاج • وتدل اقامة اليرلية في الكرك على خضوعهم للأوامر والتزامهم بمهمتهم الرئيسية في حماية القلاع على طريق الحاج ، بعد أن عاد القابي قول الى حماية قلعة دمشق وأبواب وأسوار المدينة •

ولم يصطدم عبد الله باشا بظاهر العمر أو بأمير جبل لبنان ، أثناء الدورة ، ربما بسبب انهماكه بالعودة الى دمشق لتأمين سلامة الحاج ،وأيضاً بسبب انشغال ظاهر العمر وأمير جبل لبنان بالخصومات الداخلية في صفوفهما ، كما سنرى في البحث التالي • وقد أرسل عبد الله باشا حملة هزمت بني صخر[2] •

وحين خرج عبد الله باشا في ١٧ شوال ١١٧١/٢٤ حزيران ١٧٥٨ على رأس قافلة الحاج الى الحجاز ، رفض أن يدفع لبني صخر صرهم المعتاد • وتلقى عبد الله باشا في المدينة المنورة رسول شيخ بني حرب ، المسيطرين على الطريق السلطاني بين المدينة ومكة المكرمة ، يطالبه بدفع الصر • فاستغل عبد الله باشا هذه المناسبة ليثأر من اهمال بني حرب حماية الحجاج وتمردهم على شريف مكة ، وهاجمهم بقواته ، وقتل شيخهم عيد ، ونصب آخر مكانه ، بمشورة شريف مكة • وقد حاز انتصار عبد الله باشا رضاء واسعاً[3] ، وخلده جعفر البرزنجي ،أحد علماء المدينة المشهورين في كتاب خاص عنوانه : النفح الفرجي في الفتح الجتهجي[4] •

---

١ ـ انظر : البديري ، ٥١ آ ـ ٥١ ب ؛ القاري ، نشر منجد ، ٨٢ ؛ الوكيل ، ٤٤ آ ؛ البرزنجي ، ١٥ آ •

٢ ـ انظر : الوكيل ، ٤٣ ب ـ ٤٤ آ ؛ البرزنجي ، ١٥ ب •

٣ ـ انظر : البرزنجي ، ١٦ ب ـ ٤١ آ (نهاية المخطوط) ؛ الوكيل ، ٤٥ ب ـ ٥٠ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٨١ ـ ٨٢ ؛ البديري ، ٥٢ آ ؛ Hammer, XVI, 32 - 33 .

٤ انظر ص ٣٥٢ ، هامش ٥ •

وقد تعرض بنو صخر لقافلة الجردة التي كان يقودها والي طرابلس، بسبب رفضه ، هو الآخر ، دفع الصر لهم ، واصطدم بهم قرب منزل الحسا ، بين القطرانة ومعان . وخف لنجدته عبد الله باشا الشتجي ، في طريق عودته من الحجاز ، وهزما سوية بني صخر[١] .

وسر الدمشقيون من تأمين عبد الله باشا سلامة الحاج ، وامتدحه كثير من العلماء بهذه المناسبة . وأمن عبد الله باشا سلامة الحاج في العام التالي . وعزل ، وهو في الحجاز ، شريف مكة مساعد بن سعيد ، وعين أخاه جعفر ، مكانه . وقد استعاد مساعد منصبه بعد قليل ، ووافق الباب العالي على ذلك . وذكر أن عبد الله باشا عزل من ولاية الشام بسبب شكوى الشريف مساعد ضده في استانبول[٢] .

ولم يثر البرلية في دمشق اثر عزل عبد الله باشا في حوالي جمادى الثاني ١١٧٣/كانون الثاني ـ شباط ١٧٦٠ ، بسبب شدة بطشه بهم سابقاً ، وأيضاً بسبب ما كانت تعانيه دمشق ، وبلاد الشام عامة ، آنذاك من أخطار الزلازل التي تكرر حدوثها فيها . وكانت أقواها زلزلتان حدثت الاولى منهما في ٨ ربيع الاول ١١٧٣/٣٠ تشرين الاول ١٧٥٩ ، والثانية في ليل ٥ ـ ٦ ربيع الثاني ٢٦ ـ ٢٧ تشرين الثاني من السنة نفسها . ورغم أن الدمار كان شاملا ، فقد قاست دمشق أكثر من غيرها . وأعقب ذلك طاعون شديد نتج عن الدمار الذي أحدثته الزلازل ، وشمل المنطقة بين انطاكية وحلب ، في الشمال ، وغزة ، في الجنوب . وكانت الوفيات في دمشق وحدها ، في أوج الطاعون الذي دام مدة أسبوع في فترة عيد الفطر ١١٧٣ ، تقدر بحوالي الف وفاة في اليوم . وطغت أخبار هذه الكوارث وآثارها في عهد الوالي محمد باشا الشالك الذي خلف عبد الله باشا الشتجي . وحين

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] : Alep, 28. 8. 1758 ; PRO, S. P. 97/40 : Constantinople, 17. 10. 1758 ; Hammer, XVI, 33.

٢ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٨١ ؛ البديري ، ٥٢ آ ؛
انظر أيضاً : Hammer, XVI, 47 - 48 .

عزل محمد باشا الشالك من ولاية الشام في ٢٧ ربيع الاول ٦/١١٧٤ تشرين الثاني ١٧٦٠ ، سر الناس ، لأن ولايته اقترنت بالمصائب[١] .

الصراع على النفوذ خارج دمشق . – انتقل ثقل الاحداث في القسم الأكبر من ولاية عثمان باشا الكرجي (الصادق) على الشام (١١٧٤ – ١١٨٥/١٧٦٠–١٧٧١ ، الى خارج دمشق ، حيث حدث صراع على السلطة بين أمراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة . وازداد الموقف تعقيداً بتدخل علي بك المملوكي في شؤون بلاد الشام في ١٧٧٠ – ١٧٧١ .

وكان عثمان باشا الكرجي مملوكاً كرجي الاصل (من بلاد جيورجيا)، وعمل في خدمة أسعد باشا العظم الذي عينه حاكماً ، من قبله ، على حماة . وحين قتل أسعد باشا وصودرت أمواله ، بادر عثمان باشا الى اعلام السلطات العثمانية عن مخابيء أموال سيده ، فلقب بالصادق تبعاً لذلك . وعين في كانون الثاني ١٧٦٠ والياً على طرابلس[٢] ، ثم نقل في ٦ تشرين الثاني ، من السنة نفسها ، الى ولاية الشام ، نظراً لخدماته للدولة ، ولتفانيه في تأمين سلامة الحاج حين عين أميراً للجردة ، أثناء ولايته على طرابلس[٣] . وخلفه ابنه محمد باشا في ولاية طرابلس .

ولقد أثار تعيين عثمان باشا على الشام آل العظم الذين كانوا يطمعون بتعيين مرشحهم الجديد محمد باشا ابن مصطفى باشا العظم ، والياً على الشام حيث توطدت الاسرة ، لاسيما وأن عثمان باشا الكرجي كان مملوكاً

---

١ – انظر حول الزلازل والطاعون وأضرارهما : مقال الشيخ محمد أحمد دهمان ، « زلزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلة المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ، ص ٣٣٣ – ٣٤٧ ؛ انظر أيضاً : البديري ، ٥٢ ب – ٥٤ آ ؛ بريك ، ٦٨ – ٧١ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٨٢ – ٨٣ ؛ وانظر أيضاً التقارير القنصلية التالية : (يلاحظ أن القنصل الفرنسي في صيدا قد لجأ الى البساتين لتحاشي الزلازل) ،

A. E. B[1] 1032 : (Des Jardins de Seyde), 22. 12. 1759, (Des Jardins de Seyde), 27. 3. 1760 ; A. E. B[1] 1120 : Tripoli, 4. 2. 1760, Tripoli, 12. 8. 1760 ; A. E. B[1] 88 : Alep, 14. 1. 1760 ; PRO, S. P. 110/36 : Aleppo, 22. 12. 1759, Aleppo, 26. 4. 1760, Aleppo, 13. 6. 1760.

٢ – انظر : A. E. B[1] 88 : Alep, 28. 1. 1760 ; A. E. B[1] 1120 : Tripoli, 4. 2. 1760

٣ – انظر : البديري ، ٥٤ آ .

لديهم وبنى أمجاده على حسابهم . وليس صحيحاً ما ذكره الجبرتي[١] ، ونقله عنه آخرون ، بأن عثمان باشا هذا هو « ابن العظم » . وهذه النسبة هي من قبيل اشتهار شخص ما بانتسابه الى أسرة مشهورة ، كما حدث مثلا ، في مطلع القرن السابع عشر ، حين عرف الشخص الذي كان ينتسب الى كيوان ، أحد كبار انكشارية الشام آنئذ ، بابن كيوان[٢] . ورغم أن محمد باشا العظم عين على ولاية صيدا في آذار ١٧٦٣ ،الا أنه بقي يسعى للحصول على ولاية الشام الى أن عين عليها في ١١٨٥/١٧٧١ . ومن هنا النزاع بين عثمان باشا ، الذي كان يحاول أن يعين أحد أبنائه على ولاية صيدا ، ومحمد باشا العظم . وقد أثار عثمان باشا الاضطرابات على محمد باشا العظم في ولاية صيدا بقصد الاساءة اليه[٣] .

ويبدو أن عثمان باشا كان شاعراً بأصله الوضيع وبأهمية ولاية الشام التي عين عليها . وقد وصفه المؤرخ المعاصر ، ابن الصديق ، بأنه قليل الاصل ، بالمقارنة مع آل العظم[٤] . وحاول عثمان باشا التقرب من الدمشقيين والتخفيف من المظالم التي كانت مفروضة عليهم . فخفض أسعار المواد الغذائية ، وخاصة الخبز ، وأغدق الهدايا على الحرفيين والصناع في الاحتفالات ، وتعاون مع المفتي علي المرادي في ازالة المظالم التي فرضها الحكام في السابق على التجار والفقراء . وانقص بدل الخدمة العسكرية الذي كان يدفعه الجند الاقطاعيون ، أصحاب الزعامت والتيمار ؛ كما أنه عمر القلاع وبرك الماء على طريق الحاج ، وأمن سلامة الحجاج[٥] . وكسب عثمان باشا بهذه الاعمال المختلفة عطف الفئات المتنفذة في دمشق

---

١ ـ انظر : عجائب الآثار ، ج ١ ، ٣٠٩ .

٢ ـ انظر ص ١٨٨ .

٣ ـ انظر حول ملابسات المنافسة ، كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 234 - 239

٤ ـ انظر : حسن الشهير بابن الصديق ، غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 202 (II) we .8163 ،الورقة ٨٣ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ابن الصديق .

٥ ـ انظر : القاري ، نشر منجد ، ٨٣ ؛ البديري ، ٥٤ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٦١ ، مطمح الواجد ، ٤٢ آ .

التي بامكانها دعم الباشا أو الثورة عليه • ولم يقم اليرلية بأية اضطرابات تستحق الذكر في عهده بسبب ما عانوه في السنوات القليلة الماضية من قمع وبطش بهم • ومكن هدوء الحالة في دمشق عثمان باشا من توجيه اهتمامه الى ظاهر العمر الذي تعاظم أمره منذ سنوات ، لاسيما بسبب موقف المسالمة الذي وقفه منه أسعد باشا العظم ، وبسبب الاضطرابات داخل دمشق وعلى طريق الحاج التي تلت عزل أسعد باشا • وساعدت النكبات الطبيعية ، التي حلت بعد ذلك ، في الابقاء على الوضع الراهن • ويبدو أن الاضرار المادية التي نتجت عن هذه النكبات قد جعلت ظاهر العمر يشدد قبضته على التجار الفرنسيين في عكا ويمد نفوذه على مناطق أخرى خاضعة لوالي الشام ، وذلك للتعويض عما أصابه من خسارة • ويدل ذلك في الوقت نفسه على قوة نفوذه •

وقد جرد عثمان باشا ، بعد حوالي شهرين من تعيينه على الشام ، حملة ضد ظاهر العمر ، بمناسبة الدورة ، واستولى على قلعة طرطورة (في الجنوب الشرقي من حيفا) ، العائدة لولاة الشام ، ولكنها كانت خاضعة لظاهر العمر • ورغم أن ظاهر احتل القلعة من جديد ، بعد قليل[1] ، فان الحادثة بكاملها تدل على محاولة عثمان باشا اخضاع ظاهر ، وعلى استعداد هذا الأخير للقيام برد فعل مناسب •

وقام عثمان باشا ، بعد ذلك ، بعمل أكثر جرأة ضد ظاهر العمر ، اذ حاول السيطرة على حيفا التي تخضع له نظرياً ، ولكن التزامها كان بيد ظاهر • وكانت حيفا قد استفادت من ازدهار عكا الاقتصادي ومن صلاحيتها لرسو السفن • وبعد محاولة فاشلة قام بها عثمان باشا لاحتلال حيفا ، من طرف البحر ، في أيار ١٧٦١ ، تمكن من احتلالها في أواخر ١٧٦١ • ولكن ظاهر العمر عاد الى احتلالها بعد قليل[2] • وهكذا فشلت محاولات

---

١ ـ انظر : البديري ، ٥٤ ب •

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1032, Seyde, 24. 5. 1761, Seyde, 25. 5. 1761, Seyde, 30. 5. 1761, Seyde 6. 6. 1761 ; Charles - Roux, 6.

انظر أيضاً : عبود الصباغ ، ١٠ ب ـ ١١ آ •

عثمان باشا المحد من سلطة ظاهر العمر • ومن أسباب فشله عدم الانسجام ، وبالتالي فقدان العمل المشترك بينه وبين والي صيدا • ولهذا حاول عثمان باشا الحصول على ولاية صيدا لابنه درويش باشا لتشديد قبضته على ظاهر ، وكان ابن آخر لعثمان باشا ، هو محمد باشا ، والياً آنئذ على طرابلس • ولم يتم له ذلك حتى عام ١٧٧٠ ، وازدادت عندئذ العلاقات تأزماً بين الفريقين •

وكانت علاقة عثمان باشا مع أمير جبل لبنان الشهابي سلمية ، في البدء ، بسبب انشغال الامير الشهابي بالنزاع الداخلي بين أسر جبل لبنان، وبسبب نزاع عثمان باشا مع ظاهر العمر • ولم يمنع ذلك عثمان باشا من مهاجمة الامير اسماعيل الشهابي ، قريب الشهابيين أمراء جبل لبنان وحاكم حاصبيا التي تتبع ولاة الشام • وهدم عثمان باشا الحصن الذي بناه الامير اسماعيل في بانياس ، وذلك لتأمين سلامة خطوط مواصلاته[١] •

وشهدت الفترة بين ١٧٦٢ و ١٧٧٠ انقسامات داخلية وصراع على النفوذ بين أسر جبل لبنان وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وكان عثمان باشا في هذه الاثناء منشغلا ، هو الآخر ، باضطرابات في المناطق الريفية من ولايته •

ذكرنا فيما سبق[٢] استقالة الامير ملحم من امارة جبل لبنان لصالح أخويه الامير منصور والامير أحمد • وما لبث الامير ملحم أن شجع ابن أخيه الامير قاسم بن عمر على منافسة الاميرين الحاكمين • وحين توفي الامير ملحم في ١٧٦١ ، فقد الامير قاسم دعمه ، وفشل بالتالي في الحصول على امارة جبل لبنان ، وتصالح أخيراً مع عميه[٣] • وأدى زوال خطر الامير

---

١ ـ تعرف منطقتا حاصبيا وراشيا باسم وادي التيم • انظر حول الحادثة : بريك ، ٧٢ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٥٣ ـ ٥٤ • يكرر حيدر شهاب خطأ ذكر الحادثة في ص ٦٦ ـ ٦٧ ، بين أحداث سنة ١١٧٨/١٧٦٤ ـ ١٧٦٥ ، ويخلط الوقائع ؛ انظر أيضا : نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٠ آ ـ ٤٠ ب ؛
A. E. B[l] 1033 : Seyde, 23. 4. 1767

٢ ـ انظر ص ٣٤٨ •

٣ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٤٣ ـ ٤٤ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، شدياق ، ج ٢ ، ٣١ ـ ٣٣ ؛ التراك ، حوادث الزمان ، ٢١ ب ـ ٢٤ آ •

ملحم والامير قاسم الى ظهور النزاع بين الاميرين الحاكمين • ولم يكن ذلك مجرد نزاع شخصي صرف ، بل كانت جذوره عميقة تتصل بالنزاع بين حزبي الجنبلاطية واليزبكية اللذين أيد كل منهما أميراً دون آخر • وان وجود الحكم الثنائي في الامارة يعكس ، في الحقيقة ، هذا الانقسام الحزبي • وعلى هذا فان أي صراع بين الحزبين ستنعكس آثاره على علاقة الاميرين الحاكمين مع بعضهما •

وحدث في ١١٧٧/١٧٦٣ نزاع بين الشيخ عبد السلام العماد ، زعيم اليزبكية ، والشيخ علي جانبلاط ، زعيم الجنبلاطية ، وامتد ذلك الى الاميرين فحاول كل منهما الانفراد بالامارة • ولم يكن سعي الاميرين الى ذلك أمراً طارئاً ، اذ ان الامير منصور حاول سابقاً في استانبول الحصول على الامارة لنفسه ، وذلك بدعم والي صيدا نعمان باشا • وبالفعل وردت أوامر من استانبول الى والي صيدا محمد باشا العظم ، الذي خلف نعمان باشا في **١٧٦٣** ، بتأييد الامير منصور ضد الامير أحمد • ولما رأى الشيخ عبدالسلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، وهما من كبار مؤيدي الامير أحمد ، ازدياد سلطة الامير منصور ، انضما اليه وتخليا عن تأييد الامير أحمد[١] الذي اضطر ، تبعاً لذلك ، الى التخلي عن حصته في الامارة • وأصبح الامير منصور في **١٧٦٣** الحاكم الوحيد في جبل لبنان ، بعد حكم ثنائي دام حوالي تسع سنوات[٢] •

ولم يؤد انفراد الامير منصور بالامارة الى ازالة الانقسام الحزبي بين الاسر في جبل لبنان ، لأن جذور هذا الانقسام عميقة ، وهي استمرار للانقسام القيسي ـ اليمني ، بأشكال وأسماء أخرى ، ولم يكن وجود الاميرين سوى انعكاس لهذا الانقسام • وأدت شدة الامير منصور واستعلاؤه على رؤساء الاسر المحليين ، بدعم من والي صيدا محمد باشا العظم ، الى قيام

---

١ ـ الامير أحمد هو والد المؤرخ اللبناني المشهور حيدر أحمد شهاب •

٢ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٥٩ ـ ٦٠ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٧ ـ ٦٨٨ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٣٣ ـ ٣٥ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1033 : Seyde, 1. 10. 1763

معارضة ضده دعمت مرشحاً جديداً للامارة هو الامير يوسف ابن الامير ملحم المتوفى وابن أخ الامير منصور الحاكم •

وذكر عن الامير يوسف أنه كان يؤيد عمه المعزول ، الامير أحمد ، ولهذا السبب عادى الامير منصوراً • وقد رد هذا الاخير بأن استولى على أموال وممتلكات الامير يوسف ، ورفض طلب الشيخ علي جانبلاط اليه بالغاء الاستيلاء • فسحب الشيخ علي جانبلاط تأييده للامير منصور ودعم الامير يوسف ، وانضم اليه في ذلك الشيخ كليب نكد من الحزب الجنبلاطي ، وعمل الاثنان على كسب تأييد الشيخ اسماعيل أبو حمزة ، شيخ عقال الدروز ، للامير يوسف • وقد لعب سعد الخوري ، مستشار الامير يوسف ، دوراً كبيراً في الحصول على هذا الدعم للامير يوسف • ومهما يكن ، فان سببين رئيسين جعلا الشيخ علي جانبلاط ومؤيديه يلجأون الى هذا التبديل في الولاء : أولا ، تحول زعماء اليزبكية ، الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، عن دعم الامير أحمد الى دعم الامير منصور ، مما جعل من الصعب على زعماء الجنبلاطية الانضمام اليهم ؛ ثانياً ، تعالي الامير منصور وعدم احترامه أحداً من أكابر البلاد لانه تقوى بتأييد محمد باشا العظم ، والي صيدا •[1] وهكذا عاد الحزبان ، الجنبلاطي واليزبكي ، الى التنافس من جديد •

وتمكن الامير يوسف في ١٧٦٣ من الحصول على حكم منطقة جبيل من والي طرابلس محمد باشا ، وذلك بوساطة والد محمد باشا ، عثمان باشا الكرجي والي الشام • واصطدم الامير يوسف بآل حمادة المتاولة ، وهم زعماء منطقة جبيل ، وتغلب عليهم بمساعدة مؤيديه من الحزب الجنبلاطي • واشتبك الامير يوسف ، في منطقة بعلبك ، مع طائفة أخرى من المتاولة من بني حرفوش ، وذلك بناء على أوامر تلقاها من استانبول • فسار الى بعلبك في ١٧٦٧ وعزل حاكمها الامير حيدر حرفوش ، الذي

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٠ ـ ٦٢ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٣٥ ـ ٣٧ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٨ ـ ٦٨٩ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٢٦ ب ـ ٢ آ •

حكمها منذ خمس عشرة سنة تقريباً اثر قتله أخيه الأمير حسين • ولجأ الامير حيدر حرفوش الى متاولة جبل عامل ، ونصب الامير يوسف أحد أخوة الامير حيدر مكانه[1] •

وتكشف أعمال الامير يوسف هذه في الاعتماد على عثمان باشا الكرجي، والي الشام ، وفي مقارعة المتاولة ، عن اتجاه سياسته في المستقبل • كما أن هذه المعارك التي خاضها الامير يوسف كانت مفيدة له من عدة نواحي • فقد ازدادت سمعته العسكرية ، ورضيت عنه السلطات العثمانية لتنفيذه أوامرها وتوطيده الأمن • كما أن نفوذ الامير يوسف قد تعاظم بين الدروز وغيرهم ، اثر ذلك ، وازداد شأنه في معارضة الامير منصور •

وانعكست التطورات السياسية السابقة على توازن القوى في المنطقة • وبينما اعتمد الامير يوسف ، في سعيه لتوطيد سلطته على عثمان باشا الكرجي، استمد الامير منصور العون من محمد باشا العظم والي صيدا • وقد استمرت هذه المحالفات في المستقبل ، وساعد عليها طول ولاية عثمان باشا في الشام وتكرار تعيين محمد باشا العظم ، في الفترة بين ١٧٦٣ - ١٧٧٠ ، على ولاية صيدا • وزار الامير منصور صيدا أكثر من مرة ، وقدم مساعدة عسكرية لواليها محمد باشا العظم ضد الشيخ عباس المتوالي • وباستثناء بعض سوء التفاهم بينهما حول مال الميري ، الذي زال بعد قليل ، فان العلاقات الودية استمرت بينهما[2] • وفي الحقيقة كان موقف الامير منصور تجاه مناوئيه ، بين الدروز وغيرهم ، يقرره ، الى حد كبير ، دعم محمد باشا العظم له[3] • ووقف الامير يوسف ، من ناحيته ، الى جانب عثمان باشا الكرجي ، ودعمه بجيشه في محاولته فتح قلعة سانور التي تحصن فيها محمد جرار • وقد

---

١ - انظر : A. E. B¹ 1033 : Seyde, 28. 9. 1767 (Bulletin) ؛ يذكر البديري ، ٣٧ آ ، قتل الامير حسين حرفوش في سنة ١١٦٤/١٧٥١ ، ويتهم ضمنياً الامير حيدر وبقية اخوته بذلك ؛ انظر حول المتاولة في لبنان الشمالي ، ص ١٦٢ •

٢ - انظر : A. E. B¹ 1033 : Seyde, 15. 5. 1766, Seyde, 31. 6. 1766, Seyde, 27. 10. 1767, Seyde, 22. 11. 1767.

٣ - انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٤ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٩ •

قام الامير يوسف بذلك على مضض ، واتهم بعدم الاشتراك جدياً في القتال بسبب كون محمد جرار قيسياً مثله[1] . ومع ذلك ، فقد عرف عن عثمان باشا انه حامي الامير يوسف[2] .

ونظراً للتحالفات السابقة ، فقد زاد استفحال النزاع بين عثمان باشا الكرجي ومحمد باشا العظم من شقة الخلاف بين حليفيهما الامير يوسف والامير منصور . وان أي تبدل في سلطة الواليين من شأنه أن يترك آثاره على سلطة الاميرين . وحين عين درويش باشا ابن عثمان باشا الكرجي والياً على صيدا في ١٧٧٠ ، كان ذلك ضربة قوية لنفوذ الامير منصور ، كما سنرى بعد قليل .

واستفاد متاولة جبل عامل من انشغال أعدائهم ، أمراء جبل لبنان ، بخلافاتهم وانقساماتهم الداخلية ، اذ انحسر خطرهم عنهم . ولكن تراخي قبضة أمراء جبل لبنان بالنسبة للمتاولة ساعد بالمقابل على تفشي الانقسام في صفوف المتاولة . وشجع على ذلك أيضاً ازدهار منطقة المتاولة اقتصادياً في هذه الفترة ، وخاصة بعد أن حصلوا على التزام مرفأ صور في ١٧٥٩ . وكانت أغلب المراكب الاوربية المتوجهة الى صيدا تفرغ بضائعها في ميناء صور الصالح لرسو السفن ، ثم تنقل البضائع في زوارق صغيرة الى صيدا . وقد ساعد على ازدهار صور زراعة التبغ في جوارها ، ثم تصدير قسم كبير منه ، عن طريقها ، الى سوقه الرئيسية في دمياط[3] .

وعلى عكس السلطة الضعيفة لامراء جبل لبنان ، فان ازدياد سلطة ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، في المنطقة جنوبي جبل عامل ، شجعته على التدخل في شؤون المتاولة الذين ، بعد أن كانوا أعداءه ، أصبحوا بالتدريج حلفاءه . وعلى غرار انقسام الامراء الشهابيين ، فان فريقاً من المتاولة أيد ظاهراً ، بينما أيد الفريق المعارض عثمان باشا الكرجي .

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٣ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٣٧ .

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 27. 10. 1767

٣ ـ انظر : Mariti, II, 207-208, 211 ; A. E. B[1] 1032 : Seyde, 9. 3. 1759, B[1] 1033, Seyde, 1. 10. 1763.

وكان الشيخ ناصيف النصار ، الذي ينحدر من علي الصغير ، زعيم المتاولة الاكبر في جبل عامل ، وبقي على ذلك حتى وفاة ظاهر العمر في ١٧٧٥ • وقد نافسه على السلطة عمه الشيخ قبلان الذي حصل على التزام صور من والي صيدا • وفي أواخر سنة ١٧٥٩ ساءت العلاقات بين الشيخين، ووقف أغلب مشايخ المتاولة ضد الشيخ قبلان • وحين حدث الخلاف بين ظاهر العمر وابنه علي ، في أوائل الستينيات ، أيد الشيخ قبلان ظاهر العمر، بينما أيد الشيخ ناصيف علياً[١] • ولم يتمكن ظاهر العمر من تأييد الشيخ قبلان ضد الشيخ ناصيف بسبب انشغاله ، في هذه الفترة ، بخلافاته مع أولاده • وبالتدريج أصبحت السلطة العليا بين المتاولة للشيخ ناصيف ،وبقي الشيخ قبلان شوكة في جنبه[٢] •

وتفاقم تمرد أبناء ظاهر العمر عليه أثناء ولاية عثمان باشا الكرجي على الشام • وكنا رأينا بداية هذا التمرد في سنتي ١٧٥٢ و ١٧٥٣[٣] وقد عمد عثمان باشا ،بعد أن فشل في اخضاع ظاهر العمر بالقوة[٤] ، الى تشجيع الخلاف بين ظاهر وأبنائه • ونتساءل الآن عن الاسباب العميقة لهذا الخلاف في أسرة ظاهر الذي استفحل الآن •

كان ظاهر العمر قبل ولاية أسعد باشا العظم على الشام يحاول توطيد سلطته ضد القوى المحلية والولاة العثمانيين ،وخاصة ضد سليمان باشا العظم[٥]• ولم تكن منطقته قد توسعت كثيراً ولا ثروته ازدادت الى درجة تثير جشع أبنائه • وكان هؤلاء آنئذ صغاراً نسبياً وموالين لابيهم الذي يحاول مجابهة المخاطر • وتمتع ظاهر العمر في عهد أسعد باشا العظم بفترة سلام نسبي نظراً لانشغال الولاة العثمانيين عنه ولتقيده بدفع مال الميري • وأدى انعدام

---

١ _ انظر : A. F. B¹ 1032 : Seyde, 25. 3. 1762

٢ _ انظر : A. E. B¹ 1033 : Seyde, (Extrait des Registres. . . 17 Novembre 1766, joint à la lettre du Seyde le 23 Avril 1767).

٣ _ انظر ص ٣٥٠ •
٤ _ انظر ص ٣٥٨ _ ٢٥٩ •
٥ _ انظر ص ٣٤٣ _ ٣٤٥ •

الضغط الخارجي الى تراخي تكتل الزيادنة والى انصراف ظاهر لتوسيع مناطق نفوذه • وقد رأينا كيف حصل ظاهر في عهد أسعد باشا على التزام عكا ومناطق أخرى [١] • وكلما ازداد توسع ظاهر وغناه كلما ازداد طمع أفراد أسرته به • وقد تخلص ظاهر أولا من ابن عمه محمد العلي ، وبعد ذلك من أخيه سعد[٢] ، بعد أن أديا مهمتهما في المراحل الاولى من توطيد سلطته ، وأصبحا بعد ذلك خطراً كامناً يهدده • وكان التخلص منهما سابقة خافها ، وقلدها أبناء ظاهر فيما بعد ، ولاسيما ابنه عثمان الذي اشترك في اغتيال عمه سعد ، وكان أول من ثار على أبيه[٣] •

وطمع أبناء ظاهر بالاستيلاء على السلطة بعد أن بهرهم الازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة • وساعد على ذلك وجود طوائف محلية ناقمة مثل بدو بني صخر وبني صقر الذين دعموا شخصاً ضد آخر ، وأيضاً وجود أعداء مجاورين ، مثل الولاة العثمانيين ، الذين استغلوا الخلاف • وبالاضافة الى ذلك فان سياسة ظاهر في تزويج أبنائه من أسر الزعماء المحليين بقصد كسب تأييدهم[٤] ، على ما في ذلك من سياسة حكيمة شريطة توفر شروط أخرى ، كان لها نتائج معاكسة اذ التفت هذه الاسر حول الابناء الطموحين، وبذلك تمزق الولاء لظاهر •

ولم يكن سبب الثورات هذه كثرة عدد أبناء ظاهر اليافعين • فلم يتجاوز عدد هؤلاء الخمسة أو ربما الستة في أوائل السبعينيات[٥] • ورغم ذلك فلم يثوروا كلهم دفعة واحدة • ونادراً ما ثار اثنان في وقت واحد • والجدير بالذكر أن أبناء ظاهر لم يثوروا على أبيهم لكي يعينهم حكاماً من قبله ، فقد كانوا حكاماً وثاروا طمعاً بتوسيع مناطق نفوذهم • وطبيعي أن

---

١ ـ انظر ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ •

٢ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٨ ب ، ١١ آ ؛ ميخائيل الصباغ ، ٧١ ـ ٧٢ •

٣ ـ انظر ص ٣٥٠ •

٤ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٥٣ •

٥ ـ كان لظاهر أبناء آخرون صغار السن ، انظر :
A. E. B[1] 1036 : Seyde, 30. 11. 1773 (Pièce, Numéro I)

أساس قوة الزيادنة كأسرة ، وليس كطائفة أو مذهب ، كما في جبل لبنان، قد شجع الخلاف • وتوقف كل شيءعلى مهارة رب الاسرة ، أي ظاهر • وقد أدى طول عهده وطبيعة حكمه الشبيه بالقبلي الى ظهور هذه المنازعات• وربما لانحيد عن الحقيقة كثيراً اذا قلنا ان ظاهر العمر قد انتصر وتوسع بأكثر مما كانت طبيعة سلطته مهيأة له •

وقد بدأ ظاهر بعد أخذه التزام عكا في **١٧٤٦** ونقل مركزه اليها من طبرية ، بتعيين أبنائه حكاماً من قبله • فأعطى طبرية الى ابنه الاكبر صليبي، وأعطى صفد الى علي ، وشفا عمر الى عثمان ، وصفورية الى سعيد ، وجبل عجلون ، التابع لوالي دمشق ، الى أحمد بعد أن أقام فترة مع أخيه صليبي• ويبدو أن هذا التوزيع قد استمر ، باستثناء مايتعلق بسعيد ، حتى حوالي **١٧٧٣**[١] •

ولم تحدث ثورات من قبل أبناء ظاهر في الفترة بين ثوراتهم الاولى في **١٧٥٢** و **١٧٥٣**[٢] وبين سنة **١٧٦١** حين بدأت ثوراتهم بالاستعار ، لانهم كانوا آنئذ حديثي العهد في الحكم ، وأيضاً بسبب القوة التي أظهرها عبد الله الشتجي وتهديده للزيادنة[٣] • كما أن والي صيدا ، سعد الدين باشا العظم ، الذي عاصر الشتجي ، أعلن عداءه السافر لظاهر ، فبدأ هذا يقوي دفاعه والتف أبناؤه من حوله ازاء هذا الخطر المشترك[٤] • ثم أتت كوارث الزلازل والطاعون التي أصابت بشدة مناطق ظاهر[٥] ، فعم الشعور بالمصيبة • وعندما فشل عثمان باشا الكرجي عسكرياً ضد ظاهر، ساد الهدوء بينهما ، وتراخى تكتل الزيادنة • وعمد عثمان باشا الى تشجيع الخلاف بينهم •

---

١ ـ انظر : المصدر السابق ؛ عبود الصباغ ، ١٠ آ (عبود الصاغ هو عادة أكثر ثقة من ميخائيل الصباغ) ؛ ميخائيل الصباغ ، ٥١ •

٢ ـ انظر ص ٣٥٠ •

٣ ـ انظر ص ٣٥٤ •

٤ ـ انظر : A. E. B[1] 1032 :Seyde, 8. 4. 1758

٥ ـ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 8. 4. 1758 (Extrait des Registres)

واستؤنفت ثورات أبناء ظاهر في سنة ١٧٦١ ، وحدثت عدة اصابات بين قوات ظاهر وقوات أبنائه الثائرين[١] . وفي سنة ١٧٦٢ ثار علي على أبيه ظاهر ، ودعمه اخوته من أمه . وتجب الاشارة هنا الى أن انحدار أبناء ظاهر من أمهات مختلفات شجع التحاسد بينهم ، كما أن تفضيل ظاهر لزوجة ، وبالتالي لاولادها ، دون غيرها ، زاد في تعقيد الصراع . وقد أيد علياً كل من عثمان باشا الكرجي والشيخ ناصيف ، ووقف الى جانب ظاهر الشيخ قبلان[٢] . وقد انتهت هذه الثورة ، كسابقتها ، بالمصالحة . ثم ثار عثمان على أبيه في ١٧٦٥ بسبب حقده على الامتيازات التي نالها أخوه علي ، وزاد في ذلك كونهما من أمين مختلفتين . وتمكن ظاهر من القبض على ابنه عثمان ، وسجنه ستة أشهر ، ثم وضعه تحت الاقامة الجبرية . ولكن عثمان هرب الى المتاولة ، ودعمه الشيخ ناصيف ، وشن عدة هجمات لمدة سنة تقريباً ، على مناطق ظاهر . وتعطلت المواصلات بين عكا وصيدا وتضرر الريف من جراء ذلك . وتدخل الامير منصور الشهابي والامير اسماعيل من حاصبيا وكبار مشايخ جبل لبنان مثل علي جانبلاط وعبد السلام العماد وكليب نكد ، وأصلحوا بين الاطراف المتنازعة[٣] . ومما يلفت النظر تجمع الفئات المتنوعة السابقة وقيامها بعمل مشترك . ويفسر غياب الامير يوسف من بينها بعدائه للأمير منصور وبميله الى عثمان باشا الكرجي ، عدو ظاهر العمر .

وتمرد في سنة ١٧٦٧ علي وسعيد على أبيهما ظاهر مطالبين باضافة مناطق أخرى لحكمهما . وذكر أن عثمان باشا الكرجي حرضهما على الثورة . وقد أيدهما الشيخ ناصيف المتوالي . ولجأ ظاهر ، لاول مرة ، الى والي صيدا محمد باشا العظم ، عدو عثمان باشا الكرجي ، طالباً مساعدته

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 22. 9. 1761

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 25. 3. 1762

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 15. 5. 1766 (Bulletin, le 10 Mai, 1766), Seyde, 29. 9. 1767 (Bulletin, le 20 Septembre, 1767).

انظر أيضاً : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٨ .

ضد أبنائه ومؤيديهم من المتاولة • وأرسل محمد باشا الى ظاهر بضعة جنود لعدم تمكنه من الاستغناء عن أكثر من ذلك بسبب اشتباكه في نزاع مع الامير منصور حول مال الميري • ويفسر طلب ظاهر المعونة من والي صيدا اما بحاجته الفعلية الى ذلك بسبب ارهاقه ، أو بمحاولة اسباغ الشرعية على عمله والحصول على دعم رسمي • وبعد شهر من بدء الثورة تصالح ظاهر مع أبنائه[١] •

وحدث في أواخر سنة ١٧٦٧ انفراج في العلاقات بين أغلب الفئات المتنازعة واستمر ذلك حتى سنة ١٧٧٠ • وقد توصل محمد باشا العظم والي صيدا الى اتفاق مع الامير منصور حول مال الميري ، كما أن عثمان ، ابن ظاهر ، أصلح بين أبيه والشيخ ناصيف ، وتطورت هذه المصالحة الى تحالف بينهما بعد قليل • واشترك عثمان والشيخ ناصيف في التوفيق بين الامير يوسف والامير حيدر حرفوش حاكم بعلبك[٢] •

وعلى خلاف الانفراج السابق ،ازدادت العلاقات تأزماً بين ظاهر العمر وعثمان باشا الكرجي بسبب محاولة عثمان باشا اللجوء الى القوة لاسترجاع مقاطعات ولايته التي استولى عليها ظاهر[٣] • وقد حال دون هجوم عثمان باشا على ظاهر سببان رئيسيان : أولا ، عدم دعم الادارة المركزية العثمانية لعثمان باشا ، وكانت استانبول تعلم أن قوة ظاهر قد ازدادت الى درجة كبيرة ، وان أي هجوم عليه ستكون له مضاعفات خطيرة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة في حربها التي بدأتها مع روسيا في سنة ١٧٦٨[٤] ؛ ثانياً ،ان محاولة عثمان باشا تعيين ابنه درويش على ولاية صيدا[٥] لتمكينه من احكام الطوق على ظاهر ، في وقت كان فيه ابنه الآخر محمد

---

١ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٨٧ ـ ٨٩ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B¹ 1033 : Seyde, 28. 9. 1767, Seyde, 2. 10. 1767, Seyde, 26. 10. 1767 (Bulletin).

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 22. 12. 1767 ؛ انظر أيضاً ص ٣٦١ •

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 12. 10. 1767

٤ ـ انظر : عبود الصباغ ، ١١ آ ـ ١٤ آ •

٥ ـ انظر ص ٣٥٧ ، ٣٥٩ •

باشا يحكم طرابلس ، لم تنجح حتى ايلول ١٧٧٠ • وعندما تم هذا انفجر الموقف بمساعدة عوامل خارجية وذلك بتدخل علي بك المملوكي في شؤون بلاد الشام •

وكان عثمان باشا أثناء ولايته على الشام قد شدد قبضته على المناطق الريفية ، على عكس سياسته في الشام[١] • فتمرد عليه سكان الرملة ويافا في سنة ١٧٦٧ • وحدثت ثورات أخرى ضده ، في السنوات التالية ، في مناطق متفرقة من فلسطين • وقد أشار علي بك في البيان الذي وزعه في بلاد الشام ، حين هجومه عليها ، الى مظالم عثمان باشا هذه ، واستغلها ضده • وبطش عثمان باشا بالثائرين ، ولجأ بعضهم الى ظاهر العمر الذي كان يدعمهم[٢]• وكانت سياسة عثمان باشا هذه حاسمة في تحول سكان الريف ضده أثناء هجوم قوات علي بك •

وما أن عين درويش باشا على ولاية صيدا في ايلول ١٧٧٠ حتى اشتد تهديد عثمان باشا لظاهر العمر[٣] • وبدأ ظاهر يعزز تحصيناته في عكا ، واستنفر قواته • وانتشرت في هذه الاثناء شائعات في صيدا حول غزو مرتقب من قبل علي بك لغزة • وتأكد في صيدا في ٤ كانون الثاني ١٧٧٠ نبأ احتلال قوات علي بك غزة والرملة[٤] •

٤ — **حملة علي بك على بلاد الشام واحتلال دمشق •** — بلغت الاضطرابات ذروتها في بلاد الشام باحتلال دمشق في حزيران ١٧٧١ من قبل قوات علي بك وظاهر العمر وناصيف النصار • وكان هذا الحادث نتيجة تطورات حدثت في مصر ، بقدر ما كان انعكاساً لانحطاط الادارة المركزية العثمانية

---

١ — انظر ص ٣٥٧ — ٣٥٨ •

٢ — انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 30. 6. 1767 (Jaffe, 6. 6. 1767), Seyde, 26. 10. 1767 (Jaffe, 18. 10 1767, Jaffe, 19. 10 1767) ; A. F. B[1] 1034 : Seyde, 15. 11. 1770 (Ramle, 9. 11. 1770) ; A. E. B[1] 1121 : Tripoli, 29. 10. 1770.

انظر أيضاً : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٣٤ ؛ بريك ، ٩٠ •

٣ — انظر : عبود الصباغ ، ١٤ ب •

٤ — انظر : A. E. B[1] 1034 : Seyde, 15. 11. 1770, Seyde, 28. 11. 1770, Seyde, 4. 12. 1770.

واضعف سلطة عثمان باشا والي الشام • وسندرس في الفصل التالي الاسباب والاوضاع المحلية التي أدت الى تسلط علي بك في مصر والى حملته على بلاد الشام • وقد نتج عن احتلال دمشق اضطراب عميق في ميزان القوى في بلاد الشام ، وفقد ولاة الشام في أعقاب ذلك سيطرتهم المحلية •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر واختبر مقدرة قواته في القضاء على منافسيه في الداخل وفي الحملة الناجحة الى الحجاز في ١٧٧٠ ، وجه أنظاره نحو بلاد الشام • واستغل انشغال الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا ، دامت من ١٧٦٨ الى ١٧٧٤ ، للقيام بحملته[١] • وذكر أن علي بك عقد اتفاقاً مع الكونت أورلوف ، قائد الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط ، في الربع الأخير من سنة ١٧٧٠ للحصول على مساعدته العسكرية ، وذلك بعد أن هزم الاسطول الروسي الاسطول التركي في البحر الابيض المتوسط في موقعة تشسما Tchesma في ٥ تموز ١٧٧٠[٢]• وكان علي بك على خلاف شخصي مع عثمان باشا الكرجي والي الشام بسبب نزاع بينهما في الحجاز سنة ١٧٦٤ حين كان الاول أميراً على الحاج المصري والثاني أميراً على الحاج الشامي • وحرض عثمان باشا ، بعد ذلك، أعداء علي بك في مصر ضده • وهرب علي بك الى غزة في رمضان ١١٧٩/آذار ١٧٦٦ ، ولكن عثمان باشا أمر متسلمه في غزة بطرد علي بك، فعاد الى مصر[٣] • وفي شوال ١١٨٢/شباط ١٧٦٩ اشتكى علي بك الى السلطان ضد عثمان باشا متهماً اياه بايواء المصريين الفارين ،وطالب بعزله[٤]•

---

١ ـ انظر : James Bruce, Travels to discover the sources of the Nile in the years, 1768 - 1773, 8 vols., 3rd. ed., Edinburgh, 1813, see vol. I, pp. 110 - 111 :
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Bruce

٢ ـ انظر : Hammer, XVI, 351-352 ; PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 4. 2. 1771
يراجع بشأن نشاط الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط في هذه الفترة :
R. C. Anderson, Naval Wars in the Levant, 1559 - 1853, Liverpool, 1952, pp. 286 - 289 ;
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Anderson

٣ ـ انظر : ابن الصديق ، ٢ ب •

٤ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٢٥٨ •

وكان علي بك عالماً بنقمة سكان الريف في ولايـة الشام على عثمان باشـا ، وذلك نتيجة لجوئه الى غزة ، وأيضاً بواسطة شكاوى سكان غزة اليه من ظلم عثمان باشا[1] • ولهذا ادعى علي بك في بيانه الى سكان بلاد الشام ، الذي وزعه أثناء الحملة ، انه قادم لانقاذهم من عثمان باشا • ويبدو أن علي بك قد تعرف ، أثناء لجوئه الى غزة ، على مدى قوة ظاهر العمر • ولكن لايعقل أن اتفاقاً أو تحالفاً قد عقد بينهما في هذه الاثناء لأن علي بك كان مجرد لاجيء ، ولم يكن متأكداً من سيطرته في المستقبل في مصر • وعلى هذا فلم يكن في وضع يسمح له بالتأثير على ظاهر • كما أن ظاهراً لم يكن آنذاك مضطراً ، من الناحية العسكرية ، للتحالف مع بك لاجيء وعدو لعثمان باشا لأن ذلك سيغضب والي الشام • وقد اعتاد ظاهر وسكان غزة على رؤيـة البكوات الهاربين اليهم من مصر ، لان غزة والصعيد هما المكانان المفضلان للجوء الزعماء المنهزمين من القاهرة • ومضت أربع سنوات تقريبا قبل أن تحدث اتصالات جدية بين ظاهر العمر وعلي بك ، وذلك قبيل بدء الحملة على بلاد الشام • وفي أوائل ١٧٧٠ زود علي بك ظاهر العمر بمبلغ من المال لتجنيد الجنود له[2] • وكان هذا بداية التحالف بينهما •

ليس بغريب أن ينصب الفاتح نفسه مدافعاً عن حقوق السكان المحليين ليكسب تأييدهم • ولكن هل يعقل أن يكون علي بك قد أرسل آلاف الجنود الى الشام وتكبد كل هذه الجهود ليطرد عثمان باشا ، كما ادعى في بيانه ؟ ان ذلك مجرد دعاية ليكسب الى جانبه عطف سـكان بلاد الشام المتألمين حقاً من عثمان باشا ، ولاضفاء بعض الشرعية على عمله لتلافي ظهوره بمظهر الثائر على السلطان • وحين انسحب محمد بك أبو الذهب ، قائد حملة علي بك ، من دمشق بعد افتتاحه لها ، وادعى بخبث أمام علي بك في مصر انه فعل ذلك بعد تنفيذ مهمته بطرد عثمان باشا ، انزعج علي بك لأن خطته الكبرى قـد فشلت • وكان أبو الذهب يستخدم هدف علي بك الظاهري

---

١ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٥٤ •

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1034 : Seyde, 2. 3. 1770 (Extrait des Registres), Seyde, 6. 3. 1770, Seyde, 20. 3. 1770

حجة لتبرير تآمره على علي بك • أما خطة علي بك الكبرى وهدفه الحقيقي من الحملة فكانا اعادة تأسيس السلطنة المملوكية التي ضمت سابقاً بلاد الشام ومصر[1] • وسنرى في الفصل التالي كيف أن علي بك المملوكي قد مثل ذروة قوة المماليك في مصر في العهد العثماني • ويذكر أن علي بك قد قرأ كتب التاريخ وانه قال مرة لبعض خاصته : « ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك ••• وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها »[2] •

تحركت قوات علي بك من مصر براً وبحراً باتجاه بلاد الشام في رجب ١١٨٤/تشرين الثاني ١٧٧٠ • واحتل اسماعيل بك ، قائد هـذه القوات ، غزة والرملة في النصف الثاني من تشرين الثاني برضى أهلهما الذين كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا • وأعلن الحكام المماليك الجدد في المدينتين الغاء ضريبة مال الميري لمدة أربع سنوات • وكان الهدف من ذلك الدعاية وحمل قرى فلسطين على عدم مقاومة الفاتحين • وقد أعلنت عدة قرى من التي أرهقتها مطالب عثمان باشا ولاءها لعلي بك[3] •

وهرع عثمان باشا الكرجي من دمشق لصد عدوان قوات علي بك ، ودخل يافا ، في وجه معارضة أهلها له ، للدفاع عنها • ويدل هذا على مدى النقمة المحلية ضده • وحين رأى عثمان باشا انضمام ظاهر العمر الى اسماعيل بك وتصميمهما على قتاله ، انسحب من يافا في ٩ كانون الاول ، وارتد الى دمشق ، بعد أن يئس من وصول المعونة التي وعده بها ابن جرار حاكم قلعة سانور • واحتلت قوات اسماعيل بك وظاهر العمر ، بعد ذلك ، يافا ، وكسب الحليفان ميناء آخر بجانب عكا التي كانت بيد ظاهر ، واستخدماه لانزال المعدات المنقولة بحراً من مصر[4] •

---

١ ـ انظر : عبود الصباغ ، ١٥ ب •

٢ ـ انظر الجبرتي ، ج ١ ، ٣٨١ •

٣ ـ انظر : ابن الصديق ، ٨ ب ـ ٩ آ ، ١١ آ ـ ١١ ب ، ١٧ آ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1034 : Seyde, 4. 12. 1770 ; A. E. B[1] 1035 : Seyde, 4. 2. 1771 (Extrait des Registres, Seyde, 30. 1. 1771).

٤ ـ انظر حول الاحداث السابقة : ابن الصديق ، ١٠ آ ـ ١٨ آ ؛ عبود الصباغ ، ١٦ ب ـ ١٨ آ ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1034 : Seyde, 20. 11. 1770.

ولم تحدث أية اشتباكات في الفترة بين عودة عثمان باشا الى دمشق في ١٨ كانون الاول وتهديد اسماعيل بك وحلفائه لقافلة الحاج الشامي في المزيريب في أواخر كانون الثاني ١٧٧١ • والسبب في ذلك مرض ظاهر العمر في هـــذه الفترة واستعداد الاطراف المعنية للخطوة التالية • وكان اسماعيل بك حريصاً ، في هذه الاثناء ، على عدم تبديد قوته في فتح القدس وقلعة سانور ، الخاضعتين لعثمان باشـا ، لان ذلك سيعرضـه الى مخاطر بامكانه تفاديها ، كما أن هذه الاماكن هي مراكز دفاعية أكثر منها هجومية ، وسيضطر في حال فتحها الى التخلي عن قسم كبير من قواته لتعسكر فيها ، ولذلك تجنبها • وكان اسماعيل بك ينتظر أيضاً في هذه الاثناء النتائج التي سيحدثها في دمشق ارسال بيان علي بك الى أهلها الذين استلموه في كانون الاول ١٧٧٠ • وقد أكد علي بك في بيانه على ناحيتين أساسيتين : الاولى ، انه ليس خارجاً على السلطان • ووصف نفسه بأنه قائم مقام في مصر وأمير الحاج سابقاً ؛ والثانية ، انه أتى لانقاذ السكان من مظالم عثمان باشـا • وأشار الى اعتـداء عثمان باشا عـلى علماء غزة وعـلى الحجاج والتجار ، واستشهد علي بك بأحاديث شريفة لتبرير عمله ، وذكر أن المذاهب الاربعة قد أباحت له قتال عثمان باشا • وطلب أخيراً من الدمشقيين تأييده ، وأعلمهم انه سيعين أميراً للحاج الشامي من قبله • وعقد ديوان في دمشق ، حضره عثمان باشا ، للتداول في أمر البيان ، وقرر المجتمعون اعلام السلطان بذلك[1] •

---

١ ـ انظر نص البيـان في : حيـدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٣ ـ ٨٥ ؛ حيدر شـهاب ، تاريخ أحمد باشا الجزار ، نشره الاب أنطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٤١ ـ ٤٤ : سيذكر هذا المصدر باختصار كمـا يلي : تاريخ الجزار ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٣ ب ـ ٤٥ آ ؛ ومصادر أخرى من بينها :

A. E. B[1] 91 : Alep, 6. 7. 1771 ; A. E. B[1] 1121 : Tripoli, 12. 6. 1771

(تعطي رسالة حلب النص العربي للبيان وترجمته الفرنسية ، وتعطي رسالة طرابلس الترجمة الفرنسية فقط) • وفي حين أن المصادر اللبنانية السابقة تذكر تاريخ البيان (الفرمان) في ١٧٧٠ ، وهذا صحيح ، فانها تخطىء حين تذكر أن أبا الذهب هو الذي أرسله الى دمشق قبيل هجومه عليها • انظر مناقشتنا بالتفصيل لهذه المصادر ، حول بيان علي بك ، في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 255 - 257

وخرج عثمان باشا من دمشق في ٨ شوال ١١٨٤/٢٥ كانون الثاني ١٧٧١ ، علـى رأس قافلة الحاج الشامي ، متوجهاً نحو الحجاز • وخف اسماعيل بك وحلفاؤه الزيادنة والمتاولة الى المزيريب للاستيلاء على امارة الحاج • ورغم اصرار ظاهر على تنفيذ ذلك مهما كانت النتائج ،فان اسماعيل بك تراجع خوفاً من ايذاء الحجاج • ويدل هذا على تدينه الذي بلغ ذروته، فيما بعد ، حـين أقنع أبا الذهب بالانسحاب من دمشــق لان عمله مخالف لرضى الله والسلطان • وقد احتج ظاهر العمر لدى علي بك على موقف اسماعيل بك المتخاذل • وكان علي بك يستعد لارسال قوات اضافية الى بلاد الشام ،وبالفعل غادرت بضعة آلاف منها مصر الى بلاد الشام في آذار ١٧٧١[1] •

وبدأت تصل الى دمشق في هــذه الاثناء القوات العثمانية التي عينها السلطان لقتال المعتدين • وعين نعمان باشا ، والي أورفه ، والياً على مصر وصاري عسكر (قائداً عاماً) عـلى القوات العثمانية في بلاد الشــام[2] • ويبدو أن وصول هذه القوات الى دمشق قــد أرهب اسماعيل بك وظاهر العمر ، وتجدد الخلاف بينهما حول مهاجمة قافلة الحاج في طريق العودة• وانفض « الحلفاء » ، فذهب اسماعيل بك لحصار ابن جرار في سانور ، وتوجه المتاولة الى بلادهم ، وحاول زعيمهم الشيخ ناصيف احتلال صيدا ، وعاد ظاهر الى منطقة صفد•وقدم عثمان باشا بقافلة الحاج الى دمشق بسلام• وكان ذلك ضربة لنفوذ ظاهر العمر الذي فشل في أخذ زمام المبادرة من حلفائه[3] • وحين قدم محمد بك أبو الذهب بعد قليل من مصر على رأس قوات اضافية وتسلم قيادة العمليات ، فقد ظاهر العمر كل أمل له بالسيطرة على الحملة ، ولم يعد يقود قوات الزيادنة بنفسه بل كلف بذلك أبناءه •

وصل محمد بك أبو الذهب وقواته الى الرملة في ٢ صفر ١١٨٥/

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : ابن الصديق ، ١٩ آ ـ ٣٥ ب ؛ بريك ، ٩٤ ؛ المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٩ آ ـ ٣٩ ب ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٥١ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 334 : Le Caire, 4. 3. 1771

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٢٧ آ ـ ٢٧ ب ، ٣٣ آ ، ٣٦ آ ـ ٣٧ آ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 91 : Alep, 29. 4. 1771

٣ ـ انظر : ابن الصديق ، ٣٧ ب ـ ٣٨ آ ، ٤٠ آ ؛ A. E. B[1] 1035 : Seyde, 2. 5. 1771

١٧ أيار ١٧٧١ • وقدم اليه الزيادنة والشيخ ناصيف ولاءهم ودعمهم • وسارت قواتهم المشتركة فوصلت سعسع ، قرب دمشق ، في ١٨ صفر ١١٨٥/٢ حزيران ١٧٧١ دون أن تلقى أية مقاومة • وكان تفوق قوات أبي الذهب بادياً بسبب تنظيمها وتسليحها ، وقد سبق أن ظفرت في حملتها الى الحجاز • أما القوات المدافعة عن دمشق فكانت تتألف من أنواع متنافرة من الجنود الذين لاتجمع بينهم رابطة قوية ، مثل التي جمعت بين المماليك ، وتنقصهم القيادة الفعالة[1] •

تلقى عثمان باشا في ١٧ صفر/١ حزيران انذاراً من أبي الذهب يطلب اليه فيه مغادرة دمشق حالا ، ويعلمه بتعيينه حاكماً عليها • وبدأ عثمان باشا يستعد للقتال ، وخرجت طلائع قواته ، بدون أي تنظيم ، للتمركز في داريا ، ولكن أبا الذهب هزمها في ١٩ صفر/٣ حزيران • وانتقل القتال بعد ذلك الى أطراف دمشق •

ولم تستغل القوات المختلفة المتجمعة في دمشق هذه المناسبة للاصطدام ببعضها أخذاً لثأر أو تصفية لخلاف سابق بينها ، فالخطر كان شديداً يهدد وجودها • وقد رأينا كيف أن اليرلية ضعفوا في السنوات السابقة اثر البطش بهم ، ولكنهم لم يتخلوا عن نفوذهم بكامله • وحين خرج عثمان باشا للدفاع عن يافا رافقه اليرلية ، الى جانب القوات المرتزقة وبقايا الجند الاقطاعيين ، مما يدل على انصياع اليرلية لأوامر الباشا • وحدث أثناء تراجعه الى دمشق خلاف بين اليرلية واللاوند المرتزقة فعاد كل منهما عن طريق مختلف الى دمشق[2] • وبعد الهزيمة في سعسع في ٣ حزيران ، بدأ الجند العثمانيون الذين أرسلهم السلطان لحماية دمشق يهربون باتجاه بلادهم ، وهاجم بعضهم أحياء دمشق الخارجية مثل الميدان والصالحية لنهبها ، وبدأ أهلها يطلقون النار عليهم • وبرز الآن للدفاع عن دمشق

---

١ ـ انظر تحليلا ضافياً لقوة الطرفين العسكرية في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 261 - 264

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ١٧ ب •

أبناء دمشق ، أي اليرلية والسكان المحليون ، وكذلك القابي قول الذين أوكلت اليهم القلعة وأسوار وأبواب المدينة • وكان آغا اليرلية هو يوسف ابن جبري[١] •

وبعد مناوشات بين المهاجمين والمدافعين في حي الميدان وباب الجابية ، بين ٢٠ ـ ٢٢ صفر/٤ ـ ٦ حزيران ، هرب عثمان باشا من دمشق وهو الذي لـم يتجشم قيادة جنوده لقتال أبي الذهب • وبدأت المفاوضات بعد ذلك بين علماء وأعيان المدينة وبين أبي الذهب لحقن الدماء • وصمم أبو الذهب على احتلال دمشق ،وتم له ذلك في ٢٤ صفر/٨ حزيران • وامتنعت القلعة عن الاستسلام • وساد الوجوم بلاد الشام واستانبول ، بينما عمت الفرحة في مصر حيث نظم علي بك الاحتفالات[٢] •

وانسحب أبو الذهب فجأة من دمشق في ٥ ربيع الاول ١١٨٥/١٨ حزيران ١٧٧١ ، وعاد الى مصر • وكان ذلك مفاجأة للسكان المحليين ولحلفائه ولاعدائه ولرؤسائه • وذكرت عـدة أسباب في تفسير تراجعه ، وفيها جميعاً بعض الصحة • فقد ذكر انه انسحب بسبب عدم استسلام قلعة دمشق ، وان اسماعيل بك أخافه بأن عمله مخالف لرضى الله والسلطان ، وان أبا الذهب خشي القوات التي أمر السلطان بتوجهها ضده ،وان الصرة أميني (المسؤول عن الصرة التي يرسلها السلطان الى الحجاز مـع قافلة

---

١ ـ انظر القائمة التي تذكر أسماء بعض زعماء اليرلية آنذاك من أسر العظم والقطيفاني والحواصلي وآقبيق وشحادة والبيطار وبكداش وشنبيب والصواف وميرو وسكر ••• وغيرهم ، في مطلع مخطوط ابن الصديق •

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٤١ آ ـ ٥٩ ب ؛ بريك ٩٥ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٥٥ ـ ٥٦ ؛ ج ٢ ، ١٦٤ ، مطمح الواجد ، ٣٧ ب ؛ سليمان المحاسني ، حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب الى دمشق الشام ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ،بيروت ١٩٦٢ ، انظر ص ١٩ ـ ٢٨ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ •

انظر أيضاً : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 28. 6. 1771 ; A. E. B[1] 1121 : Tripoli, 12. 6. 1771 ; A. E. B[1] 91 : Alep, 11. 6. 1771 ; A. E. B[1] 334 : Le Caire, 24. 6 1771 (Bulletin) ; PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 3. 7. 1771, Constantinople, 17. 8 1771.

انظر الدراسة المفصلة للاحداث التي أدت الى احتلال دمشق في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 264 - 271.

الحاج) قد وعد أبا الذهب ، في اجتماع بينهما في دمشق ، بالتوسط لدى السلطان لصالحه ، وان عثمان باشا الكرجي أبلغ أبا الذهب بأن السلطان قد وعـد بتعيين أبي الذهب مكان علي بك في مصر • ومهما يكن ، فان انسحاب أبي الذهب يـدل على تبدل موقفه تجاه علي بك • وبالفعل فقد اصطدم بعلي بك حين عاد الى مصر ، وطرده واحتل مكانه[١] •

الصراع على النفوذ في بلاد الشام وسيطرة أحمد باشا الجزار (١٧٧١ـ١٨٠٤) •ـ

نتج عن تدخل علي بك في شؤون الشام واحتلال أبي الذهب لدمشق ثم انسحابه منها ، اضطراب في ميزان القوى في بلاد الشام • واشترك في الصراع عـلى النفوذ لملء الفراغ السياسي الذي حدث بعد انسحاب أبي الذهب كل من عثمان باشا الكرجي وظاهر العمر والامير يوسف الشهابي والمتاولة • ثم عاد أبو الذهب للتدخل من جديد في بلاد الشام ، اثر مقتل علي بك • وتلا ذلك التدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر • وقد أظهر ولاة الشام في هـذا الصراع ضعفهم وانعدام مبادرتهم السياسية مما أتاح المجال لظهور أحمد باشا الجزار الذي ملأ الفراغ السياسي في المنطقة بين ١٧٧٦ و ١٨٠٤ •

أ / **الصراع على النفوذ في بلاد الشام (١٧٧١ ـ ١٧٧٥)** • ـ عاد عثمان باشا الكرجي الى دمشق في ١٣ ربيع الاول ١١٨٥/٢٦ حزيران ١٧٧١ ، وبدأ بالقضاء على معارضيه ، فقتل يوسف بن جبري آغا اليرلية الذي اتهم بالتواطؤ مـع أبي الذهب ، وصادر أمواله الكثيرة • وكان ذلك محاولة من عثمان باشـا لفرض هيبته من جديد وللحصول عـلى المال • كمـا أنه استرضى بذلك كثيراً من الدمشقيين المعارضين لابن جبري مثل سليمان المحاسني الذي الف فيه رسالة البغي والتجري في ظهور ابن جبري[٢] •

---

١ ـ انظر مناقشة هذه الاسباب والاحداث في كتابنا :

The Pravince of Dimascus, pp. 271 - 277.

٢ ـ وصف ابن الصديق ، ٦ ب ، محتويات هذه الرسالة ومبالغة المحاسني فيهـا • وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٢ ، انه توجد نسخة مخطوطة عن هـذه الرسالة عند الاستاذ شفيق جبري •



وازداد عثمان باشا غروراً عندما وصله فرمان الاستمرار في الحكم من استانبول في ١٩ ربيع الثاني/١ آب ، وشكره السلطان على همته وأثنى على شجاعته • ولم يغب عن أذهان الدمشقيين أن عثمان باشا قد زيف الحقائق لدى السلطان وامتدح جهده في طرد أبي الذهب[١] •

وحاول عثمان باشا الكرجي ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب أبي الذهب ، فهب لنجدة ابن جرار ، صاحب قلعة سانور ، ضد تهديد ظاهر العمر له • ولكنه هزم في القتال الذي جرى بينه وبين ظاهر قرب بحيرة الحولة في ٢٢ جمادى الاول ١١٨٥/٢ ايلول ١٧٧١ ، وعاد الى دمشق في ٦ ايلول • وكان عثمان باشا قد استنجد بالامير يوسف الشهابي ،ولكن هذا تباطأ عن نجدته[٢] •

وكانت تجري في هذه الاثناء تطورات هامة في ولاية صيدا أدت الى ازدياد قوة ظاهر العمر واصطدامه السابق بعثمان باشا ، والى تباطؤ الامير يوسف الشهابي عن نجدة عثمان باشا • ويجب الرجوع قليلا الى الوراء لتقصي أسس هذه التطورات • فقد حدث اثر احتلال أبي الذهب لدمشق، أن هرب درويش باشا ابن عثمان باشا الكرجي ، من ولاية صيدا في ١١ حزيران ، رغم دعم الامير يوسف الشهابي لـه والحاحه عليه بالبقاء • وتسلم ظاهر والمتاولة حكم مدينة صيدا • ولكن الامير يوسف الشهابي ، الذي طغى نفوذه ، في جبل لبنان ، على الامير منصور الحاكم الاسمي ، استولى ، بمساعدة مؤيده الشيخ علي جانبلاط ، على صيدا في ٢٠ حزيران • ولم يدافع عنها ظاهر والمتاولة لأنهم كانوا منشغلين بانسحاب أبي الذهب من دمشق[٣] •

---

١ ـ انظر : ابن الصديق ، ٦٢ آ ـ ٦٦ آ •

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٦٩ ب ـ ٧٥ آ ، ٨٢ ب ؛ عبود الصباغ ، ١٩ ب ـ ٢٠ ب ؛ بريك ، ٩٧ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1035 : Seyde, 21. 9. 1771 ; PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 4. 11. 1771.

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 11. 6. 1771, Seyde, 12. 6. 1771, Seyde, 13. 6. 1771, Seyde, 28. 6. 1771.

وقد أحرج موقف ظاهر والمتاولة اثر رجوع أبي الذهب الى مصر • ولكن علي بك بقي على اتصال مع ظاهر ، ووعده بارسال قوات أخرى ، ولذلك احتلت قوات ظاهر يافا لاستقبال المعونة من علي بك ، بينما احتلت قوات عثمان باشا الكرجي غزة والرملة • وكان هدف ظاهر العمر من مهاجمته لابن جرار تجريد عثمان باشا من حليفه القوي هذا • ومن شأن هذا الهجوم أيضاً أن يبقي أبناء ظاهر ملتفين حول أبيهم ، ويعطي دليلا آخر لعلي بك عن مقدرة ظاهر العسكرية • وبالفعل نقل ظاهر الى علي بك أنباء انتصاره على عثمان باشا قرب بحيرة الحولة[1] •

واهتم ظاهر ، بعد انتصاره الاخير ، بانتزاع صيدا من درويش باشا • وكان يدعم درويش باشا ، الذي عاد الى صيدا بعد عودة والده عثمان باشا الى دمشق ، الامير يوسف الذي اختاره ، قبل قليل ، أعيان جبل لبنان المجتمعون في الباروك خلفاً للأمير منصور الذي اعتزل الحكم • وكان الامير منصور قد أيد أبا الذهب ، بناء على نصيحة ظاهر ، وذلك بعد أن احتل أبو الذهب دمشق • وكانت غاية الامير منصور اضعاف خصمه الامير يوسف الذي أيد عثمان باشا • ولكن انسحاب أبي الذهب وعودة عثمان باشا الى دمشق ، وازدياد نفوذ الامير يوسف ، تبعاً لذلك ، جعلت الامير منصور يعتزل الحكم في سنة ١٧٧١[2] • ومع ذلك ، بقي الامير منصور يشكل خطراً على الامير يوسف بسبب دعم ظاهر العمر له • كما أن المتاولة ، حلفاء ظاهر ، أثاروا الاضطرابات على الامير يوسف ، فتوجه لقتالهم • وتمكن المتاولة ، بمساعدة ظاهر ، من الانتصار على الامير يوسف في النبطية في ٢٠ تشرين الاول ١٧٧١ • وانسحبت في اليوم التالي من صيدا قوات الأمير يوسف ، برئاسة الشيخ علي جانبلاط ، وكانت تدعم درويش باشا فيها ، فاضطر هذا الى الانسحاب بدوره • وفي ٢٣ تشرين الاول سقطت

---

١ ـ انظر : A. E. B¹ 1035 : Seyde, 21. 9. 1771.

٢ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٨ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٦ آ ـ ٤٦ ب ؛ المنير ، المشرق ، ٤٩ (١٩٥٥) ، ٢٦٣ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B¹ 1035 : Seyde, 28. 6. 1771, Seyde, 20. 8. 1771.

صيدا في يد قوات ظاهر والمتاولة ، وقد دخلتها من البر ، وقوات علي بك ، وقد دخلتها من جهة البحر • وكانت قوات علي بك قد وصلت منذ أيام قليلة من مصر ، واحتلت غزة والرملة ويافا • ولم يكن أبو الذهب قد أعلن بعد عن عدائه لعلي بك[١] •

عزل عثمان باشا وأبناؤه من ولايات الشام وصيدا وطرابلس في ١٣ رجب ١١٨٥/٢٢ تشرين الاول ١٧٧١ • وعين على ولاية الشام محمد باشا العظم الذي يمثل الجيل الثالث من حكام آل العظم في الشام[٢] • ولم تحدث أية اضطرابات في دمشق اثر تغيير الوالي بسبب شعور المهانة الذي سيطر على طوائفها العسكرية • وقرب محمد باشا العظم اليه اليرلية والقابي قول ليتمكن بمساعدتهم من جمع المال اللازم في دمشق لتمويل قافلةالحاج، لاسيما وانه لم يتمكن من الخروج للدورة بسبب معارضة ظاهر العمر ذلك • وكان ظاهر يسيطر ، مع قوات حليفه علي بك ، على أغلب مناطق فلسطين الغنية • وهاجم علي بن ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، المناطق التابعة لدمشق ، واستولى على مال الميري فيها • وقد أرهق الدمشقيون أيضاً بطلب المال منهم من قبل نعمان باشا قائد القوات العثمانية المعينة لاخضاع علي بك في مصر[٣] •

وخرج محمد باشا العظم بقافلة الحاج الى الحجاز وعاد بها الى دمشق بسلام • ولكن صيحات الاستغاثة من سكان الريف ، في ولاية الشام ، كانت تترى على سلطات دمشق لانقاذهم من تعديات علي بن ظاهر • ولم تكن القوات المتجمعة في دمشق ، بما في ذلك قوات القائد العثماني الجديد

---

١ ــ انظر حول الاحداث السابقة : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٩٠ ــ ٩٢ ؛ شدياق ، ج ٢، ٤٢ ــ ٤٣ ؛ ابن الصديق ، ٨٧ ب ــ ٨٨ ب ؛ بريك ، ٩٧ ؛ عبود الصباغ ، ٢٠ ب ــ ٢١ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1035 : Seyde, 9. 11. 1771, Seyde, 23. 11. 1771, Seyde, 10. 2. 1772, Sèyde, 30. 4. 1772, (Bulletin) ; A. E. B[1] 91 : Alep, 17. 11. 1771.

٢ ــ انظر حول ذلك كتابنا : The Province of Damascus, pp. 282 - 287.

٣ ــ انظر تفاصيل الاحداث في المصدر السابق : Ibid,, pp. 287 - 290

عثمان باشا الوكيل[١] ، الذي خلف نعمان باشا وعين والياً على مصر ، في وضع يمكنها من فرض سيطرتها على بلاد الشام الجنوبية حيث طغى نفوذ ظاهر • وقد حاول محمد باشا العظم وعثمان باشا الوكيل التفاوض مع ظاهر للتوصل الى اتفاق معه ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل • وكان ظاهر مهدداً ، في هذه الاثناء ، بثورات جديدة من قبل أبنائه • وحاول كسب الوقت بالمفاوضة ريثما يتأكد من سيطرة حليفه علي بك في مصر[٢]• وجرت في هذه الاثناء أحداث هامة في مصر ، وانتقل أثرها بعد قليل الى بلاد الشام ، واختل بنتيجة ذلك توازن القوى في بلاد الشام ومصر •

هرب علي بك من مصر في ٢٥ محرم ١١٨٦/٢٨ نيسان ١٧٧٢ ، اثر نزاعه مع أبي الذهب ، ولجأ الى ظاهر العمر[٣] • ومع أن قيمة التحالف بين علي بك وظاهر العمر قد انعدمت وأصبح علي بك عبئاً على حليفه ، فلم يغتنم والي الشام محمد باشا العظم ، أو قائد القوات العثمانية عثمان باشا الوكيل ، الفرصة لاعادة زمام المبادرة العسكرية اليهما • والقيت مسؤولية مقاومة ظاهر وعلي بك على الزعماء المحليين مثل مصطفى بك طوقان متسلم نابلس وأبي مرق حاكم غزة سابقاً •

وبدأت الاحداث تسير بسرعة ، وأخذ كل من الفرقاء المعنيين يعمل لاهدافه الخاصة • فالامير يوسف الشهابي كان يطمع بالسيطرة على صيدا من ظاهر والمماليك ولذلك رمى بثقله وراء السلطات العثمانية لتحقيق ذلك• وكان ظاهر حريصاً على عدم التخلي عن المناطق التي يحتلها • أما علي بك فكان هدفه الرئيسي اعادة سلطته في مصر ورؤية ظاهر موطد السلطة

---

١ ـ يبدو أن لقب « الوكيل » مشتق من عمل عثمان باشا (آغا سابقاً) كوكيل للكزلار آغا في مصر في ادارة أوقاف الحرمين الشريفين فيها • أما لقب « المصري » فقد اشتق من توليته على مصر • وتذكر بعض المصادر خطأ أن عثمان باشا الوكيل أو المصري شغل الآن منصب والي الشام ، وهذا غير صحيح ، لانه أقام بصورة مؤقتة في الشام ريثما تتجمع قواته ويسير الى مصر لاداء مهمته فيها ، انظر المصدر السابق ؛ Ibid., 290 - 292

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٩٧ ب ، ٩٩ ب ، ١١٣ آ ـ ١١٣ ب ، ١٢٣ ب ـ ١٢٤ آ ؛ عبود الصباغ ، ٢١ ب ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 10. 2. 1772.

٣ ـ انظر الفصل التالي •

ليحميه من القوات العثمانية البرية • وكان المتاولة ، بحكم كراهيتهم لامراء جبل لبنان ، الى جانب ظاهر وعلي بك[١] •

وظهر الآن الاسطول الروسي على المسرح العسكري ، واقتربت مراكبه من حيفا في ١ حزيران ١٧٧٢ لدعم علي بك وظاهر العمر تنفيذاً لاتفاق سابق مع علي بك[٢] • وكان للطرفين مصلحة في ذلك ، فالروس يودون خلق المشاكل للدولة العثمانية التي كانوا مشتبكين معها في حرب كبرى ، ويريد علي بك وظاهر انقاذ نفوذهما • وبناء على طلبهما ، توجه الاسطول الروسي الى بيروت لتحطيم المراكب العثمانية فيها ولاشغال الامير يوسف بالدفاع عنها،فقصفها بالمدافع في ١٨حزيران ، وأنزل فيها قواته التي ما لبثت أن انسحبت منها في ٢٣ حزيران بضغط الامير يوسف الذي كان يحكم بيروت • وكان الامير يوسف قد لجأ ، اثر انتصار ظاهر العمر عليه في ١١ حزيران ، الى عثمان باشا الوكيل وطلب منه حماية بيروت ، فأرسل اليها طائفة من الجند كان على رأسهم أحمد بك الجزار الذي اشتهر فيما بعد [٣] •

وعاد علي بك الى مصر في أوائل آذار ١٧٧٣ ، تدعمه بعض قوات ظاهر ، لقتال أبي الذهب • واصطدمت قواتهما في الصالحية ، حيث تلتقي الصحراء بالدلتا ، في ٥ صفر ١١٨٧/٢٨ نيسان ١٧٧٣ ، وجرح علي بك، ثم توفي بعد أيام[٤] •

وأحرج ظاهر العمر سياسياً وعسكرياً اثر وفاة علي بك لا لأنه خسر

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 21. 5. 1772 (Bulletin), Seyde, 2. 6. 1772

٢ ـ انظر ص

٣ ـ انظر حول هذه الاحداث : A. E. B[1] Seyde, 28. 6. 1772, Seyde, 31. 7. 1772 Anderson, 298.

انظر أيضاً : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٩٣ ـ ٩٤ ، تاريخ الجزار ، ٤٨ ـ ٤٩ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٤٥ ـ ٤٦ •

انظر بشأن التطورات التي حدثت في دمشق في هذه الفترة ، كتابنا : The Province of Damascus, pp. 294 - 305.

٤ ـ انظر الفصل التالي •

دعماً عسكرياً ، اذ ان علي بك كان يحتاج قبل موتـه الى الدعم ، ولكن لأنه فقد حليفه الذي بدأ الثورة على العثمانيين ، وتركزت الانظار عليـه وحده الآن • كما أن محمداً أبا الذهب ، بعد أن تخلص من تهديد علي بك ، وجه جهده الآن لاحكام الطوق ، مع العثمانيين ، عـلى ظاهر الذي بدأ يقوي دفاعه في عكا •

وحدث الآن انقلاب في ميزان القوى • فبعد أن أتى الامير يوسف بالجزار للدفاع عن بيروت ،بدأ الجزار يزيد من قوته ، وتحدى الامير يوسف • ولم تجد محاولة استنجاد الامير يوسف بسلطات دمشق للضغط على الجزار • فاتجه الامير يوسف نحو ظاهر والمتاولة ، وكانوا أعداءه سابقاً، وتحالف معهم في ٩ حزيران ١٧٧٣ ، بعد أن شعروا بعزلتهم وضعفهم • وطلب هؤلاء الحلفاء من الاسطول الروسي مهاجمة بيروت لاخراج الجزار منها ، فهاجمها ، وهرب الجزار ولجأ الى ظاهر ، ثم ما لبث أن هرب منه أيضاً وذهب الى دمشق[١] •

وبدأت المفاوضات بين ظاهر والسلطات العثمانية في دمشق لاجـل المصالحة • ورغم انها لم تؤد الى نتيجة ، فقد أظهرت تزايد ضعف موقف ظاهر • وكان الزمن يسـير لصالح السلطات العثمانيـة فعزلت في تموز ١٧٧٤ عثمان باشـا الوكيل ، قائد القوات العثمانيـة ووالي مصر ، بعد أن ضمن أبو الذهب الموالي لها خضوع مصر • وذهب أبو الذهب أبعد من ذلك فجهز جيشاً وخرج به من مصر في أوائل محرم ١١٨٩/أوائل آذار ١٧٧٥ لقتال ظاهر • وخضعت له غزة والرملة ويافا وعكا وصيدا ، وهرب ظاهر • وقد تآمر علي بن ظاهر مع أبي الذهب ضد أبيه • ولكن أبا الذهب توفي في عكا في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩/١٠ حزيران ١٧٧٥ ، وعاد جيشه الى مصر[٢] •

---

١ ـ انظر : A. E. B¹ 1036 : Seyde, 7. 7. 1773 ; Anderson, 302 ;
انظر أيضاً : عبود الصباغ ، ٢٦ ب ـ ٢٧ آ ؛ حيدر شهاب ، تاريخ الجزار ، ٥٣ •

٢ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٣ ـ ٤١٤ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١١٠ ، تاريخ الجزار ، ٦٣ ـ ٦٤ ، انظر أيضاً :
A. E. B¹ 1037 : Seyde, 7. 4. 1775 (Bulletin, Acre, 10. 4. 1775), Seyde, 25. 6. 1775.

وما كاد ظاهر العمر يتخلص من خطر أبي الذهب ، حتى أرسلت الدولة العثمانية قوة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء عليه • وكانت الدولة قد انتهت في سنة ١٧٧٤ من حربها مع روسيا بتوقيع معاهدة كجك قاينارجة ، وهي على وشك الاصطدام مع حاكم فارس كريم خان زند ، فأرادت ، في هذه الاثناء ، التخلص من خطر ظاهر الذي أقلقها عدة أعوام• واستسلمت حيفا الى حسن باشا في ٧ آب ١٧٧٥ ، فانتقل منها الى حصار عكا ، مركز ظاهر • وذكر أن مستشار ظاهر ، عبود الصباغ ، قد رفض شراء انسحاب حسن باشا بالمال بسبب بخله • وخان أحمد الدنكزلي ، قائد المغاربة الذين في خدمة ظاهر ، سيده • وحين حاول ظاهر الهرب قتله مغاربته في أواخر آب ١٧٧٥ • ووصل والي الشام محمد باشا العظم الى ضواحي عكا بعد مقتل ظاهر ، ويعكس ذلك ضعف سلطته وفقدانه المبادرة السياسية[1] •

وهكذا انهار حكم ظاهر العمر ، وقتل أغلب أبنائه بعد سنوات من مقتل أبيهم • ونشأ عن ذلك فراغ سياسي في بلاد الشام الجنوبية ، ولكن سرعان ما ظهر أحمد باشا الجزار وملأ هذا الفراغ •

سيطرة أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤) ـ كان أحمد الجزار مملوكاً بشناقي الاصل بدأ عمله في استانبول ، ثم اشتهر في مصر حيث خدم عدة أشخاص من بينهم علي بك • ونال في مصر رتبة البكوية ولقب بالجزار لشدة بطشه ببدو اقليم البحيرة • وانتقل بعد ذلك ، مع بعض مماليكه ، الى بلاد الشام ، وكلف من قبل سلطات دمشق بحماية بيروت ، ولكنه تمرد على حاكمها الامير يوسف الشهابي • وقد عينه السلطان ، اثر القضاء على ظاهر ، محافظاً لعكا • وحين عزل والي صيدا العثماني ، ملك محمد باشا ، في ١٨ كانون الاول ١٧٧٥ ، أرسل الجزار متسلماً الى صيدا ليحكمها

---

١ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٣٣ ب ـ ٣٩ ب ؛ ميخائيل الصباغ ، ١٣٤ ـ ١٤٩ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١١٢ ـ ١١٣ ، تاريخ الجزار ، ٦٧ ـ ٧٠ ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 2. 9. 1775 (Bulletin), A. E. B[1] 93 : Alep, 6. 10. 1775 (Nouvelles) ; Volney, 262.

باسمه . وفي ١١ آذار ١٧٧٦ دخل أحمد الجزار صيدا والياً عليها من قبل السلطان ، وأعطي رتبة وزير بهذه المناسبة[1] .

وعلى نقيض ظاهر العمر الذي « ورث » الالتزام في منطقة صفد ـ طبرية عن أبيه ، وبقي طيلة حياته في عداد الملتزمين ، فان أحمد باشا الجزار ، أشبه بآل العظم ، اشتهر في بلاد الشام كوال ، وحكم ، مثلهم ، مدة طويلة . ولكن الجزار ، على نقيض آل العظم ، حافظ على سلطته واستمر والياً بالقوة ، وهو بهذا أقرب الى ظاهر العمر الذي اعتمد على القوة في ابقاء نفوذه . ويختلف الجزار عن ظاهر العمر ، ومن قبله فخر الدين المعني الثاني ، بأنه مغامر غريب عن المنطقة التي توصل الى حكمها ، في حين أن ظاهر وفخر الدين ورثا السلطة المحلية ، بمقادير مختلفة ، عن أبويهما . ويتشابه الجزار مع المماليك الذين حكموا في بغداد والبصرة في هذه الفترة بأنه مملوك مثلهم ، واعتمد ، كما اعتمدوا هم ، على المماليك في تدعيم قوته . ويتشابه معهم أيضاً في أن السلطان رضي بوجوده ، رغم ازدياد سلطته وبطشه ، بسبب قوته واخضاعه القوى المحلية والخارجية . وبتعيين أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا ، انتقل زمام المبادرة السياسية في بلاد الشام الجنوبية من ولاة دمشق اليه ، وأصبحت دمشق تدور في فلك قوته .

لقد كان احتلال أبي الذهب لدمشق في ١٧٧١ ضربة قاصمة لنفوذ ولاتها . ولم تلعب السلطات العثمانية في دمشق ، سواء الوالي أو قائد القوات العثمانية فيها (الصاري عسكر) ، أي دور سياسي هام في توجيه الاحداث في الفترة بين ١٧٧١ و ١٧٧٥ ، أو في القضاء على الثائرين . فقد قتل علي بك من قبل محمد أبي الذهب ، وتوفي هذا الأخير بمرض مفاجىء في عكا . أما ظاهر العمر فقد أمكن القضاء عليه بعد فقده حليفه القوي علي بك .

---

١ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٣٩ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١١٦ ، تاريخ الجزار ، ٧١ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٣٢ آ ـ ٣٣ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، ج ٣ ، ٣٢١ ؛

A. E. B[1] 1037 : Seyde, 2. 9. 1775, Seyde, 18. 2. 1776, Seyde, 12. 3. 1776.

وقد ازداد ضعف ظاهر اثر هجوم أبي الذهب عليه وبفعل ثورات أبنائه • وجاءته الضربة الحاسمة على يد الاسطول العثماني بقيادة القبطان حسن باشا ، ثم قتل بتآمر جنوده المرتزقة عليه • ولم يشترك والي الشام محمد باشا العظم في تصفية الثائرين هؤلاء • وحين ظهر الجزار ، بعد ذلك ، وبدأ يهتم باخضاع المتاولة وأمراء جبل لبنان ، لم يعد لولاة الشام من مشاغل كبرى خارج دمشق سوى تأمينهم سلامة الحاج • ولكنهم تعرضوا الآن الى مؤامرات الجزار الذي أخذ يسعى بجد للحصول على ولاية الشام •

وقد سبق القول الى أن محمد باشا العظم عين على ولاية الشام في ١٣ رجب ١١٨٥/٢٢ تشرين الاول ١٧٧١ ، اثر عزل عثمان باشا الكرجي[١]• وبقي محمد باشا والياً على الشام (باستثناء فترة قصيرة بين ربيع الاول١١٨٦ وجمادى الثاني ١١٨٧/حزيران ١٧٧٢ و آب ١٧٧٣)[٢] حتى وفاته في ١٣ جمادى الاول ١١٩٧/١٦ نيسان ١٧٨٣ • وكان هدف محمد باشا في ولايته تأمين سلامة الحاج وزيادة نفوذه ونفوذ أسرته في دمشق ، لاسيما وان امكانية تسلطه على القوى المحلية خارج دمشق كانت محدودة بسبب سيطرة الجزار واهتمامه باخضاع أمراء جبل لبنان والمتاولة • وحين حاول محمد باشا التدخل في منازعات أمراء جبل لبنان ، لم يستطع الثبات أمام منافسة الجزار •

ولم تحدث اضطرابات في دمشق في عهد محمد باشا العظم بسبب الاخطار التي أحدقت بدمشق في أول ولايته ، وأيضاً بسبب تجمع القوات العثمانية في دمشق مما فرض الهيبة في نفوس أهلها • وحين قضي على الثائرين الذين هددوا سلطة ولاة دمشق ، ساد الهدوء ،وازدهرت الحركة الاقتصادية في دمشق بسبب ازدهار قافلة الحاج من جديد • ولم يعوز محمد باشا الحزم عندما استدعت الظروف ذلك • وقد قتل آغا اليرلية عثمان ابن شبيب دون أن يثير ذلك اليرلية • صحيح أن عثمان هذا كان بالاصل

---

١ ـ انظر ص ٣٨٠ •

٢ ـ انظر حول ذلك كتابنا : The Province of Damascus, pp. 295 - 301

صنيعة محمد باشا الذي أتى به الى هذا المنصب[١] ، وصحيح أيضاً أن الآغا لم يعد يمثل بالحقيقة مصالح اليرلية المتباينة ، بدليل أن آغا اليرلية السابق يوسف بن جبري قد قتل ولم يثأر اليرلية له[٢] ، ولكن مما ساعد محمد باشا على السيطرة على اليرلية ومنحه دعماً كبيراً في دمشق اشغال أفراد كثيرين من آل العظم المناصب العليا في طائفة اليرلية[٣] . ويصف خليل المرادي حالة الهدوء في دمشق في عهد محمد باشا العظم بقوله : « وراقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لأهلها العيش ونامت الفتن وسلم الناس من الاحن »[٤] . ولعل اعجاب المرادي بسيرة محمد باشا ، حين يقول : « وبالجملة فهو أحسن من أدركناه من ولاة دمشق »[٥] ، يفسر لماذا لم يذكر المرادي في كتابه « سلك الدرر » ترجمة أحد من آل العظم ، باستثناء محمد باشا[٦] . ومما يجدر ذكره أن خليل المرادي أصبح مفتياً في عهد محمد باشا .

وقد أتاح هذا الهدوء لمحمد باشا أن يقوم ببناء عدة أبنية في دمشق كالسوق الذي بناه بين سوق الاروام والقلعة ، كما رمم أبنية أخرى مثل السرايا ومحكمة الباب . وعمر القاعة والبركة في منزل بئر الزمرد على طريق الحاج[٧] .

وكان الجزار منشغلا في هذه الاثناء بتوطيد سلطته . وقد قضى ، بالاشتراك مع القوات العثمانية الموجودة في المنطقة ، على أولاد ظاهر العمر الثائرين في سنة ١٧٧٦ . كما انه استولى على بيروت من الامير يوسف

---

١ ـ بريك ، ١٠٠ ؛ ابن الصديق ، ١١٠ آ ـ ١١٠ ب .

٢ ـ انظر ص ٣٧٧ .

٣ ـ انظر قائمة أصحاب الرتب بين اليرلية في مطلع مخطوط ابن الصديق .

٤ ـ سلك الدرر ، ج ٤ ، ١٠١ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

٦ ـ انظر مناقشتنا لاغفال المرادي ذكر بقية ولاة آل العظم ، في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 329 - 330.

٧ ـ انظر حول هذه الاعمال : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٤ ، ١٠١ ـ ١٠٢ ؛ القاري ، نشر منجد ، ٨٤ ـ ٨٥ ؛ بريك ، ١١٣ .

في السنة نفسها كما يبدو [١] . وفي سنة ١٧٨١ أخضع الجزار المتاولة ، وقتل الشيخ ناصيف ، وأخذ مدينة صور منهم[٢] .

وشرع الجزار في تقوية دفاعه ، واتخذ عكا مركزاً له . وكان يقيم فيها حوالي عشرة أشهر ويقيم المدة الباقية في صيدا التي كانت مركز الولاية الرسمي . وقد استفاد من تطوير ظاهر العمر لعكا ومن التحسينات التي أدخلها على الزراعة والتجارة وعلى الموانىء . واستخدم الجزار جيشاً من المماليك والمرتزقة ضم البشانقة والارناؤوط والاكراد والمغاربة[٣] . وعمد لتمويل هذا الجيش ، الى الحصول على المال بأية طريقة . وقد صادر أموال التجار الاجانب ، مما أضر بالنشاط التجاري . وابتز الاموال من الفلاحين فهجر كثير منهم قراهم ، وكان الريف قد فقر بفعل الاضطرابات التي حدثت فيه ، فنقصت بنتيجة ذلك الموارد الاقتصادية[٤] . ولجأ الجزار الى أعمال السخرة في تحصين عكا ، وطلب الى الفلاحين تقديم خدماتهم مجاناً ، مما أضر بالزراعة[٥] . وقد نتج عن أعمال الجزار هذه وعن الاضطرابات السابقة في المنطقة ، بما في ذلك الدمار الذي أحدثته جيوش أبي الذهب أثناء هجومه للقضاء على ظاهر ، والتخريب الذي حدث في بيروت بنتيجة هجوم الاسطول الروسي عليها ودفاع الامير يوسف والجزار عنها ، ثم الدمار الذي أحدثته قوات القبطان حسن باشا ـ نتج عن ذلك كله انحطاط النشاط الاقتصادي في بلاد الشام الجنوبية . وبقيت دمشق أحسن حالا من غيرها بسبب استفادتها من تجارة قافلة الحاج . ولم يقابل هذا الانحطاط التجاري في الجنوب انتعاش في تجارة منطقة حلب لأن هذه المنطقة قاست بدورها من الاضطرابات التي سادت على الجبهة الفارسية ومن انعدام الامن على الطرق الرئيسية . وكان هذا الانحطاط

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ، ج ١ ١٢٠ ، تاريخ الجزار ، ٧٢ ـ ٧٤ .

٢ ـ انظر : بريك ، ١١٢ ؛ انظر أيضاً : A. E. B[1] 1039 : Seyde, 2. 10. 1881

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 31. 5. 1777, Seyde, 17. 12. 1777 ; A. E. B[1] 1039 : Acre, 11. 4. 1781 ; Volney, 298, Charles - Roux, 136.

٤ ـ انظر : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 17. 11. 1777.

٥ ـ انظر : حيدر شهاب ، تاريخ الجزار ، ٧٩ .

الاقتصادي العام في بلاد الشام نهاية فترة بالنسبة للنشاط التجاري الانكليزي والفرنسي فيها • وانتقلت المبادرة التجارية الانكليزيـة في الشرق الادنى من شركة بلاد المشرق الى شركة الهند الشرقية التي اعتمدت على طريق البحر الاحمر[١] •

ولجأ الجزار ، بسبب حاجته الى المال ، الى الضغط على الملتزمين في منطقته ، وشدد قبضته خاصة على الامير يوسف لاضعافه • واضطر الامير يوسف ، بعد أن خسر بيروت ، الى فرض الضرائب عـــلى سكان الجبل لارضاء طلبات الجزار المالية[٢] • وازدادت المقاومة المحلية ، تبعاً لذلك ، للأمير يوسف ، وتشجع اثنان من اخوته وهما الامير أفندي والامير سيد أحمد على المطالبة بامارة جبل لبنان لهما ، ودعمهما الجزار والفئات المعارضة للأمير يوسف • واضطر الامـير يوسف ، ازاء الضغط عليه ، الى التنازل عن الامارة لأخويه ، ولجأ الى محمد باشا العظم يطلب دعمه له • وعندما رأى الجزار تفوق الامـير يوسف ، بعد ذلك ، في النزاع مـــع أخويه بدأ يدعمه • وقد تمكن الامير يوسف من استعادة امارته على جبل لبنان ، وقتل الامـير أفندي•ولجأ الامـير سيد أحمد الى محمد باشا العظم ، ولكن الامـير يوسف ، الـذي دعمه الجزار ، غلبهما في موقعة في البقاع سـنة ١٧٨١ • وبقي الجزار يتحكم بشؤون الامـير يوسف ، وتسبب بعزله في ١٧٨٨ • واعتلى الامارة في جبل لبنان الامير بشير الشهابي الثاني المشهور • وحاول الجزار اثارة الامير يوسف على الامير بشير لابتزاز المال منهما ، ودبر في سنة ١٧٩٠ قتل الامير يوسف بسبب تواطئه مع مماليك الجزار الذين ثاروا عليه في السنة السابقة[٣] • ثم سعى الجزار فيما بعد الى اثارة أبناء الامير يوسف على الامير بشير

---

١ ـ انظر حول هذه التطورات كتابنا : The Province of Damascus, pp. 314 - 316

٢ ـ انظر كأمثلة على ذلك : حيدر شهاب ، بيروت ، ج ١ ، ١١٩ ، ١٣٤ ، تاريخ الجزار ، ٧٤ ، ٧٧ •

٣ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٦٠ ـ ١٦١ ؛ شدياق ، ج ٢ ، ٦٩ ـ ٧٠ ، ٧٦ ـ ٧٩ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٧٢ آ ، انظر ص ٣٩٢ •

وحاول السلطان عزل الجزار بسبب ازدياد نفوذه ، ولكن الجزار تحدى أوامر السلطان بعزله ، وطرد الباشا الذي عين مكانه • واضطر السلطان الى التغاضي عنه ، لاسيما وأن الجزار كان يوطد الامن في منطقته ، وقد أصبح قوياً الى درجة يصعب معها عزله بسهولة[1] • وينطبق هذا الامر على علاقة السلطان بولاة بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر •

توفي محمد باشا العظم في ١٣ جمادى الاول ١١٩٧/١٦ نيسان ١٧٨٣ • وانتهى بموته الجيل الثالث من الولاة من آل العظم في القرن الثامن عشر • وكان ابنه عبد الله باشا والياً آنذاك على طرابلس ، وقد عين والياً على الشام ، أكثر من مرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر • واشتهر ابن آخر لمحمد باشا هو يوسف باشا الذي عين ، في عهد أبيه ، والياً على طرابلس أحياناً •

وكان الجزار يطمع بالوصول الى ولاية الشام ، وذكر شاهد عيان في عكا أن الجزار اعتبر تعيينه على الشام أمراً مفروغاً منه ، بعد وفاة محمد باشا العظم ، وبدأ يتقبل التهاني بهذه المناسبة • وقد خاب ظنه اذ عين محمد باشا ابن عثمان باشا الكرجي والياً على الشام • وحين توفي محمد باشا في ٩ شعبان ١١٩٧/١٠ تموز ١٧٨٣ ، ازدادت آمال الجزار بالحصول على ولاية الشام ، ولكن السلطان عين عليها ابناً آخر لعثمان باشا الكرجي ، هو درويش باشا • وأخيراً عين الجزار على الشام اثر عزل درويش باشا في ١٨ ربيع الثاني ١١٩٩/٢٨ شباط ١٧٨٥ • وقد عين الجزار بعد ذلك ثلاث مرات على الشام •

ويعتبر تعيين الجزار على ولاية الشام حدثاً هاماً في تاريخ الصراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية • وبدل أن يمد ولاة الشام نفوذهم على ولاية صيدا ، كما جرت العادة قبل ذلك حين عين أبناء أو أشقاء والي الشام ولاة على صيدا وطرابلس لتشجيع والي الشام على دعمهم ، حدث

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة كتابنا : The Province of Damascus, pp. 318 - 319

العكس الآن • وبقيت ولاية صيدا ، ومدينة عكا خاصة ، مركز قوة الجزار، ولم يتخل عنها حين عين على الشام • وقد خلفه في ولايـة صيدا مملوكه سليم ، كما عين مملوك آخر ، يدعى سليمان ، علـى ولاية طرابلس في الوقت نفسه[1] •

وتعرضت دمشق أثناء ولاية الجزار الى كثير من ظلمه ، وكان مهتماً بصورة خاصـة بجمع المال • وقد جهر الدمشقيون بالشـكوى ضده الى السلطان فعزله عن الشام في ١٣ صفر ١٢٠١/٥ كانون الاول ١٧٨٦[2]

ومما يدل على ضعف مختلف القوى في دمشق عدم مقاومتها لمظالم الجزار، على عكس مواقفها الجريئة ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، في مقاومة الولاة الظالمين • وكأن هذه القوى أرادت أن تثأر للذل الذي لحق بها في عهد الجزار ، ومن سبقه من الولاة الذين بطشوا بها ، فثارت عـلى ابراهيم باشا الذي عين على ولاية الشام في ١٧ جمادى الثاني ١٢٠٢/٢٥ آذار ١٧٨٨ ، واشتبك في نزاع مع آغا القابي قول • ولكنه بطش بها • ويدل اشتراك مختلف القوى في عمل موحد ضد ابراهيم باشا على المصالح المشتركة التي جمعت بينها وعلى الضعف الذي لحق بها مما جعلها تتآزر مع بعضها •

وما لبث الجزار أن عـين من جديد على ولاية الشام في ٣ شـــوال ١٢٠٥/٥ حزيران ١٧٩١ ، وعاد الى ممارسة الظلم وابتزاز المال ، أكثر مما سبق ، دون أن يجرأ أحد على مقاومته بسبب شدة بطشه • وتكررت هذه المظالم في ولاياته التالية على الشام[3] •

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٤١ ، تاريخ الجزار ، ٨٧ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1401 : Seyde, 23. 3. 1885.

٢ ـ انظر : القاري ، نشر منجد ، ٨٥ ؛ ميخائيل الدمشقي ، تاريـخ حوادث الشـام ولبنان (١١٩٧ ـ ١٧٨٢/١٢٥٧ ـ ١٨٤١) ، نشـره الاب لويس معلوف اليسوعي ، بيروت ١٩١٢ ، انظر ص ٤ ـ ٥ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ميخائيل الدمشقي •

٣ ـ انظر حول هذا وحول الاحداث السابقة : القاري ، نشر منجد ، ٨٦ ـ ٩٠ ؛ ميخائيل الدمشقي ، ٥ ـ ١٤ ؛ انظر أيضاً : عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ أجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ ، انظر ترجمة الجزار ، ج ١ ، ١٢٧ ـ ١٣٢ •

وازداد الجزار عنفاً وشدة اثر قضائه على ثورة قام بها مماليكه ضده ، وأوشكوا أن يطيحوا به • وقامت الثورة في ٧ شعبان ٣/١٢٠٣ أيار ١٧٨٩، بقيادة اثنين من كبار مماليك الجزار المقربين اليه ، وهما سليم باشا وسليمان باشا ، وذلك احتجاجاً في الظاهر على محاولة الجزار معاقبة بعض مماليكه • ويبدو أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو الصراع على النفوذ بين الجزار وكبار مماليكه الذين توصلوا ،مثله ، الى أن يكونوا ولاة • وتمكن الجزار، بمساعدة قواته من الارناؤوط والمغاربة ، من القضاء على الثورة[1] •

وبقي الجزار بعد ذلك سيد الموقف في بلاد الشام • ولم يهدد سلطته خطر كبير الى أن نزل نابليون بونابرت بجيوشه في مصر في صيف سنة ١٧٩٨ ، وتوجه في أوائل العام التالي الى فتح بلاد الشام • وقاومت عكا الهجوم ، وارتد نابليون على أعقابه • وتعتبر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام بداية مرحلة جديدة في تاريخ البلدين تميزت بالتدخل الغربي، على مختلف المستويات ، في شؤونهما ، وبردود الفعل المحلية على ذلك •

---

١ ــ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٣٤ ــ ١٤٤ ، تاريخ الجزار ، ٩٢ ــ ٩٥ ؛ شدياق ج ٢ ، ٦٩ ــ ٧٠ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٧٢ آ ــ ٧٢ ب ؛ الجبرتي ، ج ٢ ، ٣٢٢ •

الفصل الحادي عشر

ولاية مصر في فترة انحطاط الدولة العثمانية

من الربع الاول للقرن الثامن عشر الى حملة نابليون بونابرت

اختلفت صورة الاحداث في مصر ، في هـذه الفترة ، عنها في بلاد الشام بسبب اختلاف نوعية الفئات المتصارعة على النفوذ في كـل منهما • ومع ذلك ، فاننا نرى في مصر ، كما في بلاد الشام ، تأكيداً للنفوذ المحلي تجلى بازدياد سلطة المماليك •

وكنا رأينا في نهاية الفترة السابقة من تاريخ ولايـة مصر[1] كيف قضي نهائياً عـلى نفوذ القاسمية في سنة ١٧٣٠ وسيطر الفقاريـة • ولكن صراعاً دب الآن بين الفئات المتنافرة ضمن الفقارية ، وهي البيوتات العسكرية والمماليك ، وذلك بعد أن زال العدو المشترك الذي وحد صفوفهم • وتمت السيطرة للمماليك الذين سرعان ما انقسموا بدورهم الى طوائف متنافرة • وظهر بنتيجة هذا الصراع علي بك الذي وصل نفوذ المماليك في عهده الى الذروة • واستغل علي بك ضعف السلطة العثمانية وازدياد قوته فاحتلت قواته الحجاز وبلاد الشام الجنوبية ، بما فيها دمشق ، وبقي مسيطراً الى أن قضى عليه مملوكه محمد بك أبو الذهب • ولم يطل حكم محمد بك اذ توفي وهو في أوج سلطته ، ونشب نزاع على السلطة بين مماليكه ومماليك علي بك • وانتهى الامر بزعامة مملوكية ثنائية تحدت محاولات العثمانيين للاطاحة بها • وتركت مهمة القضاء على المماليك الى الحملة الفرنسية التي أتت الى مصر في ١٧٩٨ •

---

١ ــ انظر ص ٢٩٤ •

ويمكننا ، والحالة هذه ، تقسيم تاريخ مصر في هذه الفترة الى ثلاثة أقسام : الصراع على النفوذ (١٧٣٠ - ١٧٦٠) ؛ فترة علي بك (١٧٦٠ - ١٧٧٣) ؛ سيطرة أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ - ١٧٩٨) •

الصراع على النفوذ في مصر (١٧٣٠ - ١٧٦٠) • -

اشتهر في مصر اثر القضاء على القاسمية كل من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ،وعلي بك ذو الفقار وعثمان بك ذو الفقار ،بالاضافة الى عدد من القازدغلية من بينهم عثمان وعبد الله وسليمان وحسن • ويتبين لنا من هذه الاسماء وجود ثلاث كتل متنفذة • وكان أبرز هذه الكتل الآن كتلة محمد بك قطامش وعلي بك قطامش اللذين عينا في ١١٤٥/١٧٣٢ ، الاول دفترداراً والثاني أمير حاج • وفي صفر ١١٤٦/تموز ١٧٣٣ عين محمد بك قطامش قائم مقام ، وكان صاحب الامر والنهي في مصر[1] ، وأطلق عليه لقب شيخ البلد [2]، أي كبير البكوات وصاحب السلطة الفعلية في القاهرة • وفي جمادى الثاني ١١٤٩/تشرين الاول ١٧٣٧ عين محمد بك قطامش أميراً على الحاج[3]• وقد حدثت في رجب ١١٤٩/تشرين الثاني ١٧٣٧ فتنة في القاهرة بسبب طلب شخص يسمى صالح كاشف الحصول على الصنجقية ،وكان يؤيده عثمان بك ذو الفقار • ولكن محمد بك قطامش شيخ البلد وكبير القوم (وهذا تعبير أقل استعمالا من تعبير شيخ البلد) ،رفض ذلك بحجة ارتباط صالح كاشف ببقايا القاسمية عن طريق زوجته ، وخوفاً من اعادة نفوذ القاسمية • واتفق صالح كاشف مع عثمان كاخيا القازدغلي وغيره على التخلص من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ، وأيدهم الباشا في ذلك • وبالفعل تم قتل الاثنين ومعهما عدد من الاتباع[4] • وضعف بذلك

---

١ - انظر : مصطفى القينلي ، ١٧٥ ب ، ١٧٩ آ ؛ الدرة المنصانة ، ١٢٠ ب - ١٢١ آ ؛ أحمد شلبي ، ٢٣٨ آ ، ٢٤١ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٤٦ •

٢ - الدرة المنصانة ، ١٢٣ ب •

٣ - المصدر السابق ، ١٢٦ ب ؛ أحمد شلبي ، ٢٥٧ ب •

٤ - انظر حول هذه الفتنة : أحمد شلبي ، ٢٥٨ آ - ٢٦١ آ ؛ مصطفى القينلي ، ١٨٤ ب - ١٩٠ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٧٨ •

نفوذ الكتلة القطامشية • ودب الصراع الآن بين كتلة عثمان بك ذي الفقار الذي انفرد بزعامة الكتلة بعد وفاة علي بك ذي الفقار بالطاعون[١] ، وكتلة القازدغلية الذين تزعمهم ابراهيم جاويش القازدغلي •

وعين عثمان بك ذو الفقار أميراً على الحاج في سنة ١١٥٠/١٧٣٧ - ١٧٣٨ ، وفشلت محاولة لاغتياله دبرها ، في هذه الاثناء ،حاكم مصر سيلمان باشا العظم (١١٥٢ - ١١٥٣/١٧٣٩ - ١٧٤٠) ، بالاتفاق مع ابراهيم جاويش القازدغلي • وانتهت اليه بعد ذلك الرئاسة في مصر • واشتدت المنافسة بين عثمان بك ذي الفقار وابراهيم جاويش القازدغلي حول الرئاسة • وحدث نزاع بينهما حول ايجار احدى النواحي ، ثم تأزمت العلاقة بينهما بسبب دعم عثمان بك لهمام شيخ بدو هوارة الذي رهن احدى النواحي لدى ابراهيم جاويش القازدغلي ، ثم حاول التملص من الالتزامات المترتبة على ذلك • واستنجد ابراهيم جاويش بمؤيديه ، وهاجموا عثمان بك بعد أن تخلى عنه رضوان كاخيا الجلفي ، مؤسس احدى البيوتات العسكرية الصغيرة المعروفة بالجلفية ، وانضم الى صفوف معارضيه • وقد وقع القتال في أتباع عثمان بك ، ونهبت بيوتهم • وهرب عثمان بك الى الصعيد حيث التف حوله بقايا القاسمية اللاجئين هناك • وأرسل ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي حملة كبيرة الى الصعيد أرهبت عثمان بك فهرب ،وكان ذلك ، كما يبدو ، في أواخر ١١٥٦/أوائل ١٧٤٤، وتوجه نحو استانبول حيث بقي حتى وفاته في حوالي ١١٩٠/١٧٧٦-١٧٧٧ • وبلغ من أهمية عثمان بك ومن شدة المصيبة التي نزلت به حين اضطر للهرب ان الناس استخدموا سنة هربه لتأريخ حوادثهم[٢] •

وازداد نفوذ الحليفين ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي اثر هرب عثمان بك • وحين شعرا بتآمر حاكم مصر محمد باشا

---

١ - الجبرتي ، ج ١ ، ١٦٧ •

٢ - انظر : مصطفى القينلي ، ١٩٢ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٥٠ - ١٥٣ ، ١٧٨ - ١٨٤ ، ١٩١ - ١٩٢ •

راغب ضدهما ، جمعا أعوانهما وهاجما المتآمرين ، واضطرا الباشا الى اعتزال منصبه ومغادرة مصر في أواخر ١١٦١/أواخر ١٧٤٨[١] . وأصبحت الرئاسة بعد ذلك الى هذين الحليفين وقلد ابراهيم جاويش القازدغلي ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية ، وكان من بينهم علي آغا الذي عرف بالغزاوي ، وحسين آغا الذي عرف بكشكش ، وأصبح لهذين شأن كبير فيما بعد . وقلد رضوان كاخيا الجلفي أيضاً ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية .

وشغل ابراهيم جاويش القازدغلي ، في هذه الاثناء ، وظيفة كاخيا الوقت[٢] في طائفة المستحفظان (الانكشارية) ، لمدة ثلاثة أشهر ، فأصبح يعرف بابراهيم كاخيا القازدغلي . واستكثر ابراهيم كاخيا من شراء المماليك ، وقلدهم المناصب العليا مثل امارة الحاج . وطغى المماليك بالتدريج بين أفراد طائفة القازدغلية ،وأصبحت السيادة لهم في هذه الطائفة فيما بعد . وتوفي ابراهيم كاخيا القازدغلي في صفر ١١٦٨/تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٧٥٤[٣] .

بقي رضوان كاخيا الجلفي يتمتع بالرئاسة في مصر اثر وفاة ابراهيم كاخيا القازدغلي ولكن سرعان ما ظهر ضعفه وعدم قدرته على الاحتفاظ بمركزه بسبب انصرافه الى الترف والبناء وأيضاً بسبب تحرك أعدائه ضده ومنافسة القازدغلية الأقوياء له ولاتباعه الجلفية . وتزعم المعارضة ضده مماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي المتوفى . وفشل أحد زعماء القازدغلية ويسمى عبد الرحمن كاخيا في تسخير مماليك ابراهيم كاخيا لخدمته ودعم نفوذه لأن كلا منهم كان يطمح الى الرئاسة . وقد بقي القازدغلية متكتلين الآن لمقاومة رضوان كاخيا الجلفي وأتباعه . واشتبكوا معه أخيراً في القتال

---

١ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ١٥٣ ـ ١٩١ .
٢ ـ انظر ص ٢٨٣ ، هامش ٢ .
٣ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ١٨٦ ، ١٩١ ـ ١٩٢ .

وتمكنوا من طرده من القاهرة ، وهرب باتجاه الصعيد . ثم توفي ولما تمض بعد ستة أشهر على وفاة شريكه ابراهيم كاخيا القازدغلي[1] .

واشتهر بعد وفاة رضوان كاخيا ثلاثة صناجق من أتباع ومماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي ، وهم : عثمان بك الجرجاوي ، وعلي بك الغزاوي (سمي بذلك بسبب هربه فيما بعد الى غزة) ، وحسين بك كشكش ، وقد تقلدوا الصنجقية حين كان ابراهيم كاخيا حياً . ومن مماليكه الذين نالوا الصنجقية بعد وفاته واشتهروا نذكر حسين بك الصابونجي وعلي بك الذي احتلت قواته فيما بعد بلاد الشام والذي عرف بالتركية بلقب بلوط قبان (Bulut Kapan ، أي قابض الغمام بسبب طموحه)[2] ، وبلقب جن علي (Cin ،Ali بالتركية ، أي علي الشيطان)[3] . وقد تسلم الرئاسة في مصر ، في هذه الفترة ، عثمان بك الجرجاوي ،ثم حسين بك الصابونجي الذي حاول القضاء على زملائه لابعاد خطرهم عنه . ولكنهم تمكنوا من قتله في صفر **١١٧١**/تشرين الاول - تشرين الثاني **١٧٥٧** ، وتسلم الرئاسة بعد ذلك علي بك الغزاوي (ويسمى أيضاً علي بك الكبير نسبة للقب « كبير البلد » الذي حصل عليه[4] ، ويجب تمييزه عن علي بك الذي احتلت قواته الشام والذي أشار اليه المؤرخون المتأخرون بلقب الكبير بسبب الشهرة التي وصل اليها وتحديه للسلطة العثمانية) .

وحاول علي بك الغزاوي القضاء على منافسه القوي عبد الرحمن كاخيا القازدغلي فعين أشخاصاً لقتله ، وسافر الى الحجاز أميراً على الحاج. ولكن عبد الرحمن كاخيا استغل غياب علي بك الغزاوي فنفى المتآمرين عليه ، بمساعدة علي بك بلوط قبان ، وعين هذا الأخير شيخاً للبلد ليحكم من ورائه ريثما يوطد سلطته . وحين علم علي بك الغزاوي بما جرى ،

---

١ - المصدر السابق ، ١٩٢ - ٢٠٣ .

٢ - انظر مثلا : المصدر السابق ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٠ . يكتب اللقب أحياناً « بلوط قبن » .

٣ - انظر مثلا : المصدر السابق ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

٤ - المصدر السابق ، جـ ١ ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ٣١٧ - ٣١٨ .

وهو في طريق عودته من الحجاز ، ترك امارة الحاج وهرب الى غزة ،وكان ذلك في أوائل ١١٧٤/آب ١٧٦٠ ، وعين على امارة الحاج من بعده حسين بك كشكش • وبـدأ أمر علي بك بلوط قبان يشتهر منذ هـذه الفترة ، وأصبح أمير الحاج في سنة ١١٧٧/١٧٦٤ • وقلد الصنجقية لعدد من أتباعه، وطغى نفوذه على نفوذ عبد الرحمن كاخيا القازدغلي الذي نفي بعد ذلك الى الحجاز[١] •

فترة علي بك (١٧٦٠ – ١٧٧٣) • –

كان علي بك مملوكاً شركسي الاصل ،من منطقة القفقاس[٢] • وقد برز في مصر في خدمة استاذه ابراهيم كاخيا القازدغلي الذي عينه خزنداره، أي المسؤول عن أمواله الخاصة ، ثم تدرج في مراتب الشهرة فأصبح صنجقاً وشيخ بلد وأمير حاج •

وحدث حين كان علي بك في الحجاز أميراً على الحاج المصري ، في سنة ١٧٦٤ ، أن اشتبك في نزاع مع عثمان باشا الكرجي والي الشام وأمير الحاج الشامي[٣] • وبعد أن عاد علي بك الى مصر بدأ بالقضاء على منافسيه فيها وكان أشهرهم حسين بك كشكش وهو شيخ البلد آنذاك • وقـد أغرى عثمان باشا الكرجي حسين بك كشكش على طرد علي بك من مصر • وبالفعل اضطر علي بك ، ازاء مقاومة حسين بك له ، الى الهرب الى غزة

---

١ – المصدر السابق ، ٢٥٠ – ٢٥٣ ، ٣١٧ – ٣١٨ ، ٣٨٠ •

٢ – انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٩ آ • ان أحسن الدراسات المنشورة عن علي بك هي التي كتبها البروفسور P. M. Holt ، انظر مؤلفاته التالية :

« The (Cloud - Catcher) : ‹Ali Bey the Great of Egypt », History Today, London, IX. 1 (January, 1959) pp. 48 - 58 ;

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : « The (Cloud - Catcher) »

انظر أيضاً : Egypt and the Fertile Crescent, pp. 93 - 98

أما ماكتب عن علي بك في دائرة المعارف الاسلامية في الطبعتين الاولى والثانية فتنقصه الدقة•

٣ – الجبرتي ، ج ١ ، ٢٥٣ ؛ ابن الصديق ، ٢ آ ؛ عبود الصباغ ، ١٥ ب ؛ الترك ،حوادث الزمان ، ٢٧ ب •

في رمضان ١١٧٩/آذار ١٧٦٦ • ثم ما لبث علي بك أن طرد من غزة بناء على أوامر عثمان باشا الكرجي ،وعاد الى مصر حيث بدأ صراعه من جديد ضد منافسيه[١] •

وتمكن علي بك في الفترة بين ١٧٦٧ و ١٧٦٩ من التغلب على جميع أعدائه في مصر بما في ذلك الشيخ همام ، شيخ قبيلة هوارة القوية في الصعيد[٢] وكان قائد قوات علي بك في هذا الصراع مملوكه محمد بك أبو الذهب • ويذكر أن علي بك اشترى مملوكه أبا الذهب في سنة ١١٧٥/ ١٧٦١ - ١٧٦٢ ،ثم أعتقه في سنة ١٧٦٤ • وحين قلد أبو الذهب الصنجقية في احتفال في القلعة ، وزع الذهب على الحاضرين ، وعلى الفقراء وغيرهم أثناء عودته الى منزله ، ولهذا عرف بأبي الذهب[٣] •

وقد اعترف محمد راقم باشا ،حاكم مصر العثماني ، في جمادى الثاني ١١٨٢/تشرين الاول ١٧٦٧ ، بنفوذ علي بك ، وأقره في مشيخة البلد ، وأبقى صناجقه في مناصبهم ،وكان ذلك بمثابةتكريس لسلطة علي بك[٤] • وتشجع علي بك بهذا الدعم العثماني ، اثر تغلبه على منافسيه ، فعزل حاكم مصر محمد راقم باشا متهماً اياه بالتآمر ضده ، وتقلد علي بك القائم مقامية في ١ شعبان ١١٨٢/١١ كانون الاول ١٧٦٨[٥] • وبعد حوالي شهرين من ذلك أرسل علي بك هدايا الى السلطان ، واشتكى اليه ضد عثمان باشا والي الشام متهماً اياه بايواء المصريين الفارين ، وطالب بعزله[٦] •

وفي سنة ١١٨٣/١٧٦٩ - ١٧٧٠ أصبح علي بك الحاكم الفعلي والقانوني في مصر بعد أن عزل الباشا الذي خلف محمد راقم باشا وأصبح

---

١ - ابن الصديق ، ٢ آ ؛ الجبرتي ،ج ١ ،٢٥٥ ؛ Hammer, XVI, 158 ؛ انظر ص ٣٧٠ •

٢ - الجبرتي ، ج ١ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ، ٣٨٠ ؛ ابن الصديق ، ٣ آ - ٤ آ ؛ انظر أيضاً :

PRO, S. P. 97/44 : Constantinople, 2. 1. 1768 ; Hammer, XVI, 158 - 160

٣ - انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٧ •

٤ - المصدر السابق ، ٢٥٨ •

٥ - المصدر السابق ، ٣٠٨ ؛ ابن الصديق ، ٥ ب •

٦ - الجبرتي ، ج ١ ، ٣٠٩ •

قائم مقام ، ومنع ورود الولاة العثمانيين الى مصر • وحضر علي بك صلاة الجمعة في جامع الداودية ، ويرجح أن ذلك كان في ١ رمضان ١١٨٣/٢٩ كانون الاول ١٧٦٩ ، فدعا الخطيب للسلطان ثم دعا لعلي بك[١] • وبذلك شارك علي بك السلطان في امتيازات السلطة وشعاراتها • وكانت الخطوة التالية أن أصدر علي بك عملة نقدية جديدة ذكر عليها اسمه بجانب اسم السلطان[٢] •

ورغم أن نفوذ السلطان العثماني أصبح الآن سطحياً في مصر ، فلم يعلن علي بك انفصاله عن السلطان أو يقطع علاقاته بـه • واستمر علي بك يتمتع بلقبي شيخ البلد وقائم مقام[٣] • ويشير نقش على قبر الامام الشافعي في القاهرة الى علي بك الذي عمر قبة القبر ، في ١٧٧٢/١١٨٠ ، بأنه عزيز مصر • وقد أطلق هذا اللقب في السابق على بعض وزراء وحكام مصر ، ومن بينهم سلاطين المماليك[٤] •

ووطد علي بك الامن في مصر ، وأقام العدل بين الناس ، ولم يراع في ذلك أحداً • وسر الشعب ، بصورة عامة ، من حكمه • وملأ علي بك بذلك الفراغ الذي خلفه ضعف السلطةالعثمانية • وبنى علي بك عدة أبنية دينية هامة منها الجامع والقبة عند مقام أحمد البدوي في طنطا • وقد أكسبته هذه الاعمال عطف العلماء •

ونتساءل هنا عن الاسباب التي جعلت علي بك يبقي على علاقاته الرسمية مع السلطان • لا شك أن علي بك قد بلغ درجة كبيرة من السلطة الفعلية في مصر ، ولكن اعلان انفصاله عن السلطان سيسبب لـه مشاكل

---

١ ــ المصدر السابق ، ٣٣٤ ، ٣٨٠ ــ ٣٨١ •

٢ ــ ابن الصديق ، ٥ ب ؛ PRO, S. P. 97/46 : Constantinople, 3. 7. 1770.

٣ ــ انظر : A. E. B[1] 1034 : Seyde (Extrait des Registres, : Le Caire. 16, 2. 1770, Seyde, 2. 3. 1770) ;

انظر أيضاً ص ٣٧٣ حول بيانه الى الدمشقيين وذكر القابه •

٤ ــ انظر ما كتبه G. Wiet تحت عنوان Ali Bey، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ؛ انظر حول معنى « عزيز مصر » ما كتبه B. Lewis تحت عنوان Aziz Misr، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ؛ انظر أيضاً :

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, p. 96.

كثيرة • فالسلطان العثماني ، مهما بلغ ضعفه ، كان يعتبر زعيم المسلمين ، وأي انفصـال عنه أو ثورة علنية عليه لايمكن أن يتقبلها المسلمون بسهولة• وبالاضافة الى ذلك ، فانعلي بك ، رغم سيطرته في مصر ، لم يبدأ بعد في التوسع خارج حدوده ، ولـم يكن هناك بالتالي ما يقلق السلطان ويهدد نفوذه بدرجة كبيرة ، لاسـيما وأن الدولة العثمانية كانت منشغلة آنئذ في حرب كبرى مع روسيا • وقد الفت الدولة العثمانية ، قبل ذلك ، ظهور حكام محليين أقوياء مثل ولاة بغداد وطرابلس الغرب • ولـم يكن ظهور علي بك أمراً طارئاً في تاريخ مصر بل كان ذروة تطورات سياسية وصراع على النفوذ بين مختلف القوى في مصر ، وقد تغلب المماليك بنتيجة ذلك • ولم تكن أيضاً الدولة العثمانية مجرد شاهد على هذا الصراع بل كانت طرفاً فيه ، وان ضعفها هو الذي ساعد على اشتداده • وقد استفاد علي بك من بعد مصر عن استانبول ، ومن مركزها الجغرافي ، ومن قوة أتباعه ومماليكه ازاء ضعف الدولة ، ومن الوضـع الدولي المناسب ـ وهي الاسـباب التي أعاقت في الوقت ذاتـه الدولة العثمانية عن البطش بـه ـ فوطد نفوذه • وما دام علي بك يحتفظ ببعض مظاهر السلطة الرسـمية للسلطان ، فقـد تغاضت الدولة عنه • ولو أعلن انفصاله ، فان الدولة ، مهما بلغ ضعفها ، لن تتسامح بذلك ، كما رأينا من ارسالها الجيوش ضده حين احتلت قواته بلاد الشام • ومن الطبيعي أن تقرر القوة نتيجة الصراع بين الطرفين •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر تطلع الى التوسع خارجها • وقد أتيحت له فرصة التدخل في الحجاز في سنة ١١٨٤/١٧٧٠ حين طلب منه السلطان ، كمـــا ادعى علي بك ، اعادة الشريف عبد الله الى منصبه حاكماً في مكة عوضـاً عن الشريف مسـاعد الذي اغتصب الحكم منـه • وعين علي بك مملوكه محمد بك أبا الذهب قائداً للقوات التي أرسلها الى الحجاز والتي أعادت الشريف عبد الله الى منصبه • ويبدو أن علي بك قد اتخذ قضية الشريف عبد الله ذريعة للتدخل في شؤون الحجاز بدلالة تعيينه أحد المماليك ، وهو حسن بك ، قائم مقام على جدة (ومن هنا تسميته

حسن الجداوي) مكان الحاكم العثماني الذي هرب من جدة • وبعد عودة أبي الذهب الى مصر ، عزل الشريف عبد الله من جديد من قبل الشريف أحمد الذي كان قد خلف الشريف مساعد اثر وفاته وذلك قبيل وصول الحملة المصرية الى مكة • وطرد الشريف أحمد حسن بك الجداوي وقواته فعادوا الى مصر[1] •

ورغم أن الانتصارات التي حققتها حملة علي بك في الحجاز لم تدم طويلا ، الا أن الحملة تعتبر هامة من نواحي متعددة • ان الاكتفاء بتعيين حسن بك قائم مقام ، وليس والياً ، في جدة مكان واليها العثماني يظهر أن علي بك لم يكن راغباً في معاداة السلطان العثماني علناً في هذه المرحلة على الأقل • ويعتبر هذا الموقف استمراراً للموقف الذي اتخذه علي بك في مصر حين اكتفى باعلان نفسه قائم مقام • وان ارسال علي بك جيوشه الى الحجاز وجعل نفسه سيداً فيها ، أو بالأحرى حكماً في شؤونها ، أكسبه نفوذاً سياسياً ودينياً • وقد هدف علي بك أيضاً من حملته خدمة مصالحه الاقتصادية ، ولعل ذلك كان أهم هدف له ، اذ ان الاستيلاء على جدة سيمكنه من التصرف بوارداتها الضخمة من عائدات الجمارك • ولم يسمح آنذاك ، أو في الفترات السابقة ، للمراكب الاوربية بتجاوز ميناء جدة الى السويس ، وذلك لسببين رئيسيين : أولا ، لتحاشي تهديد هذه المراكب للأماكن المقدسة في الحجاز ، وثانياً ، لكي تدفع في جدة المكوس على البضائع التي تحملها هذه المراكب ، وذلك لسد نفقات الحاكم العثماني في جدة ، بينما اذا دفعت هذه المكوس في السويس فستكون تحت رحمة السلطات التي تتصرف في شؤون مصر • وكان من مصلحة التجار الاجانب الفرنسيين والانكليز ، الذين يتاجرون بين الشرق الاقصى وأوروبا ، ايصال بضائعهم مباشرة الى ميناء السويس ، ثم نقلها براً الى البحر الابيض المتوسط • ومن هنا اهتمام شركة الهند الشرقية الانكليزية ، والخطط

---

١ – انظر الجبرتي ، ج ١ ، ٣٥٠ – ٣٥١ ، ج ٣ ، ١٧١ ؛ ابن الصديق ، ٦ آ – ٧ ب ، ١٩ آ – ١٩ ب ؛ Volney, 81 .

الفرنسية ، في هذه الفترة ، لربط البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط عـن طريق السويس • ولكن شـركة بـلاد المشـرق Levant Company الانكليزية ، المرتكزة على الامبراطورية العثمانية ، وخاصة بلاد الشام ، بقيت تعارض مشروع فتح طريق السويس لانه يهدد وجودها[١] •

ان عدم استخدام طريق السويس على نطاق واسع من قبل التجار الاجانب حرم مصر من واردات مالية كبيرة • ولا أدل على ضآلة النشاط التجاري الفرنسي في مصر في هذه الفترة من قلة عدد التجار الفرنسيين المقيمين فيها[٢] • ولم ينشط التجار الانكليز في مصر الا في سنة **١٧٧٣** حين سمح لهم أبو الذهب بنقل بضائعهم عبر السويس • وبقيت ، مع ذلك ، بعض العقبات تحد من نشاطهم[٣] • وحرم علي بك ، من جراء ذلك ، من واردات مالية هامة • ورغم أنه قد استفاد من مصادرة أموال أعدائه الذين قضى عليهم في مصر ، الا انه كان عليه أن يبحث عن موارد اقتصادية خارج مصر لتمويل مشاريعه الكبرى في بناء دولة عظيمةواحياء السلطنة المملوكية•

وبعد أن عادت جيوش علي بك من الحجاز ، وجه أنظاره للتوسع في بلاد الشام • وبالاضافة الى الاهداف السياسية ، فقد كان علي بك يطمع بالحصول على موارد اقتصادية باحتلاله بلاد الشام • وكان نجاح قواته في الحجاز مشجعاً له لارسالهم في حملة أخرى • كما أن من مصلحة علي بك الآن تحويل أنظار قادتـه العسـكريين للتوسـع خارج مصر ليتجنب منافستهم له اذا بقوا بقربه • وقد ذكرنا فيما سبق[٤] الاسباب الاخرى التي جعلت علي بك يوجه حملته على بلاد الشام ، وعالجنا مراحل الفتحواحتلال دمشق ، ثم انسحاب أبي الذهب ورجوعه الى مصر •

---

١ ـ انظر : Bruce, Vol., 6, pp. 540 - 541 ; Wood, 167 - 168 ; Hammer, XVI, 351 ; Volney, 81 ; PRO, S. P. 97/52 : Constantinople, 3. 1. 1776 ; F. Charles - Roux, « La Politique Française en Egypte à la fin du XVIIIe Siècle », Revue Historique, 91 (1906), pp. 2 - 3.

٢ ـ انظر : Charles - Roux, 2

٣ ـ انظر : Bruce, VI, 450 - 541 ; Wood, 168 - 169

٤ ـ انظر ص ٣٧٠ ـ ٣٧٧ •

ويعتبر انسحاب أبي الذهب من بلاد الشام بداية تحوله ضد علي بك. صحيح أن أسباباً عديدة[1] جعلت أبا الذهب يتخلى عن فتوحاتـه في بلاد الشام، ولكن هذه كانت كلها أسباباً خارجية. والشيء الهام انها لاقت قبولا في نفس أبي الذهب. لقد أمره علي بك، كما ذكر الجبرتي[2]، « أن يستمر في سيره ويتعدى الحدود ويستولي على الممالك الى حيث شاء »، ولكن أبا الذهب، عوضاً عن ذلك، فضل التراجع طمعاً بالحكم في مصر بعد أن ضمن، كما يبدو، تأييد السلطان له في ذلك.

وليس بغريب أن يدب النزاع بين محمد بك أبي الذهب وعلي بك لان الصراع على السلطة بين مماليك مصر كان في أوجه في هذه الفترة. وزاد في الامر أن أبا الذهب قد حاز على درجة كبيرة من السمعة العسكرية، وفاق بذلك سمعة علي بك نفسه. لقد قضى أبو الذهب على خصوم علي بك في مصر، وقاد بنجاح الحملة المصرية الى الحجاز، ونجح أيضـاً في احتلال دمشق، وازدادت سلطته الى حد كبير، ومع ذلك كان لايزال خاضعاً لأوامر علي بك. وقد شعر أبو الذهب والمماليك في بلاد الشام انهم في أرض غريبة، ولذلك عادوا الى مصر. وفضل أبو الذهب أن يكون والياً خاضعاً للسلطان في مصر من أن يكون قائـداً في بلاد الشـام مهدداً بالخطر، وأهم من ذلك، خاضعاً لمملوك آخر هو علي بك[3].

ولم ينشب النزاع العلني بين علي بك ومحمد بك أبي الذهب مباشرة بعد وصول هذا الاخير الى القاهرة في أواخر رجب ١١٨٥/أوائل تشرين الثاني ١٧٧١. وكان علي بك، الذي لـم ينقطع عن ارسال النجدات الى حليفه ظاهر حتى بعد انسحاب أبي الذهب[4]، يعمل في الظاهر على حمل

---

١ ـ انظر ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

٢ ـ الجبرتي، ج ١، ٣٦٥؛ انظر أيضاً؛

A. E. B¹ 334, Le Caire, 24. 6. 1771, Le Caire, 5. 12. 1771

٣ ـ انظر تحليل موقف أبي الذهب حين انسحابه في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 274 - 277.

٤ ـ انظر ص ٣٨٠.

أبي الذهب على العودة الى فتح بلاد الشام. ولكن الاثنين كانا في الواقع يعدان العدة للقتال. وفي ٤ شوال ١١٨٥/١١ كانون الثاني ١٧٧٢ حاول علي بك وأتباعه اغتيال أبي الذهب، ولكنه تمكن من الهرب الى الصعيد حيث انضم اليه مؤيدوه وبقايا القاسمية اللاجئين في الصعيد، وأيضاً بدو هوارة الذين بطش بهم علي بك في السابق. وأرسل علي بك حملة بقيادة اسماعيل بك، في أواخر ذي القعدة / أوائل آذار، لقتال أبي الذهب في الصعيد، ولكن اسماعيل بك انضم الى أبي الذهب. والجدير بالذكر أن اسماعيل بك وأبا الذهب اشتركا في الحملة على بلاد الشام، وان اسماعيل بك نصح أبا الذهب بالانسحاب من دمشق. وبدأ علي بك باعداد حملة أخرى ضد أبي الذهب. وكانت قواته قد أرهقت، فقلد رتبة الصنجقية الى سبعة أشخاص، ليسوا أهلا لذلك، وزودهم بالعتاد والجنود، وأرسلهم للقتال. ولا أدل على عدم تمرسهم بالقتال من اطلاق أهل مصر عليهم لقب السبع بنات. وتقدمت قوات أبي الذهب باتجاه القاهرة، وخرجت قوات علي بك، بقيادة علي بك الطنطاوي، لقتالها. وحدث الاصطدام بين الفريقين في ضواحي القاهرة في محرم ١١٨٦/نيسان ١٧٧٢، وهزمت قوات علي بك. وقد شعر علي بك بضعف موقفه فهرب مع أتباعه في ليلة ٢٥ محرم/٢٨ نيسان باتجاه بلاد الشام، ولجأ الى حليفه ظاهر العمر. ودخل أبو الذهب الى القاهرة في اليوم التالي، وأصبح سيد الموقف فيها، وأبطل النقود التي كان علي بك قد صكها وذكر عليها اسمه[1]. وأحدث ابطال هذه النقود اضطراباً اقتصادياً في منطقة ظاهر العمر حيث شاع استعمالها، وهبطت قيمتها تبعاً لذلك، الى مايقرب النصف. وبدأت هذه النقود تهرب من مصر الى عكا[2].

واشترك علي بك مع ظاهر العمر وحليفهما الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط ببعض العمليات العسكرية في فلسطين، وخاصة

---

١ ـ انظر : الجبرتي، ج ١، ٣٦٥ ـ ٣٦٧، ٣٧١، ٤١٧ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1035 : Seyde, 18. 2. 1772, Seyde, 30. 3. 1772, Seyde, 21. 4. 1772 (Bulletin).

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 20. 7. 1772 (Bulletin), Seyde, 16. 8. 1772.

على ساحل بلاد الشام الجنوبية[1] • ولكن هدف علي بك الاساسي كان العودة الى مصر للقضاء على أبي الذهب • وفي ١٦ شباط ١٧٧٣ استسلمت يافا ، بعد حصار دام حوالي ثمانية أشهر ، لقوات ظاهر وعلي بك ، وكانت خاضعة لوالي الشام • وشعر علي بك أن طريق عودته الى مصر أصبح ممهداً • وكانت قد وصلته رسائل مزورة من بعض زعماء المماليك في مصر تعده بالمساعدة اذا عاد الى القاهرة ، وكان ذلك للايقاع به بتدبير من أبي الذهب • وحاول ظاهر العمر منع علي بك من الذهاب الى مصر لشكه بصحة الرسائل ولعدم تمكنه ، في هذه الاثناء ، من مساعدته كثيراً بسبب انتظاره مجيء القوات الروسية لدعمه محلياً ، وأيضاً بسبب انشغال قوات ظاهر المحلية بشؤون الموسم الزراعية • وزوده ظاهر ، مع ذلك ، ببعض قواته ، وخرج علي بك من بلاد الشام باتجاه مصر في أوائل أذار ١٧٧٣ • وفي القتال الذي دار بينه وبين أبي الذهب في ٥ صفر ٢٨/١١٨٧ نيسان ١٧٧٣ ، في الصالحية ، على الطريق المؤدية الى القاهرة ، جرح علي بك ، وهزمت قواته ، وتوفي في ١٥ صفر/٨ أيار ، وأصبحت السيطرة في مصر لابي الذهب[2] •

سيطرة أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ ـ ١٧٩٨) • ـ

تصرف محمد بك أبو الذهب بالسلطة الفعلية في مصر ، على غرار علي بك • ولم يكن للوالي العثماني خليل باشا ، الذيوصل الى القاهرة في ١٧ ربيع الاول ٨/١١٨٧ تموز ١٧٧٣ ، سوى سلطة اسمية • وقد أرسل السلطان الهدايا الى أبي الذهب مما زاد في دعم موقفه[3] • وكان هدف السلطان من ذلك التعبير عن رضاه نحو أبي الذهب بسبب قتله لعلي بك ،

---

١ ـ انظر ص ٣٨٢ •

٢ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٣٧٦ ـ ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤١٧ ـ ٤١٨ ؛ عبود الصباغ ، ٢٣ب ـ ٢٤ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٠٨ ـ ١١٠ ؛ انظر أيضاً :

A. E. B[1] 1036 : Seyde, 22. 4. 1773 (Bulletin), Seyde, 14. 6. 1773 ; PRO, S. P. Constantinople, 17. 6. 1733 ; Hammer, XVI, 353 - 354 ; Volney, 259 - 260.

٣ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٤١٨ •

وأيضاً لاظهار نفوذه على أبي الذهب ليتزعم في مصر بموافقته وليس رغماً عنه . ولم يطرد أبو الذهب ، كما فعل علي بك ، الباشا العثماني من مصر ، ولكنه سعى لدى السلطان لتعيين أحد مقربيه من الموظفين العثمانيين ، وهو مصطفى باشا النابلسي ، والياً على مصر مكان خليل باشا ، وتم له ذلك في ربيع الثاني ١١٨٨/حزيران ـ تموز ١٧٧٤[1] . وهكذا أصبح باشا مصر العثماني صنيعة لابي الذهب . وانصرف أبو الذهب ، اثر استتباب السلطة له ، الى تخليد حكمه ببناء الابنية المختلفة ، ومنها مدرسته التي بناها تجاه الجامع الازهر .

وجه أبو الذهب أنظاره ، بعد ذلك ، للتوسع في بلاد الشام . وكان منذ أن قتل علي بك يحاول التدخل في شؤون الشام . وقد أرسل أبو الذهب في ٢٧ آب ١٧٧٣ رسولا الى عكا أبلغ ظاهر العمر بوجوب اعادة الممتلكات التي تركها علي بك عنده ، وباخلاء نابلس والرملة وغزة ويافا ، التي ادعى أبو الذهب أن السلطان قد أعطاه اياها[2] . وقد لايكون صحيحاً ان السلطان منح أبا الذهب حكم هـذه المناطق ، ولكن المهم هنا عداء أبي الذهب لظاهر واستغلال أبي الذهب تأييد السلطان له ليتوسع في بلاد الشام على غرار علي بك .

خرج أبو الذهب من مصر على رأس جيش كبير في أوائل محرم ١١٨٩/أوائل آذار ١٧٧٥ قاصداً بلاد الشام للقضاء على ظاهر العمر ، وأقام مكانه في مصر مملوكه ابراهيم بك الـذي اشتهر فيما بعد[3] . وبدا كأن أبا الذهب يخدم ، بالدرجة الاولى ، مصلحة السلطان بمحاولته القضاء على أحد كبار الثائرين في بلاد الشام . ولكن القضاء على ظاهر لم يكن سوى

---

١ ـ المصدر السابق ، ٤١٣ ، ٤١٨ . ليس هناك من دليل على أن مصطفى باشا النابلسي الذي عين والياً على مصر والذي وصفه الجبرتي انه من أولاد العضنم ، ينتسب بالفعل الى الاسرة العظمية في الشام .

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1036 : Seyde, 28. 8. 1773, Seyde, 31. 8. 1773, Seyde, 2. 9. 1773.

٣ ـ الجبرتي ، ج ٣ ، ١٦٧ ؛ انظر ص ٤٠٩ .

ذريعة اتخذها أبو الذهب لاسباغ الشرعية على عمله ، وكسب تأييد السلطان والسكان المحليين ،وللتمويه على أهدافه الحقيقية في التوسع واعادة السلطنة المملوكية • وقد أفهم أبو الذهب قادة جيشه وجنوده ، اثر احتلاله ليافا وعكا وهرب ظاهر العمر من وجهه ، وقبيل وفاته بيوم واحد ، انه « يريد تقليدهم المناصب والاحكام بالديار الشامية وبلاد السواحل[1] » ، وفي هذا دلالة واضحة على نيته بالتوسع لحسابه وتأكيد بأن محاولته القضاء على ظاهر انما هي وسيلة اتخذها للتدخل في شؤون بلاد الشام • ويشبه أبو الذهب في ذلك أستاذه علي بك الذي سبق وأعلن ، حين أرسل قواته لاحتلال بلاد الشام ، ان هدفه انقاذ السكان المحليين من ظلم عثمان باشا الكرجي والي الشام • ولم يشكل ظاهر العمر الآن ،بعد وفاة حليفه علي بك ونظراً لانشغاله بثورات أبنائه ، خطراً كبيراً يستدعي تدخل أبي الذهب ضده • ولا أدل على ضعف ظاهر من سرعة استسلام المناطق ، التي كان يسيطر عليها ، لابي الذهب •

وقد استسلمت غزة في ٢٩ محرم ١١٨٩/١ نيسان ١٧٧٥ لقوات أبي الذهب ، وتبعتها الرملة ثم يافا • وقد قاوم سكان يافا هجوم أبي الذهب عليهم ، وحين تم له فتح المدينة فتك بكثير من سكانها • ويبدو أن ذلك أرهب المناطق المجاورة ، فهرب ظاهر من عكا واستسلمت هذه المدينة لأبي الذهب بدون مقاومة ، كما خضعت صيدا لقوات أبي الذهب البحرية • وبعث أبو الذهب بأنباء انتصاره الى مصر فأقيمت فيها معالم الزينة مدة ثلاثة أيام ، وذلك في أوائل ربيع الثاني/أوائل حزيران • وذكر أن أبا الذهب أرسل يطلب من السلطان العثماني اعطاءه حكم مصر وبلاد الشام وان السلطان وافق على ذلك • وما كاد أبو الذهب يعلم بموافقة السلطان حتى

---

١ ـ المصدر السابق ، ج ١ ، ٤١٤ •

توفي في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩/١٠ حزيران ١٧٧٥[١] • وتخلى جيش أبي الذهب عن فتوحاته ، وانسحب عائداً الى مصر •

وكانت حرب السلطان مع روسيا قد انتهت في سنة ١٧٧٤ ، ووقع معها معاهدة كجك قاينارجة في تموز ١٧٧٤ • وتمكن السلطان من ارسال قوات بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء على ظاهر العمر • وقد وصلت هذه القوات الى سواحل بلاد الشام الجنوبية بعد حوالي شهرين من وفاة أبي الذهب[٢] •

وتسلم الرئاسة في مصر بعد وفاة محمد بك أبي الذهب مملوكاه ابراهيم بك ومراد بك ، وعرف حزبهما بالمحمدية نسبة لاستاذهما محمد بك أبي الذهب • وعارضهما حزب العلوية المؤلف من بعض أتباع ومماليك علي بك الذين طمحوا الى السلطة • وكان ابراهيم بك شيخ البلد وكبير القوم ، ولا ينفذ أمراً بدون اطلاع زميله مراد بك • ونافسهما على الرئاسة اسماعيل بك الذي كان بالأصل مملوكاً عند ابراهيم كاخيا القازدغلي ، ثم جعله علي بك « تشراكاً »[٣] عنده ، واستخدمه في فتح بلاد الشام وفي قتال أبي الذهب الذي ثار عليه ، ولكنه انضم الى أبي الذهب ، وخان سيده علي بك • وقد شغل اسماعيل بك مناصب أمير الحاج والدفتردارية • وخشي ابراهيم بك ومراد بك منافسة اسماعيل بك لهما على الرئاسة ، لاسيما وانه

---

١ ـ يذكر الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٤ ، ان أبا الذهب توفي في ٨ ربيع الثاني ، بينما يذكر القنصل الفرنسي في صيدا الذي عاصر الحادث انه توفي في ١٠ حزيران ؛ انظر :
A. E. B[1] 1037 : Seyde, 25. 6. 1775

انظر أيضاً حول الاحداث السابقة :

A. E. B[1] 1037 : Seyde, 7. 4. 1775 (Bulletin), Seyde, 17. 5. 1775, Seyde, 5. 6. 1775 ; PRO, S. P. 110/43 : Aleppo, 24. 6. 1775 ; PRO, S. P. 97/51 : Constantinople, 3. 7. 1775 ; A. E. B[1] 422 : Constantinople, 3. 7. 1775 ; Volney, 261 - 262.

انظر أيضاً : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١١٠ ـ ١١١ ، تاريخ الجزار ، ١٣٠ ـ ١٣٧ ؛ عبود الصباغ ، ٣٠ آ ـ ٣٣ آ ؛ بريك ، ١٠٢ ـ ١٠٣ ؛ انظر ص ٣٨٣ •

٢ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٣٣ آ ؛ A. E. B[1] 442 : Constantinople, 3. 7. 1775

٣ ـ انظر ص ٢٨١ •

كان يتمتع بنفوذ عظيم وشهرة كبيرة • واصطدما معه ، فتغلب عليهما ، وطردهما من القاهرة • وأصبح اسماعيك بك شيخ البلد واعترف به الباشا العثماني ، وكان ذلك في ٢٢ جمادى الثاني ١١٩١/٢٨ تموز ١٧٧٧[١] •

وهرب ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد ، وأخذا يتحينان الفرصة للقضاء على اسماعيل بك ومؤيديه وأغلبهم من أتباع علي بك • وقد استوليا على أموال الميري في الصعيد ،وازدادت قوتهما ، ولم يستطع حاكم الصعيد، الموالي لسلطات القاهرة ، مقاومتهما • وخرج اسماعيل بك من القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١١٩١/٢١ كانون الاول ١٧٧٧ باتجاه الصعيد ، لقتال قوات ابراهيم بك ومراد بك • ولكنه شعر بتآمر بعض قواته ضده ، فعاد الى القاهرة في ٩ محرم ١١٩٢/٧ شباط ١٧٧٨ • وتناقص نفوذه في القاهرة اثر ذلك • ثم فوجىء بأنباء تقدم خصومه من الصعيد نحو القاهرة ، فهرب منها باتجاه غزة ، ثم ذهب الى استانبول • ودخل ابراهيم بك ومراد بك وقواتهما الى القاهرة • وفي ٢١ محرم ١١٩٢ استقر ابراهيم بك في مشيخة البلد واعترف به الباشا العثماني الذي كان مغلوباً على أمره ويمنح اعترافه لكل من يفوز بالسلطة • وعاد اسماعيل بك من استانبول ، بعد فترة قصيرة ، وتوجه نحو الصعيد • وكانت قوته قد ضعفت كثيراً ، وخرج لقتاله مراد بك ، ولكنه لم يعثر عليه • وبقي اسماعيل بك غائباً عن مسرح السياسة حتى مجيء الحملة العثمانية الى مصر في سنة ١٧٨٦ ، فتعاون مع قائدها القبطان حسن باشا[٢] •

وحدثت في سنة ١١٩٨/١٧٨٣ ـ ١٧٨٤ فتنة كبيرة بين ابراهيم بك

---

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٤ ، ج ٢ ، ٢ ـ ٣ ، ٨ ـ ١١ ، ٢٠ ، ٢١٩ ، ج ٣ ، ١٦٧ ـ ١٦٨ ، ج ٤ ، ٢٦٣ ؛ انظر أيضاً : مخطوط مجهول المؤلف بعنوان : تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ (حتى ذي القعدة ١١٩٨) ، توجد نسخة عنه في المكتبة الوطنية بباريس ، برقم Arabe 1856 انظر الاوراق ، ١ ب ـ ٥ ب : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1856 ؛ انظر أيضاً : Volney, 94.

٢ ـ انظر حول الاحداث السابقة : الجبرتي ، ج ٢ ، ١٢ ـ ٢٥ ، ٢٢٠ ؛ مخطوط باريس ،رقم Arabe 1856 ، ٦ آ ـ ١٦ ب •

ومراد بك سببها طموح مراد بك للسلطة ومحاولة ابراهيم بك الاستئثار بها • وزاد من شدة الفتنة محاولة اتباع كل من الزعيمين الايقاع بأتباع الزعيمالآخر • وبعد أن توصل مراد بك الى طرد ابراهيم بك من القاهرة والحصول على مشيخة البلد ومنصب قائم مقام ، تصالح الزعيمان في ١٠ ربيع الثاني ١١٩٩/٢٠ شباط ١٧٨٥ ، وعادا الى ممارسة السلطة الفعلية في مصر[1] • واستمرا على ذلك حتى وصول الحملة العثمانية ضدهما في ١٧٨٦ •

وصلت في أوائل رجب ١٢٠٠/أوائل أيار ١٧٨٦ أنباء الى القاهرة حول وصول طلائع حملة عثمانية بحرية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، الى الاسكندرية • وفي ١٠ رجب/٩ أيار وصل رسول عثماني الى القاهرة يطالب ابراهيم بك ومراد بك بما انكسر عليهما من أموال للدولة ،وأنذرهما بتسليم ذلك خلال ثلاثين يوماً • وجاء رسول آخر بالمعنى نفسه في ٥ رمضان/٢ تموز • واستعطف ابراهيم بك ومراد بك السلطات العثمانية لامهالهما بدفع الاموال ، واتخذا ، في الوقت نفسه ، الاستعدادات للدفاع ، واتصلا بعرب الهنادى في البحيرة • ونزلت القوات العثمانية في الاسكندرية ودمياط ورشيد • وحاول القبطان حسن باشا اجتذاب السكان المحليين اليه فأرسل عدة فرمانات باللغة العربية الى مشايخ البلاد وزعماء البدو يعلمهم فيها بتخفيض الضرائب ، وبرفع الظلم ، وبالعودة الى الانظمة التي صدرت في عهد سليمان القانوني • فسر الناس بذلك ، وتغيرت نياتهم نحو زعماء المماليك •

ولما رأى ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما أن الزمن يسير لصالح حسن باشا القبطان قررا مقاومته ، ولكن حدث خلاف في الرأي بينهما حول أسلوب القتال • وكان رأي ابراهيم بك ملازمة مراد بك له وقيامهما بعمل مشترك ضد حسن باشا ، واذا رأيا أن لا قدرة لهما على ذلك أمكنهما الهرب

---

١ - الجبرتي ، ج ٢ ، ٧٩ - ٨٣ ، ٩٢ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1856 ، ٢٦ آ- ٣١ آ (حيث ينتهي المخطوط فجأة) •

وانتظار الفرصة السانحة ، كانسحاب حسن باشا من مصر ، للعودة • وحاول مراد بك الانفراد بالمقاومة ، وتخلف ابراهيم بك في القاهرة حيث حاول التودد الى العلماء لكسبهم الى جانبه • ولعب الباشا العثماني ، الذي تقوى بمجيء حسن باشا ، دوراً سياسياً بارزاً في القاهرة في هذه الاثناء • وقد هزمت قوات مراد بك في الرحمانية ، قرب رشيد ، حين اصطدامها بقوات حسن باشا • وفشل مراد بك وابراهيم بك بالقيام بعمل مشترك للدفاع عن القاهرة ، وهربا من بولاق حيث حاولا التمركز لمقاومة تقدم القوات العثمانية ، واتجها نحو الصعيد (الوجه القبلي) ، وعرفا مع أتباعهما ، تبعاً لذلك ، بالجماعة أو الامراء القبليين ، وأحياناً بالقبالى أو القبليين • ودخل حسن باشا الى القاهرة في ١٢ شوال ١٢٠٠/٨ آب ١٧٨٦[1] •

وعمد حسن باشا الى التودد الى الزعماء المحليين في القاهرة فخلع على كثير من الصناجق والامراء لكسب تأييدهم ، وعطف على الاشراف • وقد صادر أموال الامراء الهاربين • وطرد من القاهرة البطالين الذين قدموا اليها من الريف ، وذلك في محاولة منه للتخفيف من الازمة الاجتماعية والاقتصادية فيها • ووطد حسن باشا الأمن ، ومنع العساكر من الانتساب الى الحرف ، فسر الحرفيون بذلك • وقد عمد بالمقابل الى مصادرة الاموال ، بصورة غير شرعية ، بحجة تمويل قافلة الحاج • وقاسى كثيرون من ذلك ، وخاصة التجار •

واهتم حسن باشا بتوطيد سلطته خاصة في البحيرة لتأمين خطوط مواصلاته مع الموانيء الساحلية • وقد عين كاشفاً على اقليم البحيرة ، وشدد قبضته على البدو الثائرين فيه • وخلع على شيخ بدو بني حبيب في البحيرة لطاعته ، وأوكل اليه جمع الضرائب في المنطقة الممتدة بين بولاق وحدود دمياط ورشيد • وكان علي بك قد جرد مشايخ بني حبيب من هذه الصلاحيات التي كانت سابقاً في عهدتهم • وحين وطد حسن باشا سلطته ولم يعد بحاجة

---

١ ــ انظر الجبرتي : ج ٢ ، ١٠٥ ــ ١١٤ •

لدعم بني حبيب جردهم من مهمة جمع الضرائب ، وعهد بها الى أحد الصناجق •

واستدعى حسن باشا اسماعيل بك الهارب ، وهدفه من ذلك أن يملأ به الفراغ الذي خلفه في السلطة المحلية غياب شيخ البلد ابراهيم بك وزميله وان يستخدمه لمعارضة هذين الزعيمين الهاربين • ودخل اسماعيل بك الى القاهرة في ٧ محرم ١٢٠١/٣٠ تشرين الاول ١٧٨٦ ، وجعله حسن باشا شيخاً للبلد • ولم يكتف حسن باشا بهذا الاجراء لايجاد توازن في القوى بل عمد الى ارسال عدة حملات الى الصعيد للقضاء على الهاربين • وبعد عودة اسماعيل بك الى القاهرة أرسله حسن باشا على رأس حملة ضد العصاة في الصعيد مستفيداً من نفوذه السابق • وكان هدف حسن باشا من ذلك ايجاد معارضة محلية قوية للعصاة المحليين الهاربين ليتاح له الاهتمام بشؤون القاهرة وتوطيد السلطة العثمانية فيها • ولكن ابراهيم بك ومراد بك صدا الحملات التي أرسلت ضدهما ، وبقيت لهما السيطرة في الصعيد •

غادر حسن باشا القاهرة في ٢٣ ذي الحجة ١٢٠١/٦ تشرين الاول ١٧٨٧ متوجهاً الى استانبول بسبب حاجة الدولة اليه للاشتراك في حرب جديدة مع روسيا التي استأنفت توسعها على حساب العثمانيين في بلاد القرم • وقد أبقى حسن باشا اسماعيل بك في مشيخة البلد وزوده بالعتاد ، وترك في مصر الفاً وخمسمائة جندي • وصدر أمر بالعفو عن ابراهيم بك ومراد بك شريطة أن يقيما متفرقين خارج القاهرة • واصطحب حسن باشا معه بعض الرهائن لضمان طاعة المتمردين في مصر[1] •

واستغل اسماعيل بك انفراده بالرئاسة في مصر فعمد الى ابتزاز الاموال • وقد اكثر من شراء المماليك وبناء الابنية الخاصة في القاهرة • واشتدت النقمة ضده • واغتنم ابراهيم بك ومراد بك فرصة انسحاب حسن باشا ثم وصول أنباء وفاته في منتصف رجب ١٢٠٤/آخر آذار ١٧٩٠ وانشغال الدولة بالحرب مع روسيا ، لاستعادة سلطتهما • وحدث طاعون ،

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : الجبرتي ، ج ٢ ، ١١٥ ـ ١٢٥ ، ١٣٠ ـ ١٤٧ •

في هذه الاثناء ، في مصر قضى على كثيرين ومن بينهم اسماعيل بك • وكانت وفاته في ١٦ شعبان ١٢٠٥/٢٠ نيسان ١٧٩١ • وقد أصبح شيخ البلد وكبير القوم من بعده تابعه عثمان بك طبل الذي اختير كحل وسط بسبب منازعة من هم أقوى منه سلطة على خلافة اسماعيل بك[١] •

ولم يتمكن عثمان بك طبل من ملء الفراغ الذي تركه موت اسماعيل بك بسبب ازدياد تهديد الامراء العصاة له ومنافسة خصومه الطامعين بالسلطة• وحين وصلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى ضواحي القاهرة ، انهارت المقاومة في المدينة ، وانضم الى المهاجمين كثير من أتباعهم ومماليكهم المقيمين في القاهرة • وكان في طليعة المنضمين الى ابراهيم بك ومراد بك شيخ البلد وكبير القوم عثمان بك طبل • واسقط اذ ذاك في أيدي القلة الذين أرادوا مقاومة الهجوم ، وهربوا باتجاه الصعيد • ودخلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١٢٠٥/٢٢ تموز ١٧٩١ دون أن تلاقي أية مقاومة[٢] •

وخلع الباشا العثماني في مصر على ابراهيم بك ومراد بك ، وتوسط لهما لدى السلطات في استانبول فصدر عفو عنهما • ثم قاما بطرد القوات المرتزقة من القاهرة ، واستعدا لارسال حملة ضد أعدائهم الذين هربوا الى الصعيد • ولكن هؤلاء الهاربين ضعفوا كثيراً بسبب الاختلاف في الرأي بينهم وتفرقهم في جهات مختلفة • ولم تعد هناك حاجة لارسال حملة من القاهرة ضدهم • وتمت السيطرة لابراهيم بك ومراد بك ، واشتد ظلمهما • واستغلا طلب السلطات في استانبول جمع ما تأخر من أموال الميري ومن التزامات أخرى في مصر للقيام بابتزاز المال ، رغم احتجاج السكان المحليين ضدهما[٣] •

---

١ ـ انظر : المصدر السابق ، ١٥١ ـ ١٦٤ ، ١٧٢ ـ ١٨٣ ، ١٨٨ ـ ١٩١ ، ٢١٩ ـ ٢٢٠
٢ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ج ٣ ، ١٧٢ •
٣ ـ المصدر السابق ج ٢ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٢ ج ٤ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٤ •

وبقيت سلطة ابراهيم بك[1] ومراد بك[2] بلا منازع حتى وردت الى القاهرة أنبـاء نزول قوات نابليون بونابرت في الاسكندريـة في أول تموز ١٧٩٨[3] • وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لنفوذ المماليك في مصر • ونشأ عن ذلك ما عرف بالمسألة المصرية ، وبدأ التدخل الاوربي في شؤون البلاد العربية الداخلية •

---

١ ـ توفي ابراهيم بك في دنقله في السودان في ربيـع الاول ١٢٣١/كانون الثاني ـ شباط ١٨١٦ ، وكان قد هرب الى هناك اثر بطش محمد علي باشا بالمماليك في مصر ، انظر : الجبرتي ، ج ٤ ، ٢٦٧ ـ ٢٦٨ •

٢ ـ توفي مراد بك في ٤ ذي الحجة ١٨/١٢١٥ نيسان ١٨٠١ ، انظر : الجبرتي ، ج ٣ ، ١٦٧ •

٣ ـ يراجع من المصادر المحلية المعاصرة للحملة الفرنسية : مؤلف عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بذهاب دولةالفرنسيس ،نشره محمد عطا في جزئين (أرقامهما ٥٩ و ٦٠) في سلسلة « اخترنا لك » التي تصدرها دار المعارف بالقاهرة ، وذلك بالاضافة الى مؤلف الجبرتي المشهور : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ • ويراجع أيضاً مؤلف نقولا الترك : ذكر تملك جمهور الفرنستاوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية ، وقد نشره بالعربية مع ترجمة له بالفرنسية :

M. Desgranges Ainé, Histoire de l'Expédition des Français en Egypte, Paris, 1839.

وقد ترجم G. Wiet الى الفرنسية نسخة أخرى من مـذكرات نقولا الترك هـذه تنتهي في سنة ١٨٠٤ (النسخة السابقة تنتهي في ١٨٠١) ونشر النص العربي وترجمته الفرنسية في كتاب عنوانه : Chronique d'Egypte, 1798 - 1804, Le Caire, 1950

انظر الدراسة المقارنة التي قام بها الدكتور جورج حداد لكتابات نقولا الترك عن الحملة الفرنسية في مقال له بعنوان :

« The Historical work of Niqula El-Turk, 1763 - 1828 », Journal of the American Oriental Society, Vol. 81. No. 3 (1961), pp. 247 - 251.

أما بالنسبة للمصادر الاجنبية الحديثة فتراجع الدراسة الموجزة والدقيقة التي قام بها البروفسور P. M. Holt في كتابه : Egypt and the Fertile Crescent, pp. 155 - 163

وتراجع أيضاً قائمة المصادر الاجنبية المذكورة في المصدر السابق ص ٣١٥ •

الخاتمة

نتساءل بعد دراستنا لتاريخ بلاد الشام ومصر ، خلال ثلاثة قرون تقريباً من الحكم العثماني ، عن أهمية الفتح العثماني بالنسبة للعثمانيين ، وللبلاد العربية ، وللعلاقات العربية ـ العثمانية •

انتقل الحكم في بلاد الشام ومصر ، حين احتلها العثمانيون ، من حاكم غير عربي الى حاكم آخر غير عربي • ويمكن القول أن السكان المحليين كانوا مجرد متفرجين في هذا الصراع • وفي حين أن السلطنة المملوكية قامت في بلاد الشام ومصر ، التي تعتبر قلب البلاد العربية ، نجد أن البلاد العربية ، بكاملها تقريباً ، أصبحت الآن جزءاً من امبراطورية عثمانية كبيرة • وانتقلت بذلك عاصمة الخلافة ، لاول مرة في التاريخ الاسلامي ، الى خارج الوطن العربي • وأصبحت لغة الدولة الرسمية لغة غير العربية ، وأثر ذلك بالتدريج على ازدهار الثقافة العربية في العهد العثماني •

وقد استفاد العثمانيون من فتحهم للبلاد العربية انهم أصبحوا يحكمون المراكز الاسلامية العربية التقليدية مثل دمشق والقاهرة وبغداد • وأهم من ذلك ،أنهم أصبحوا حماةالحرمين الشريفين • ولقد أوجد العثمانيون بهذا نوعاً من التوازن بين فتوحاتهم الواسعة في أوروبا وبين فتوحاتهم في البلاد العربية ، وحافظوا على الوجه الاسلامي لامبراطوريتهم • ويمكن القول أن اتساع الامبراطورية العثمانية ومشاغلها في أوروبا وعلى حدود بلاد فارس خفف من قبضتها على البلاد العربية • وحين بدأ العثمانيون يخسرون

فتوحاتهم في أوروبا ، بقيت البلاد العربية تشكل ، من حيث المظهر ، نقطة الثقل في الامبراطورية العثمانية • وعلى الرغم مما لاقاه العثمانيون من عنت وصعوبة في حكم دول البلقان بسبب اختلاف سكانها عنهم في الدين واللغة والجنس ، وبسبب ازدياد قوة دول أوروبا الوسطى وتشجيعها المقاومة ضد العثمانيين ، فان تقلص الحكم العثماني في البلقان كان بداية النهاية بالنسبة لقوة العثمانيين نظراً لأن الغزو ضد أعداء الدين ، خاصة في أوروبا ، كان العامل الرئيسي في ايجاد الدولة العثمانية • وما كادت أغلب دول البلقان تضيع من قبضة العثمانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى خرجت من يدهم بالتدريج البلاد العربية بسبب تدخل الدول الاوربية في شؤونها ، واشتداد الصراع القومي بين العرب والاتراك •

وكان الصفويون يهددون البلاد العربية ، قبيل الفتح العثماني ، من الشرق ، والبرتغاليون يهددونها في جنوبي الجزيرة العربيـة وفي البحر الاحمر والخليج العربي • ومما لاشك فيه أن خطر الصفويين على القسم الآسيوي من البلاد العربية كان قوياً في الربـع الاول من القرن السادس عشر نظراً لضعف السلطنة المملوكية ولان الصفويين كانوا ، في عهد الشاه اسماعيل ، في مطلع قوتهم وتوسعهم • وقد دفع العثمانيون الخطر الصفوي عن البلاد العربية ، وبقي النزاع قائماً بينهم وبين حكام فارس من صفويين وأفغانيين ومغامرين تركمانيين طوال الفترة التي قمنا بدراستها • وقاست ولايـات العراق ، وخاصة بغداد ، من جراء ذلك •

أما الخطر البرتغالي فلم يكن شاملا أو شـديداً ، بالنسبة للمناطق العربية الداخلية ، في الربع الاول من القرن السادس عشر • وقد اهتم البرتغاليون ، كغيرهم من أصحاب الامبراطوريات البحرية في القرون التالية مثـل الاسـبانيين والهولنديين والانكليز والفرنسيين ، بتأمـين خطوط مواصلاتهم البحرية الى مستعمراتهم ومراكز تجارتهم في الشرق الأقصى وغيره • واشتد تهديد البرتغاليين في أواخر عهـد المماليك لمداخل البحر الاحمر وعدن واليمن بسبب أهمية هذه المراكز لسلامة خطوط مواصلاتهم •

وقد رأينا كيف احتل العثمانيون هذه المراكز في النصف الاول من القرن السادس عشر لابعاد الخطر الاوربي عن البحر الاحمر ، وبالتالي عن الاماكن المقدسة في الحجاز .

وعندما قويت الطبقات البورجوازية في أوروبا ، وخاصة في بريطانيا وفرانسا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبدأت تبحث عن الاسواق والمواد الاولية لصناعاتها المتطورة اثر الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر ، اقتصر اهتمامها أولا على المراكز الستراتيجية على طرق التجارة الرئيسية مع الشرق الاقصى مثل السويس وعدن وأطراف الجزيرة العربية . وكانت الدولة العثمانية عاجزة منذ أواخر القرن الثامن عشر عن حماية البلاد العربية من الخطر الاوربي المتزايد في أعقاب حملة نابليون بونابرت . ولم ينقذ البلاد العربية من ذلك سوى دفاع القوى المحلية مثل أحمد باشا الجزار ومحمد علي باشا ، وأيضاً التنافس بين الدول الاوربية وخاصة بريطانيا وفرانسا . ورغم أن البلاد العربية استفادت من هذا التنافس الاوربي ، بمعنى أنها لم تصبح فريسة سهلة لاحدى الدول الكبرى ، فقد قاست بالمقابل من جراء ذلك بسبب دعم الدول المتصارعة على النفوذ لطائفة فيها ضد أخرى . ولنا في أمثلة توسع محمد علي باشا في بلاد الشام والاضطرابات الطائفية التي تلت خير دليل على ذلك .

ولم يصبغ العثمانيون البلاد العربية بصبغة تركية عميقة ، ولم يتجاوز الأثر العثماني الطبقة السطحية . واقتصرت معرفة اللغة التركية على طبقة صغيرة جداً من العلماء والاعيان الذين درسوا في استانبول . وطبيعي أن عدد من تكلم بهذه اللغة في منطقة حلب كان أكثر من عددهم في غيرها من المناطق وذلك بسبب الموقع الجغرافي . وحين هاجمت قوات علي بك المملوكي بلاد الشام في سنة ١٧٧٠ وجه علي بك بيانه الى الاهلين فيها باللغة العربية . واستخدم أيضاً اللغة العربية في البيانات الرسمية الى السكان المحليين كل من حسن باشا القبطان العثماني حين هاجم مصر في ١٧٨٦ ، ونابليون بونابرت حين هاجمها في ١٧٩٨ . وتعود سطحية الاثر العثماني

في البلاد العربية بالدرجة الاولى الى افتقار الاتراك في الاصل الى تراث حضاري قوي • وقد اعتمدوا على الشريعة والانظمة الاسلامية كما طبقها العرب وغيرهم من المسلمين ، وخاصة الفرس • وكنا رأينا الاهمية التي أصبحت لشيخ الاسلام أو مفتي استانبول في عهد السلطان سليمان القانوني ، وذلك بسبب الحاجة اليه في وضع القوانين لتنظيم شؤون الولايات بما يتفق والشريعة الاسلامية • ولما كان أغلب سكان البلاد العربية من المسلمين اكتفى العثمانيون بالاعتماد على الولاء الديني لهؤلاء السكان تجاه السلطان العثماني المسلم • ولهذا لم ينقل العثمانيون جاليات تركية كبيرة ، عسكرية أو مدنية ، الى البلاد العربية ، كما حدث في البلقان مثلا ، بل اكتفوا باقامة حاميات صغيرة في مراكز الولايات ، وغالباً في القلاع • وانصهرت بعض هذه الحاميات بالتدريج مع السكان المحليين كما رأينا في مثال يرلية دمشق •

وكانت غاية الاحتلال العثماني للبلاد العربية الابقاء على الوضع السائد فيها شريطة تقديم الطاعة ودفع أموال الميري للسلطات العثمانية في استانبول • وعمد العثمانيون ، لتأمين ذلك ، الى ايجاد توازن بين السلطات في حكم الولايات • ورغم أن الوالي العثماني كان أعلى سلطة في الولاية ، فقد وازن سلطته ، أو بالأحرى حد منها ، وجود آغا الانكشارية والقاضي والمفتي والدفتردار الذين عينوا مباشرة من استانبول • وطبيعي أن مثل هذا النظام يعتمد ، الى درجة كبيرة ، على قوة ونشاط الادارة المركزية العثمانية • وحين دب الفساد في هذه الادارة انعكس ذلك على تدني نوعية الموظفين في الولايات •

وبازدياد ضعف الدولة وفسادها أصبح يعين على الولايات أناس غير أكفاء اشتروا مناصبهم أحياناً ، وحاولوا التعويض عما أنفقوه باللجوء الى ابتزاز أموال الاهلين والضغط عليهم • وعمد أفراد الشعب ، وكذلك الولاة الذين تعرضوا بدورهم الى مصادرة الدولة لاموالهم ، الى تخبئة ماجمعوه من مال • وأدى اختفاء النقد عن هذا الطريق ، بالاضافة الى الازمات المالية التي تعرضت اليها الدولة بعد توقف الفتوح ، الى تعطيل

لفعاليات الاقتصادية . وزاد في الامر انتشار نظام الالتزام المرهق للفلاحين وذلك بعد انهيار نظام التيمار وتلاشي أهميـــة أصحاب التيمـارات من السباهية . وكثرت الرشـوة بين الموظفين بسبب ضعف رقابـة الدولة ، وتدني مستوى الموظفين ، وارتفاع مستوى المعيشـة بالمقارنة مع الرواتب وانخفاض قيمة النقد . وحين تعم الفوضى يصعب ايقافها ، وازداد تبعاً لذلك تمرد الانكشارية . وأدت محاولات الولاة الاعتماد على طوائف جديدة من الجند ، وأغلبهم من المرتزقة ، لموازنة طوائف الجند المتمردين ، الى انتشار التمرد في الطوائف الجديدة .

وقد أثرت حالة الفوضى هذه على مفاهيم الشعب عن الحكم والحكام . ولكثرة ما عانى أفراد الشعب من الظلم بدأوا يستخفون بأصحاب السلطة العادلين.ويذكر البديري الدمشقي في القرن الثامن عشر أن بعض أهل الشام سعوا الى عزل أحد القضاة « لأنه لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوة »[١] . ويذكر مؤرخ دمشقي آخر أن عبد الرؤوف باشا والي الشام **(١٨٢٧–١٨٣١)** « كان لطيفاً عادلا يحب الهدوء والسلامة . ومن عدله الزايد طمعت فيه أهل الشام »[٢] . ويصف الجبرتي شعور الفلاحين في مصر ازاء الملتزمين ، فيقول : « واذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه في أعينهم واستهانوا به وبخدمه وماطلوا في الخراج وسموه بأسماء النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الـذين لا يخافون ربهـم ولا يرحمهـم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم ، وكذلك أشياخهم اذا لـم يكن الملتزم ظالماً يتمكنون هم من ظلم فلاحيهم »[٣] . وليس ايقاع الظلم بالمحكومين في العهد العثماني بالأمر الجديد في تاريخ المنطقة ، ولهذا بات تكرار المظالم أمراً طبيعياً بالنسبة للشعب . وقد تركزت النقمة ضد العثمانيين دون غيرهم نظراً لنشوء الوعي القومي العربي في أواخر عهدهم ومحاولة القوميين ابراز

---

١ – البديري ، ٣٠ ب .
٢ – ميخائيل الدمشقي ، ٤٩ .
٣ – الجبرتي ، ج ٤ ، ٤٠٨ . وقد ذكر المثلان الاخيران في كتاب :
Gibb and Bowen, I.i. 205

مساوىء الحكم التركي لتعميق الاختلاف بين الحاكمين والمحكومين • ومما لا شك فيه أن الامثلة التي رآها الناس أمامهم في العهد العثماني عن ظلم المسؤولين لهم وعن مصادرة الدولة لأموال الولاة اثر عزلهم شجعتهم على الاستخفاف بالسلطة وبأصحابها وغذت فيهم الشعور بالسخط والنقمة •

وبازدياد الفوضى وضعف السلطة العثمانية تكتل السكان المحليون على أنفسهم وازدادوا اعتماداً على منظماتهم التقليدية للدفاع عن مصالحهم مثل النقابات الحرفية ونقابات الاشراف والطرق الصوفية والتكتلات على أساس الاحياء • وكان ولاء السكان المباشر لهذه المنظمات التي تدافع عن حقوق أفرادها • ويعكس تسرب السكان المحليين الى طائفة الانكشارية في دمشق ، التي أصبحت تعرف تبعاً لذلك بالطائفة اليرلية ، انتقال زمام المبادرة في الدفاع المحلي الى السكان المحليين • وبلغ النفوذ المحلي درجة كبيرة من القوة بتعيين الولاة من أصل محلي في القرن الثامن عشر •

ولم يغب مغزى ظهور الولاة المحليين كآل العظم عن بعض السكان• وقد وصف ميخائيل بريك ، الذي عاصر آل العظم ، ولاة هذه الاسرة بأنهم من أولاد العرب (أي من السكان المحليين) ، واعتبر ظهورهم بداية مرحلة جديدة في تاريخ الشام[١] • ووصف البديري الوالي علي باشا ، الذي سبقت ولايته على الشام ولاية سليمان باشا العظم الثانية عليها في ١٧٤١ ، بأنه من الاتراك[٢] • وكان هذا التمييز بين الولاة الاتراك والولاة المحليين حادثاً جديداً في القرن الثامن عشر نظراً لأن الولاة في القرنين السابقين كانوا من غير السكان المحليين • ومما زاد في توضيح هذه المقارنة بين الولاة استخدام الولاة المحليين اللغة العربية وعدم معرفة بعضهم اللغة التركية معرفة كافية[٣] •

وقد لايكون السكان المحليون مدركين تماماً لمدى انتشار هذه الظاهرة

---

١ ـ انظر : بريك ، ٢ ، ٣٦ •

٢ ـ البديري ، ١ ب •

٣ ـ انظر مثلا : A. E. B¹ 1031 : Seyde, 17. 8. 1756 ؛ انظر أيضاً : A. E. B¹ 92 : Alep, 17. 7. 1772 ; A. E. B¹ 1038 : Seyde, 21. 5. 1780.

المحلية في الحكم في الولايات العربية أو واعين لاهميتها وكونها مظهراً من مظاهر ضعف سلطة الادارة المركزيةالعثمانية•ثم جاءت الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر تتحدى سلطةالسلطان العثماني الدينية ،وازداد بذلك تباعد الشقة بين الحاكمين والمحكومين • ولا يمكننا أن نفهم أصول العلاقات العربية- العثمانية في القرن التاسع عشر دون أن ندرك مغزى وأهمية ازدياد النفوذ المحلي ، على مختلف المستويات السياسية منها والدينية ، في القرن الثامن عشر • وفي الحقيقة ، ان ظهور الولاة المحليين ، وقيام ما يشبه السلالات الحاكمة في بعض الولايات العربية ، وتكتل سكان الولايات في المنظمات المحلية المختلفة للدفاع عن أنفسهم ، وبدء الدعوة الوهابية ، انما تدل بمجموعها على تقلص النفوذ العثماني في الولايات العربية ، وبالتالي على بدء تكوين الشعور بالهوية المحلية • وقد تزايد هذا الشعور في القرن التاسع عشر واتخذ الصفة العربيةالقومية نظراً لانتشار الفكرةالقومية آنذاك•

وقد انتشرت أفكار التحرر التي نادت بها الثورة الفرنسية ، في الامبراطورية العثمانية • وقامت الثورات على العثمانيين في البلقان • وكان اليونانيون في طليعةالشعوب التي تحررت من الحكم العثماني•وعمد العثمانيون ازاء ضغط الدول الاوربية عليهم وازدياد قوة وتحدي الولاة المحليين مثل محمد علي باشا ، الى نشر الاصلاح بالقوة في امبراطوريتهم • وقضى السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ على الانكشارية الذين شكلوا العقبة الرئيسية في طريق الاصلاح ، وأسس جيشاً حديثاً على الطراز الاوربي •

وكانت اصلاحات محمد علي باشا في مصر قد قطعت شوطاً بعيداً في تقوية سلطته وجيشه • واحتل بلاد الشام وقسماً من آسية الصغرى ، وهزم الجيش العثماني الجديد ولما يكتمل عوده بعد • ولم يوقف تقدم محمد علي سوى تدخل الدول الاوربية • وعمد السلاطين العثمانيون بعد ذلك ، ومثال تابعهم محمد علي باشا حياً أمامهم ، الى ادخال الاصلاح على نطاق واسع وهو ماعرف في التاريخ العثماني باسم التنظيمات • وصدر خط شريف كولخانة (Gulhane أي غرفة الورد) ، في ١٨٣٩ والغي

بموجبه الالتزام • ثم تلته خطوط همايونية (Humayun أي امبراطوري) ، في ١٨٤٠ و ١٨٥٦ • وبلغ الاصلاح ذروته باعلان دستور ١٨٧٦ • والجدير بالذكر أن هذه الاصلاحات أتت من الاعلى ، وقام بها باشاوات من الطبقة الحاكمة أمثال رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا ، وذلك خوفاً من تدخل الدول الاوربية ولتوطيد مركز السلاطين والطبقة الحاكمة في وجه المعارضة في الداخل • ولم تدم هذه الاصلاحات بسبب عدم اخلاص الطبقة الحاكمة لها وعدم تمكنها من امتصاص نقمة الجيش العثماني الذي تأثر بأفكار التحرر والاصلاح قبل غيره وأكثر مما عداه ، وعانى من الهزائم أمام الدولة الاوربية ، وتمكن أخيراً من الاستيلاء على السلطة في ١٩٠٨ •

وقد نتج عن الاصلاحات السابقة في الامبراطورية العثمانية أن قويت السلطة المركزية واشتدت قبضتها على الولايات • واتفق ذلك مع انتشار أفكار التحرر والشعور القومي في البلاد العربية اثر حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام ، واحتلال محمد علي باشا بلاد الشام • واذا كان هذان الحدثان قد بدأ بهما التدخل الاوربي في شؤون البلاد العربية الداخلية فانهما أظهرا للسكان المحليين انه بالامكان تحدي السلطة العثمانية وقيام حاكم آخر غير السلطان • وأدخل محمد علي باشا في بلاد الشام كثيراً من التنظيمات ، وشجع فتح المدارس والتسامح الديني ، ونشأت بمساعدة ذلك حركة النهضة الادبية العربية التي كانت بداية الحركة القومية • وطالبت هذه الحركة أولا بالاصلاحات ثم بالحكم الذاتي ، ضمن الاطار العربي ـ العثماني • وازدادت الحركة تطرفاً وابتعاداً عن الاتراك بازدياد تعنت القوميين الاتراك • وبلغت العلاقات بين الطرفين حد القطيعة باستلام جماعة تركيا الفتاة مقاليد السلطة وتبنيهم القومية الطورانية المتطرفة •

المصـــادر

المصادر العربية ٠ –

١ – المخطوطات[1] ٠ –

(مجهول المؤلف) • تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ هـ (حتى ذي القعدة ١١٩٨) ، المكتبـة الوطنية في باريس ، رقـم Arabe 1856.

» » • تحفـة الاحبـاب بمن ملـك مصر من الملـوك والنـواب ، جامعـة Yale في الولايـات المتحـدة ، رقم Landberg 229 . [2] ٠

» » • الدرة المنصانة في وقايع الكنانة ، المكتبة الوطنيـة في ميونيخ بألمانيا ، رقم Cod. Arab. 399 .

» » • ذكر أسماء من تولى قضـاء دمشق الشـام من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهرية ، رقم ٤٤١٩ ٠

---

١ – يمكننا أن نشير في هذا القسم الى الوثائق والحجج المخطوطة باللغتين العربية والتركية والعائدة للمحاكم الشرعية في بلاد الشام من العهد العثماني ٠ وتوجد وثائق بعض هذه المحاكم في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، وهي لاتزال بحاجة لمن يبحث وينقب فيها٠

٢ – لايوجد ذكر في المخطوط لاسم المؤلف ٠ وفي ورقة اب من المخطوط ترد العبارة التاليـة بعد العنوان : لعالم دهره الشيخ (دون ذكر أي اسـم بعد ذلك) ٠ وجاء في فهرس مخطوطات مكتبة جامعة Yale :

Leon Nemoy, Arabic manuscripts in the Yale University Library, Yale University Press, 1956, p. 141 (item 1323) :

ان اسم المؤلف هو محمد بن يوسف الحلاق ٠ ويبدو أن مؤلف هذا الفهرس قد استعار اسم المؤلف من مخطوط آخر يحمل نفس العنوان ويوجد في مكتبة فيينا ومؤلفه هو محمد ابن يوسف الحلاق ، كما أشار الى ذلك كارل بروكلمان في كتابه :

Geschichte der Arabischen Literatur, G II. 298.

ومما تجدر الاشارة اليه أن مؤلف الفهرس أشار الى مصدر بروكلمان هذا دون تعليق . وذلك في نهاية وصف المخطوط ٠ ويجب القيام بدراسة مقارنة لهذين المخطوطين وغيرهما من النسخ المخطوطة اذا وجدت للتأكد من اسم المؤلف ٠

(مجهول المؤلف) • ذكر من تولى دمشـق من البكلربكية العظام في دولة بني عثمان ، الظاهرية ، رقم ٤٦٨١ .

» » • ذكر من تولى الوزارة وامارة الحاج الشريف من الوزراء الفخام بدمشق الشام من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهرية ، رقم ٤٤١٩ .

» » • ذكر نبذة في الدولة الروميـة والسلطنة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين[١] ، رقم 9728. Mq. 461 .

» » • رسالة في من تولا وقضا وافتا (هكذا) في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة الف ومايتين وأربعين ، (للمخطوط عنوان آخر هـو : ذكر دمشق الشـام وتاريخ وزرها وقضاتها ومفتييها) ، جامعة تيوبنغن (Tübingen) ، بألمانيا ، رقم M. a. VI. 8 .

» » • زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسـة ، المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 9972 .

» » • لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، المتحف البريطاني ، رقـم Add. 23, 346 وقد نشر هـذا المخطوط مؤخراً الدكتور أحمد أبـو حاكمة ، بيروت ١٩٦٧ .

» » • نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1684 .

ـ » • هذا تاريخ جبل الدروز (أي جبل لبنان) ابتداه سنة ١١٠٩ هـ وغايتـه ١٢٢٣ هـ ، مخطوط في مجموعـة برلين ، رقم 9790. We. (II) 377 .

» » • (تاريخ أسرة بشـير الشهابي) ، المكتبة الوطنيـة في باريس ، رقم Arabe 2111 .

» » • (كناش عن تاريخ آل الصباغ) المكتبـة الوطنية في ميونيخ بألمانيا ، رقم Cod. Arab. 901 .

» » • (مخطوط مجهول العنوان عن تاريخ مصر من ٨٥٧/١٤٥٣ الى ١١٢٠/١٧٠٩) ، المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 1855 .

---

١ ـ توجد مجموعة مخطوطات برلين اليوم في مكتبة جامعة تيوبنغن بألمانيا الغربية : Universitätsbibliothek, Tübingen.

ابن جمعة ، محمد • الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9785. We. (II) 418 . توجد نسخة مخطوطة أخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785. Spr. 188 وقد نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « الباشات والقضاة » ، في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ • وتوجد في الظاهرية بدمشق نسخة غير كاملة عن مخطوط ابن جمعة هذا ، وهي تتفق تقريباً مع نسخة برلين المذكورة أولا ، وقد أعطاها المصنف عنوان : قطعة من تاريخ ،رقم ٧٥٢٢ • انظر ص ١٢٣ هامش (٢) من كتابنا هذا •

ابن زنبل (الرمال) ، أحمد • (تاريخ مصر) ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 . انظر نسخة أخرى فيها برقم Cod. Arab. 413 . (١) •

ابن الصديق ، حسن • غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9832. We. (II) 417 .

ابن عبد اللطيف ، الحاج حسن • (تراجم علماء ومشايخ عاشوا في القدس في القرن الثاني عشر الهجري) ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3047 .

ابن علوان ، مرتضى • (وصف طريق الحاج الشامي) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6137. We. (II) 1860 .

ابن كنان ، محمد بن عيسى • الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، أرقامهما : 9479. We. (II) 1114, 9480. We. (II) 1115 .

« » » » » • المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، نسخة فوتوغرافية في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق ، رقم ٢٦ ، مصورة عن مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة •

الانصاري ، شرف الدين موسى • نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، الظاهرية ، رقم ٧٨١٤ •

---

١ ــ انظر ص ١٧ من هذا الكتاب •

الايوبي ، محمد سعيد • مجموعة تراجم لرجال من دمشق توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية ، رقم ٤٣٢٤ •

البديري ، أحمد • حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ــ ١١٧٦ هـ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي • الظاهرية ، رقم ٣٧٣٧ • توجد نسخة أخرى في الظاهرية ، برقم ٤٢٨٣ • نشر هذا المخطوط الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ • انظر ملاحظاتنا حول ذلك في ص ٣٢٧ ، هامش (١) من كتابنا هذا •

البرزنجي ، جعفر . النفح الفرجي في الفتح الجتهجي ، الظاهرية ، رقم ٨٧٢٤ •

البرلسي ، محمد • بلوغ الارب برفع الطلب ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، رقم ٨١ تاريخ ، (يوجد فلم مصور عن هذا المخطوط ، برقم ٢٦ ، في معهد احياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة) •

البوريني ، الحسن بن محمد • تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod Arab. 1190, Mixt. 346 . انظر قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمة المصادر هذه حيث نذكر أن الدكتور صلاح الدين المنجد نشر قسماً من هذا المؤلف معتمداً على نسخ أخرى من هذا المخطوط • انظر أيضاً ص ٧٦ هامش (١) من كتابنا هذا •

البيتماني ، حسين بن طعمة • (ديوان شعر) ، المتحف البريطاني في لندن ، رقم Or. 3175 .

الترك ، نقولا • حوادث الزمان في جبل لبنان ، الظاهرية ، رقم ٤٧٢٤ •

الحسيبي ، محمد • مجموعة تراجم لدمشقيين توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية ، رقم ٤٦٦٨ •

الحنبلي ، مرعي بن يوسف • نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 889 .

الخياري ، ابراهيم • تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6135. We. (II) 125 .

الرباط ، أحمد • مجموعة أزجال ومواويل عن دمشق ، الظاهرية ، رقم ٨٧٤٩ .

السمان ، محمد سعيد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8040. Spr. 1124 .

» » » • مختصر الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8047. We. (II) 1771 .

السويدي ، عبد الرحمن • تاريخ بغداد أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، مخطوط في المتحف البريطاني ، رقم Add. 18, 507 وقد نشر الدكتور صفاء خلوصي اقسماً منه • انظر قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمة المصادر هذه • انظر أيضاً ص ٣٠٣ هامش (١) من كتابنا هذا •

السويدي ، عبد الله . النفحة المسكية في الرحلة المكية ،المتحف البريطاني ، رقم Add. 23, 385 (توجد نسخة أخرى عن هذا المخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 7337) .

شلبي ، احمد • أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، جامعة Yale في الولايات المتحدة ، رقم Landberg, 3 .

الشمالي ، علي بن حسن • نزهة الناظرين فيمن تولى مصر من البشوات والسلاطين ، الظاهرية ، رقم ٨٣٧٦ •

شهاب ، حيدر أحمد • نزهة الزمان في حوادث عربستان ،مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Or 63 (9) .

الصالحي ، ابراهيم (الحنبلي) • تراجم الصواعق في واقعة الصناجق المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1853 .[1] •

الصباغ ، عبود • الروض الزاهر في أخبار ظاهر ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 4610 .

الصديقي ، محمد البكري • التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A.F. 283 .

---

١ ــ انظر ص ٢٧٧ ، هامش (١) ، من كتابنا هذا •

الصديقي ، محمد البكري • الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة •
المتحف البريطاني ، رقم Add. 9973

الصديقي ، مصطفى بن كمال الدين • كشف الردأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 111 .

» » » » » • الخمرة الحسية في الرحلةالقدسية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6149. Mq. 460 .

الطرزي ،مصطفى • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8034. Pet. (I) 287 .

عثمان ، (؟) • (وصف لطريق الحاج الشامي في ١١٥٦ هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6147. Pm. (II) 105 .

الغزي ،نجمالدين • لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل كتابه : الكواكب السائرة) ، الظاهرية ، رقم ٤١ •

القينلي ، مصطفى ابن الحاج ابراهيم الملاح • مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠ الى آخر تاريخ المجموع (أي ١١٥٢ هـ) ، المكتبة الوطنية في فيينا رقم Cod. Arab. 931, H. O. 38 .

الكردي ، مرتضى • كتاب تهذيب الاطوار في عجائب الامصار ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6142. Spr. 23 .

الكيواني ، أحمد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8041, 8163. We. (II) 202 .

اللقيمي ، مصطفى أسعد • موانح الانس برحلتي لوادي القدس ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 238 .

المرادي ، محمد خليل • عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، الظاهرية ، رقم ٩٠٥٨ •

» » » • مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 4050 .

المكي ، قطب الدين محمد بن أحمد • البرق اليماني في الفتح العثماني ، مكتبة Top Kapi Seray في استانبول ، رقم ٢٨٨٠ •

المنيني، أحمد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8039. We. (II) 158 .

الموصلي، عبد الرحمن • كتاب مجموع فيه ديوان المرحوم الشيخ عبد الرحمن الموصلي وبهجة جده الشيخ ناصر الدين الموصلي وديوان المرحوم منجك باشا وغيره وفوائد ، مخطوط في مجموعة برلين ،رقم 9482. We. (II) 1748 .

الموقع، أحمد كمال الدين • كتاب البرق اللامع في التاريخ الجامع والكواكب الساطع ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9483. We. (II) 346 .

النابلسي ، عبد الغني • الابيات النورانية في ملوك الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9727. Pet. 347 .

» » » • تاريخ الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9727. We. (II) 1808 .

» » » • الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ،جامعة كيمبردج (انكلترا) ،رقم Qq. 300 . توجد عدة نسخ عن هذا المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق •

» » » • حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3622 .

الوكيل، عمر بن محمد • ترويح القلب الشجي في مآثر عبد الله باشا الجتهجي ، المكتبة الوطنية في فيينا ،رقم Mixt. 195 .

٢ ـ الكتب المطبوعة • ـ

(مجهول المؤلف) • قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش، القاهرة ١٣١٦ هـ •

ابن اياس، محمد • بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ثلاثة أجزاء ، بولاق ، ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ • وهناك جزء رابع حققه محمد مصطفى ، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠ •

ابن جمعة، محمد • الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن السلطان سليم خان عليه

الرحمة والرضوان ، (يشير اليه المنجد باختصار في كتابه ولاة دمشق في العهد العثماني ، باسم « الباشات والقضاة ») ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9785. Spr. 188 نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ وقد ترجم H. Laoust هذا المخطوط الى الفرنسية ونشره مع مخطوط ابن طولون اعلام الورى ... ، في كتابه :

Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1925.

ابن طولون، محمد • اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ .
وقد ترجم H. Laoust هذا المؤلف الى الفرنسية ، ونشره مع مخطوط ابن جمعة السابق في كتابه
Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1952.

» » • الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، نشره صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥٦ .

» » • مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، نشرهما محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .

» » » • (قطعة من مخطوط) منشورة مع ترجمتها الالمانية في كتاب :

Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun, ed. R. Hartmann, Berlin, 1926.

ابن عربشاه ، محمد • عجائب المقدور في أخبار تيمور ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

ابن يحي ، صالح • تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بني الغرب، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٢٧ .

الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي • أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥ هـ .

الاشبيلي ، علي بن محمد اللخمي • الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، نشره هانس أرنست ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

البديري ، أحمد • حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ – ١٧٤١/١١٧٥ – ١٧٦٢ ، نشره الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩[١] •

بريك ، الخوري ميخائيل • تاريخ الشام (١٧٢٠ – ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ •

البغدادي ، ابراهيم فصيح • عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ، بغداد ، ١٩٦٢ •

البكري ، محمد توفيق • بيت الصديق ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ •

البوريني ، الحسن بن محمد • تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، صدر منه جزءان ، نشرهما صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٦ ، انظر : البوريني ، الحسن بن محمد ، في قسم المخطوطات العربية من قائمة المصادر هذه •

البيطار ، عبد الرزاق • حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ أجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٩٦١ – ١٩٦٣ •

الترك ، نقولا • ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد لشامية ، نشره بالعربية مع ترجمة فرنسية :

M. Desgranges Ainé, Histoire de l'Expédition des Français en Egypte, Paris, 1839.

توتل ، الأب فرديناند • وثائق تاريخية عن حلب ، ٤ أجزاء ، بيروت ، ١٩٥٨ – ١٩٦٤ •

الجبرتي ، عبد الرحمن • عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ •

---

١ – المخطوط ينتهي فعلا في سنة ١١٧٦ هـ ، كما ذكر البديري في عنوان النسخة الاصلية ، وليس في ١١٧٥ كما ذكر الشيخ محمد سعيد القاسمي الذي نقح المخطوط ووافقه خطأ على ذلك الدكتور احمد عزت عبد الكريم في ص ٢٣٦ ، هامش (١) من الكتاب الذي حققه ونشره ، انظر : البديري ، أحمد ، في قسم المخطوطات من قائمة المصادر هذه ، وانظر أيضاً ملاحظاتنا حول ذلك في ص ٣٢٧ ، هامش (١) من كتابنا هذا •

الدبس ، المطران يوسف • تاريخ سورية ، ٨ أجزاء ، بيروت ، ١٨٩٣ــ ١٩٠٥ .

الدمشقي ، ميخائيل • تاريخ حوادث الشام ولبنان (١١٩٧ ــ ١٧٨٢/١٢٥٧ ــ ١٨٤١) ، نشره الأب لويس معلوف، بيروت ، ١٩١٢ .

الدهمان ، محمد أحمد • « زلزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٢ (١٩٤٨) ، ص ، ٣٣٣ ــ ٣٤٧ .

» » » • انظر : ابن طولون ، محمد . ، اعلام الورى . . .

الدويهي ، اسطفان • تاريخ الازمنة (١٠٩٥ ــ ١٦٩٩) ، نشره الأب فرديناند توتل ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٤ (١٩٥٠) .

السويدي ، عبد الرحمن • تاريخ بغداد لابن السويدي ، أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، الجزء الاول ، نشره صفاء خلوصي ، بغداد ، ١٩٦٢ .

الشدياق ، طنوس • أخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٤ .

الشطي ، محمد جميل • روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ، دمشق ، ١٩٤٦ .

» » » • ذيل روض البشر ، دمشق ، ١٩٤٨ .

شهاب ، حيدر أحمد • تاريخ أحمد باشا الجزار ، نشره الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ .

» » » • تاريخ الامير حيدر أحمد الشهابي ، نشره نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ ــ ١٩٠١ .

» » » • لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ٣ أجزاء ، نشرها فؤاد افرام البستاني وأسد رستم ، بيروت ، ١٩٣٣ .

الصباغ ، ميخائيل • تاريخ ظاهر العمر الزيداني ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ .

الصفدي ، أحمد الخالدي • تاريخ الامير فخر الدين ، نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ .

الطباخ ، محمد راغب • اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ، حلب ١٣٤٢ – ١٩٢٣/١٣٤٥ – ١٩٢٦ .

الظاهر ، سليمان • « صفحة من التاريخ الشامي لم يدون أكثرها » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٧ (١٩٤٢) ، ص ٤٤٥ – ٤٥٠ .

العزاوي ، عباس • تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ أجزاء ، بغداد ، ١٣٥٣ – ١٩٣٥/١٣٧٦ – ١٩٥٦ .

العش ، يوسف • فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية – التاريخ وملحقاته ، دمشق ، ١٩٤٧/١٣٦٦ .

العظم ، عبد القادر • الاسرة العظمية ، دمشق ، ١٩٦٠ .

العمري ، ياسين • منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، نشره سعيد الديوهجي ، الموصل ، ١٩٥٥ .

الغزي ، كامل • نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، حلب ، ١٣٤١ – ١٩٢٢/١٣٤٥ – ١٩٢٦ .

الغزي ، نجم الدين • الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، ٣ أجزاء ، نشرها جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ – ١٩٥٩ .

فرفور ، صالح • الدر المنثور على الضياء الموفور في أعيان بني فرفور ، دمشق ، ١٩٦٣ .

القاري ، رسلان • هذه أسماء الوزراء الذين حكموا في دمشق الشام من خلافة السلطان سليم من سنة ٩٢٢ هـ ، (يشير اليه المنجد باختصار في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، باسم « الوزراء الذين حكموا دمشق ») ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٤٧٧٢ ، نشره صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ .

القاسمي ، محمد سعيد • قاموس الصناعات الشامية ، الجزء الاول • وقد كتب جمال الدين القاسمي وخليل العظم الجزء الثاني من هذا المؤلف • نشر الجزئين ظافر القاسمي ، باريس ، ١٩٦٠ •

القدسي ، الياس • « نبـذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، كتبت في دمشــق في ١٢ آب ١٨٨٢ ، وقدمت للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ١٨٨٣ ، ونشرها Carlo Landberg ، مع مقدمة ، في :

Actes du Sixième Congrès International des Orientalistes, tenue en 1883 à Leide, Deuxième partie, Leide, 1885.

القساطلي ، نعمان • الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ، ١٨٧٩ •

كحالة ، عمر رضا • جغرافية شــبه جزيرة العرب ، دمشــق ، ١٩٤٤ •

» » » • معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء ، دمشق ، ١٣٦٨/١٩٤٩ •

كرد علي ، محمد • خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٣٤٣ ـ ١٣٤٧/١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ •

الكركوكلي ، رسول • دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس ، بيروت (؟) •

الكيواني ، أحمـد • ديوان ، دمشق ، ١٣٠١/١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ •

المحاسني ، اسماعيل • (له كناش في الخزانة التيمورية بالقاهرة ، رقم أدب ٦٧٧) ، نشر بعض أجزائه صــلاح الدين المنجد تحت عنوان : « صفحات في تاريخ دمشــق في القرن الحادي عشـر الهجري » ، في مجلـة معهــد المخطوطات العربيــة المصورة ، التابع لجامعة الــدول العربية في القاهرة ، مجلد ٦ (١٩٦٠) •

المحاسني ، سليمان • حلول التعب والآلام بوصــول أبي الذهب الى دمشق الشام ، نشره صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٦٢ •

المحبي ، محمد الامين • خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٨٦٩/١٢٨٤ (أعيد طبعه في بيروت ، ١٩٦٦) •

المرادي ، محمد خليل • سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (أعيد طبعه في بغداد ، ١٩٦٦) •

المعلوف ، عيسى اسكندر • « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني » ، مجلة المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) ، ص ٥٣٩ـ٥٦٠ •

» » » • تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ •

» » » • دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، لبنان ، ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ •

» » » • « قصر أسعد باشا العظم » ، مجلة المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) ، ص ٥ ــ ٢٦ •

» » » • « المرحوم جميل بك العظم » ، ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٤ (١٩٣٦) ، ص ٥٦ ــ ٦١ •

المنجد ، صلاح الدين • « حمامات دمشق « ، مجلة المشرق ، مجلد ٤١ (١٩٤٧) ، ص ٤٠١ ــ ٤٢٥ •

» » » • « قصر أسعد باشا العظم بدمشق » ، مجلة الأديب ، (ايلول ، ١٩٤٦) ، ص ٣٧ ــ ٤٤ •

» » » • المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت ، ١٩٦٤ •

» » » **(ناشر)** • كتاب وقف أسعد باشا العظم ، دمشق ، ١٩٥٣ •

» » » • ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ •

» » » • انظر : ابن جمعة ، محمد

» » » • انظر : ابن طولون ، محمد •

المنجد ، صلاح الدين • انظر : البوريني ، الحسن بن محمد •

» » » • انظر : القاري ، رسلان •

» » » • انظر : المحاسني ، اسماعيل •

» » » • انظر : المحاسني ، سليمان •

المنير ، حنانيا • الدر المرصوف في تاريخ الشوف ، نشره اغناطيوس سركيس ، مجلة المشرق ، المجلدات ٤٨ ــ ٥١ (١٩٥٤ ــ ١٩٥٧) •

ميكاكي ، رودلفو • طرابلس الغرب تحت أسرة القرمانلي ، نقله الى العربية طه فوزي ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ •

النمر ، احسان • تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، الجزء الاول، دمشق ، ١٩٣٨ •

يني ، جرجي • « ظاهر العمر » ، مجلة المقتطف ، مجلد ٢٨ ، ج ٤ ، (نيسان ١٩٠٣) •

WORKS IN FOREIGN LANGUAGES.

I. Archives.

1. Archives Nationales, Paris. (1)

a) Répertoire numérique de la Sous-Série B[1], Correspondance Consulaire — Lettres Reçues.

	Numéros des Volumes	Nombres des Volumes	Années (2)
Alep.	76	1	1630 - 1707
	....	..	....
	97	22	1787 - 1791
Alexandrette.	98	1	1696 - 1750
	99	2	1751 - 1778
Bagdad.	175	1	1742 - 1775
	....	..	....
	177	3	1787 - 1791
Le Caire.	313	1	1669 - 1698
	....	..	....
	336	24	1776 - 1781

١ ـ تعتبر الوثائق القنصلية الفرنسية (رقم B[1]) أهم المصادر من نوعها ، وتفيد كثيراً في كتابة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني ، وخاصة منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وذلك بسبب دقتها والتفاصيل السياسية التي تعطيها • وتوجد الوثائق القنصلية التي تتعلق بالفترة قبل سنة ١٧٩٣ في دار الوثائق الوطنية (Archives Nationales) في باريس • وقد صدر في تلك السنة قرار عن حكومة الثورة الفرنسية نقل مسؤولية الاشراف على القنصليات من وزير البحرية وغرفة تجارة مرسيليا الى وزير الخارجية الفرنسي • وعلى هذا ، فالوثائق القنصلية التي تعود الى الفترة بعد سنة ١٧٩٣ توجد في مقر وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay) ، في باريس •

٢ ـ يدل العدد الاول على رقم المجلد ، والعدد الثاني على اعداد المجلدات العائدة لقنصلية ما ، ويحتوي كل مجلد على وثائق السنوات المذكورة بجانبه • وتحاشياً للاطالة ، فقد ذكرنا فقط رقم وعدد وسنوات المجلدين الاول والاخير في كل قنصلية ، وتشير النقاط الى المجلدات بينهما • ويلاحظ أن أغلب الوثائق تتعلق بالقرن الثامن عشر حين ازداد اهتمام فرنسا بالتجارة مع بلاد الشام بسبب تشجيع كولبير (Colbert) ، وزير لويس الرابع عشر ، لذلك ، وأيضاً بسبب ازدياد قوة البورجوازية الفرنسية وبحثها عن الاسواق •

Constantinople.	376	1	1637 - 1675
	....	..	....
	448	73	1787 - 1790
Jerusalem.	628	1	1699 - 1717
St. Jean d'Acre.	978	1	1721 - 1755
	....	..	....
	981	4	1790 - 1791
Seyde.	1017	1	1645 - 1704
	....	..	....
	1041	25	1785 - 1790
Tripoli de Syrie.	1114	1	1667 - 1715
	....	..	....
	1124	11	1788 - 1792

b) Répertoire numérique de la Sous-Série B^{III}, Papiers de l'ancien bureau des consulats.

Levant et Barbarie.	33	1	1664 - 1682
	....	..	....
	122	90	1829 - 1830

c) Archives de la Marine B^{7}, Lettres Reçues. Mémoires et documents divers.

2. Public Record Office, London. (١)

a) S. P. (State Papers), 105. Archives of British Legations — Levant Company.

b) S. P. 110. Archives of British Legations (Supplementary) — Levant Company, Aleppo.

c) S. P. 97. General Correspondence — Turkey. This corresspondence is resumed in F. O. 78.

---

١ ـ معظم الوثائق الانكليزية التي تهمنا هنا والمحفوظة في دائرة الارشيف في لندن التي تسمى (Public Record Office) ، أي دائرة السجل العام ، صادرة عن ممثلي شركة بلاد المشرق (Levant Company) وخاصة من حلب حيث تركز نشاطها . ويعالج أغلب هذه الوثائق الشؤون التجارية والاقتصادية ، وهي بوجه عام ، أقل فائدة في معلوماتها عن التاريخ السياسي من الوثائق الفرنسية . وتعتبر تقارير قنصلية استانبول أكثر أهمية من تقارير القنصلية الانكليزية في حلب ، بالنسبة للتاريخ السياسي .

3. **Radcliffe Archives (Guildhall Library, London).** (1)

MS. No. 6645, 7 bundles (c. 1500 items), arranged by addresses and date of dispatch, covering the years 1702 - 1768.

II. Published works.

Ambrose, G. « English traders at Aleppo (1658-1756) », Economic History Review, III.2 (Oct., 1931), pp. 246-267.

Anderson, R.C. Naval Wars in the Levant, 1559-1853, Liverpool, 1952,

Arvieux, Laurant D'. Mémoires du Chevalier d'Arvieux, 6 vols., Paris, 1735.

Auriant, L. (pseud.). «Catherine II et l'Orient, 1770-1774», L'Acropole, V, (Paris, 1930), pp. 188-220.

Ayalon, D. Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London, 1956.

« « « The Plague and its effects upon the Mamluk army », Journal of the Royal Asiatic Society, (JRAS), April, 1946, pp. 67-73.

« « «Studies on the structure of the Mamluk Army» — I, II, III, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, (BSOAS), Vols. XV. 2 (1953), pp. 203-228; XV. 3 (1953), pp. 448-476; XVI. 1 (1954), pp. 57-90.

Ayn-i 'Ali, Kavanin-i al-i Osman, translated from Turkish into French by M. Belin in « Du Régimes des fiefs militaires », Journal Asiatique (JA), XV (1870), pp. 187-301.

Belin, M. «Du Régimes des fiefs militaires», (JA), XV, (1870), 187-301.

Bianchi, M. Itinéraire de Constantinople à la Mecque, (Extrait de l'ouvrage Turc intitulé Kitab Menassik El-Hadj), par Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

Bodman, Herbert L. Jr. Political Factions in Aleppo 1760-1826, The University of North Carolina Press, 1963.

Bowen, H. and Gibb, H.A.R. Islamic Society and the West, Vol. I, in 2 parts, London, 1951, 1957.

Braudel, F. La Mediterannée et le Monde méditerranéen a l'époque de Philippe II, Paris, 1949.

---

١ ـ تتألف هذه الوثائق من مراسلات التجار الانكليز في حلب وغيرها من المراكز التجارية في الشرق الادنى ، مع رؤسائهم في لندن .

Bruce, James. Travels to discover the sources of the Nile in the years, 1768-1773, 8 vols., 3rd ed. Edinburgh, 1831.

Cahen, Cl. « La Campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes », Byzantion, t. IX (1934), pp. 613-642.

Carruthers, Douglas, ed. The Desert route to India, London. 1929.

Charles-Roux, François. Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe Siècle, Paris, 1927.

« « « La Politique Française en Egypte à la fin du XVIIIe Siècle », Revue Historique, 91 (1906).

Choupet de l'île deFrance, M. «Nouveau voyage dans l'Arabie Hereuse en 1788», Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire, vol. X, Paris, 1810, pp. 154-180.

Creasy, E. History of the Ottoman Turks, reprinted by Khayats, Beirut, 1963.

Dussaud, René. Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale, Paris, 1927.

Ecochard, M. « Le Palais Azem de Damas », Gazette des Beaux-Arts, XIII, Paris, 1935, pp. 230-241.

Egmont, J.A. Van and Heyman, J. Travels through parts of Europe, Asia Minor ... Syria, Palestine, Egypt., 2 vols., translated from Dutch, London, 1759.

Encyclopaedia of Islam, 1st edition, 4 Vols., and Supplement, Leiden, 1913-1938; 2nd edition (proceeding), Leiden, 1954.

Evliya Efendi. Narrative of travels in Europe, Asia, and Africa in the 17th century, translated from Turkish and edited by Joseph Von Hammer - Purgstall, 1 Vol., in two parts, London, 1834, 1846.

Gaudefroy-Demombynes, M. Le Pèlerinage à la Mekke, Paris, 1923. (Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'Etudes, Vol. XXXIII).

Gibb, H.A.R. See Bowen, H.

Green, J. A Journey from Aleppo to Damascus in 1725, London, 1736,

Haddad, F. N. « Political parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni) », Journal of the Palestine Oriental Society, (JPOS) I. 4 (Oct. 1920), pp. 209-214.

Haddad George M. « The Historical work of Niqula El-Turk, 1763-1828 », Journal of the American Oriental Society, (JAOS) Vol. 81. No. 3. (Aug. - Sept. 1961), pp. 274-251.

Hammer-Purgstall, Joseph von. Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, traduite de la langue allemande par J.J. Hellert, 18 Vols., Paris, 1835-1843.

Hartmann, R. ed. Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun, Berlin, 1926.

Hasselquist, F. Voyages and Travels in the Levant, in the years 1749, ·50, ·51, ·52, London, 1766.

Heyd, Uriel. Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615, Oxford, 1960.

Heyman, J. See Egmont, J. A. van.

Hikmat, Muhammad ʻAli. Essai sur l'Histoire des Relations Politiques Irano-Ottomanes de 1722 à 1747, Paris, 1937.

Holt, P. M. « The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century », BSOAS, XXIV. 2 (1961) pp. 214-248.

« « « The career of Küçük Muhammad (1676-94) », BSOAS, XXVI. 2 (1963), pp. 269-287.

« « « The (Cloud-Catcher) : ʻAli Bey the Great of Egypt », History Today, London, IX. 1 (January, 1959), pp. 48-58.

« « Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922, London, 1966.

« « « The Exalted Lineage of Ridwan Bey : some observations on a seventeenth - century Mamluk genealogy ». BSOAS, XXII. 2 (1959), pp. 221-230.

« « « Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt », BSOAS, XXV. 1 (1962), pp. 38-51.

« « A Modern History of the Sudan, London, 1961.

« « and Lewis, B. edd. Historians of the Middle East, London, 1962.

Hourani, A. H. Arabic thought in the liberal age, 1798-1939, London, 1962.

« « A Vision of History, Beirut, 1961.

Inalcik, H. «Ottoman methods of conquest», Stvdia Islamica, II (1954), pp. 102-129.

Ismail, Adel. Histoire du Liban du XVIIe Siècle à Nos Jours, Vol. I : Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1633), Paris, 1955.

(Jesuites) Lettres édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Compagnie de Jésus, ed. C. Le Gobien, J. B. Du Halde, L. Patouillet, 34 vols., Paris, 1707-73.

Lammens, H. La Syrie : Prècis Historique, 2 vols., Beyrouth, 1921.

Laoust, H. Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1952.

Laurey, E. de et Sauvaget, J. « Le Palais Azem à Damas », La Revue de Paris, Paris, VI (Mars, 1926), pp. 443-448.

Levenq, G. La Première Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie, 1625-1774, Beyrouth, 1925.

Lewis, B. The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London, 1961.

« « « The Ottoman archives as a source for the history of the Arab lands », JRAS, (1951), pp. 139-155.

« « « Studies in the Ottoman Archives-I », BSOAS, XVI. 3 (1954), pp. 469-501.

« « and P. M. Holt, edd. See Holt, P. M.

Longrigg, S. Four Centuries of Modern Iraq, Oxford 1925.

Lucas, P. Voyage du Sieur Paul Lucas fait en 1714 par ordre de Louis XIV, 3 vols. Rouen, 1719.

Lusignan, S. A History of the revolt of ‘Ali Bey, London, 1783.

« « Letters addressed to Sir William Fordyce, 2 vols., London, 1788.

Mantran, R. et Sauvaget, J. Règlements Fiscaux Ottomans, Les Provinces Syriennes, (Institut Français de Damas), Beyrouth, 1951.

Mariti, Giovanni (Abbé). Travels through Cyprus, Syria, and Palestine, translated from Italian, 3 vols., London, 1791-2.

Marsigli, L. F. L'Etat militaire de l'Empire Ottoman, La Hague, 1732.

Masson, P. Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIIe Siècle, Paris, 1896.

« « Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIIIe Siècle, Paris, 1911.

Maundrell, H. The Travels of H. Maundrell from Aleppo to Jerusalem, published in The World Displayed, 3rd edition, Vol. XI, London, 1774 (reprinted by Khayats, Beirut, Lebanon, 1963, under the title: A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697).

Mingana, A. «List of the Turkish governors and high judges of Aleppo from the Ottoman Conquest to A. D. 1747», Bulletin of the John Rylands Library, (BJRL), X. 2. (July, 1926).

Minorsky, V. trans. and ed. Tadhkirat al-Muluk-a manual of Safawid administration (circa 1137/1725), London, 1943.

Muhammad Adib, see Bianchi, M.

Musil, Alois. The Northern Hegaz, New York, 1926.

Niebuhr, C. Travels through Arabia and other Countries in the East, trans. into English by R. Heron, 2 vols., Edinburgh, 1792.

d'Ohsson, M. Tableau général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824.

Otter, J. Voyage en Turquie et en Perse, 2 vols., Paris, 1748.

Paradis, Venture de. Alger au XVIIIe Siècle, ed. E. Fagnan, Alger, 1898.

Pearson, J. D. Index Islamicus, 1906-1955, Cambridge, 1958; Supplement, 1956-1960, Cambridge, 1962.

Perry, Charles. A view of the Levant, London, 1743.

Pococke, R. A Description of the East and some other Countries, 2 vols. London, 1939.

Porter, James. Observations on the religion, law, government, and manners of the Turks, 2nd ed., London, 1771.

« « Turkey, 2 vols., London, 1854.

Rabbath, A. Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient, 2 vols., 6 fascicles (Fasc. I-V, Paris, 1905-11: Fasc. VI, ed. F. Tournebize, Beyrouth, 1921).

Rafeq, A-K. The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966.

Raymond, A. « Essai de Géographie des Quartiers de Résidence Aristocratique au Caire au XVIII^ème^ Siècle », Journal of the Economic and Social History of the Orient, VI. 1 (1963), pp. 58-103.

« « « Une Révolution au Caire sous les Mamelouks : La crise de 1123/1711 », Annales islamologiques, t. VI (Le Caire, 1965), pp. 95-120.

Ricaut, (Sir Paul). Histoire de l'Empire Ottoman, trans. from English, 6 Vols., La Hague, 1709.

Rossi, E. « Due Lettere Di Dahir, Signore Di S. Giovani d'Acri al Gran Maestro Di Malta (1752) », Rivista Degli Studi Orientali, Vol. XIV, 1934, pp. 61-67.

Russell, A. The Natural History of Aleppo, 2 vols., 2nd ed., London, 1734.

Rycaut (Sir Paul). See Ricaut (Sir Paul).

Saint-Maure, C. de. Nouveau Voyage de Grèce, d'Egypte, de Palestine... fait en 1721, 1722 et 1723, La Hague, 1724.

Salibi, K. S. « Lebanon in Historical perspective », Middle East Forum, XXXIV. 3 (March, 1959), pp. 16-21.

« « Maronite Historians of the Lebanon, Beirut, 1959.

« « The Modern History of Lebanon, London, 1965.

Savory, R.M. « The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il I (907-930/1501-24) », BSOAS, XXIII. 1. (1960), pp. 91-105.

Sauvaget, J. Alep, Paris, 1941.

« « «Les Caravansérails Syriens du Hadjdj de Constantinople», Ars Islamica, IV, (1937), pp. 98-121.

« « « La Citadelle de Damas », SYRIA, XI (1930), pp. 59-90, 216-241.

« « « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », Revue des Etudes Islamiques, IV (1934), pp. 421-480.

« « Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, edité par Cl. Cahen, Paris, 1961.

« « Les Monuments Historiques de Damas, Beyrouth, 1932.

« « et Laurey, E. de ; voir Laurey, E. de.

« « et Mantran, R ; voir Mantran, R.

Seetzen, M. V. J. « Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus Arabes en Syrie », Annales des Voyages de la géographie et de l'histoire, VIII, (Paris, 1809), pp. 281-324.

Shaw, Stanford J. The Financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton 1962.

« « Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Harvard, 1964.

Shaw, Stanford J. Ottoman Egypt in the Eighteenth Century — The Nizamname-i Misir of Cezzar Ahmad Pasha, Harvard, 1962.

Shaw, Thomas. Travels or Observations relating to several parts of Barbary and the Levant, Oxford, 1738. Another edition is entitled Travels into Syria and the Holy Land, in The World Displayed Series, Vol. XI, London, 1774.

Shay, Mary L. The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana, 1944.

Svoronos, M.N. « Les Correspondances des Consuls de France comme source de l'histoire du Proche-Orient », Acts du XXIe Congrès International des Orientalistes, Paris, 1949.

Thévenot, Jean de. Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique, 5 Vols., Amsterdam, 1727.

Tresse, R. Le Pèlerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam, Paris, 1937.

Volney, C. F. Chasseboeuf, Comte de. Voyage en Egypte et en Syrie, ed. Jean Gaulmier, Paris, 1959.

Wiet, G. Chronique d'Egypte, 1798-1804, Le Caire, 1950.

Wittek, P. « De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople », Revue des Etudes Islamiques, (REI), 1938, pp. 1-34.

« « « Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum », Byzantion, t. XI (1936), pp. 285-319.

« « « Devshirme and Shari'a », BSOAS, XVII. 2 (1955) pp. 271-278.

« « «Les Gagaouzes — Les Gens de Kaykaus », Roeznik Orientalistyczny, t. XVII (1951-2), pp. 12-24.

« « The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938.

« « « Le Sultan de Rum », Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Mélanges Emile Boisacq, VI (1938), pp. 361-390.

« « « Fath Mubin », an article published with others in a booklet entitled : The Fall of Constantinople, a symposium held at the School of Oriental and African Studies (University of London), May, 1953.

Wood, Alfred C. A History of the Levant Company, London, 1935.

فهرس عام

ح

ز

س

ظ

ع

ك

ل

م

ن

هـ

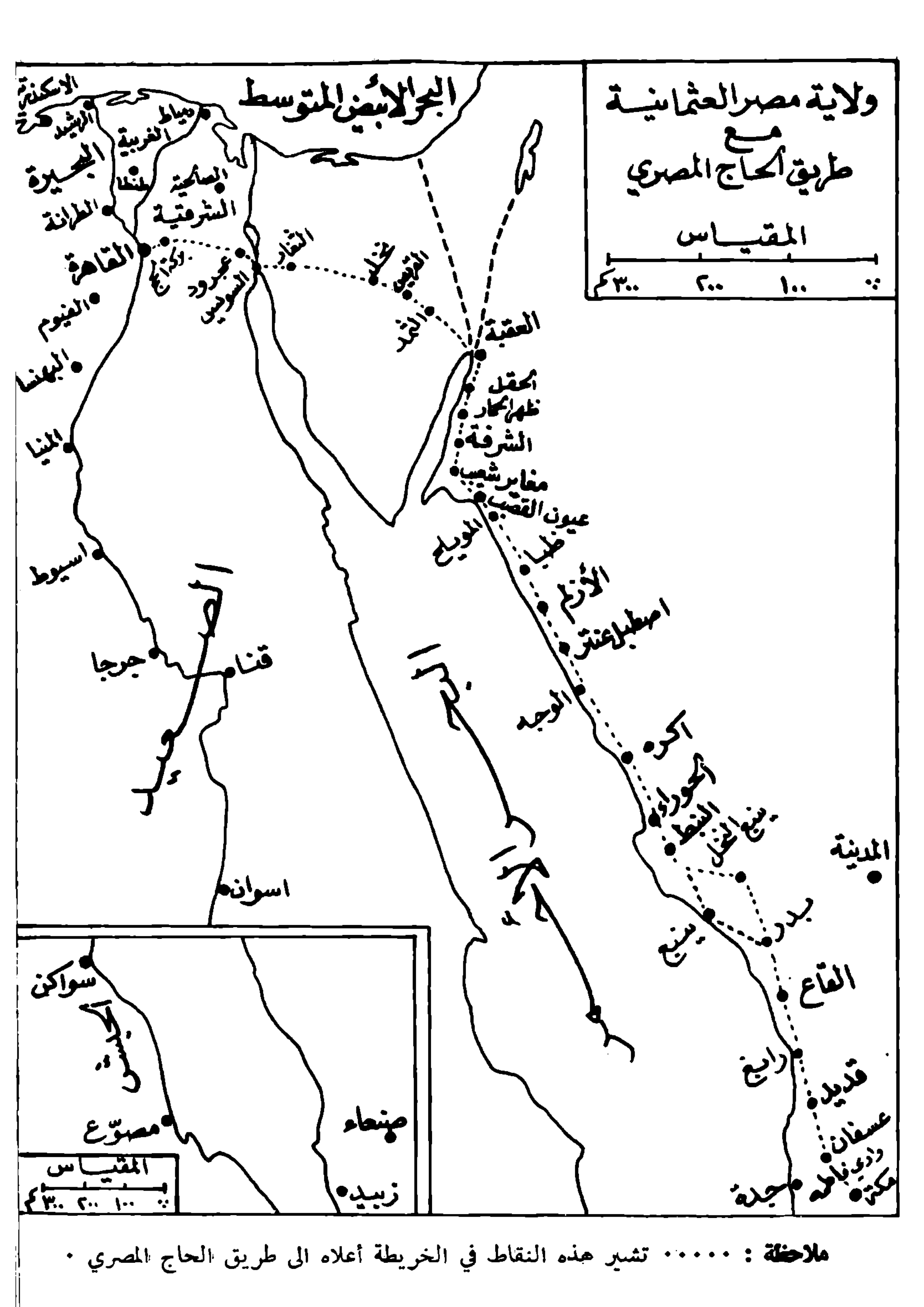
و

ي



الامبراطورية العثمانية
حتى مطلع
القرن السادس عشر
ميل ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٥
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
بحر ازوف
بحر إيجه
بحر الادرياتيك
خانات القرم
خانات اصطرخان
ازوف
القرم
القوقاز
الدنيبر
الدنيستر
البروت
مولداڤيا
ڤالاشيا
نيقوبوليس
الدانوب
كيلي
بلغراد
البو
صربيا
نيش
صوفيا
بلغاريا
ادرنه
روميليا
استانبول
وارنا
سالونيك
البانيا
تساليا
اثينا
الموره
سينوب
قسطموني
طرابزون
باطوم
جيورجيا
قارس
ارزروم
أرمينيا
بحيرة وان
اماسيا
سيواس
انقره
امارة عثمان
بروسه
قرهسي
صاروخان
ازمير
آيدين
منتشه
جرميان
آق شهر
قونيه
حميد
تكه
اضاليا
ملاطية
ألبستان
مرعش
أضنه
طرسوس
حلب
انطاكية
ديار بكر
دجلة
اورفا
الفرات
سوريه
رودس
كريت
قبرص
طرابلس
لبنان
غزه


الطريق السلطاني للحاج الشامي
١٥٠كم ١٢٠ ٩٠ ٦٠ ٣٠
عمان
اريحا
القدس
الكرك
قطرانة
الحسا
عنزة
الشوبك
البتراء
معان
العقبة
ظهر العقبة
المدورة
ذات حج
تبوك
الأخضر
تيما
المعظّم
دار الحمرا
مدائن صالح
العلا
بئر الزمرد
خليج العقبة



ملاحظة : ..... تشير هذه النقاط في الخريطة أعلاه الى طريق الحاج المصري .

ثبت الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الرابع :

بلاد الشام ومصر في فترة انحطاط الدولة العثمانية ٢٩٥

من الربع الأول للقرن الثامن عشر الى حملة نابليون بونابرت

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
والايـات	٧	١١	والايتي
طوئف	١٦	٣	طوائف
FUTWWA	٣٥	هامش ١ (س٦)	Futuwwa
ابن	٣٩	٢	بن
محي الدين ابن العربي	٤١	١١	محي الدين بن عربي
BSAOS	٤٢	هامش ١ (س٢)	BSOAS
١٨ جزء	٥٠	هامش ١ (س٤)	٨ أجزاء
ابن	٥١	١٣	بن
الصوافيين	٥٣	١٩	الصفويين
١١٣٠/١٧١٧ ـ ١٧١٨	»	هامش ٢ (س٢)	١١٢٠/١٧٠٩
المخطوط	٥٤	هامش ١ (س٣)	المصدر
ابن	٥٩	١٨	بن
الكوبرلي	٦٣	٢٠	الكوبريلي
الااهميـة	٦٤	١	الاهميـة
transalted	٦٦	هامش ٣ (س٢)	translated
لالتزام	٦٧	٢٣	الالتزام
Kiliç	٦٩	١٢	قليج (Kiliç)
يـدعي	٧٠	١٢	يدعى
الـدول	٧٤	٢٠	الدولة
ابن	٧٥	٨	بن
استدلهم	٧٨	٨	استبدالهم
بـلاد	٧٩	هامش ١ (س١)	بلاد الشام
ft.	٨٠	هامش ١ (س١)	ff.
1876	٨٤	هامش ١ (س٢)	1826
Alèp	»	هامش ١ (س٧)	Alep
الثانيـة	٩٥	٥	الثاني
انظر ص	٩٦	هامش ٥	انظر ص ٥٣
ابن	٩٩ ؛ ١٠٠	١٦ ؛ ١٦	بن
سـليم	١٠٢	٩	سليمة
صنـد	١٠٤	٣	صـفد
ابن	١٠٤ ؛ ١٠٧	٧ ؛ ١٧	بن
تليهـا	١٠٥	٢٠	تلتهـا
السـلطنة	١١٠	١٩	السلطة

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
ابن	١١١ ؛ ١١٢	١٢ ؛ ٢ ، ٨	بن
محمد	١١٢	٦	محمداً
جـ ١	»	هامش ٤	جـ ٢
ابن	١٣٥	١٤	بن
آغوات	١٤٧	٨	أغاوات
ابن	١٥٠	٦ ، ١٠	بن
(٥)	١٥٧	٧	(٢)
السلطنة	١٦٣	٧	السلطة
الثماني	١٦٤	هامش ١ (س٢)	العثماني
١٥٢٦/٩٣٣	١٦٥	١٤	١٥٢٦/٩٣٣ ـ ١٥٢٧
Eghypt	١٦٨	هامش ١	Egypt
حين	١٦٩	١٤	حيث
وتقف	١٧٠	١٥	وتوقف
ابن	١٧١	٤	بن
لروسيا	١٨٤	٢	للنمسا
ابن	١٨٨	١٦	بن
عبد اسلام	١٩٢	١٢	عبد السلام
السطنة	١٩٤	١	السلطنة
ابن	١٩٧	٨ ، ١٢	بن
1623	١٩٩	هامش ٢ (س٣)	1633
بلاد الشام	٢٠٦	١١	بلاد الشام الجنوبية
بن	٢١٤	١١	ابن
ساروجة	٢١٨	١	ساروجا
بن	٢١٩	١١ ، ١٢	ابن
تناقض	٢٢٤	١٢	تناقص
بنو معن	٢٣٤	١١	بنو صعب
ظاهر	٢٣٧	٤	ظاهراً
١٠٧١	٢٤٠	٣	١٠١٧
الطائفتين	٢٤٩	١	الطائعين
وآغواتهم	»	٢	واغاواتهم
كادولة	٢٦٨	١٢	كالغدولة
السطان	٢٦٩	٢٣	السلطان
الخزانة	٢٧٥	٥	الخزنة
ابي شنب	٢٨٥	٢٢	أبو شنب
الآغوات	٢٨٨	٤	الأغاوات
ايواظ بك	٢٩٠	١٩	ايواز بك
أغواتهم	٢٩١	٢٥	أغاواتهم

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
بن	٢٩٣	١٠، ١٥، ٢٠	ابن
القسم الثالث	٢٩٥	١	القسم الرابع
Paris, 1947	٢٩٨	هامش ١ (س٨)	Paris, 1937
بن	٣٠١ ؛ ٣٠٢	١٨ ؛ ٢١	ابن
الخلاصي	٣٠٣	هامش ١ (س٣)	خلوصي
Longgrig	٣٠٣	هامش ١ (س١٥)	Longrigg
القرماني	٣٠٤	١١	القرمانلي
ص ٢٣	٣٢٧	هامش ١ (س٧)	ص ٢٣٦
ولاية الشام	٣٢٨	١٣	ولاية مصر
سعيد سليمان	٣٣٠	١٧	سعيد السمان
بن	٣٣٤	٥	ابن
8163. we (II) 202	٣٥٧	هامش ٤ (س٢)	9832. We. (II) 417
ظاهر	٣٥٨	١٥	ظاهراً
٢٥٩	٣٦٤	هامش ٤	٣٥٩
The Pravince of Dimascus	٣٧٧	هامش ١ (س٢)	The Province of Damascus
استوالى	٣٧٨	١٨	استولى
انظر ص	٣٨٢	هامش ٢	انظر ص ٣٧٠
والكواكب	٤٣١	٧	والكوكب